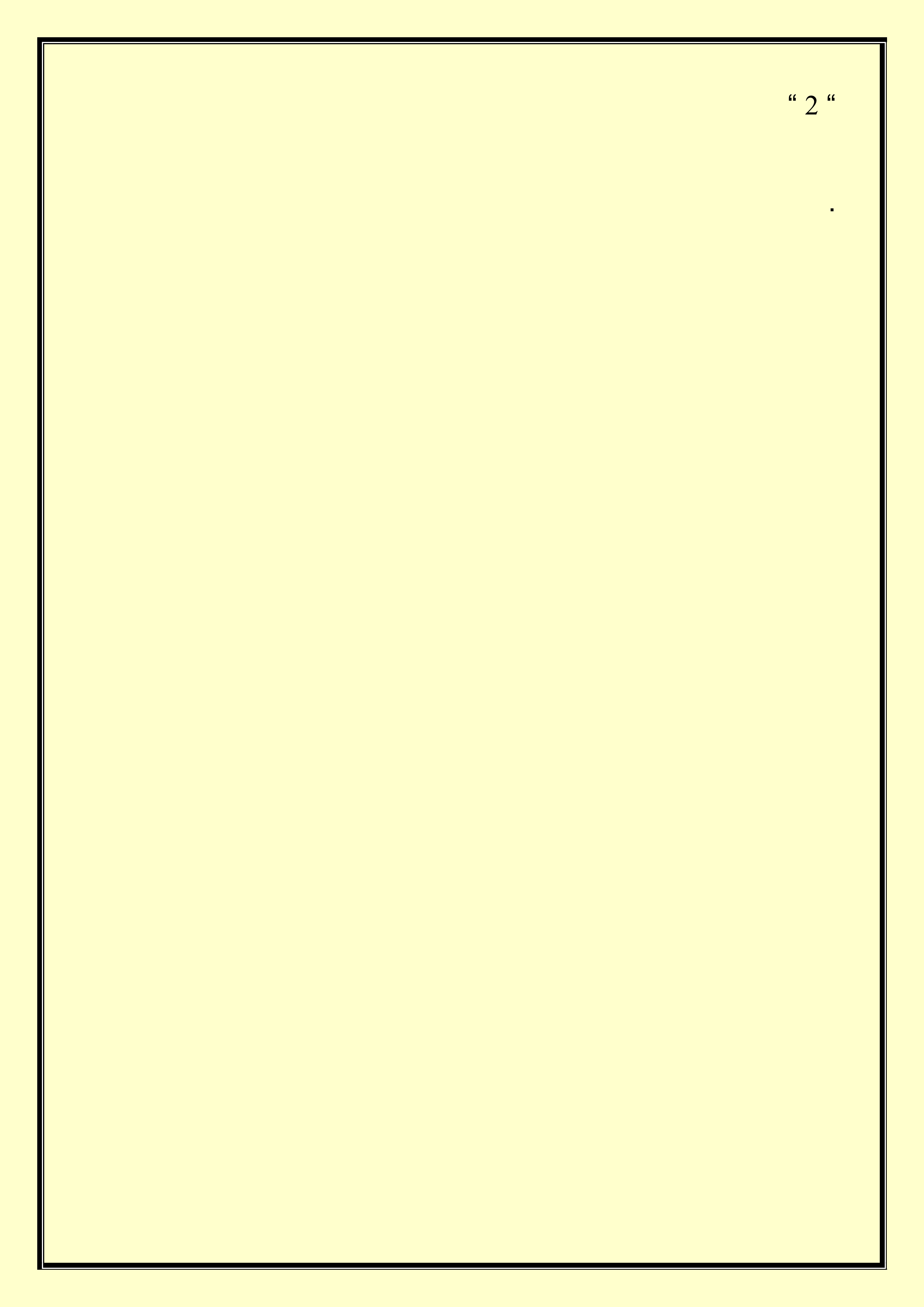
المثنوي المعنوي جلال الدين الرومي

الجزء الثاني

ترجمة وشرح

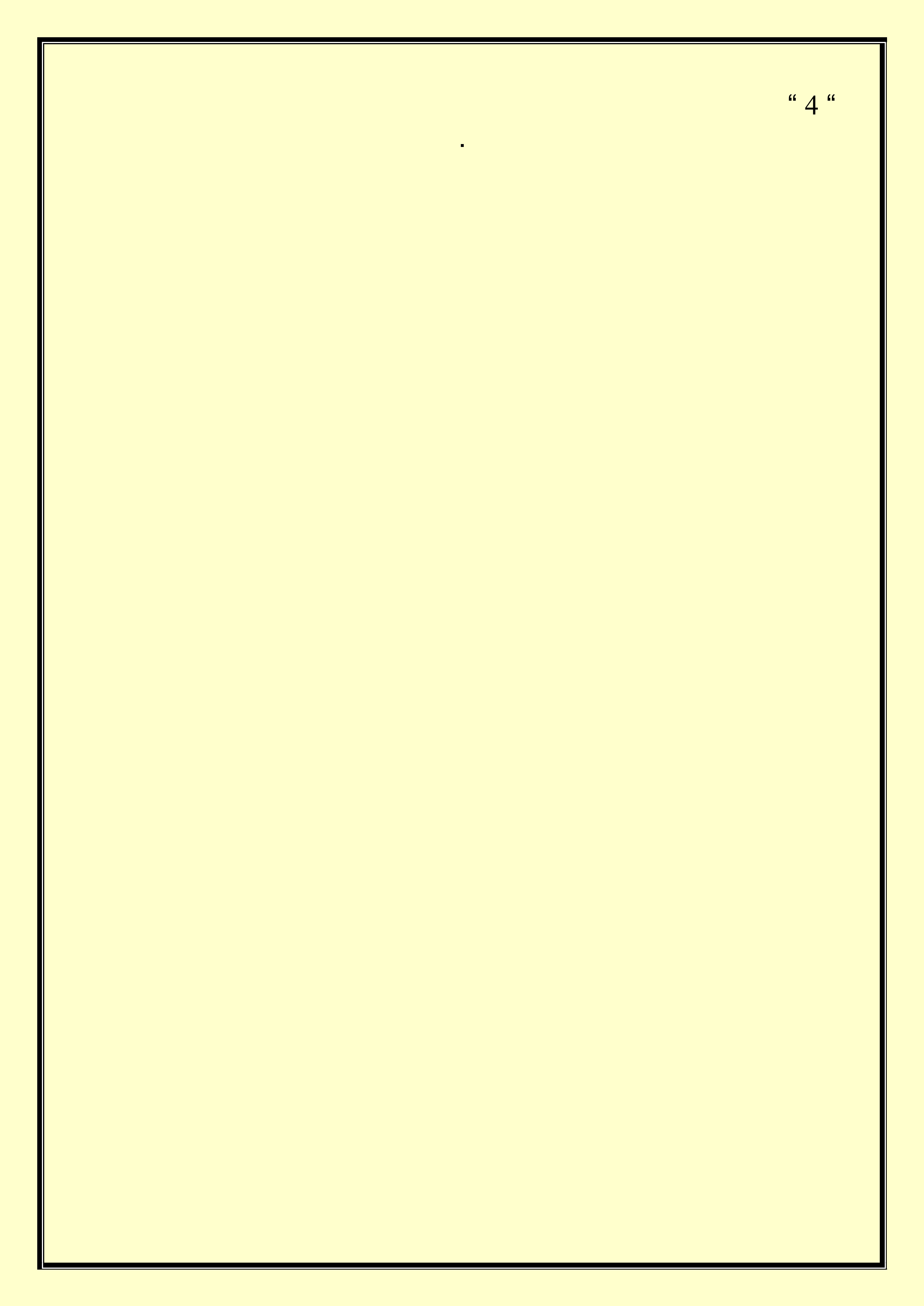
د. محمد الكفافي



.

الجزء الثاني
مقدمة الجزء الثاني

(مثنوي جلال الدين الرومي شَاعِرُ الصّوفيَّة الأكْبَر الكِتابُ الثاني ترجمَة وشرح وَدراسَة للدكتور محمّد عبد السّلام كفافي أستَاذ آداب الأمَم الإسْلاميَّة بجَامِعَة القَاهِرَة عَمِيد كُليّة الآدابْ بجَامِعَة بَيرُوت العَربيَّة المكتَبة العصْرَّية صَيدْا - بَيروت)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الأهداءُ

إلى ذكرى والدي عبد السلام كفافي 1890 - 1937 وشقيقي المهندس الشاب عصام كفافي 1935 – 1960

تصْدير

يسعدني أن أقدم إلى الباحثين والدارسين ، وإلى قراء العربية عامة الكتاب الثاني من المثنوى . وقد سلكت في اعداده ذات النهج الذي سلكته في الكتاب الأول ، فكتبت له مقدمة ، وأعددت له شروحا ودراسات ، وزودته بما يعين على ايضاح معالمه من الفهارس والكشافات .

وهذا نهج سآخذ نفسي به في بقية أقسام المثنوى ، إن شاء الله .

وكان هذا الكتاب قد قطع شوطا بعيدا في طباعته ، حين وقعت حوادث يونيو (حزيران) الأليمة ، وما تبعها من نكسة أصابت أمتنا العربية .

وأخذت كغيرى من المواطنين أتأمل أسباب ما أصابنا . والشدائد - حين تقع - توقظ الروح ، وتجعل الانسان أكثر احساسا بها ، وادراكا لجوهرها ، يحاول أن يسمع منها جوابا لما خفى عليه علمه .

وكنت أجد عند شاعرنا الحكيم - حين قيامي بمراجعة الكتاب في تلك الظروف - كثيرا مما يجيب على تساؤلى . وآمنت ايمانا لا يشوبه أي شك بأننا في أمس الحاجة إلى بناء روحي جديد ، يكون أساسا لكل بناء حضارى أو مادي نسعى إلى اقامته .

نحن في حاجة إلى شئ من التصوف البناء ، الذي يعيد الحياة إلى الروح العربي الأصيل ، ويكشف عن جوهره ما غشيه من غبار السنين .
حينذاك نبلغ القوة المنشودة ، ولا تعصف بنا مخاوف الحرمان من ترهات الترف الزائف . فمن التصوف أن يتغلب المرء على شهواته .
ومن التصوف أن يستهين المرء بالحياة في سبيل أسمى الأهداف . ومن التصوف أن يكون المرء مثاليا في ما يعتقد وما يقول وما يعمل . وكل أولئك ضروري لنا في موقفنا الحالي .
ان عودة الروح هي العودة الحقيقية التي تتبعها بالضرورة عودة الكرامة ، وعودة الأرض .
ولو نجح هذا الكتاب في أن يسرى عن محزون ، أو يعين متفكرا ، أو يوقظ ضميرا ، أو يبعث همة ، فقد نجح في أداء مهمة لا تقل مكانة عن مهمته العلمية ، والله هو الهادي والموفق .
محمد كفافي بيروت في 15 يوليو (تموز) سنة 1967

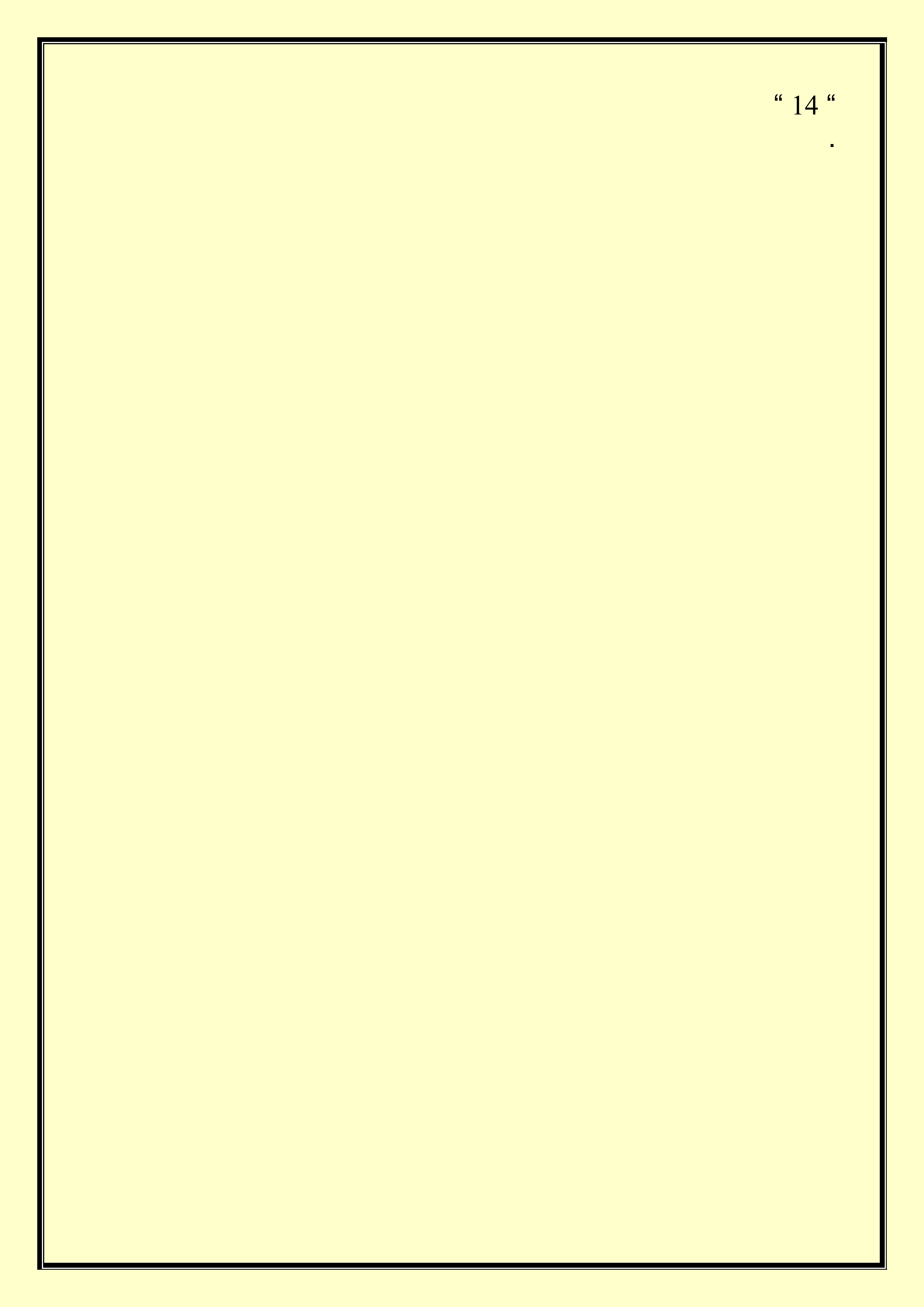
فهْرسُ المحُتوَيات

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة



.

المقَدّمة
القصّة وَالحوارُ فيْ المثنوي

يهدف هذا البحث إلى تقديم دراسة موجزة لفن القصة والحوار في المثنوى . ومما يجعلنا نبادر بتقديم هذه الدراسة على سواها أن المثنوى - في ظاهره - يدور حول مجموعة من القصص التي يرويها الشاعر ، ويبث من خلالها نظراته الصوفية وفلسفته الأخلاقية .
ومن المستطاع أن يُستخلص من كل قصة مضمونها الفكري أو الأخلاقي ، وإذ ذاك يتضح البناء الفكري للمثنوى ، ذلك البناء الذي أراد الشاعر أن يخفيه وراء هذه المجموعة من القصص ، وبهذا عبر عنه تعبيرا رمزيا ، وجعل عمله يدخل بجدارة واصالة ضمن نطاق الفن ، إلى جانب ما أسهم به من مضمون فكرى وأخلاقي نادر المثال .
ان جلال الدين قد أوتى مقدرة رائعة في الأداء القصصى ، وكذلك في صياغة الحوار . وقد استعان بهذه القصص في تصوير أفكاره وتقريبها إلى مستمعيه . لكنه لم يترك في ذهن المستمع أو القارئ أي شك في أن هذه القصص انما سيقت من أجل مضمونها الفكري أو الأخلاقي . ومن هنا لم يحرص الشاعر - برغم مقدرته في الأداء القصصى - على تماسك القصة ووحدتها ، بل كثيرا ما كان يوقف سرد القصة ليعلق على احدى

وقائعها ، ثم يعود من جديد فيستأنف رواية القصة . وربما توقف على النحو ذاته للمرة الثانية أو الثالثة ، كلما شعر بالحاجة إلى هذا التوقف ، للتعبير عن فكرة أو لتقرير معنى .
ومع ذلك فقد كان جمال الأداء دافعا إلى اهتمام الدارسين بقصص المثنوى ، فحاول بعضهم فصلها عما أحاط بها من تفصيل وتحليل وحكمة بثها الشاعر في ثناياها .
وممن فعل ذلك من الدارسين المحدثين المستشرقان نيكولسون وآربرى . فأما أو لهما فقد نشر مختارات من هذه القصص في كتابه . TALES OF MYSTICMEANINg(قصص ذات معنى صوفي) . وقد نشر في عام 1931 .
أما آربرى فقد نشر قصص المثنوى في مجلدين ظهرا بين عامي 1961 ، 1963 “ 1 “ ، وأدرجا ضمن مجموعة المؤلفات التي تنشرها هيئة اليونسكو للتعريف بآداب الأمم المختلفة .
UNESCO cOLLECTION OF REPRESENTATIv). EWORKS)وفي عام 1953 نشرت قصص المثنوى في إيران بعنوان : (بأنك ناى : داستانهاى مثنوى مولوى) . وقد قام بهذا العمل محمد على جمال زاده “ 2 “ .
لقد اشتمل المثنوى على نحو 275 قصة ، نجح الدارسون في رد كثير منها إلى أصول سابقة . وتتضمن حواشي نيكولسون ، ودراسة فروزانفر “ 3 “ ، وحواشي هذا الكتاب جهودا في هذا السبيل .
وما دمنا قد أشرنا إلى الأصل القديم لهذه القصص ، فلعلنا تنساءل ، من أي المصادر استمدها الشاعر ؟

....

ARBERRY : TALES FrOM ThE MASNAvI , LONDON , . (1)
1961 ARBERRY : MORE TALES FROM ThE MaSNavI ,
. 1953 ، طهران ، انجمن كتاب : من منشورات (2) .LONDON , 1963
(3) مآخذ قصص وتمثيلات مثنوى ، طهران ، 1954 .

لقد كانت مصادر الشاعر متعددة إلى أبعد الحدود . ويرجع تعدد هذه المصادر إلى تعدد المناسبات التي كان الشاعر يلجأ فيها إلى ايضاح أفكاره بالقصص والتمثيل .
ويمكننا أن نشير على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر ، إلى بعض هذه المصادر .
أول هذه المصادر بدون شك هو القرآن الكريم ، وقصص الأنبياء .
وقد كان الشاعر لا يتخذ أحد الرسل موضوعا لاحدى قصصه ، وانما يقتبس هذا الموقف أو ذاك من حياته ، ثم يصوغه في صورة قصصية ، ويستخرج بعد ذلك من الموقف ما شاء من فلسفة خلقية . فاختيار الموقف يُبنى - قبل كل شئ - على صلاحيته لا يضاح جانب من تفكير الشاعر . وقد يرد ذكر أحد الأنبياء في مواضع متفرقة ، وفي كل مرة يقص الشاعر حكاية مختلفة عنه . فاستخدام الشاعر لقصص الأنبياء يسير على نهج ما جاء في القرآن الكريم ، من ورود قصص الأنبياء في مواضع مختلفة من الكتاب الكريم . فموسى قد ورد في مواضع متعددة من المثنوى ، وكذلك سليمان وغيرهما من الرسل والأنبياء . وليس من الضروري أن يقتصر اقتباس الشاعر على ما ورد في القرآن عن هؤلاء الأنبياء .
وبعض هذه القصص يتعلق بطرف من سير كبار الصحابة أو الصوفية أو الزهاد .
وكان هناك معين لا ينضب لمثل هذه القصص ، اشتملت عليه كتب التصوف والوعظ التي حفل بها العالم الاسلامي قبل جلال الدين .
فنجد في مثل هذه القصص ما يتعلق بذى النون أو إبراهيم بن أدهم أو أو غيرهما من الصوفية .
وبعض قصصص المثنوى يتعلق بسير الملوك والخلفاء . وقد يعين الشاعر اسم الملك ، وقد لا يذكر شيئا عن شخصه ، وانما يقتصر على تعيين مكانه . وإلى جانب قصص الملوك هناك قصص الوزراء وغيرهم من ذوى السلطان .
ومن بين قصص المثنوى ما يتعلق بسيرة الحكماء أو الفلاسفة أو

الأطباء . ومنها ما يتعلق بالفقهاء والمتكلمين ، وبخاصة في معرض المحاورات التي يناقش فيها أساليبهم في الفكر والنظر .
ومن القصص ما يتعلق بالجواري والعبيد . ومنها ما هو مقتبس من كتاب كليلة ودمنة أو غيره من الكتب التي سارت على نهجه .
وكان للقصص الشعبي أيضا نصيبه في المثنوى حيث تناول الشاعر بأسلوبه بعض قصص ألف ليلة وليلة ، وبعض النوادر الشائعة على نطاق شعبى ، كنوادر جحا .
وكان بعض هذه القصص لا يعدو أن يكون مجرد رواية لاحدى المعجزات ، ووصفا للصورة التي تمت بها هذه المعجزة . وربما اكتملت رواية القصة في أبيات قليلة ، ثم يتخذ منها الشاعر تمثيلا لفكرة يتحدث عنها ، أو تجسيدا لفلسفة يريد ايضاحها .
ولقد كان لتنوع المصادر التي اقتبس الشاعر منها قصصه ، ولتعدد المواقف التي عالجها ، أثر كبير في ربط المثنوى بالحياة ، وبالمجتمع البشرى ، فأصبح ملحمة خالدة ، توفر لها من عناصر البقاء ما جعلها مرآة لكل عصر . فالغرائز البشرية ، والفضائل والمثالب ، والناس في أسمى صورهم وفي أحطها ، أو في أرفع درجاتهم وأدناها قد ظفروا بتصوير بارع ، جعل منهم نماذج وأنواعا تصدق أوصافها في كل عصر ، وتتحقق سماتها في كل زمان ومكان .
ولكن تناول جلال الدين لهذه القصص لم يكن مجرد رواية لها ، بل إنه أضفي عليها جدة ، وعبر عنها بأصالة ، فأصبحت القصص كأنها من صنعه .
ان المادة القديمة التي تناولها جلال الدين ، قد كسبت بفنه حياة جديدة ، وقوة أداء ، ووضعت في اطار لم يسبق لها أن وضعت فيه .
نذكر من ذلك على سبيل المثال قصة " معاوية والشيطان " . والأصل الذي يمكن أن تستند اليه هذه القصة نص صغير ورد في قصص الأنبياء للثعلبي على الوجه الآتي :

“ يروى أن رجلا كان يلعن إبليس كل يوم ألف مرة . فبينما هو ذات يوم نائم إذ أتاه شخص فأيقظه وقال : قم فان الجدارها هو يسقط .
فقال له : من أنت الذي أشفقت عليّ هذه الشفقة . فقال له : أنا إبليس .
فقال : كيف هذا وأنا ألعنك كل يوم ألف مرة . فقال : هذا لما علمت من محل الشهداء عند الله ، فخشيت أن تكون منهم فتنال معهم ما ينالون “ .
(عن قصص الأنبياء للثعلبي ، ص 36 . انظر أيضا : فروزانفر : مآخذ قصص ، 72 - 73) .
لقد عالج الشاعر هذه القصة في أبيات تبلغ المائتين تقريبا ، تكاد تكون ملحمة صغيرة ، اختار لها الأشخاص وصاغ لها حوارا رائعا . وقد أقام جلال الدين عمله على حوار بين معاوية بن أبي سفيان والشيطان .
يمثل معاوية المؤمن الذي يقاوم خداع الشيطان ، ويفلح في اكتشاف مكره بعد حوار طويل ، دافع فيه الشيطان عن نفسه ، وحاول أن يقدم تبريرا خلقيا لأعماله . ونلحظ هنا المقدرة الدرامية في اختيار الشخصية التي وضعها في مواجهة الشيطان . فاختيار معاوية لهذا الدور لم يكن لمجرد أنه واحد من الصحابة المؤمنين ، بل لما اتصف به من دهاء يجعله قادرا على متابعة الحوار مع الشيطان ، ويتيح القدر الضروري من الصراع الذي ينبغي توفره في مثل هذا العمل الفنى . وقد أتاح الشاعر للشيطان كل امكانات الدفاع عن النفس ، وأورد على لسانه كل ما يمكن من الحجج لتبرير موقفه ، ولم يصل به إلى موقف الهزيمة الا بعد أن أتاح له بيان أسباب سقوطه ومواقفه الأخلاقية .
ونحن نلمس كيف نجح الشاعر في صوغ الحوار ، وتصوير كل من طرفيه . ولن نستطيع هنا أن نورد كثيرا من نصوص هذا العمل الفنى ، ولا بد من الاكتفاء باقتباس قليل من أبياته .
تبدأ القصة في قصر معاوية ، حيث كان هذا الخليفة نائما ، والقصر موصد الأبواب ، فيوقظه رجل ، يعترف له بأنه إبليس . وحين يسأله معاوية عن السبب الذي دعاه إلى أن يقطع عليه سباته يجيبه إبليس بقوله :

“ ان ميقات الصلاة قد أو شك على الانتهاء ، فيجب عليك ان تهرع مسرعا إلى المسجد “ “ 1 “ .
حينذاك يردعه معاوية قائلا : ان الخير لا يكون من مقاصد الشيطان ، فيدافع الشيطان عن نفسه بقوله :
“ لقد كنت في بداية أمرى ملكا ، وما أكثر ما سلكت بالروح سبيل الطاعة ! لقد كنت أمين سر السالكين بهذا الطريق ، كما أنني كنت رفيقا لسكان العرش .
فكيف يخرج من قلب الانسان شغله الأول ، وكيف يفترق عن فؤاده أول حب ؟
وانك لو شهدت في سفرك بلاد الروم أو الختن ، فكيف يذهب من قلبك حب الوطن ؟
لقد كنت أنا أيضا من سكارى هذه الخمر ، وكنت في حضرته من العشاق ! وانني قد استقبلت الحياة على محبته ، كما أن عشقه كان قد غُرس في روحي .
ولقد لقيت من الزمان أياما طيبة ، كما أنني احتسيت مياه الرحمة ابان ربيعى ! ألم تكن يد فضله هي التي غرستنى ؟ أليس هو الذي قد أخرجني من العدم ؟
وما أكثر ما كنت قد شهدت من ألطافه ! ولكم تجولت في بستان رضاه ! انه كان يضع فوق رأسي يد رحمته . وكم كان يفيض ينابيع اللطف منى !

....
(1) المثنوى ، 2 : 2612 - 2792 .

وفي وقت طفولتى ، حينما كنت رضيعا ، من ذا الذي كان يهز مهدى ؟
انه هو ! وأيان كان لي حليب أحتسيه غير حليبه ؟ ومن ذا الذي رعانى غير تدبيره ؟
وكيف يمكن أن تفصل عن المرء تلك الخليقة التي دخلت كيانه مع الحليب ؟
فلئن كان بحر الكرم قد عاتبني ، فمتى كانت توصد أبواب كرمه ؟
فأصل نقده عطاء ولطف وسخاء ، وما القهر فوق أولئك الا كالغبار الذي يغشى النقد !
" وهكذا يمضى إبليس في الدفاع عن نفسه ، فيواجهه معاوية ، ويعدد له أفعاله القبيحة التي اقترفها خلال القرون ، وما أدت اليه من هلاك أصاب أجيالا من الناس .
يقول معاوية مخاطبا الشيطان :
" فأنت النار والنفط ، وانك لتحرق ، ولا حيلة لك في ذلك ! ومن ذا الذي لم تمزق يداك له ثيابه ؟
ان لعنة الله هي التي جعلتك تحرق ، وهي التي جعلتك أستاذا لكافة اللصوص .
لقد تحدثت إلى الله واستمعت منه وجها لوجه . فمن أكون أنا أمام مكرك أيها العدوّ !
" ويدافع إبليس عن نفسه بقوله :
" ألا فلتحل هذه العقدة ! انني أنا المحك للنقد الزائف والصحيح ! فالحق هو الذي جعلني فيصلا بين الأسد والكلب . والحق هو الذي جعلني فيصلا بين صحيح النقد وزائفه .
ومتى كنت أنا الذي جعل الزائف أسود الوجه ؟ انني أنا الصيرفي الذي حدد قيمته !

أنا الذي أظهر السبيل للطيبين ! وأنا الذي أستأصل ذابل الأغصان .
ومع أن الخير والشر مختلفان ، فإنهما مشتغلان بعمل واحد .
وكيف أجعل من الخيِّر شريرا ؟ انني لست الها ! ان أنا الا داع ، ولست خالقا لهما !
وهل أجعل من الجميل قبيحا ؟ انني لسب ربا ، وما أنا الا مرآة للقبح والجمال !
" وحين يصرّ معاوية على مقاومة خداع الشيطان ، ويبدي شكه في قوله ، يقول له إبليس :
" ان الرجل السيّء الظن لا يستمع إلى الصدق ، ولو كانت له مائة علامة ! فكل فؤاد أصبح متفكرا بالخيال يزداد خياله كلما أتيته بدليل ! فحينما يدخله الكلام يصير علة ، مثل سيف الغازي حين يصبح سلاحا للسارق ! فمثل هذا يُردّ عليه بالسكوت والسكون ، ذلك لأن التحدث إلى فاقد العقل جنون .
فلماذا تضرع إلى الحق منى أيها الغرّ ! اضرع اليه من شر تلك النفس اللئيمة ! فليس من ذنب إبليس ، بل من ذنبك - أيها الغويّ - أنك كالثعلب تعدو وراء أذناب الخراف الدسمة ! فلا تطرح اثمك فوقى ، ولا تبصر الأمور معكوسة ، فانى برئ من الشر والحرص والضغينة ! لقد اقترفت الاثم ولكنني الآن نادم ! وانى لمنتظر أن ينبثق من ليلى نهار ! " وهكذا يمضى الحوار ، ويصل إلى مداه ، ويعترف إبليس في نهاية الأمر بما انتواه من الخداع .

ولكننا نلمس كيف أتاح الشاعر لا بليس كل مجال للدفاع عن أفعاله وكيف جعله يقوم بدوره في الحوار على أكمل صورة .
فهذه الأسطر القليلة التي تمثل أصل القصة قد عبر عنها الشاعر بنحو مائتي بيت حوت كثيرا من الحوار الفكري ، وتو فرت لها مواقف درامية لم تكن موجودة فيها ، ودار حول وقائعها كثير من التحليل النفسي والفلسفة الأخلاقية .
وإلى جانب البناء الفنى الجديد يضيف الشاعر إلى القصة - في غالب الأحيان - تفسيرا جديدا ، ويعرضها من وجهة نظر ربما لم تكن خطرت على بال واضع القصة من قريب أو بعيد . ومن أمثلة ذلك قصة الأسد والذئب والثعلب ، حين اصطحبوا للصيد " 1 " فصادوا ثورا ووعلا وأرنبا . فأمر الأسد الذئب بتقسيم الصيد فأشار بأن يكون الثور نصيب الأسد وبأن يختص هو بالوعل ، أما الأرنب فهو نصيب الثعلب . وهنا قتل الأسد الذئب ثم أمر الثعلب باجراء القسمة ، فما كان منه الا أن قال :
أما الثور فهو لا فطارك أيها الملك ، وأما الوعل فلعشائك ، والأرنب لمنتصف النهار .
فلما أبدى الأسد اعجابه بقسمة الثعلب ، ورسأله عمن علمه مثل هذه القسمة ، قال : " رأس الذئب الطائح عن جسده " . فحين تناول الشاعر هذه القصة جعل لها مغزى رمزيا . فالاسد رمز الله ، والذئب رمز لانسان أحس لنفسه وجودا ذاتيا أمام الله فكان جزاؤه الهلاك . أما الثعلب فرمز لانسان لم يستشعر وجوده في حضرة الخالق ، فكان أن غمره الخالق بالهبات . فالأسد - حين قضى الثعلب له بكل الصيد - وهب الصيد كله للثعلب . وفي هذا تعبير رمزى عن المضمون الذي يفهمه الصوفية من قول الرسول : " من كان الله ، كان الله له " .
اما قتل الذئب على هذا النحو ، ونجاة الثعلب ، فقد تطرق الشاعر منه إلى الحديث عن معنى نجاة الأمة الاسلامية ، وهي ما عبر

....
(1) المثنوى ، 1 : 3013 وما يليه .

عنه الرسول بقوله : " أمتي هذه أمة مرحومة " . فالرحمة - كما يرى الشاعر - جاءت من أن الأمة الاسلامية ، ظهرت على مسرح التاريخ بعد غيرها من الأمم ، ورأت ما حاق بهذه الأمم القديمة لطغيانها وعصيانها ، فاتعظت بما رأت ، وكان هذا فضلا من الله ، ورحمة تحققت للمسلمين بوصفهم أمة خاتم النبيين .
وإذا أخرجنا المضمون الديني من تقديرنا لهذه القصة ، وقصرنا هذا التقدير على الجانب الفنى وحده ، فإننا نعجب بمقدرة الشاعر على وضع هذا المضمون في ثنايا قصة بسيطة ، قد تروى للأطفال في معرض الوعظ والتعليم .
هذا الاستخدام الأخلاقي للقصص ليس مما ابتدعه الشاعر فقد سبقه إلى ذلك كثير من الكتاب والشعراء . ولكن فنّ جلال الدين يتجلى في البناء الذي يقيمه على قصة صغيرة شائعة فيجعل منها عملا فنيا ناضجا . انه يجدد شكل القصة ، إذ يرويها بأسلوبه الخاص ، ويخلق لها المواقف الدرامية ، ويضع لها الحوار ، ثم يخلع عليها مضمونا جديدا ، بأن يفسرها على طريقته ، ويخرج منها بمفهومات ومبادئ جديدة ، لم تكن من قبل مرتبطه بها ولا مفهومة منها .
وينبغي ألا يغيب عنا ونحن ندرس الفن القصصى عند الشاعر أنه لم يكن يهدف اليه كغاية ، وانما كان يستخدم القصص كوسيلة لا يضاح آرائه وأفكاره . وكان هذا الأمر سببا في أن الشاعر استخدم المادة القصصية الشائعة من جهة ، وفي أنه لم يكن يسرد القصة كوحدة متماسكة ، بل كثيرا ما كان يصل إلى نقطة منها ، ثم يستطرد من هذه النقطة معلقا عليها ، مستخلصا الحكمة التي تنطوى عليها ، ثم يعود من بعد الاستطراد لرواية القصة . بل إن الظاهر أنه كان يتخذ القصة وسيلة لتشويق المستمع لمتابعة آرائه . وفي بعض الأحيان عبر عن ضيقه لأن المستمع ينشغل قلبه بحوادث القصة عن متابعة مغزاها .
ففي قصة " الصوفي والخادم والحمار " نراه يبدأ رواية القصة ، ثم

ينصرف عنها إلى ذكر أخلاق الصوفية . ويطول به الابتعاد عن القصة ، فيتوقف عن متابعة الموضوع الذي كان ماضيا فيه ثم يقول :
" استمع الآن إلى المانع الذي حدث ، فأصبح مدعاة للتوقف . ان قلب المستمع قد مضى إلى مكان آخر ! لقد اتجه خاطره إلى ذلك الصوفي المقيم ، وغرق في تلهفه على القصة حتى عنقه .
فوجب الآن أن نرجع من هذا المقال ، إلى تلك الحكاية لنصف وقائعها .
فاستمع الآن إلى صورة هذه الحكاية ، ولكن ، كن يقظا وافصل ما بها من قشر عن اللباب " " 1 " وعلى الرغم من هذا العيب في رواية القصص ، فقد استطاع الشاعر أن يبعث فيها حياة جديدة بما كان يخلقه لها من مواقف وبما كان يصوغه لها من حوار بارع .
بل إن الشاعر تناول بسخريته من يتمسكون بظاهر القصص ، كما سخر من المتمسكين بالمعاني الحرفية ، الذين يقفون عند ظاهر اللفظ ، ويغفلون عن حقيقة معناه ، وجوهر مفهومه . يقول :
(ولا تكن) كمن سمع بعض الأقاصيص ، فتمسك بحرفيتها تمسك " الشين " بلفظة " نقش " .
(قائلا) : كيف تكلَّم كليلة هذا بدون لسان ؟ وكيف استمع إلى كلام دمنة ، وقد كان ذلك عاجزا عن البيان ؟
وهب أن كلا منهما كان يفهم لحن الآخر ، فكيف استطاع البشر أن يفهموا هذا ، وهو ليس بنطق ! وكيف استطاع دمنة أن يكون رسولا بين الأسد والثور ، ويسمع كلا منهما بيانه ؟

....
(1) المثنوى ، 2 : 196 - 198 ، 202 .

وكيف صار ذلك الثور النبيل وزيرا للأسد ؟ وكيف صار القيل وجلا من خيال القمر ؟ ان كليلة ودمنة هذا كله افتراء ، والا فكيف وقع الجدال بين الغراب واللقلق ؟
يا أخي ! ان القصة مثل المكيال ، والمعنى فيها مثل الحب في المكيال .
فالرجل العاقل يأخذ حصاد المعنى ، ولا ينظر إلى المكيال ، وان كان (وسيلة) النقل .
فاستمع إلى ما يدور بين البلبل والوردة ، مع أنه ليس هناك كلام صريح ! استمع أيضا لما يدور بين الشمعة والفراشة ، واقتبس معناه ، أيها المليح .
فمع أنه ليس هناك قول مسموع ، فهناك سر القول ، فتنبه وحلق نحو القمم ، ولا تتهاو كالبومة في طيرانك ! لقد قال لاعب الشطرنج : " هذا بيت الرخ " ، فأجابه (المتمسك بالحرفية) : " ومن أين له هذا البيت ، وكيف امتلكه ؟ " " هل اشترى هذا البيت أم حصل عليه بالإرث ؟ " فما أسعد ذلك الرجل الذي يسارع إلى المعنى " 1 " !
ولقد تجلت عبقرية الشاعر في فن الحوار إلى حد بعيد . وكان الحوار في قصصه متنوعا بتنوع الموضوعات . فبينما كان في بعض القصص يتناول أعمق المسائل الفكرية ، كالجبر والاختيار ، والقضاء والقدر ، إذا به في مواقف أخرى يتناول الحياة العادية ومشكلاتها .

....
(1) المثنوى ، 2 : 3616 - 3628 .

ومن أحسن الأمثلة على هذا اللون الأخير قصة الأعرابي وزوجه " 1 " .
فالشاعر - في أغلب الظن - هو الذي أضاف إلى القصة شخصية المرأة ، ذلك لأن القصة في مصادرها الأخرى لا تذكر شيئا عن زوجة الأعرابي . وكان هناك صراع بين الأعرابي وزوجه ، وكاد هذا الصراع يؤدى إلى افتراقهما ، ثم نراهما في نهاية الامر يعودان إلى الوفاق .
تبدأ القصة والزوجة تزجر زوجها بسبب ركونه إلى حياة الفقر والمسكنة فتقول :
" اننا نعانى كل هذا الفقر والشقاء ، فجملة العالم سعداء وأما نحن فأشقياء .
وليس خبزنا خبزا فطعامنا الألم والحسد . وليس لنا كوز ، فماؤنا دمع أعيننا . ورداؤنا بالنهار حرارة الشمس ، وأما وسادنا ولحافنا بالليل فمن نور القمر . نظن قرص القمر قرصا من الخبز ، فنرفع أيدينا إلى السماء .
ان مسكنتنا عار للدراويش ، وما نهارنا وليلنا الا تفكر في الرزق . . . " " 2 " .
فيرد عليها زوجها بقوله :
" . . . إلى متى تنشدين الدخل والحصاد ؟ ما الذي بقي من عمرك ؟
ان أكثره قد مضى .
ان العاقل لا ينظر إلى الزيادة والنقصان ، لأن كليهما يمران كما يمر السيل (المندفع) . ففي هذا العالم آلاف من الأحياء ، يحيون حياة طيبة لا هبولا فيها ولا صعود . فالفاختة تترنم بشكر الله على الشجرة في حين أن قوت المساء غير مهيأ لها . والعندليب يحمد الله (قائلا) : أي مجيب (السائلين) ! ان اعتمادنا في الرزق عليك . . . " " 3 "

....

(1) المثنوى ، 1 : 2252 وما يليه .
(2) المصدر السابق ، 2253 - 2257 .
(3) المصدر السابق ، 2288 - 2293 .

ونرى الأعرابي بعد ذلك ينتقل من هذا الأسلوب الهادىء إلى أسلوب العتاب ، فيخاطبها بأسلوب يكاد يتفق ومستوى التفكير عند امرأة جاهلة حين يقول :
“ انك زوجتي ، والزوجة لا بد لها أن تنفق (مع الزوج) في الصفاء ، حتى تجيء الأمور وفق مصلحتهما .
فالزوجان يجب ان يكون كل منهما على مثال الآخر . ألا فتتأملى زوجين من الأحدية والنعال ! فلو أن واحذا من النعلين ضاق بقدمك ، فلا نفع لهذين النعلين عندك .
وهل بين مصراعي الباب واحد صغير ، وآخر كبير ؟ أم هل رأيت ذئبة اقترنت بأسد الغاب ؟ “ 1 “ وتزداد حدة الجدال بين الزوجين فتقول المرأة فيما تقول :
“ لا تحدثني بترهات من ادعائك ودعواك . اذهب ولا تخاطبني بكبر وغرور ! ان الكبر قبيح ولكنه من الشحاذين أقبح ! فكر الشحاذين كالثوب المبل في يوم بارد ممطر “ . “ 2 “ ويجيبها الرجل ، مظهرا غضبه ، ويهدد بترك منزله ، وهنا تهدأ المرأة ويسود الوئام من جديد .
ومن هذه الأبيات القلية التي ذكرناها يتضح كيف أن الشاعر كان قادرا على صياغة الحوار على مستوى الحياة اليومية ، وبأسلوب يبدو طبيعيا ملائما للموقف الذي أريد تصويره بهذا الحوار .
ومن القصص ذات الحوار الديني المؤثر قصة موسى والراعي “ 3 “ .
وهذه القصة تصور مدى رحمة الله ، التي وسعت كل شئ وتشير إلى

....

(1) المصدر السابق ، 2308 - 2311 .
(2) المصدر السابق ، 3316 .
(3) المثنوى ، 2 : 1720 وما يليه .

أن الرجل ينبغي عليه - مهما عظم شأنه - ألا يحتقر رأى سواه . وسننقل هنا أبياتا قليلة منها . تبدأ القصة على النحو التالي :
" رأى موسى راعيا على الطريق . وكان هذا الراعي يقول :
أيها الاله المختار ! أين أنت حتى أصبح خادما لك ، فاصلح نعليك ، وأمشط رأسك ، وأغسل ثيابك ، وأقتل ما بها من القمل . وأحمل الحليب إليك أيها العظيم ! وأقبل يدك ، وأمسح قدمك . وأهيىء لك المخدع حين يحل وقت المنام .
يا من فداؤك كل أغنامى ! ويا من لذكرك حنينى وهيامى ! وأخذ يردد هذا النمط من القول . ورآه موسى ، فناداه قائلا ، مع من تتحدث أيها الرجل ؟
فقال الراعي :
" مع ذلك الشخص الذي خلقنا . من ظهرت بقدرته هذه الأرض وتلك السماوات " .
حينذاك انبرى موسى معنفا هذا الرجل ، مبينا سفه قوله وضلال دعائه ، وخاطبه قائلا : " مع من تتحدث ؟ أمع العلم أو الخال ؟ وهل الجسم والحاجة من صفات رب الجلال ؟ ان الحليب يشربه من هو محتاج للزيادة والنماء . والنعل يلبسه مع من هو بحاجة إلى القدم . . . " ومضى موسى يحدث الراعي على هذا النحو حتى قال الراعي .
" يا موسى لقد ختمت على فمي . وها أنت ذا قد أحرقت بالندم روحي " . وإذا ذاك مزق الراعي ثيابه ، ثم انطلق مندفعا في غياهب البيداء حينذاك يهبط الوحي الإلهي على موسى فيخاطبه الله بقوله :
" انك أبعدت عنى واحدا من عبادي ! فما استطعت لاتخط خطوة نحو احداث الفراق ، فان أبغض الأشياء عنى هو الطلاق . لقد وضعت لكل انسان سيرة . ووهبت

كل رجل مصطلحا للتعبير ، يكون بالنسبة له مدحا ، وبالنسبة لك ذما .
ويكون في نظر شهدا ويظهر لك سما ! فأهل الهند لهم أسلوبهم في المدح . ولأهل السند كذلك أسلوبهم .
ولست أغدو طاهرا بتسبيحهم . بل هو بذلك متطهرون ناطقون بالدرر .
ولسنا ننظر إلى اللسان والقال ، بل اننا نظر إلى الباطن والحال .
فنظرنا انما هو لخشوع القلب حتى ولو جاء اللسان مجردا من الخشوع ! " .
حينذاك يندفع موسى إلى باطن الصحراء باحثا عن الراعي . ويزف اليه بشرى ما تلقاه من وحى ، ويطمئنه إلى أن كل ما نطق به مقبول عند الله .
" لا تنشد قط أية آداب ولا رسوم ، واهتف بكل ما يبتغيه قلبك الملتاع ! ان كفرك دين . ودينك نور للأرواح . انك لآمن ، والعالم بك في أمان " .
ولكن الشاعر لا يقف عند هذا الحد ، بل يجعل لموسى شيئا من الفضل على الراعي .
ويعبر الراعي عن امتنانه لموسى بقوله :
" يا موسى ! لقد جاوزت تلك الحال ! انني الآن سابح في دم القلب . لقد تجاوزت سدرة المنتهى ! وخطوت وراء ذلك الجانب مائة ألف من الأعوام ! لقد ضربت بسوطك حصانى فانطلق وصعد إلى قبة السماء ثم تجاوز الأفلاك ! " وتمضى القصة بعد ذلك إلى غايتها التي أراد الشاعر الوصول إليها . فمهما مدح الانسان الخالق وسبحه فأقواله بالنسبة إلى جلال الخالق لا تزيد عن أقوال هذا الراعي . ومهما بدت متفوقة في عبارتها على مثل تلك العبارات التي هفت بها الراعي ، فهي عاجزة أمام صفات الله .

ومما هو جدير بالذكر ان جلال الدين لم يحاب طائفة من الناس على حساب الأخرى .
بل قد صور الفضيلة حيث كانت ، والرذيلة حيث كانت .
فبعض الصوفية أو أدعياء التصوف قد ظفروا منه بالسخرية .
سخر من افتقاد بعض هؤلاء للأمانة ، كما يبدو ذلك في قصة الصوفية الذين باعوا حمار رفيقهم واشتروا بثمنه طعاما ، ثم أقاموا بعد ذلك حلقة للذكر . وسخر من شره بعض هؤلاء الصوفية ، وحرصهم المخجل على الطعام والمتع الحسية .
وقد ضمت بعض قصصه صورا ساخرة لمناذج مختلفة من بنى البشر . من أمثلة ذلك تصويره للمفلس الجشع الأكول " 1 " وفيه يقول :
" كان هناك رجل مفلس لا سكن له ولا دار ، فاستقر في سجن ، وقيد لا فكاك منه .
وكان يأكل طعام رفقائه في السجن جزافا . فكان بطمعه ثقيلا على قلوب الخلق ، كأنه جبل قاف .
فما كان أحد يجسر على أن يتناول لقمة ، ذلك لان هذا الملتهم كان ينقض عليها .
لقد داس هذا الرجل كل مروءة بقدميه ، وأصبح السجن جحيما من جراء هذا الجشع الأكول . فذهب أهل السجن يشكون أمرهم إلى وكيل القاضي وكان رجلا واسع الادراك .
قائلين : " لتحمل سلامنا الآن إلى القاضي ، ثم لتبلغنه تأذينا من هذا الرجل السافل .
فلقد أقام بالسجن على الدوام هذا الرجل المتلاف الشرة المضر .
وهو كالذبابة حاضر في كل طعام ، يتصدى متوقحا بدون دعوة أو سلام ! طعام ستين شخصا أمامه لا يعد شيئا . وهو يصطنع الصمم لو

....
(1) المثنوى ، 2 : 585 وما يليه .

قلت له " كفاك " . فليس يجد رجل من السجناء لقمه . وإذا استطاع بمائة حيلة ان يجد شيئا يأكله ، غشيه في الحال هذا الجهنمي الحلق .
وكل حجته ان الله أمر البشر بقوله : " كلوا " . فلتخلصنا من ذلك القحط الذي دام ثلاث سنين . وليدم الله ظل مولانا إلى الأبد . فاما أخرجت من السجن هذا الجاموس الأكول أو ، خصصت له مؤونة من أحد الأوقاف " فنرى هنا مقدرة الشاعر على تصوير الأشخاص الذين يدير حولهم قصصه .
ومهما يوجه من النقد إلى أسلوب جلال الدين في رواية القصص فإننا نجد أن هذه القصص التي يشتمل عليها المثنوى - لو جردت مما أحاط بها وتخلل حوادثها من استطرادات - يمكن ان تصبح اعمالا فنية متماسكة . وقد تجلى هذا بشئ من الوضوح في ترجمة الأستاذ آربرى لهذه القصص ، وهي التي سبقت الإشارة إليها في بداية هذا البحث .
ولم تقف عبقرية جلال الدين في الحوار عند حد القصة بل إنه - في كثير من المواقف التي يشرح فيها آراءه الصوفية - قد اتخذ الحوار أسلوبا لعرض هذه الآراء ، فازداد العرض بذلك قوة وتأثيرا .
وما أكثر المواقف التي أدار فيها الحوار بين الأفراد أو بين الأفكار . وما أكثر ما اتسم به هذا الحوار من براعة في الأداء ، وروعة في الصتوير وروح فكهة قلما تخون الشاعر في موقف يدعو إلى السخرية .
ان قصص الشاعر ومحاوراته كانت في روعة بيانها وجمال صورها فيضا من عبقرية هذا الشاعر الخالد ، أضفت على المثنوى جمالا ، وأشاعت فيه لونا من المتعة المبهجة ، إلى جانب ما حفل به من مواقف التأمل الجاد ، والحكمة الروحية ، والفنكر العميق .

المثنوى الكتاب الثاني

بسْم اللَّه الرَّحْمن الرَّحيم

مقدمة الكتاب

بيان طرف من الحكمة في تأخير المجلد الثاني

لو أن الحكمة الإلهية تكشفت للعبد بكاملها ، فان العبد في تأمله فوائد ذلك الكشف ، يقف ازاءه عاجزا وتدمر ادراكه حكمة الله التي لا حدود لها ، فلا يستطيع اكمال هذا العمل " 1 " . ولهذا فان الله تعالى يجذب عبده من أنفه بنفحة من حكمته التي لا حدّ لها ، ويقوده إلى ذلك العمل . ولو أن الله لم يكشف لعبده أي علم بتلك الفائدة فإنه لن يتحرك قط . فالعامل المحرك نوع من الرزق الانساني ، فنحن نقبل على عمل معين من أجل مصلحة معينة . ولو أن الحق أفاض على المرء كل حكمة ذلك العمل ما استطاع حراكا . فالجمل لا يتحرك ان لم يكن في

....

(1) يقصد المثنوى .

أنفه مقود (يجذبه) . فإن كان الرسن بالغ الكبر ، بقي نائما (ولم يتحرك) ." وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ "" 1 " .
ان التراب - بدون الماء - لا يتحول إلى لَبنات . وإذا زاد مقدار الماء فيه فهو أيضا لا يصير لبنات (قال تعالى) :" وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ "" 2 " فهو يعطى كل شئ بميزان ، وليس بدون حساب وميزان .
(ولا يصدق) هذا على الأشخاص الذين تحولوا عن علام الخلق ، وصاروا ممن (وصفهم الحق) بقوله :" وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ " *" 3 " .
ومن لم يذق لم يدر . ولقد سأل سائل . ما العشق ؟ فأجبت : " حين تصير مثلنا فسوف تعلم ! " .
ان العشق هو المحبة بدون حساب . فلقد قيل إنه صفة حقيقة لله ، وأما اتصاف العبد به فمن قبيل المجاز . فكلمة" يُحِبُّهُمْ "" 4 " يقين كامل ، وأما كلمة" يُحِبُّونَهُ "" 5 " ، فمن ذا الذي يصدق عليه هذا الوصف .

....

(1) سورة الحجر ، 15 : 21 .
(2) الرحمن ، 55 : 7 .
(3) البقرة ، 2 : 212 .
(4) " يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله يقولم يحبهم ويجبونه أذلة على المؤمنين أغرة على الكافرين " . (المائدة ، 5 : 54) .
(5) " يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله يقولم يحبهم ويجبونه أذلة على المؤمنين أغرة على الكافرين " . (المائدة ، 5 : 54) .

(المثنوى)
[المقدمة المنظومة]
1 لقد تأخر هذا المثنوى مدة من الزمان ، فلا بدّ من مهلة لكي يصير الدم حليبا صافيا .
فما لم يلد بختك طفلا جديدا ، فان الدم لا يصبح حليبا حلوا ، فكن حسن الانصاف !
(وهذا ما تحقق) حينما ثنى ضياء الحق حسام الدين عنانه عائدا من أوج السماء .
فهو ، إذ كان قد انطلق إلى معراج الحقائق لم تكن - بدون ربيعه - تتفتح البراعم .
5 فلما أقبل من البحر نحو الساحل ، أصبح قيثار شعر المثنوى قرينا للمزمار ! ان المثنوى الذي كان صيقل الأرواح صارت عودته يوم استفتاح .
وكان مطلع تاريخ هذه التجاورة وذلك الربح عام ستمائة واثنين وستين .
ان بلبلا قد انطلق من هنا ثم عاد ! ولقد أصبح بازا في اصطياد تلك المعاني .
فليكن ساعد الملك مسكنا لهذا الباز ! وليبق هذا الباب مفتوحا أمام الخلق حتى الأبد !

10 وما آفة هذا الباب الا الهوى والشهوة . والا فهناك مورد لا ينضب

من شراب الروح .
ان الفم والحلق هما الرباط الذي يحجب عن العين ذلك العالم الروحي .
فلتغلق هذا الفم حتى تراه عيانا .
أيها الفم ! انك فوهة الجحيهم ! أيتها الدنيا ! انك لشبيهة بالبرزخ ! والنور الخالد ملابس لهذه الدنيا ذات الشأن الوضيع ، فهو كالحليب يجرى (في الجسد) بجوار أوعية الدماء .
فإذا ما خطوت - نحو هذا (النور) - خطوة بدون احتياط ، صار حليبك دما من جرّاء هذا الاختلاط .

15 لقد خطا آدم خطوة واحدة وراء شهوة النفس ، فأصبح الزاما عليه أن يفارق صدر الجنان .
وأصبحت الملائكة تفرّ منه كأنما هو الشيطان ! وما أكثر ما سكب من الدمع لقاء لقمة ! فمع أن هذا الذنب الذي سعى اليه كان شعرة واحدة ، فقد نبتت هذا الشعرة في كلتا عينيه ! لقد كان آدم عين النور القديم ، والشعرة في العين تكون كالجبل العظيم .
فلو أن آدم شاور في ذلك ربه ، لما كان عليه - في ندامته - أن يلتزم التماس العذر .

20 فالعقل لو أصبح قرينا لعقل آخر ، كان هذا مانعاً لسوء القول وقبح الفعال .
أما لنفس فإنها إذا اقترنت بغيرها من النفوس تعطل العقل الجزئي وصار بلا عمل .
فالجأ إلى ظل رفيق مشرق كالشمس إذا أحسست باليأس في وحدتك وانفرادك .
اذهب ، وسارع إلى البحث عن هذا الرفيق الالهيّ . فإنك ان

فعلت ذلك أصبح الله عونا لك ورفيقا .
فذلك الذي قصر نظره على الخلوة ، (كان عليه) أن يتعلم من الرفيق في آخر الأمر .
25 الخلوة واجبة لتجنب الأغيار ، لا الأحباء . فالفراء يرتدى أثناء الشتاء وليس ابان الربيع .
ان العقل إذا أصبح متحدا مع عقل آخر ، زاد النور واتضح بذلك قصد السبيل .
أما النفس ، فهي ان غدت ضاحكة طربة مع غيرها من النفوس زادت بذلك الظلمات واختفت معالم الطريق .
ان الرفيق عينك أيها الرجل الصياد ، فاحفظه نظيفا من القذى ومن أقذار الطريق .
حذار ، ولا تثر الغبار بمكنسة اللسان ! ولا تحمل للعين هدية من تلك الأقذار .

30 فالمؤمن - حين يكون مرآة للمؤمن - يغدو وجهه آمنا من أىّ تلوّث .
والرفيق مرآة للروح في وقت الحزن ، فلا تنفث - أيها الروح - أنفاسك في وجه المرآة .
بل إن عينك في كل لحظة أن تبتلع أنفاسك حتى لا تحجب وجهك بتلك الأنفاس .
فهل أنت أقل (احساساً) من التربة ؟ فهذه حين وجدت من الربيع رفيقا تزينت بمائة ألف من النور والزهر ! وتلك الشجرة التي أصبحت مقترنة بالهواء الحلو تفتحت من رأسها إلى قدمها !

35 وفي الخريف - حينما رأت رفيق الخلاف - سحبت رأسها ووجهها تحت اللحاف !

وقالت : “ ان رفيق السوء مثير للفتنة ، فإذا ما جاء فسبيلى هو النوم .
فأنام وأكون من أصحاب الكهف . وان هؤلاء المحبوسين الخائفين لخير من دقيانوس .
فيقظة هؤلاء كانت مصروفة على دقيانوس ، وأما نومهم فكان ذخرا لشرف الروح !
ان النوم - حين يكون مع علم - فهو يقظة . وواهاً على اليقظ الذي جلس مع الجلاء .

40 فالغربان إذا ضربت خيامها فوق شهربهمن “ 1 “ صارت البلابل محتجبة ولزمت الصمت .
ذلك لأن البلبل - بدون بستان الورد - يكون صامتا . وان غيبة الشمس لساحبة لليقظة .
أيتها الشمس ! انك لتتركين هذا البستان ، وذلك لتنشرى الضياء فيما تحت الأرض من عوالم .
أما شمس الروح فليس لها انتقال . وما لها من مشرق غير الروح والعقل .
وبخاصة شمس الروح التي هي من ذلك الجانب ، فان دأبها الاشراق في النهار وأثناء الدجى !

45 فان كنت اسكندرىّ المشرب فتعال إلى مطلع الشمس ! وانك لمصبح بعد ذلك ملكا طاهرا حيثما ذهبت .
بل انك لمصبح موضع اشراق أينما توجهت ، وكل المشارق ستغدو عاشقة لمغربك .

....

(1) اسم لا حد شهور الشتاء في السنة ، الفارسية ، ويبدأ في 21 يناير (كانون الثاني) من السنة الميلادية .

ان حسك الخفاشى ينطلق مسرعا نحو المغرب ، أما حسك الذي ينثر الدرّ فمتوجه نحو المشرق .
فطريق الحس ، هو درب الحمير أيها الفارس ! فكن ذا حياء يا من أنت مزاحم للحمير ! فهناك حواس خمس غير هذه الحواس الخمس . فتلك مثل الذهب الأحمر وهذه مثل النحاس .

50 ففي تلك السوق - حيث المتعاملون مهرة أذكياء - متى يشترى الحس النحاسى كما يشترى الحس الذهبي ؟
ان حسّ الأبدان يقتات من الظلمة ، وأما حسّ الروح فيتغذى من الشمس ! فيا من حملت بضاعة الحس نحو الغيب ، أخرج يدك من جيبك كما فعل موسى ! ويا من تحليت بصفات شمس المعرفة ، في حين أن شمس السماء أسيرة صفة واحدة ، انك حينا تكون الشمس وحينا تكون البحر . وفي وقت أنت جبل قاف ، وفي وقت آخر أنت العنقاء !

55 ولست في ذاتك هذا ولا تلك ، يا من أنت فوق الأوهام ، وأكثر من الكثرة ! ان الروح رفيقة للعلم وللعقل ، ولكن ما شأن الروح بالعربية أو التركية ؟
فيا من لانقش لك مع تجليك في متعدّد الصور ! ان المشبه والموحد كليهما حائر الفكر ازاءك .
فحينا تجعل المشبه موحدا ، وحينا تقطع الصور الطريق أمام الموحد .
وحينا يهتف بك في سكره أبو الحسن : “ يا صغير السن يا رطب

البدن “ .

60 وحينا هو يعمل على تخريب صورته ، ويتخذ ذلك سبيلا إلى تنزيه الحبيب .
ان مذهب الاعتزال هو عين الحسن . وأما عين العقل فهي أن تكون سنّيا في الوصال .
فأهل الاعتزال مسخرون للحسن . وهم لضلالهم يتظاهرون باتباع السنِّة ! فكل من بقي أسير الحس فهو من المعزلة ، وان قال لك : “ انى سنى “ ، فهذا من جهله .
وأما من انطلق من اسار الحس فهو السنى . ان أهل “ الرؤية “ هم عين العقل ، وقد بوركت خطاهم .

65 فلو أن الحس الحيواني يرى الميك ، لكان الثور والحمار يبصران الله ! ولو لم يكن لك خارج الهواء حس آخر ، غير هذا الحس الحيواني ، فأنى تكون الكرامة لبنى الانسان ؟ ومتى يكونون بالحس المشترك موضعا للأسرار .
ان قولك بأن الله مصوّر أو غير مصوّر ، يكون باطلا ، ما لم يحقق خلاصك من الصورة .
انه غير مصور أو مصور أمام ذلك الانسان الذي انطلق من القشر وأضحى كله لبا .

70 فان كنت أعمى فليس على الأعمى حرج . والا فامض ، فان الصبر مفتاح الفرج .
فالصبر هو الدواء لحجب العين . فهو الذي يحرق تلك الحجب ، وهو الذي يحدث انشراح الصدر .
وحين تصير مرآة القلب صافية نقية ، فإنك ترى نقوشا خارج هذا

الماء والتراب ! انك لتبصر النقش ، وكذلك النقاش ! وتشاهد فرش الدولة ، وباسط هذا الفراش ! ها هوذا خيال حبيبي قد أقبل مثل الخليل ! انه فاتن الصورة كالصنم ولكن معناه . محطم الأصنام .

75 فالشكر لله ، فإنه حينما تبدى لي ، أبصرت روحي صورتها في صورته .
ان تراب أعتاب كان فتنة لقلبى ، فليجلل التراب كل من تسلى عن ترابك .
لقد قلت لنفسي : " لو أنني مليح الصورة فانى أتقبل هذا منه ، والا فإنه يهزأ منى ، أنا القبيح الوجه ! فسبيلى هو أن أنظر إلى نفسي (لأرى صورتها) والا فإنه يسخر منى . فأنى لي أن أشترى ؟ " 1 " .
انه جميل ، محب للجمال . فهل يختار الشاب الفتى شيخة بالغة الهرم ؟

80 ان الجميل يجتذب الجميل ، فاعلم ذلك . وأتل عليه قوله تعالى :" الطَّيِّباتُ للطَّيِّبينَ "" 2 " .
فكل شئ في هذه الدنيا يجتذب اليه شيئا . فالحارّ يجتذب الحارّ والبارد يجتذب البارد .
وأهل الباطل يجتذب أهل الباطل . وأما أهل الخلود فهم سعداء مع الخالدين .

....

(1) كيف يتسنى لي أن اشترى رضاه عنى مع أنني أتقدم اليه بنفس قبيحة .
(2) انظر : سورة النور ، 24 : 25 .

ومن كانوا من أهل النار فهم جاذبون لنظرائهم . وأما من كانوا من أهل النور فهم طالبون لأمثالهم .
انك حين أغلقت عينيك تولاك الحزن ، ومتى كان نور العين يصبر عن نور النافذة ؟

85 فما حزنك الا من اندفاع نور عينيك الذي يطلب الاتحاد العاجل بنور النهار .
فإذا تولاك الحزن وأنت مفتوح العينين ، فاعلم أنك أغلقت عيني قلبك وافتحهما ! ان هذا ما تتفاضاك إياه عينا قلبك لا نهما تلتمسان نورا لا حدود له .
فإذا كان فراق هذين النورين الفانيين قد أصابك بالحزن ففتحت عينيك ، فان فراق هذين النورين الخالدين (لا محالة) جالب لك الحزن ، فكن على حذر !

90 وهو حين يناديني أنظر إلى نفسي ، (لأرى) أأنا لائق بالانجذاب اليه ، أم أنني قبيح الصورة ؟
فلو أن لطيفا مشى في اثره قبيح يكون من السخرية أن هذا يصحب ذاك .
فواعجبا ، متى أرى وجه نفسي ؟ لأعرف لونى أهو مثل النهار أو هو مثل اليلل ! ولقد بحثت كثيرا عن صورة روحي ، فلم يستطع انسان قط أن يبدي لي هذه الصورة !
فقلت : " ما آخر هذا ؟ ولأي أمر كانت المرآة ؟ " انها لكي يعرف كل انسان حقيقة حاله وكنه ذاته .

95 ومرآة الحديد ليست الا لاظهار القشور . وأما مرآه ملامح الروح

فغالية الثمن .
وما مرآة الروح الا وجه صديق ! وجه ذلك الصديق الذي يكون من تلك الديار .
فقلت : " أيها القلب ! انشد المرآة الكلية . ولتذهب إلى البحر ، فليس هذا الأمر بمتحقق من النهر " .
فمن أجل هذا الطلب جاء العبد إلى حادتك فالألم هو الذي اجتذب مريم إلى جذع النخلة .
وحينما أصبحت عينك عينا لقلبى ، صار هذا القلب الأعمى غريقا في الرؤى .

100 لقد رأيتك المرآة الكلية حتى الأَّبد ، وأبصرت في عينيك صورة نفسي .
فقلت : " لقد وجدت نفسي آخر الأمر ! لقد وجدت في عينيه طريق النور ! " فقال وهمى : " ان هذا خيالك فتنبه ! ولتعلمن حقيقة ذاتك من خيالها " .
فهتفت صورتي من عينك قائلة : " انني أنت ، وأنت أنا (يجمعنا) اتحاد ! ففي هذه العين المنيرة الخالدة ، أنى للخيال أن يجد سبيله بين الحائق .

105 فان أنت أبصرت صورتك في عيني غيرى ، فاعلم أن تلك من الخيال ، وأعرض عنها ! فهاتان تكتحلان بكحل العدم ، وتحتسيان خمرا من تصوير الشيطان فعيون سواي منزل الخيال والعدم . فلا جرم أنها تبصر العدم وجودا ! وأما عيني فاتها قد اكتحلت بنور من ذي الجلال ، ولهذا فهي

منزل الوجود وليست مستقر الخيال .
وما دامت شعرة واحدة ، منك تعترض سبيل ابصارك فان الجوهر يكون في خيالك مثل الخرز .

110 ولسوف تعلم كيف تميز الجوهر من الخرز حينما يتحقق لك خلاص كلى من الأوهام .
فاستمع إلى تلك الحكاية - أيها العارف بالجوهر - فيها تميز العيان من القياس .

كيف توهم ذلك الشخص رؤية الهلال في عهد عمر رضي الله عنه

حلّ شهر الصوم في عهد عمر ، فهرع جماعة إلى قمة أحد التلال ، ليتفاءلوا برؤية الهلال الظاهر . فقال واحد منهم : " يا عمر ! هاك الهلال " .
فحين لم ير عمر الهلال على السماء قال : " ان هذا الهلال قد ظهر في خيالك !

115 والا فأنا أقدر منك على رؤية الأفلاك ، فكيف لا أرى الهلال الطاهر ؟
قُبلّ يدك ، وامسح بها على حاجبك ثم انظر - بعد ذلك - إلى الهلال ! " .
فحينما بلل حاجبه لم ير الهلال فقال : " أيها الملك ! ليس هناك هلال ! لقد اختفى ! " .
فقال عمر : " نعم ! ان شعرة من حاجبك قد تقوّست ، فسدّدت إليك سهما من الظن !
" فحينما اعوجت شعرة سدت أمامه الطريق ، فاخذ يتشدّق بالقول ،

120 فإذا كانت شعرة معوجة تصبح حجابا للفلك ، فيكف يكون الحال لو اعوجت كل أعضائك ؟
فلتقوم أعضاءك باقتدائك بأهل الاستقامة ولا تحوّل رأسك يا طالب الاستقامة عن أعتاب هؤلاء .
فكفة الميزان يكون لها ما يوازنها ، وكذلك يكون لها ما يخل بتوازنها .
فكل من أصبح متوازنا مع المعوجين ، فقد وقع في النقصان ، وصار عقله مشوش الادراك .
فاذهب ، وكن بالغ الشدة مع الكفار ، واحت التراب على التعلق بالأغيار .

125 ولتكن مثل السيف على رؤوس الأغيار . كن أسدا وحذار من أن تلعب لعب الثعالب ! حتى لا تدفع الغيرة أحباءك إلى الانقطاع ذلك لأن تلك الأشواك عدوّ لهذه الورود .
ولتشعل النار بالذئاب كما تشعلها بالبخور ! ان تلك الذئاب لهى أعداء يوسف .
وان إبليس ليخاطبك بقوله : " يا روح أبيك ! " حتى يخدعك بالقول هذا الشيطان اللعين فاحذره ! فلقد موّه على أبيك بمثل هذا الخداع . ان هذا الشيطان الأسود الوجه قد أهلك آدم " 1 " .

....
(1) في هذا البيت إشارة إلى لعبة الشطرنج فكلمة " سيه رخ " التي يشير بها إلى الشيطان معناها ، " اسود الوجه " ، كما أن الرخ أيضا قطعة من قطع الشطرنج . وأما القضاء على آدم فقد عبر عنه بقوله " مات كرد " وهو الصطلاح في الفارسية يدل على موت الملك في لعبة الشطرنج . والبيت التالي يزيد المعنى وضوحا .

130 فهذا الغراب ملاعب بارع أمام الشطرنج ، فلا تنظر إلى اللعب بعين مثقلة بالنعاس .
ذلك لأنه يعرف كثيرا من الألعاب البارعة ، التي تلعق بحلقك وكأنها القش أو القذى .
وان قذاه ليبقى في الحلق سنين . فما هذا القوى ؟ انه حبّ الجاه والأموال .
ان المال كالقذى - يا عديم الثبات ؟ وطالما هو في حقك ، فهو مانع ماء الحياة .
فلو سرق مالك عدوّ بارع الحيلة ، فانّ قاطع طريق يكون قد اختطف قاطع طريق !

كيف سرق المشعوذ حية من مشعوذ آخر

135 ان لصا حقيرا سرق حية من أحدا المشعوذين . وكان لبلاهته يحسب أنها غنيمة ! فخلص ذلك المشعوذ من عضة الحية ، على حين أن الحية قتلت سارقها على أشنع صورة .
ور آه المشعوذ فعرفه ، وقال : “ ان حيتى هي التي أخلته من الروح ! لقد كانت روحي تطلب في ضراعتها أن أجده ، وأخذ الحية منه ! فالشكر الله أن هذا الدعاء لم يستجب ! لقد ظننت ذلك ضرّا فإذا به قد غدا نفعا وخيرا !

140 فكم من دعاء يكون مضرة وهلاكا ، فيحول دون اجابته كرم الله “ 1 “ .

....

(1) حرفيا : “ والاله الطاهر - لكرمه - لا يستمع اليه “ .

كيف التمس رفيق عيسى منه احياء العظام

رافق أحد البله عيسى على الطريق ، فرأى هيكلا عظيما في جبّ عميق .
فقال : “ يا رفيق الاسم السنىّ الذي به تبث الحياة في الموتى ! علمني حتى أصنع الاحسان ، وأجعل تلك العظام - بهذا الاسم - ذات روح ! “ فقال عيسى : “ اسكت فليس هذا من عملك ولا هو لائق بأنفاسك ولا يقولك !

145 فمثل هذا يحتاج إلى نفس أنقى من المطر ، وإلى سلوك أكثر ادراكا من سلوك الملائكة ! فلا بدّ من مرور أعمار لتصبح الأنفاس نقية ، وليصبح الانسان أمين خزانة الأفلاك ! فهب أنك أمسكت بيمينك هذه العصا فمن أين ليمينك ما كان ليمين موسى ؟
“ فقال الأبله : “ فإذا لم أكن أنا ناطقا بالأسرار ، وفاتل أنت الاسم العظام ! “ فقال عيسى : “ يا الهى ! ما هذه الأسرار ؟ وما ميل هذا الأبله إلى ذلك العناء “ 1 “ ؟

150 كيف لا يغتم لنفسه هذا المريض ؟ وكيف لا يحزن على روحه هذا الميت ؟
لقد تخلى عن روحه التي عراها الموت ، وسعى إلى احياء نفس سواه ! “

....
(1) ترجمنا البيت على أساس قراءة “ درين بيكار . . . “

فقال الحق : “ انه مدُبر يبحث عن الادبار ! فلا جزاء لزرعه سوى نبات الشوك !
“ وكل من بذر بذور الشوك في هذه الدينا ، فحذار ثم حذار أن تبحث عنه في حديقة الورد .
انه لو أمسك بيده وردة صارت شوكة ! وان هو توجه نحو صديق صار الصديق ثعبانا !

155 فذلك الشقىّ هو كيمياء السم والحية ! وتلك مختلفة عن كيمياء المتقى .

كيف أوصى الصوفي الخادم بان يعنى بالبهيمة
وكيف أجاب الخادم بقوله : “ لا حول ولا قوة الا بالله “

[بيان أصل الحكاية]
لقد دار صوفىّ حول الأفق . وذات ليلة نزل في احدى الزوايا .
وكان معه حمار فربطه في الحظيرة ، ثم جلس مع الرفقاء في صدر الصفة .
فأصبح مع رفقائه مراقبا . وان حضور الرفيق لدفتر بل أكثر من ذلك .
فليس دفترالصوفيّ هو السواد والحرف . فما دفتره الا قلب أبيض مثل الثلج .

160 ان زاد العالم آثار القلم . فما زاد الصوفىّ ؟ انه آثار القدم ! فهو كصياد توجه إلى الصيد ، فأبصر آثارا لخطى غزال فاقتفاها .
ولقد ظلت آثار الغزال لائقة به بعض الوقت ، ثم أصبحت نافجة الغزال ذاتها مرشده على الطريق .
ولما كان قد شكر الخطى ، وانطلق على الطريق ، فان هذه الخطى

- لا جرم - هي التي أوصلته إلى الرغاب .
وان مسيرة منزل واحد على رائحة النافجة لأعظم من مائة منزل من السبر والطواف .

165 وذلك القلب الذي هو مطلع للأقمار ، انما هو - من أجل العارف - فاتح الأبواب .
فهو لديك بمثابة الحائط ، وهو لدى العارفين باب ! وهو عندك كالحجر على حين أنه - عند هؤلاء الأعزاء - جوهر ! وهذا الذي تراه أنت عيانا في المرآة يرى الشيخ أكثر منه في لبنة ! ان الشيوخ هم هؤلاء الذين - قبل أن يُخلق هذا العالم - كانت أرواحهم غرقى في بحر الجود ! ولقد قضوا قبل هذا الجسم أعمارا ، واجتنوا من قبل الغراس ثمارا !

170 وتلقوا الروح من قبل أن تُخلق الصورة ، ونظموا الدر من قبل أن توجد البحار ! وبينما كان التشاور جاريا حول ايجاد الخلق ، كانت أرواحهم غارفة في بحر القدرة حتى الحلق ! وحين اعترض الملأئكة على ذلك الخلق ، أخذوا يسخرون في الخفاء من الملأئكة .
فكل من هؤلاء قد اطلع على صورة ما يكون من الكائنات ، وذلك قبل أن تصبح النفس الكلية أسيرة المادة .
فأبصروا كيوان من قبل أن تخلق الأفلاك ! ورأوا الخبز من قبل أن يخلق القمح !

175 وبدون دماغ ولا قلب حفلوا بالفكر ! وبدون جيش ولا حرب تحقق لهم الظفر !
وهذا العيان بالنسبة إليهم ليس الا فكرة ، على حين أنه لا يتجاوز ظاهر الرؤية عند البعيدين (عن الحق) .
والفكرة تكون منبثقة من الماضي ومن المستقبل فإذا ما تحروت من هذين حُلت المشكلة .
ان الروح قد أبصرت الخمر في العنب ! بل انها قد أبصرت الأشياء وهي بعد في طيّ العدم ! ورأت كل ما تشكل حينما لم يكن قد اتخذ شكلا ! وعرفت الصحيح والزائف من قبل أن يخلق المنجم !

180 واحتسب الخمور وأظهرت ألوان السكر ، وذلك من قبل أن توجد الأعناب ! ان الشيوخ قد أبصروا الشتاء ابان الصيف اللاهب ، وشاهدوا الظلال في شعاع الشمس !
ورأوا الخمر في قلب العنب ، وأبصروا الأشياء في باطن الفناء المحض ! والسماء نشوى بما يدار في كأسهم من شراب ، والشمس من جودهم ترفل في وشى الذهب .
وإذا رأيت منهم صديقين مجتمعين ، فهما شخص واحد ، وهما أيضا ألوف متعددة !

185 وان أعدادهم لهى على مثال الأمواج ، وما تعددها هذا الا من فعل الرياح !

فشمس الروح قد أصبحت متفرقة حينما نفذت خلال نوافذ الأبدان .
فأنت حين تنظر إلى القرص ، فهي شمس واحدة . وأما من حجبت بصيرته الأجساد فقد أحاطت به الشكوك .
ان التفرقة تكون في الروح الحيوانىّ ، وأما الروح الانساني فهو نفس واحدة .
وما دام الحق هو الذي رش عليهم نوره ، فان هذا النور لا يغدو قط محل انقسام .

190 يا رفيقي ! دع عنك الملال لحظة واحدة ، حتى أحدثك بلمحة “ 1 “ من ذلك الجمال .
وليس البيان بقادر على الظهار جمال حاله ! فما العالمان ؟ انهما ليسان سوى اشتراقة من خاله .
وانى حين أنطق بكلمة عن خاله الجميل ، يريد النطق أن ينشق جسدي ! ولكني - مثل المنلة - سعيد بهذا البيدر ، فهأنذا أجرّ حملا يزيد كثيرا عن طاقتى !

كيف أوقف تقرير معنى الحكاية من جراء ميل المستمع
إلى سماع ظاهر صورتها

متى يخليني من هو حسد للضياء ، حتى أتحدث بما هو فرض ، وبما هو جدير بأن يُقال ؟

....
(1) حرفيا : “ بخال “ .

195 ان البحر ليقذف بالزيد ويقيم سدّا **!** ثم يجتذب ما أقام ، ومن بعد الجزر يعود إلى المدّ .
فاستمع الآن إلى المانع الذي قام : لعل قلب المستمع قد انصرف إلى مكان آخر .
لقد مضى خاطره نحو الصوفىّ الضيف ، وغاص في ذلك الشوق حتى عنقه .
فقد أصبح لزاما علينا الآن أن نعود من هذا المقال إلى تلك القصة ، لنقوم بوصف الحال .
أيها العزيز **!** لا تحسبنّ الصوفي تلك الصورة (التي تراها) .
الام أنت - مثل الأطفال - مولع بالجوز والزبيب ؟

200 فجسدنا - يا بنى - هو الجوز والزبيب . فان كنت رجلا فتخلّ عن هذين .
وان أنت لم تتخلّ عنها فان اكرام الحق (قادر) على أن يجعلك تنطلق عابرا آفاق السماوات التسع .
فاستمع الآن إلى صورة الحكاية ، ولكن كن يقظا ، وميز بين ما تحويه من قشر ومن لباب .

كيف ظن أهل القافلة ان حمار الصوفي مريض

ان حلقة هؤلاء الصوفية المستفيدين ، حين بلغت مداها من الوجد والطرب ، أحضر الخوان من أجل الضيف ، وحينذاك تذكر دابته .

205 فقال للخادم : “ اذهب إلى الحظيرة ، وهىّء التبن والشعير من

أجل ذلك الحمار " .
فحوقل الخادم ثم قال : " ما هذا الكلام الزائد ؟ ان هذه الأعمال مهنتى من قديم الزمن " .
فقال الصوفىّ : ولتبلل الشعير في بادىء الأمر ، فان هذا الحمار مسن واهى الأسنان " .
فحوقل الخادم ثم قال : " ما ذا تقول أيها العظيم ؟ ان الغير يتعلمون منى مثل هذه الشؤون " .
فقال الصوفي : " وابدأ بانزال السرج من فوقه ، ثم ضع دواء المنبل " 1 " فوق ظهره الجريح " .

210 فحوقل الخادم ثم قال : " وما نهاية هذا أيها الحكيم ؟ لقد نزل عندي مثلك آلاف من الضيوف ، وقد فارقونا وهم راضون جميعا ، ذلك لأن الضيف عندنا بمثابة الروح والنفس .
فقال : " ولتعطه الماء وليكن فاترا " . فحوقل الخادم وقال :
" لقد أخجلتنى ! " فقال : " ولا تضع مع الشعير كثيرا من التبن " . فحوقل الخادم ، وقال : " أقصر هذا الكلام " .
فقال : " ولتنظف موضعه من الحصى والبعر . وإذا كان مبللا فضح فوقه التراب الجاف " .

215 فحوقل الخادم ، ثم قال : " أيها الوالد ! قال لا حول ولا قوة الا بالله ، وأقلل من الكلام مع الرسول الحاذق ! "

....
(1) دواء مصنوع من الأعشاب لمداوة الجراح .

فقال : " ولتأخذ مشطا ، ولتحك به ظهر الحمار " . فحوقل الخادم ثم قال : " لتستح أيها الشيخ ! " هكذا تكلم الخادم ، ثم عقد زناره مسرعا ، وقال : " الآن أذهب ، وأبدأ باحضار التبن والشعير " .
ولكنه مضى ، ولم تخطر له الحظيرة قط على بال . وهكذا خدع ذلك الصوفي .
لقد ذهب الخادم إلى جماعة من الأوباش ، وسخر من وصية الصوفي .

220 ولقد كان هذا الصوفىّ مجهدا من الطريق ، فاستلقى ، وأخذ يشاهد أحلاها بعين الهامه .
أن حماره قد وقع بين براثن أحد الذئاب ، وكان الذئب ينهش قطعا من ظهره وبطنه .
فحوقل الشيخ ثم قال : " ما هذا الحلم الشبيه بالخبل ؟ واعجباه ! أين ذلك الخادم المشفق ؟ " ثم عاد فرأى حماره يمضى على الطريق ، وهو يسقط حينا في بئر وحينا في حفرة .
وكان يرى في صور شتى ما ساءه من تلك الواقعة ، فأخذ يقرأ الفاتحة والقارعة .

225 وقال : " ما الحيلة ؟ لقد انطلق الاخوان ومضوا ، وأغلقوا جميع الأبواب " .
ثم عاد يقول : " عجبا لهذا الخادم ! ألم يأكل معنا الخبر والملح ؟
انني لم أصنع معي الا اللطف واللين ، فلماذا يسلك معي بالحقد عكس سلوكى معه ؟
لا بد لكلّ عداوة من سند ، والا فان الاشتراك في الجنس

موجب للوفاء “ .
ثم أخذ يناجى نفسه قائلا : “ ولكن آدم ذا اللطف والجود ، متى كان قد أوقع الجور بإبليس ؟

230 وماذا صنع الانسان بالحية والعقرب ، حتى أن كلا منهما تلتمس له الموت والألم ؟
ان تمزيق الفريسة طبيعة للذئب . وهذا الحسد - على كل حال - ظاهر في الخلق “ .
ثم عاد يقول : “ ان هذا الظن السيء خطأ ! فلماذا يكون لدىّ مثل هذا الظن بأخي ؟
“ لكنه ما لبث أن قال : “ ان الحزم في اساءتك الظن ! والا فمتى كان حسن الظن يبقى سالما ؟ “ لقد كان الصوفىّ في هذه الوسوسة ، وأما الحمار فكان في حال ، جعلها الله جزاء للأعادى !

235 فهذا الحمار المسكين كان بين التراب والحصى ، وقد مال سرجه وتقطع لجامه .
لقد أنهكه الطريق ، وقضى الليل بدون علف فكان حينا يحتضر ، وحينا يوفى على التلف .
لقد كان هذا الحمار - طول الليل - يردد : “ يا الهى ! لقد تنازلت عين الشعير ، فهل أقلّ من خفنة من التبين ؟ “ وكان لسان حاله يقول : “ أيها الشيوخ ! رحمة بي ، فقد احترقت من جرّاء هذا الغرّ الجسور “ .
فذلك الذي رآه هذا الحمار من الألم والعذاب ، يراه طائر برىّ وقع في سيل ماء !

240 وأخذ الحمار المسكين ينقلب على جنبيه حتى السحر لما اعتراه من جوع البقر
“ 1 “ وحين أقبل النهار ، جاء الخادم في الفجر ، وسرغان ما التمس السرج ووضعه
فوق ظهر الحمار .
ووخزه وخزتين أو ثلاثا كما يفعل باعة الحيمر . وهكذا صنع بهذا الحمار ما يليق
بكلب .
فأخذ الحمار يتوثب من وخز الإبرة . ومن أين له اللسان ليفصح عن حاله ؟
وحين امتطاه الصوفي ، ومضى على الطريق ، أخذ الحمار يسقط على وجهه في كل
لحظة !

245 فكان الخلق ينهضونه في كل مرة ، وقد ظنوا جميعا أنه مريض .
فهذا يمعن في تقليب أذنيه ، وذامك يفتش عن أذى في فمه .
ومنهم من يبحث عن حصاة في نعله ، ومنهم من ينظر ما قد يكون من قذى في
عينيه .
وأخذوا يقولون : “ أيها الشيخ ! ما سبب هذا ؟ ألم تقل بالأمس :
شكر الله ، ان هذا الحمار قوىّ ؟ “ فقال الشيخ : “ ان هذا الحمار الذي تعشى بالأمس
(حوقلات “ 2 “) لا يستطيع أن يسير في الطريق الا على هذا النحو .

250 فما دامت الحوقلات هي كل غذائه بالأمس ، فقد قضى الليل في

....
(1) جوع البقر مرض يقال إنه إذا أصاب الدواب فإنها تأكل ولا تشبع .
(2) جمع حوقلة أي قول : “ لا حول ولا قوة الا بالله “ .

التسبيح ، وما هوذا يقضى النهار في السجود ! “ ان أكثر الناس أكلة للبشر ! فلا تلتمس في تسليمهم عليك كثيرا من الأمان ! فقلوبهم جميعا منزل للشيطان ! فلا تكن متقبلا خداع شياطين الانس .
فكل من انخدع بكلمة صالحة يلفظ بها الشيطان ، فإنه يسقط على رأسه في كفاحه ، كما حدث لذاك الحمار .
وكل من تقبل في هذه الدنيا خداع الشيطان ، (واستطاب) التعظيم والرياء من عدو يتخذ مظهر الأصدقاء ،

255 فهو - في طريق الاسلام ، وعلى جسر السراط - يقع متخبطا على رأسه مثل ذلك الحمار .
فلا تصغ إلى مخاتلات رفيق السوء وكن حذرا ، وفتش عن الفخ ، ولا تمش آمنا فوق الأرض ! وتأمل آلاف الأبالسة المتظاهرين بالتقوى ! يا آدم ، انظر إبليس في الحية ! انه يحدثك قائلا : “ يا روحي ! يا حبيبي ! “ . حتى يسلخ عن حبيبه جلده ، كما يفعل القصاب ! انه ليخاتلك حتى يسلخ جلدك . فواها على من تشرب أفيون الخداع من الأعادى !

260 انه ليضع رأسه عند قدميك ، ويسمعك ختله ، كما يفعل القصاب ، ليريق دمك ، في ذلتك وهو انك ! فكن كالأسد ، واعمل صيدك بنفسك . ودعك من خداع العزباء والأقرباء .

واعلم أن مراعاة الأخساء لك شبيهة برعاية ذلك الخادم ، فانقطاعك عن الناس خير لك من أن تتلقى خداع اللئام .
ولا تقم دارك على أرض غيرك من الناس . واعمل عملك ولا تعمل عمل الغرباء .
ومن هو الغريب ؟ انه جسمك الترابى الذي من جرائه يكون حزنك !

265 وطالما أنت تقدم لجسدك الدسم والحلوى ، فإنك لن ترى جوهرك الروحي دسما .
ومهما اتخذ الجسد مكانه بين المسك ، فان رائحته النتنة - لا محالة - تظهر في يوم موته .
فلا تلطخ الجسد بالمسك ، بل امسح به على قلبك . وماذا يكون المسك ؟ انه اسم ذي الجلال الطاهر .
ان ذلك المنافق يضع المسك فوق جسده . ولكنه يضع روحه في قرارة وعاء القمامة .
فعلى لسانه اسم الله ، وفي روحه نتن ، يفوح من فكره الذي تجرد من الايمان .

270 فالذكر معه كالخضرة النابتة حول المزابل ، أو هو ورد وسوسن نبت في بقعة قذرة .
فمن اليقين أن مثل هذا النبات عارية في ذلك المكان . فالورد مكانه مجلس الأحباب ومحفل الأنس .
والطبيات يقبلن نحو الطيبين . وأما الخبيثون فان لهم

الخبيثات “ 1 “ .
ولا تحمل الحقد ، فان هؤلاء الذين أضلهم الحقد قد جُعلت قبور هم بجوار الحاقدين .
وان أصل الحقد هو الجحيم وحقدك جزء من ذلك الكل وخصم لدينك .

275 فما دمت جزاء من الجحيم فلتكن يقظا ، فان الجزء ينجذب نحو كله ويتخذ فيه مقرا .
والمر لا بد ملتحق بأقرانه من أهل المرارة . ومتى يكون حديث الباطل قرينا للحق ؟
يا أخي ! انك لست الا تفكيرك . وما بقي منك بعد ذلك فليس سوى عظام وشعر ! فلو كان فكرك وردا فأنت بستان ورد . ولو كان فكرك شوكا فأنت وقود لموقد الحمام .
وان كنت ماء ورد وضعت على الرأس وعلى الحبيب . وان كنت مثل البول طرحت بعيدا .

280 وانظر إلى الأوعية أمام دكان العطار ، تجد كل جنس قد وضع فيها مع جنسه .
فحبات كل جنس قد وضعت مع نظائرها ، فانبعث من ذلك التجانس زينة ورونق .
فلو أن حبات السكر قد امتزجت بالعود ، فان العطار يفصل هذه عن ذلك حبة حبة .

....

(1) اقتباس من قوله تعالى : “ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطبيات للطيبين والطيبون للطيبات “ . (سورة النور ، 24 : 25) .

لقد تحطمت أوعية (الأجساد) وانطلقت منها الأرواح ، والختلط الطيب منها بالخبيث .
فأرسل الحق الأنبياء برسائلهم ، حتى ينتقوا تلك الحبات ، فوق الطبق .

285 ومن قبل ذلك كنا جميعا أمة واحدة . ولم يكن أحد يعلم من منا الطيب ومن منا الخبيث .
فالنقد الزائف والنقد الصحيح كانا شائعين في الدنيا ، وكان كل شئ كالليل ونحن كالسائرين في الظلماء ! حتى طلعت شمس الأنبياء فقالت : " بُعدا لك أيها الغش ولتقبل أيها الصفاء " .
ان العين هي التي تميز بين الألوان ، وهي التي تميز العقيق من الحصى .
وهي التي تفرق بين الجوهر والقذى . ولهذا فان العين يخزها القذى .

290 وهؤلاء المزيفون هم أعداء النهار . أما سبائك ذهب المنجم فهي عاشقة للنهار !
ذلك لأن النهار مرآة تعريف للذهب . وبه يبصر (الدينار) الأشر في تشريفه .
ولهذا فان الحق وصف القيامة بأنها " يوم " " 1 " . فالنهار هو الذي يظهر جمال الأحمر والأصفر .

....
(1) في الفارسية كلمة " روز " معناها " يوم " ومعناها كذلك " نهار " .

فالحقيقة أن النهار سر الأولياء وان كان نوره أمام قمرهم يبدو كالظلال .
فلتعلم أن النهار اشراق من سر رجل الله ، وأما انعكاس ستره فهو الليل الذي يغمض العيون .

295 ولهذا السبب أقسم الحق تعالى بالضحى " 1 " . والضحى نور ضمير المصطفى .
وفي قول آخر أن الإله الحبيب أقسم بالضحى ، وذلك لان الضحى فيض من نوره .
والا فان من الخطأ القسم بالفاني . وكيف يليق الفناء بقول الله ؟
لقد أثر عن الخليل قوله : " لا أحب الآفلين " . فكيف يريد القسم بالفناء رب العالمين ؟
وأما قوله " والليل " فإشارة إلى ستره ، وإلى الجسد الترابى المحيط (بالروح) كالصدأ .

300 فحينما أشرقت شمسه من ذلك الفلك ، قالت لليل الجسد " ما ودّعك ربك " .
ولقد تبدى الوصل من عين البلاء وعن تلك الحلاوة جاءت عبارة " ما قلى " فكل عبارة هي رمز لحال . والحال مثل اليد وأما العبارة فآلتها .
وآلة الصائغ في يد الإسكاف شبيهة بحبة غرُست في الرمال .
(1) في هذا البيت وكذلك في الأبيات الستة التالية تفسيرات رمزية لسورة " الضحى " .

وآلة الإسكاف أمام الزارع ، كالتبن أمام الكلب ، أو كالعظام أمام الحمار !

305 ان قول : " أنا الحق " كان على شفة المنصور نورا . وكان قول " أنا الله " على لسان فرعون زورا .
ولقد صارت العصا في كف موسى شاهدا . لكنها أصبحت في أيدي السحرة هباء !
ولهذا السبب فان عيسى لم يعلم رفيقه الأبله ذلك الاسم الصمد " 1 " .
ان الذي لا يعرف النقص يعزو ذلك إلى الآلة . فلتضرب الطين بالحجر ، فهل تتولد من ذلك النار ؟
واليد والآلة شبيهان بالحجر والحديد . فلا بد من قرين لأن التوليد يستلزم الاقتران .

310 والذي لا قرين له ولا آلة هو الواحد . وفي العدد شك ولكن هذا الواحد لا شك فيه ! وكل من قالوا بالاثنين أو بالثلاثة ، أو بما هو أكثر من ذلك ، متفقون على الواحد يقينا ! وحين يزول عنهم الحول يصبحون جميعا متشابهين . والقائلون بالاثنين أو بالثلاثة يصبحون قائلين بالواحد ! فان قلت بالواحد فأنت في ميدانه . فليكن دورانك بدفع من صولجانه .

....

(1) إشارة إلى قصة عيسى والرجل الأبله . انظر الأبيات 141 - 155 .

ان الكرة تصبح كاملة لا نقص فيها حينما تغدو راقصة من ضربة كف المليك .

315 فاستمع - أيها الأحوال - إلى ذلك بعقلك . وتلق دواء لعينك عن طريق أذنك .
فالكلام الطاهر في القلوب العمياء لا يدوم بل ينطلق نحو أصل النور .
وأما سحر الشيطان فستقر في القلوب العوجاء ، كما تستقر القدم العوجاء في الحذاء الأعوج .
ومع أنك بالتكرار قد تحصل الحكمة فإنها تغدو بريئة منك ، لو لم تكن أهلا لها .
ومع أنك قد تكتبها وتضع رموزها ومع أنك قد تتشدق بها وتعلن بيانها ،

320 فإنها تحجب وجهها عنك أيها العنيد ، وتقطع روابطها بك ، وتهرب منك .
وان أنت لم تقرأها ، وأبصرت تحرقك إليها ، كان العلم طائرا طوع يمينك **!** والعلم لا يدوم عند من ليس بأستاذ فهو كالطاووس (لا يقيم) بمنزل الفلاح .

كيف وجد الملك الباز في منزل المراة العجوز

انه ليس مثل ذلك الباز الذي هرب من الملك إلى امرأة عجوز ، كانت تنخل الدقيق ،

حتى تعد الفطائر لأولادها . فرأت ذلك الباز الجميل الرفيع المولد .

325 فربطت قدميه الصغرتين ، وقصت جناحيه ، وقلمت مخالبه ، وقدمت له القش غذاء .
وقالت : " ان من ليسوا أهلا لك لم يقوموا برعايتك ، فتكاثر ريش جناحيك وطالت مخالبك **!** ان يد هؤلاء الجلاء قد جعلتك عليلا ، فأقبل الآن نحو أمك لتبذل لك عنايتها **!** " فاعلم أن هذا شأن حب الجاهل أيها الرفيق . فالجاهل يمشى على الدوام معوجا فوق الطريق **!** ولقد تأخر الوقت بالملك وهو ينفتش عن بازه . فتوجه نحو تلك المرأة وخيمتها ،

330 وسرعان ما رأى الباز بين الغبار والدخان . فبكى عليه الملك متألما ورثى لحانه .
وقال : " ان هذا الجزاء لفعلك فإنك لم تكن مستقيما في وفائك لنا .
كيف تركت جنة الخلد واتخذت النار قرارا ؟ أكنت غافلا عن قوله تعالى :" لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّار وَأَصْحابُ الْجَنَّة "" 1 " ؟
ان هذا جزاء من فر من الملك الخبير ، والتجأ بغباء إلى عجوز تننة **!** "

....

(1) انظر : سورة الحشر ، 59 : 20 .

فاخذ الباز يمسح جناحه على كف الملك . وكان لسان حاله يقول :
“ انني أثمت ! “

335 ولكن أين ينوح وأين ينتحب اللئيم ان كنت لا تتقبل غير الطيب ، أيها الكريم ؟
“ ان لطف المليك يجعل الروح طالبة للإثم ، ذلك لأن المليك يجعل كل قبيح حسنا .
فاذهب ، ولا تصنع السيئات ، فان حسناتنا تبدو سيئات أمام محبونا الجميل ! لقد ظننت عبادتك لائقة به ، ولهذا فإنك قد رفعت لواء الجرم .
فهو إذ كان قد أمرك بالذكر والدعاء ، أصاب الغرور قلبك بدعائك هذا ،

340 ورأيت نفسك نجيا لله ! وما أكثر من وقعوا بعيدا عن الله من جراء هذا الظن .
ومع أن الملك يجلس معك على الأرض فلتعرف قدر نفسك ولتحسن الجلوس .
فقال الباز : “ أيها الملك ! لقد أصبحت نادما . لقد تبت ، وهأنذا أعود إلى الإسلام .
فذلك الذي جعلته سكران ، متوهما صيد الأسود ، ان كان قد اعوج في سيرة فتقبل عذره .
ومع أن اظافرى قد ولت ، فانى أقتلع الشمس من مدارها ، حين تكون لي !

345 ولئن كان جناحي قد ولى ، فان لعب الفلك يتضاءل أمام لعبى ، حين يتدللنى ! ولو أنك منحتنى مئزر لا قتلعت الجبل . ولو وهبتنى قلما لحطت الأعلام . فمهما يكن جسمي فليس بأقل من جسم البعوضة . فلأحطمن بجناحي ملك النمرود ! فافترض أنني - في ضعفي - طير أبابيل “ 1 “ ، وأن كل خصم من خصومى مثل الفيل ، فلو أنني ألقيت فوقه حجرا من سجيل “ 2 “ ، لكان لهذا من الفعل قدر ما يكون لمائة منجنيق !

350 لقد خاض موسى الوغى بعصا واحدة ، وتهجم بهذه على فرعون وعلى كل سيوفه ! ان كل رسول لم يكن الا رجلا واحدا طرق هذا الباب ، فغلب بمفرده على جميع الآفاق ! وحين التمس نوح من الله سيفا أصبحت أمواج الطوفان بأمره تفعل فعل السيوف ! يا أحمد . ماذا تكون جيوش الأرض ؟ انظر إلى القمر على السماء ثم شق جبينه ! حتى يعلم من كان جاهلا بالسعد والنحس أن هذا دورك ، لا دور القمر .

....

(1) في هذا البيت إشارة لقصة أصحاب الفيل .
انظر سورة الفيل .
(2) في هذا البيت إشارة لقصة أصحاب الفيل .
انظر سورة الفيل .

355 انه دورك يا من كان موسى الكليم يتطلع بأمل راسخ إلى دورك وزمانك !
فموسى حينما أبصر رونق دورك . وقد أشرق فيه صبح التجلي ، قال : “ يا رب ! أي دور للرحمة هذا ؟ لقد تفوق على الرحمة .
انه دور الشهود ! فلتغرق (عبدك) موسى في البحار ، ولتظهره (من جديد) ابان دور أحمد .
فقال الحق : “ يا موسى ! لقد أظهرته لك من أجل هذا “ 1 “ . وفتحت لك بهذه الرؤية سبيل تلك الخلوة .

360 وانك بعيد عن ذلك ابان هذا الدور ، أيها الكليم ، فاسحب قدمك لان هذا البساط مديد .
انني لكريم ، أظهر الخبز لعبدي حتى يُبكى الطمع ذلك المخلوق الحي .
فالأم تسمح على أنف طفلها الرضيع ، حتى يفيق ويلتمس غذاءه .
فلعله قد نام جائعا فلم يعد يستشعر الجوع ، في حين أن الأم يخزها ثدياها لتدر الحليب .
كنت كنزا رحمة مخفية * فابتعثت أمة مهدية

365 فكل الكرامات التي تلتمسها بروحك قد أظهرها الله لك حتى تطمح إليها .
لقد حطم أحمد بضعة أصنام في هذه الدنيا ، حيت تصبح الأمم هاتفة باسم الله .

....

(1) من أجل ان يشتعل في قلبك مثل هذا الأمل والتطلع إلى عصر أحمد .

ولو لم يكن جهد أحمد لبقيت أنت أيضا . تعبد الصنم مثل أجدادك .
ان رأسك هذا قد نجا من السجود للصنم فبذلك تعرف حقه على الأمم .
فلو أنك تتكلم فتكلم بشكر تلك النجاة حتى يخلصك أيضا من صنم الباطن .

370 وما دام قد خلص رأسك من عبادة الأصنام ، فلتُخلِّص أنت القلب بتلك القوة ذاتها .
انك قد انحرفت برأسك عن شكر الدين ، لأنك قد تلقينة بدون مقابل ، ميراثا عن أبيك .
وماذا يعرف صاحب الإرث عن قيمة المال ؟ ان رستم لقيت روحه العناء (في تحصيله) وتلفاه بالمجان زال .
وانى - إذا أبكيت - جاشت رحمتي ! ذلك لأن الباكي ينهل من شراب نعمتي ! ولو انني لم أرد اكرامه لما أظهرت له النعم . فحينما أشعرة بانقباض القلب أعود فأشرح صدره .

375 وان رحمتي لموقوفة على تلك الدموع الصادقة ، فإذا ما بكى العبد جاش البحر بأمواج الرحمة “ .

كيف اشترى الشيخ احمد خضرويه قدس الله سره العزيز حلوى لغرمائه بالهام الحق

كان شيخ دائم الوقوع في الدين ، وذلك لما كان عليه هذا الشهير

من الكرم ! لقد كان يستدين الآلاف من أولى الثراء ، وينفقها على فقراء الدنيا ! كما أنشأ بالدين زواية للصوفية ، ووهب للخير الروح والمال والزاوية .
وكان الحقّ يؤدّى عنه الدين في كل جانب . فالله قد صنع للخليل دقيقا من الرمال !

380 ولقد قال الرسول ان ملكين في هذه الدنيا يدعوان في الأسواق ، قائلين : " اللهم أعط كل منفق خلفا . اللهم أعط كل ممسك تلفا " .
وبخاصة ذلك المنفق الذي جاد بروحه ، وجعل عنقه قربانا لخلاق الوجود ! لقد مدّ عنقه (ليذبح) كما فعل إسماعيل ولكن السكين ما كانت لتفعل فعلها بحلقه ! فالشهداء من هذا الوجه أحياء ناعمون ، فلا تقصير نظرك على الجسد مثل الكافرين .

385 وما دام الله قد وهبهم لقاء ذلك روح البقاء ، فقد بقيت أرواحهم آمنة من الحزن والألم .
ولقد ظل الشيخ المدين يفعل ذلك سنين ، فكان يأخذ ثم يعطى كأنه وسيط .
كان يبذر البذور حتى يوم الأجل ، ليكون في يوم الأجل أميرا أجلّ !

وحينما اقترب عمر الشيخ من نهايته ، أبصر في كيانه علامات المنية .
وجلس الدائنون مجتمعين حوله ، أما الشيخ فكاد كيانه ينصهر ، كأنه شمعة .

390 وكان أصحاب الدين يائسين وقد اكفهرت وجوههم . كانت قلوبهم متألمة وصدورهم ضائقة .
فقال الشيخ : “ انظر إلى هؤلاء الذين ساءت ظنونهم ! أليس لدى الحق أربعمائة دينار من الذهب ؟ “ وارتفع خارج الدار صوت طفل ينادى على حلواه . وكان يقرّظ الحلوى على أمل في الدوانق .
فأومأ الشيخ برأسه إلى الخادم ، وأمره بأن يذهب ويشترى كل تلك الحلوى .
“ فلعلّ الدائنين - حين يأكلون من هذه الحلوى - يصرفون عنى نظراتهم المريرة لحظة واحدة “ .

395 فانطلق الخادم مسرعا نحو الباب ، حتى يشترى بالذهب تلك الحلوى .
وقال للطفل : “ بكم جملة هذه الحلوى ؟ “ . فأجاب الطفل :
“ انها بنصف دينار وقليل من الدوانق “ .
فقال الخادم : “ ضعها ، ولا تغال في الثمن مع الصوفية . سأعطيك نصف دينار ، فلا تقل أكثر من ذلك “ .
فوضع الطبق أمام الشيخ . فتأمل الآن ما احتجب من أسرار فكر الشيخ .

لقد أشار إلى دائنيه قائلا : " ان هذا نوال . فكلوه متبرّكين هنيئا فإنه (رزق) حلال !

400 وحينما صار الطبق خاليا تناوله الطفل وقال : أعطني دينارى ، أيها الحكيم !
" فقال الشيخ : " ومن أين آتيك بدرهم ؟ انني مدين وذاهب نحو العدم " .
فاغتم الغلام ، وضرب بطبقه الأرض وارتفع صوته بالنواح والبكاء والأنين .
كان يبكى من الغبن وقد علا نشيجه ، قائلا : " ليت ساقىّ كانتا قد كسرتا ! ليتني كنت قد درت حول مستودع للقمامة ، ولم أمرّ أمام باب هذا الخانقاه .

405 هؤلاء الصوفية الطفيليون المتسوّلون ، لهم قلوب كلاب ، وهم يلعقون وجوهم كالقطط .
فلصراخ الطفل اجتمع كل من كان هناك من أهل الخير والشر ، وتجمهروا حول الطفل .
وتقدم الطفل نحو الشيخ قائلا : " أيها الشيخ القاسى ! انك تعلم يقينا أن معلمي سيقتلنى .
انى لو ذهبت اليه خاوى اليد فلسوف يقتلني فهل تجيز ذلك ؟ " وأما هؤلاء الدائنون فقد التفتوا إلى الشيخ بانكار وجحود ، قائلين : " وماذا كانت هذه اللعبة ؟

410 لقد أكلت أموالنا ، وها أنت ذا تقترف المظالم ! فلاي سبب كان

اقتراف هذا الظلم الجديد ، فوق هاتيك ؟ " وأخذ الطفل يبكى حتى صلاة العصر . أما الشيخ فقد أغلق عينيه ، ولم يكن ينظر اليه .
ان قلب الشيخ كان خاليا من الجفاء ومن الخلاف . ولقد غطى باللحاف وجهه الشبيه بالقمر .
وكان على وفاق مع الأزل ، وعلى وفاق مع الأجل . كان سعيدا خالى البال من أراجيف الخاصة والعامة ومن أقوالهم ! فمن أشرقت في وجهه الروح ببسمة حلوة كالقند ، ماذا يضيره من عبوس وجه الخلق ؟

415 وذلك الذي تُقبِّله الروح فوق عينيه ، أنى لغم الفلك أو غضبه أن ينال منه ؟
وأي خوف للقمر - وهو في المنزل المساك - من الكلاب ونباحها ، في الليلة القمراء ؟
فالكلب في مكانه يقوم بعلمه ، والقمر يؤدى مهمته بوجهه المشرق .
وكل شخص ينهض بأداء علمه الصغير . والماء لا يتخلى عن صفائه لو ألقيت به بعض الأقذار .
فهذه الأقذار تسبح زرية على سطح الماء ، ويسلك الماء الصافي سبيله بدون اضطراب .

420 والمصطفى يشق البدر في منتصف الليل ، وأبو لهب في حقده يتشدق بالهراء .
وهذا المسيح يحيى الموتى ، وأما ذلك اليهودىّ فهو يقتلع -

من الحنق - شاربيه .
فهل لنباح الكلب سبيل إلى أذن البدر ، لا سيما حين يكون هذا البدر من خواص الله ؟
ان الملك يحتسى شرابه على شاطىء النهر حتى السحر . وهو في مجلس سماعه لا يشعر بنقيق الضفادع .
فلو أن حق الطفل قسم على الحاضرين لكان على كل منهم (أن يدفع) بضعة دوانق ، لكن همة الشيخ حالت دون هذا السخاء .

425 فلم يعط الطفل أحد من هؤلاء شيئا قط . وان قوة الشيوخ لتفوق ذلك أيضا .
وحينما حلت صلاة العصر جاء خادم يحمل في يده طبقا جاد به كريم حاتمى الجود .
ان صاحب مال وحال قد أرسل هدية إلى الشيخ ، لأنه كان عليما بخبره .
وكان فوق الطبق أربعمائة دينار ، وفي زاوية منه نصف دينار ملفوف بالورق .
لقد أقبل الخادم نحو الشيخ فحياه ثم وضع الطبق أمام ذلك الشيخ الفريد .

430 وحينما كشف عن الطبق الغطاء ، أبصر الناس تلك الكرامة من الشيخ .
وسرعان ما ارتفعت منهم صيحات الأسى والندم ، وقالوا : “ ما هذا يا سيد الشيوخ ! يا ملك الملوك ! ما هذا السر ؟ وأي سلطان ذلك أيضا ، يا ملك ملوك الأسرار !

اننا لم نكن نعلم ، فاصفح عنا . فلقد انطلقت منا كلمات بالغة التشويش .
فلقد كنا نضرب بعصينا كالعميان فلا جرم أننا قد حطمنا القناديل !

435 اننا مثل الصم ، لم نسمع كلمة واحدة توجه الينا ، ومع ذلك كنا نهذى بجواب مبنى على القياس .
اننا لم نأخذ النصيحة من موسى ، الذي غدا بانكاره الخضر شاحب الوجه ، برغم ما كان له من بصر يرنو إلى الأعالي ، وعين كان نورها يشق السماء ! يا موسى (زماننا) ! ان التعصب قد جعل عينك - في حماقتها - شبيهة بعين فأر الطاحون .
فقال الشيخ : لقد صفحت عن كل هذا القيل والقال ، وبهذا قد أصبح حلالا لكم .

440 والسر في ذلك كله أنني كنت أسأل الحق . فلا جرم أنه قد بين لي سبيل الصواب .
ثم قال : " ان هذا الدينار - مع أنه قليل - كان رهنا ببكاء الطفل .
فلو أن هذا الطفل بائع الحلوى لم يبك ، ما جاش بحر رحمتي (بالعطاء) .
أيها الأخ . ان الطفل ليس سوى طفل عينك . ورغابه رهن يالبكاء ، فاعلم ذلك يقينا .

فإذا أردت أن تحظى بهذه الخلعة " 1 " ، فلتجعل انسان عينك باكيا على الجسد .

كيف حذر شخص أحد الزهاد قائلا
" أقل البكاء حتى لا تصاب بالعمى "

445 خاطب رفيق في العمل أحد الزهاد قائلا : " أقل البكاء ، حتى لا تصاب عينك بالأذى .
فقال الزاهد : " ان الحال لا يخرج عن أحد أمرين . اما أن تبصر العين ذلك الجمال ، أو لا تبصره .
فان أبصرت العين نور الحق فأي غم هناك ؟ وما أهون العينين عند من نعم بوصال الحق ! وان لم ترد العين رؤية الحق فمرها بالذهاب . وقل لمثل تلك العين الشقية : " كونى عمياء " .
ولا تأس على عينك حينما يكون لك هذا المسيح . ولا تتجه نحو الشمال فإنه يهبك عينين صحيحتين (لقاء استقامتك) .

450 ان عيسى روحك حاضر معك . فالتمس النصرة منه ، فإنه نعم النصير .
ولكن لا تضع على قلب عيسى في كل لحظة أثقال السخرة لجسم حافل بالعظام .

....
(1) حرفيا : " فإذا أردت أن تصل إليك هذه الخلعة . . . " .

كما فعل ذلك الأبله الذي ذكرناه في القصة ، تبصرة لأهل الصلاح . " 1 " .
فلا تلتمس من مسيحك حياة الجسد . ولا تطلب رغاب فرعون ممن هو لك بمثابة موسى .
ولا تثقل فؤادك بهم التفكر في المعاش . فلن يخونك الرزق .
فلتكن ماثلا في رحاب الله .

455 ان البدن بمثابة خيمة للروح ، أو هو مثل السفينة لنوح .
وطالما كان التركماني هناك ، فسيجد احدى الخيام ، لا سيما حين يكون من أعزاء تلك الرحاب .

تمام قصة بعث العظام بدعاء عيسى عليه السلام

ان عيسى نادى باسم الحق على العظام ، إجابة لملتمس ذلك الشاب .
فكان حكم الحق - من أجل ذلك الفتى الغرّ - أن بث الحياة في صورة تلك العظام .
وكان أن قفز منها أسد أسود اللون ، وضربه بمخالبه فدمر كيانه الصوريّ !

460 وحطم رأسه ، فسرعان ما انسكب منه لبُّه . لقد كان لبّ جوزة ، فالفتى لم يكن من أولى الألباب .
ولو كان من أولى الألباب لما كان تحطيمه يتجاوز ايذاء الجسد .

....
(1) حرفيا : من اجل أهل الصلاح .

لقد قال عيسى للأسد : " كيف ضربته بهذه السرعة ؟ " فقال الأسد : " لأنه كان مصدرا لازعاج خاطرك " فقال عيسى : " ولماذا لم تشرب دم الرجل ؟ " فقال الأسد : " انه لم يقسم لي تناول هذا الرزق " .
وكم من رجل شبيه بهذا الأسد الضاري ، ترك الدنيا من غير أن يأكل صيده !

465 نصيبه المقسوم لا يعدل القشة ، وحرصه مثل الجبل . ولا وجه (للرزق) مع أنه قد طرق جميع الوجوه ! فيا من يسرَّت لنا في هذه الدنيا أن نسخر أنفسنا لما لا يجدى ! يسرِّ لنا الخلاص ! لقد ظهرت (مغريات العيش) طعُمة في حين أنها شص ! فلتظهرها لنا على ما هي عليه .
قال الأسد : " أيها المسيح ! ان هذا الصيد لم يكن له من هدف سوى الاعتبار ! ولو . أنه كان قد بقي لي رزق في هذه الدينا ، في عمل كان لي مع الموتى ؟ "

470 ان هذا جزاء من يجد الماء صافيا فيبول في النهر بدون تمييز مثل الحمار . ولو أنه الحمار أدرك قيمة ذلك النهر ، لوضع رأسه فيه بدلا من أن يغشاه بقدمه . لقد لقى (الأحمق) مثل ذلك النبي " 1 " ، من كان أميرا على الماء ،

....
(1) إشارة إلى قصة الأحمق الذي رافق عيسى (انظر الأبيات 141 - 152) .

باعثا للحياة .
فكيف لا يموت أمامه قائلا : “ يا أيمر الماء . ردّ الينا الحياة بأمر كن “ .
فحذار ، ولا تطلب الحياة لكلب نفسك الأمارة ، فإنها منذ القدم عدو لروحك .

475 وليحث التراب على رأس تلك العظام ، التي تحول بين هذا الكلب وبين صيد الروح .
فإن لم تكن كلبا فما هذا التعشق للعظام ؟ وان لم تكن مثل الضبع فلماذا أنت مولع بالدماء ؟
وأية عين تلك التي تكون بدون ابصار ؟ انه لا يتحقق من امتحانها شئ سوى الفضيحة والعار ؟
ولقد يكون للظنون سهو بين حين وآخر ، ولكن أي ظن هذا الذي يكون أعمى عن الطريق ؟
أيتها العين التي تبكى منتحبة على سواها ! لتجلسى الآن قليلا ولتبكى على نفسك !

480 فالسحاب الباكي يجعل الأغصان مخضرة يانعة . وكذلك الشمعة تزداد ببكائها نورا ! فحيثما ينوح النائحون اتخذي لك مجلسا ، فإنك أنت أولى من هؤلاء بالحنين .
فهؤلاء يبكون على فراق ما يفنى ، وهم غافلون من عقيق منجم البقاء .
ذلك لأن نقش التقليد قيد للقلب . فامض وحطم هذا القيد بماء .

المدامع .
ولما كان التقليد آفة لكل خير ، فإنه ليس سوى قشة حتى ولو كان جبلا منيعا .

485 ولئن يكن الضرير عظيم الجسم سريع الغضب ، فاعلم أنه ليس سوى كتلة من اللحم ما دام بدون بصر .
ولئن كان يتحدث بكلام أدق من الشعرة فإنه لا يكون بقلبه مدركا هذا الكلام .
وانه ليستشعر النشوة بما يقوله ، لكن بينه وبين الخمر طريقا بعيدا ! فهو مثل النهر ، فليس هو الذي يشرب الماء بل الماء ينساب خلاله إلى شاربيه .
فالماء لا يستقر في مجرى النهر ، لأن النهر لا يكون ظمآن ولا يشرب الماء .

490 بل هو مثل الناى يشدو بأنات الأسى ، وهو ليس الا متخذا صورة تعجب المشترين .
ان المقلد يتخذ في الحديث صورة محترف النواح ، وليس لذلك الخبيث من باعث سوى الطمع ! فهذا النائح المحترف ينطق بكلمات تحرق الفؤاد ولكن أين هو من احتراق القلب وشق الثياب ؟
فهناك فروق شاسعة بين المحقق وبين المقلد ، فان هذا مثل داود وأما ذاك فمثل الصدى .
ومنبع قول هذا هو احتراق القلب ، أما ذلك المقلد فمنبع قوله ما تلقاه من تلعيم بال مهلهل !

495 فتنبه ، ولا تغتر بدلك القول الحزين ، فالثور هو الذي يحمل العبء ، على حين يكون من العربة الأنين .
والمقلد أيضا ليس محروما من الثواب ، فان محترف النواح ينال أجره عند الحساب .
والكافر والمؤمن كلاهما ينطقان باسم الله ، لكن شقة شاسعة البعد تفريق بينهما .
وذلك المتسول يهتف باسم الله من أجل الخبز ، أما المتقى فيذكر الله من صميم روحه .
ولو أن ذلك المتسول أدرك مضمون قوله ، لما كان يبقى ماثلا أمام عينيه قليل ولا كثير .

500 ان ذلك المتلعق بالخبز ينطق باسم الله طوال السنين ، فهو مثل الحمار يحمل المصحف من أجل وجبة من التبن ! فلو أشرق في قلبه لفظ شفيته ، لتحول كيانه الجسدي إلى ذرات .
وفي السحر يتملك اسم الشيطان ناصية الطريق . وها أنت ذا تتجر باسم الحق لقاء دانق !

كيف اخذ فلاح يدلك بيده في الظلام جسم أسد ظانا انه ثوره

لقد ربط أحد الفلاحين ثوره في الحظيرة ، فأكل الأسد هذا الثور وجلس في مكانه .
ودخل الفلاح الحظيرة في الظلام متجها نحو ثوره وأخذه

يتحس الأركان باحثا عن ثوره .

505 ثم أخذ يدلك بيده أعضاء الأسد ، ظهره وجانبيه عاليه وسافله .
فحدث الأسد نفسه قائلا : “ لو انبثق الضياء لا نفجرت مرارته (رعبا) ولغدا قلبه دما ! انه يدلكنى بجسارة على هذه الصورة ، لأنه - في هذه الظلمة - يحسبني ثوره .
والحق يقول : “ أيها المغرور الأعمى ! أو لم يتصدع جبل الطور تحت وطأة اسمى ؟ فلو أننا أنزلنا كتابا على الجبل ، لا نصدى الجبل ، وتساقط وزال من مكانه “ 1 “ .

510 ولو أن جبل أحد أصبح مدركا حقيقتنا ، لتفجرت منه عيون الدماء ! وأنتم قد تسامعتم بنا من أبائكم وأمهاتكم ، فلا جرم أن غمض عليكم الأمر في غفلتكم .
ولو أنكم أدركتم الحق بدون تقليد ، لخفي من اللطف كيانكم المادي ، وغدوتم مثل نداء السماء ! فاستمع إلى هذه القصة لتكون لك ، رادعا ، فإنك تعلم منها آفة التقليد :

....

(1) هذا البيت عربى في الأصل ، وقد نثرناه لمجاراة السياق .

كيف باع الصوفية بهيمة المسافر ليقيموا بثمنها مجلسا للسماع

وصل صوفي مسافر إلى احدى الزوايا وهناك جاء بحماره وقاده إلى الحظيرة .

515 وقد اليه بيده قليلا من الماء وبعض العلف ، ولم يفعل كما فعل الصوفي الذي سبق لنا ذكره " 1 " لقد احتاط للأمر من السهو ومن التخبط ، ولكن - إذا حُمّ القضاء - فأي جدوى للاحتياط ؟
وكان هؤلاء الصوفية معوزين فقراء . والفقر كاد أن ينطوى على كفر يورث البوار .
أيها الغنى البشم ! حذار ولا تهزأ من انحراف ذلك الفقير المتألم ! فهذا الجمع من الصوفية - لفرط فاقتهم - قد اتفقت كلمتهم على بيع الحمار .

520 قائلين : " ان الضرورة تبيح أكل الميتة ، وكن من فساد جعلته الضرورة صلاحا ! " وسرعان ما باعوا ذلك الحمار الصغير واشتروا بثمنه طعاما شهيا ، وأضاؤوا الشموع ! وتعالت الصيحات في جوانب الخانقاه : " ان الليلة للطعام الشهى والشره ومجلس السماع !

....
(1) بدأت قصة ذلك الصوفي في البيت 156 ، ثم استؤنفت في الأبيات 204 - 250 .

وكفانا حملا لهذا الزنبيل وكفانا سؤالا وكفانا صبرا ، وكفانا صوما يطول مداه “ “ 1
“ اننا أيضا من خلق الله ، من ذوى الروح . وها هي ذي السعادة قد حلت الليلة في ضيافتنا ! “

525 وهم بذلك قد غرسوا وبذور الباطل ، إذ قد ظنوا من الروح ما لا شأن له بالروح .
وذلك المسافر أيضا كان متعبا من الطريق الطويل ، فرأى هذا الاقبال والتكريم .
فكل من هؤلاء الصوفية دلله ورعاه ، ولعبوا جميعا نرد الرعاية على أحسن الوجوه !
فلما رأى الصوفي ميلهم اليه ، قال : “ لو أنني لم أطرب الليلة فمتى يكون ذلك ؟
“ فأكلوا لذيذ الطعام ثم بدأ السماع ، فالمتلا جوّ الزواية بالدخان والغبار ،

530 دخان من المطبخ ، وغبار يتصاعد من الأرض ، تدقها أقدام الراقصين !
وأرواح ثائرة غلب عليها الاشتياق والوجد ! فتارة كانوا يصفقون بالأيدي ، وتارة يدقون بالأقدام . وحينا كانوا يكنسون أرض الصفة بجباههم .
ان الصوفي يطول انتظاره لينال مبتغاه من الدنيا ، ولهذا فان الصوفي يكون كثير الأكل !

....
(1) حرفيا : “ يدوم ثلاثة أيام “ .

وما كذلك يكون الصوفي الذي اغتذى حتى شبع من نور الحق ، فان هذا يكون بريئا من عار التسول ! وليس من أمثال هذا الصوفي سوى قلة بين آلاف . وفي ظلال دولة هؤلاء تعيش الكثرة الباقية .

535 وحينما اكتمل السماع من أوله إلى آخره ، بدأ المطرب من جديد يعزف نغمة قوية ! وبدأ يترنم قائلا : “ ذهب الحمار ! ذهب الحمار ! “ فدفعت حرارة النغمة جملة الحاضرين لمشاركته الغناء .
وبتلك الحرارة ظلوا يرقصون حتى السحر ، ويصفقون بالأكف مرددين : “ ان الحمار مضى وولى يا فتى “ .
وعلى سبيل التقليد بدأ هذا الصوفي أيضا يترنم مرددا : “ ذهب الحمار ! “ .
وحينما انقضت هذه النشورة والانفعال وذاك السماع ، بزغ الصبح ، فقالوا جميعا : “ الوداع “ .

540 وخلت الزاوية الا من هذا الصوفي . وكان هذا المسافر يمسح الغبار عن متاعه .
وأخرج الصوفي متاعه من الحجرة ليربطه فوق الحمار . وكان ينشد رفيقا للسفر .
ولقد سارع عله يلحق برفقاء الطريق . ودخل الحظيرة فلم يجد حماره فيها ! فقال : “ لعلّ ذلك الخادم قد أخذه إلى الماء ، فإنه لم يشرب بالأمس الا قدرا ضيئلا “ .

وأقبل الخادم فسأله الصوفىّ : “ أين الحمار ؟ “ فقال له الخادم :
“ انظر إلى لحيتك ! “ فقام بينهما العراك .

545 فقال الصوفي : “ انني قد أسلمت إليك هذا الحمار . وجعلتك موكلا به ، فالزم حدود هذا البحث ولا تجادلنى . وردّ إلى ما أودعته عندك ! انني أطلب منك ما كنت أسلمتك إياه . فلتعد الىّ ما كنت قد أرسلته إليك .
ولقد قال الرسول : “ ان كل ما أخذته يدلك لا بد لها أن تعيده في عاقبة الأمر .
فان كنت - لعنادك - لا ترضى بهذا ، فهلمّ أنا وأنت إلى منزل قاضى الشريعة .

550 فقال الخادم : “ لقد كنت مغلوبا على أمرى فان الصوفية تهجموا علىّ فغدوت خائفا على روحي ! فهل تلقى بين القطط كبدا وأحشاء ثم تبحث بعد ذلك عن أثر لها ؟ ان رغيفا من الخبز بين مائة من الجياع شبيه بقطة هزيلة أمام مائة كلب ! “ فقال الصوفي : “ فلنسلم أنهم قد أخذوه منك ظلما ، وأنهم أصبحوا قاصدين دمى ، أنا المسكين ، فإنك لم تجىء ، ولم تقل لي : “ ها هم أولاء يأخذون حمارك ، أيها المسكين ! “

555 حتى أبتاع حماري ممن عساه يكون قد اشتراه والا اقتسم الصوفية بينهم مالي .
لقد كانت هناك مائة وسيلة لتدارك الأمر ، حينما كان الصوفية حاضرين ، أما الآن فقد تفرقوا في الأقاليم .
فبمن أمسك الآن ؟ . ومن ذا الذي آخذه إلى القاضي ؟ ان هذا القضاء قد هبط فوق رأسي من جرّائك ! كيف لا تجيء ولا تقول لي : “ أيها الغريب ، لقد وقع بك مثل هذا الظلم الرهيب ! “ فقال الخادم : “ والله ، انى قد جئت إليك مرارا ، حتى أنبئك بهذه الأعمال ،

560 فكنت تقول لي : “ ان الحمار مضى وولى يا فتى ! “ ، وكنت أكثر انفعالا من جميع الناطقين بهذا القول .
فكنت دائما أرجع قائلا : “ انه واقف على هذا الأمر . وهو راض بهذا القضاء ، فهو رجل عارف ! “ فقال الصوفىّ : “ انهم جميعا كانوا يحسنون ترديد هذا القول ولقد راق لي أنا أيضا أن أردده ! وان تقليد هؤلاء هو الذي أسلمنى للريح . فعلى هذا التقليد مئتان من العنات ! وبخاصة تقليد مثل هؤلاء الذين لا طائل وراءهم . فليكن سخط إبراهيم على الآفلين !

565 ان ذوق هذه الجماعة كان يلقى بأصدائه في قلبي ، فتحقق للقلب من تلك الأصداء ذوق مماثل ! “

ولا بدّ لك من أن تشرق عليك “ 1 “ أشعة الرفقاء الطيبين ، حتى تغدو مستمدا ماءك من البحر ، بدون (هداية من تلك) الأشعة .
واعلم أن أول نور “ 2 “ وقع عليك انما هو التقليد . فإذا تتابع الاشراق فهذا هو التحقيق .
فلا تنقطع عن الرفقاء ما لم يكتمل لك التحقيق . ولا تنفصل عن الصدف ، فان هذه القطرة لم تصبح بعد درّا .
فان كنت تريد أن يتحقق الصفاء لعينك وسمعك وعقلك ، فلتمزقن ما يغشيها من أستار الطمع !

570 ذلك لأن تقليد هذا الصوفي كان مبعثه الطمع ، فحجب عقله عن النور واللمع .
فالحرص على الطعام الشهيّ ، والحرص على الذوق والسماع ، وقفا حائلا بين عقله وبين الاطلاع .
فلو أن الطمع استقر في المرآة ، لصارت تلك المرآة مثيلة لنا في النفاق ! ولو أن الميزان أصيب بالطمع في المال ، متى كان الميزان يقول الصدق حين وصف الحال ؟
ان كل نبي خاطب قومه في صفاء قائلا : “ أنا لا أطلب منكم أجرا على رسالتي .

575 فلست سوى دليل ، وما المشترى الا الله . ولقد جعل الحق أجرى في كلتا الناحيتين “ 3 “ .

....

(1) حرفيا : “ تنعكس فوقك “ .
(2) حرفيا : “ انعكاس “ .
(3) الناحيتان هنا هما الدنيا والأخرة .

فماذا يكون جزاء عملي ؟ انه رؤية الحبيب **!** حتى وان أعطاني أبو بكر أربعين ألف (درهم) .
فهذه الآلاف الأربعون التي وهبني إياها ليست أجرى . ومتى يكون الشبه “ 1 “ مثيلا لدر عدن ؟
وهأنذا أروى لك حكاية ، فاستمع إليها بعقلك ، حتى تعلم أن الطمع قد أصبح حجابا لأذنك **!** فكل من كان طامعا غدا متعثر اللسان . ومع الطمع ، كيف يحل النور بالعين والقلب ؟

580 ان خيال الجاه والمال يكون أمام البصر كالشعرة حين تصيب العين .
وما كذلك من كان ثملا ، قد امتلأت روحه بالحق ، فإنه يظل حرا ، حتى ولو أعطيته الكنوز **!** فكل من سعدت نفسه بمشاهدة الحق ، يبدو هذا العالم ميتا أمام عينيه .
لكن هذا الصوفي كان بعيدا عن نشوة الشهود ، فلا جرم أنه كان - من حرصه - في ظلمة كالأعمى .
وقد يستمع المبهور بالحرص إلى مائة حكاية ، فلا تنفذ نادرة منها في أذن حرصه **!**

كيف بعث القاضي بالمنادين للطواف بمفلس حول المدينة

585 كان هناك رجل مفلس ، لا سكن له ولا دار ، فاستقر في سجن

....
(1) “ الشبه “ هو النحاس الأصفر .

وقيد لا فكاك منه ! وكان يأكل طعام رفاقه في السجن ، فأصبح بطمعه ثقيلا على قلوب الخلق ، كأنه جبل قاف .
فما كان أحد يجسر على أن يتناول لقمة ، ذلك لأن هذا الملتهم كان ينقضّ عليها ! وكل من كان بعيدا عن دعوة الرحمن ، فعينه عين متسول ولو كان سلطانا ! لقد داس هذا الرجل كل مروءة بقدميه ، وأصبح السجن جحيما من جراء هذا الجشع الأكول .

590 فلو أنك هربت على أمل في الراحة ، فقد تواجهك الآفة من ذلك الطرق أيضا ! فما من ركن خلا من الوحوش أو الفخاخ . وليست هناك راحة الا في خلوة الحق .
وحتى زاوية سجن الدنيا التي لا مفر منها ، ليست بدون أجر أو بلا تكلفة ! فوالله لو أنك نزلت في جحر فأر ، فهناك أيضا تكون مبتلى بمخالب القط .
ان الانسان ليتضخم جسمه من الخيال ، ان كانت خيالاته ذات جمال !

595 وان أظهرت له خيالاته ما يسوء ، ذاب كما ينصهر الشمع من النار ! فلو أنك كنت بين الحيات والعقارب ، وألقى الله في نفسك خيالات طيبة عنها ،

لأصبحت الحيات والعقارب مؤنسة لك . فان خيالك هذا يكون كالكيمياء للنحاس ! ان الصبر قد غدا بالخيال الجميل حلو المذاق . ذلك لأنه قد أقبل مبشرا بعلامات الفرج “ 1 “ .
وان الفرج ليأتي من ايمان الضمير . أما ضعف الايمان فيأس وعذاب .

600 والصبر يحظى بتاج من الايمان ، لأن من لا صبر له لا ايمان له .
ولقد قال الرسول : “ ان الله يهب الايمان لمن لم يكن الصبر في طبيعته “ “ 2 “ .
ان ذلك الشخص الذي يكون في عينك شبيها بالثعبان ، قد يكون صورة جميلة في نظر غيرك .
ذلك لأنه يتجلى لعينك خيال كفره ، على حين يتجلى لعين محبِّه خيال ايمانه .
وهاتان الصفتان تجتمعان في شخص واحد ، فحينا يكون سمكة ، وحينا يكون شصا !

605 فنصفه يكون مؤمنا ونصفه يكون كافرا ! نصفه يكون من الحرص ونصفه الآخر من الصبر ! ولقد قال تعالى : “ ان منكم مؤمنا ، كما قال أيضا ان منكم كافرا عريقا في كفره “ 3 “ .
فمثل هذا الانسان كثور نصفه الأيسر أسود ، ونصفه الآخر

....
(1) إشارة إلى القول المعروف : “ الصبر مفتاح الفرج “ .
(2) هذا ترجمة لمعنى الحديث : انظر لفظ الحديث في التعليقات .
(3) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : “ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير “ . (64 : 2) .

ابيض مثل القمر ! فكل من يرى هذا النصف فإنه يعرض عنه ، وأما من يرى النصف الآخر ، فإنه يسعى اليه ! لقد كان يوسف يبدو في أعين اخوته قبيحا كالبغل ، وهو ذاته كان في نظر يعقوب شبيها بالحور !

610 فالخيال القبيح هو الذي جعل العين الحسية وعين العقل المحتجبة تريانه قبيحا .
واعلم أن هذه العين الظاهرة ظلّ لتلك العين المحتجبة . فكل ما تراه عين الباطن ، تدور نحوه عين الظاهر .
وانك أيها الانسان مكاني ولكن أصلك في اللامكان . فلتغلق هذا الدكان ولتفتح ذلك الدكان .
فلا تهرب إلى هذا العالم ذي الجهات الست ، ففي هذه الجهات أسوأ مواقع أحجار النرد ، حيث تحق الهزيمة .

كيف شكا أهل السجن إلى وكيل القاضي من عدوان ذلك المفلس

فذهب أهل السجن يشكون أمرهم إلى وكيل القاضي ، وكان رجلا واسع الادراك .

615 قائلين : “ لتحمل سلامنا الآن إلى القاضي ، ثم أبلغه تأذينا من هذا الرجل السافل .
فلقد أقام بالسجن على الدوام هذا الرجل المتلاف المضرّ ! وهو كالذبابة حاضر في كل طعام ، يتصدى متوقحا بدون دعوة

أو سلام ! طعام ستين شخصا أمامه لا يعد شيئا ، وهو يصطنع الصمم لو قلت له “ كفاك ! “ فليس يجد رجل من السجناء لقمة . وإذا استطاع بمائة حيلة أن يجد شيئا يأكله .

620 غشيه في الحال هذا الجهنمي الحلق ، وكل حجته أن الله أمر البشر بقوله : “ كلوا . . . “ فلتخلِّصنا من ذلك القحط الذي دام ثلاث سنين ، وليدم الله ظل مولانا إلى الأبد ! فاما أخرجت من السجن ذلك الجاموس الأكول ، أو خصصت له مؤونة من أحد الأوقاف .
فيا من سعدت بك الذكور والا ناث ، أنصفنا بعد التك ، فإنك أنت المستغاث ! “ فتوجه إلى القاضي هذا الوكيل المهذب ، ونقل اليه شكاية هؤلاء ، بكل تفصيلاتها .

625 فاستدعى القاضي ذلك المفلس من السجن للمثول أمامه ، ثم استفسر عن حاله من كبار أعوانه .
فثبت لدى القاضي كل ما تقدم به هذا الجمع في شكايتهم .
فقال له القاضي : “ انهض من هذا السجن ، ولتتوجه إلى منزلك الموروث “ .
فقال المفلس : “ ليس لي منزل سوى احسانك . انني مثل الكافر ، وسجنك هو جنتي ! فلو أنك أخرجتني من السجن وأقصيتنى ، فلسوف أموت من الفاقة والكد “ .

630 فهو كإبليس الذي كان يخاطب الله بقوله :" أَنْظِرْني إلى يَوْم يُبْعَثُونَ " *" 1 " .
فاننى سعيد في سجن الدينا هذا ، حيث أنى هاهنا أقتل أبناء عدوى ! فكل من كان منهم صاحب قوت من الايمان ، أو يمتلك رغيفا تزود به للطريق ، فاننى آخذه منه ، تارة بالمكر وتارة بالخداع ، حتى تتعالى منهم صيحات الندم .
فأنا حينا أهددهم بالفاقة والمسكنة ، وحينا أحجب أبصارهم بغدائر الشعر والخال ! "

635 ان قوت الايمان قليل في هذا السجن ، والقليل الذي يوجد منه مهدد بعدوان هذا الكلب ! وقوت الذوق يتحقق بالصلاة والصيام وبمائة من أفعال الخضوع ، فيختلسه الشيطان دفعة واحدة !
أستعيذ الله من شيطانه * قد هلكنا آه من طغيانه " 2 "انه كلب واحد كلنه يجد سبيله إلى الألوف ! وكل من تطرق اليه الشيطان فقد أصبح هو الشيطان ! وكل من استشعرت منه البرودة فاعلم أن الشيطان كامن فيه ! ان الشيطان قد اتخذ من جلد هذا خباء !

640 وحين لا يجد الشيطان صورة فإنه يظهر لك في الخيال ، ليدفع خيالك إلى أن يقودك نحو الوبال .
فحينما هو خيال اللهو وحينا طيف الدكان . وطورا هو خيال العلم

....
(1) الأعراف ، 7 : 14 .
(2) هذا البيت عربى في الأصل .

وطورا خيال السكن والدار .
فحذار ، وأكثر من ذكر ربك في كل لحظة ، ولا يكن ذلك باللسان وحده ، بل بالروح ذاتها .
فقال القاضي للمفلس : “ أقم البينة على افلاسك “ . فأجاب بقوله : “ هاك أهل السجن شهداء على ذلك “ .
فقال القاضي : “ انهم متهمون في شهادتهم ، ذلك لأنهم يهربون منك ويبكون دما (من عدوانك) .
645 وهم جميعا يطلبون الخلاص منك ، فهذا الغرض ربما جعلهم يشهدون بالباطل “ .
فقال جميع أهل المحكمة : “ نحن أيضا شهود على افلاس هذا الرجل وعلى ادبار حاله “ .
وكل من سأله القاضي عن حال قال : “ أيها المولى ! انفض يدك من هذا الرجل “ .
فقال القاضي : “ طوفوا به حول المدينة وأعلنوا أن هذا مفلس ، وعربيد مسرف .
ونادوا معلنين أمره في جميع الطرق . واقرعوا طبل افلاسه في كل مكان .
650 فلا يبعه أحد قط نسيئا ، ولا يقرضه انسان قط دانقا .
فكل من يحضره اليّ هنا بدعوى احتيال ، فانى لن أبعث به بعد ذلك إلى السجن .
ان افلاسه قد أصبح ثابتا أمامى ، وليس في حوزته شئ قط ، لا نقد ولا بضاعة “ .

والانسان يقيم في حبس هذه الدنيا ، وذلك من أجل أن يثبت افلاسه .
وان الله قد نادى أيضا بافلاس إبليس في القرآن الكريم ،

655 قائلا : انه مخادع مفلس قبيح القول ، فلايكن أحد شريكا له ولا نديما ! وان فعلت ذلك ، ثم اتخذته عذرا لك ، فهو مفلس ، فأنى لك أن تنال منه ربحا ؟
وحين اشتعلت هذه الفتنة ، أحضروا جمل كردى كان يبيع الحطب .
فأخذ الكردي المسكين يصيح وينتحب ، كما أنه أسعد الموكل بدانق (على سبيل الرشوة) ، لكنهم أخذوا بعيره من وقت الضحى حتى الليل ، ولم يجد صراخه نفعا .

660 وجلس فوق الجمل ذلك القحط الكبير ، وأما صاحب الجمل فكان يجرى وراءه .
فسارعوا إلى الطواف به من ناحية إلى ناحية ، ومن شارع إلى شارع ، حتى عرفته كل المدينة عيانا .
وأمام كل حمام وكل سوق كان جميع الناس يتأملون شكله .
وكان هناك عشرة منادين من ذوى الأصوات الجهيرة ينادون بالتركية والرومية والكردية والعربية :
" ان هذا رجل مفلس لا يملك شيئا . فلا يقرضه أحد من الناس فلسا .

665 انه لا يملك مثقال حبة لا ظاهرا ولا باطنا ! انه مفلس زائف

مخادع ، وقربة منتفخة ! فحذار ، حذار . لا تتعاملوا معه . وحينما ترونه فأحكموا عقد أكياسكم “ 1 “ .
فان أنتم أحضرتم هذا الرجل المنحل إلى المحكمة ، فانى لن أرسل جثة إلى السجن .
انه لطيف القول ، لكن حلقه شديد الاتساع . يبدو مدثّرا بجديد الثياب ، لكنه من الداخل خلق الشعار “ 2 “ .
فلو أنه لبس هذا الثوب ليتخذ منه أداة للمكر ، فهو عارية اتخذها ليخدع عامة الخلق .

670 فلتعلم - أيها الرجل الطيب - أن لفظ الحكمة على لسان غير الحكيم ليس الا حللا مستعارة .
فاللص قادر على أن يرتدى الحلة ، لكن كيف يستطيع ذلك المقطوع اليد أن يأخذ بيدك ؟
وحين أقبل المساء ، نزل المفلس عن الجمل . فقال له الكردي ، ان منزلي بعيد ، وقد تأخر الوقت .
لقد ركبت جملي منذ الصباح . وقد سامحتك في الشعير ، فهل أقل من أن تدفع لي ثمن التبن ؟

....
(1) الشطر الثاني من البيت ترجم على أساس رواية مختلفة عن رواية النص ، ذكرها نيكولسون في حاشية النص ووجدناها آقرب إلى السياق .
ونص الشطر الثاني في هذه الرواية هو : “ جونكه بينيدش كره محكم كنيد “ .
(2) نص الشطر الثاني من البيت يبدو غامض المعنى . ولكننا لو قرأناه على النحو التالي : “ بادثار ذو شعار شاخ “ اتضح المعنى . وقد جعلنا هذه القراءة أساسا للترجمة . وبهذا ينسجم معنى البيت مع ما يليه .

فقال المفلس : “ وفيم كنا ندور حتى الآن ؟ وأين عقلك ؟ أليس في الدار أحد ؟ “

675 لقد بلغ طبل افلاسى أجواز السماء السابعة ، وأنت لم تسمع قط بسوء تلك الواقعة ؟
فالطمع الساذج قد سد منافذ أذنيك ، وانه - يا بنى - ليصم ويعمى ! فحتى اللَبنات والأحجار قد سمعت هذا البيان (الذي أخذ يردد) : “ ان هذا ان العربيد مفلس خاوى الوفاض “ .
لقد هتفوا بهذا النداء حتى المساء ، لكنه لم يطرق سمع صاحب الجمل ، لأنه كان ممتلئا حافل النفس بالطمع .
ان الله قد ختم على الأسماع والأبصار ! وكم من الصور ، وكم من الأصداء وراء الحجب !

680 وهو الذي يوصل إلى العين ما يشاء من الجمال ومن الكمال ومن نظرات المحبة .
وهو الذي يوصل إلى الاذن ما يشاء من الأنغام والبشائر أو من الصراخ .
ان الكون ملىء بالوسائل ولكنك تبقى بدون حيلة ، ما لم يفتح الله لك منفذا إليها .
ومع أنك قد تكون الآن غافلا عن تلك الحيلة ، فان الله يظهرها لك عيانا في وقت الحاجة .
ولقد قال الرسول ان الاله المجيد ، قد خلق لكل داء دواء .

685 لكنك - بدون أمره - لا تستطيع أن تهتدى إلى لون دواء علّتك ولا رائحته .
فتنبه - أيها الباحث عن العلاج - ووجه عينك نحو اللامكان ، كما تتوجه عين القتيل نحو الروح .
ان هذا العالم قد انبثق من اللامكان . ذلك لأنه من اللامكانية صار لهذا العالم مكان .
فلتعد ثانية من الوجود نحو العدم ان كنت ربانيا ، طالبا ربك .
ان هذا العدم هو مكان الدخل ، فلا تحد عنه ! أما هذا الوجود المنى على الزيادة والنقص ، فمكان الانفاق .

690 وما دام العدم هو مقرّ مصنع الحق ، فكل ما كان خارج هذا المقر فليس بذى قيمة .
فلتلهمنا بعض الكلام الدقيق ، الذي يستدّر منلك الرحمة ، أيها الاله الرفيق ! فالدعاء منك ، والا ستجابة أيضا منك . والأمان منك والهيبة أيضا تكون منك .
ولو نطقنا بالحظأ فأصلح أخطاءنا ، فإنك أنت المصلح ، يا سلطان الكلام .
ان لديك الكيمياء التي تبدل جوهره فلو كان نهرا من الدماء لجعلته نيلا !

695 ومثل هذه الأفعال الكيماوية بعض قدراتك ، كما أن أمثال هذا الإكسير من أسرارك .
لقد مزجت الماء بالتراب ، ومن الطين والماء صوّرت جسد الانسان .

ثم أعطيته نسبا ، وخالا وعما ، وألفا من الأفكار وسرورا وهما **!** ثم وهبت بعض الناس الخلاص ، ويسرت لهم البعد عن الهم والسرور .
وحملتهم بعيدا عن الأهل والأقارب وعن طبيعتهم الذاتية وجعلت كل جميل (في الدينا) يبدو في أعينهم قبيحا **!**

700 فكل من هؤلاء كان يرقض كل محسوس ولا يستمسك الا بما خفي (عن الحواس) .
فعشقه ظاهر ، وأما معشوقه فمحتجب . والحبيب في الخارج ، وأما الافتتان به ففي هذه الدنيا .
فلتتحرر من كل تعشق للصور ، حتى لا يكون لك تعشق لصورة ، ولا لوجه امرأة .
فالصورة ليست هي المعشوق ، وسواء في ذلك أكان العشق دنيويا أو أخرويا .
فذلك الذي تعشقته من أجل صورته ، لماذا تخليت عنه حينما فارقته الروح ؟

705 ان الصورة لم تبرح مكانها ، فلماذا هذا الانصراف ؟ أيها العاشق **!** ألا فلتعد إلى البحث عن معشوقك الحق **!** فلو كان المعشوق هو ذلك المحسوس ، لكان كل ذي حسن عاشقا له .
ومن شأن العشق أنه هو الذي يزيد الوفاء ، فكيف يتحول الوفاء ويتخذ صورة أخرى ؟
ان نور الشمس قد أشرق فوق جدار ، فاكتسب الجدار منها

نورا مستعارا .
فكيف سخرت قلبك لجدار من اللبن ، أيها الغرّ ؟ ألا فلتطلب الأصل الذي يضئ على الدوام .

710 وأنت ، أيها المتعشق لعقله ، يا من رأيت نفسك أعظم من عُبَّاد الصورة ! اعلم أن نور حسك قبس مستعار من نور العقل الكليّ . انه ذهب أشرق فوق نحاسك .
ان الجمال في البشر كقشرة التذهيب . والا فكيف صارت فاتنتك قبيحة كالمحار الهرم ؟
لقد كانت شبيهة بالملك ، فأصبحت مثل الشيطان ! ذلك لأن جمالها كان مستعار (ولم يكن ومن جوهرها) .
ان الخالق يأخذ هذا الجمال رويدا رويدا . وهكذا الغصن يمضى نحو الذبول رويدا رويدا .

715 فاذهب واقرأ قوله تعالى :" وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ في الْخَلْق "" 1 " ، واطلب القلب ، ولا تتلهف على العظام .
فجمال القلب جمال خالد ، شفتاه تسقيانك من ماء الحياة بل إنه هو الماء ، وهو الساقي ، وهو الثمل . فهذه الثلاثة تغدو واحدا حينما يتحطم طلسمك .
وانك لن تدرك هذه الوحدة عن طريق القياس . فابذل خضوعك ، وأقلل من الهراء ، أيها الخاوي من العرفان !

....
(1) يس ، 36 : 68 .

ان المعنى - عندك - ليس الا صورة مستعارة وما ابتهاجك الا بانسجام ظاهري شبيه بالقافية .

720 فالمعنى هو الذي يستوى عليك ، ويجعلك بدون حاجة إلى الصورة .
وليس المعنى هو الذي يجعل الانسان أعمى أصم ، ويزيد المرء تعشقا للصورة .
ان نصيب الأعمى هو ذلك الخيال الذي يضاعف الهموم .
أما نصيب العين فتلك الخيالات المنبعثة من فناء الذات .
وحروف القرآن هي الجوهر عند من فقدوا الابصار . فهؤلاء لا يرون الحمار ، ويوجهون ضرباتهم إلى السرج .
فان كنت بصيرا فامض وراء الحمار ، فقد فرّ . والا ، فإلى متى تحيك السرج ، يا عابد السرج !

725 فما دام الحمار موجودا ، فالسرج يكون لك يقينا . فالخبز لن ينقطع عنك ما دمت ذا روح .
ان ظهر الحمار دكان ومال وربح ! ودرّ قلبك هو الذخيرة لمائة من الأجساد ! فلتركب حمارا عارى الظهر ، يا أبا الفضول . أو لم يمتط الرسول حمارا عارى الظهر ؟
ان الرسول قد ركب الحمار بلا سرج . بل إنه أيضا قد سافر ماشيا .
لقد هرب حمار نفسك فاربطه في وتد . والا فإلى متى يهرب من العمل وحمل الأثقال .

730 ان عليه ان يحمل أعباء الصبر والشكر ، سواء أدام ذلك مائة عام أو ثلاثين أو عشرين .
وما حمل وازر قط وزر غيره . ولا حصد انسان شيئا قط إذا لم يزرع .
فهذا " 1 " طمع فجّ . فلا تأكل الفج يا بنى ، فان أكل الفج مسبب لا عتلال البشر .
(ولا تحدّث نفسك قائلا) : ان فلانا قد عثر بأحد الكنوز ، وانى أريد ذلك أيضا ، فلا عمل ، ولا دكان ! " فذلك شأن الحظّ ، وهو أيضا نادر . فالكسب واجب ما دام الجسم قادرا .

735 ومتى كان التكسب مانعا للكنز ؟ فلا تنسحب من العمل ، فالكنز ذاته في أعقاب ذلك .
ولا تغد أسيرا للفظة " لو " ، قائلا : " لو أنني فعلت هذا أو ذاك " .
فان الرسول رب الوفاق قد نهى عن قول " لو " ، وذكر أنها صورة من النفاق .
فالمنافق الذي قد لقى حتفه وهو يقول " لو " ، لم يظفر بسوى الحسرة من هذا القول .

مثـــل

كان غريب يفتش في عجلة عن منزل يقطنه ، فأخذه صديق إلى منزل خراب ،

....
(1) الإشارة هنا إلى توقع الحصاد بدون زرع .

740 وقال هذا الصديق : " لو أن هذا المنزل كان له سقف ، لكان لك مسكن في جواري ، وكان عيالك أيضا يستريحون فيه ، لو كانت في وسطه غرفة أخرى " .
فقال الغريب : " نعم ، ان من الخير أن يكون المرء بجوار أصحابه .
لكن أحدا - يا حبيبي - لا يستطيع أن يقيم في (لو) " .
ان جملة أهل الدنيا طلاب للسعادة . لكنهم في حجيم من الحرص على السعادة الزائفة .
وجملة الشيوخ والأحداث قد أصبحوا طالبين للذهب ، لكن أعين العامة لا تميز الذهب الأصيل من الزائف .

745 ان الذهب على الخالص قد أضفي التماعا على الزائف . فلا تتخير الذهب على أساس من الظن ، بدون محك .
فإن كان لديك محك فامض في اختيارك ، والا ، فاقصد عالما واجعل نفسك رهن اشارته .
فلا بد لك من محك في حنايا روحك ، فإن لم تكن تعلم ، فلا تمض في الطريق وحيدا .
ان صوت الغيلان يكون صوتا مألوفا . وتلك الألفة هي التي تجتذبك نحو الفناء ! انه صوت ينادى قائلا : " حذار أيتها القافلة ! تقدموا نحوى .
هاكم الطريق والصُوَى " 1 " .

....

(1) جمع صوة ، أحجار تكون دليلا على الطريق .

750 ان الغول ينادى كل شخص باسمه قائلا : “ يا فلان “ ، حتى يجعل هذا السيد من الآفلين .
فحين يصل إلى هناك يرى الذئاب والأسود . ويرى العمر ضائعا والطريق بعيدا ، والوقت قد تأخر .
فلتخبرنى ، كيف يكون صوت الغول ؟ انه “ أريد المال ، أريد الجاه والرونق ! “ وهذه الأصوات تزأر في باطنك . فلتمنعها حتى تتكشف لك الأسرار .
ولتذكر الله ، ولتبدد أصوات الغيلان ، ولتحجب نرجس عينيك عن هذا النسر (الجارح) “ 1 “ .

755 ولتميز كاذب الاصباح من صادقه . ولتفرق بين الكأس ولون النبيذ .
فعساك - بالصبر والمثابرة - ينبثق لك بصر روحي من هاتين العينين ، اللتين تبصران الألوان السبعة .
فترى بهما ألوانا غير هذه الألوان . وتبصر بهما الجواهر بدلا من الأحجار .
بل ما شأن الجواهر ؟ لعلك تصبح بحرا ، أو لعلك تبصير شمسا تذرع الفلك ! ان الصانع قد احتجب في مصنعه ، فادخل في هذا المنصع تر الصانع عيانا .

....
(1) يشبه الأطماع التي تحجب الابصار بنسر جارح يعدو على العيون فيقتلعها بمخالبه .

760 ولما كان الصنع قد نسج ستارا حول الصانع فإنك لن تستطيع أن تراه خارج صنعه .
ولما كان المصنع هو محل وجود الصانع ، فكل من كان خارجه فقد غفل عن الصانع .
فلتدخل في هذا المصنع ، وأعنى به العدم حتى ترى الصنع والصانع معا .
ولما كان المصنع هو مكان الشهود الواضح ففي خارجه يكون احتجاب الأبصار .
ان فرعون العنيد قد اتجه إلى تأكيد هذا الوجود المحسوس ، فلا جرم أنه كان أعمى عن ذلك المصنع .

765 ولا جرم أنه أراد تغيير القدر ، حتى يحول القضاء عن بابه **!** على حين كان القضاء ذاته يكتم في كل لحظة سخريته من شوارب ذلك المحتال **!** لقد قتل الآلاف من الأطفال الأبرياء حتى يتحول عنه حكم الاله وتقديره **!** لقد ارتكب الآلاف من المظالم وإراقة الدماء ، حتى لا يظهر في الدنيا موسى الرسول .
لقد أراق كل هذا الدم ، ومع ذلك ولد موسى ، وجئ به إلى الدنيا لقهر فرعون .

770 ولو أنه كان قد أبصر مصنع الاله الخالد ، لجمدت يداه وساقاه عن اصطناع الحيلة .
فقد كان موسى ينعم في منزل فرعون بالعافية ، على حين كان

فرعون في الخارج يقتل الأطفال جزافا ! وهكذا يكون صاحب النفس الأمارة الذي يبالغ في رعاية الجسد . ويظن بسواه ظن الحقد والضغينة .
قائلا : “ ان هذا عدو ، وذاك حسود بغيض ! “ وليس له من حسود ولا عدو سوى ذلك الجسد .
انه مثل فرعون ، وجسمه يكون له بمثابة موسى ، وهو يعدو في الخارج هاتفا “ أين العدو ؟ “

775 ونفسه الحسية تقبع مدللة في منزل البدن ، على حين أنه يعض يده في حقده على غيره !

كيف لام الناس شخصا على قتل أمه لا تهامه إياها بالزنى

ان الحنق قد دفع ذلك الشخص إلى أن يقتل أمه ، وذلك بطعنات خنجره وضربات قبضته ! فقال له أحد الناس : “ انك لخبث جوهرك لم تتذكر ما للأمومة من حق عليك ! لماذا قتلت أمك ؟ خبرني . قل لي ماذا صنعت ، أيها الخبيث الطبع ! “ فقال القاتل : “ لقد فعلت أمرا فيه عارها ، فقتلتها لأن في التراب سترا لها “ .

780 فقال : “ فلتقتل ذلك الرجل ، أيها الهمام ! “ فقال القاتل :
“ سيكون على اذن أن أقتل كل يوم رجلا !

لقد قتلتها فخلصت من دماء الخلق ! لقد قطعت حلقها ، وذلك خير من ضرب أعناق الخلق ! " ان نفسك الحسية هي تلك الأم الخبيثة الطباع ، التي شارع فسادها في كل ناحية .
فلتقتلها فإنك من أجل هذه النفس الدنيئة تعتيد في كل لحظة على عزيز .
وبها أصبحت هذه الدنيا الجميلة ضائقة بك . ومن جرائها لك مع الحق ومع الخلق صراع !

785 فلو أنك قتلت النفس الحسية لخلصت من الاعتذار ، ولم يبق لك عدو في هذه الدنيا .
فلو أن أحدا أثار حول قولنا هذا اشكالا فيما يتلعق بالأنبياء .
والأولياء ، قائلا : " ألم تكن النفس الحسية قتيلة عند الأنبياء ؟ فلماذا كان لهؤلاء أعداء وحساد ؟ " فلتصغ الآن يا طالب الصواب ، ولتستمع إلى ما لمشكل هذه الشبهة من جواب :
ان هؤلاء المنكرين كانوا أعداء لأنفسهم . ولهذا فقد وجهوا إلى أنفسهم مثل هذه الضربات .

790 فالعدو هو الذي يتهجم على روح سواه ، وليس بعدو من تصدى لذات روحه .
فالخفاش الحقير ليس عدو للشمس . لكنه في حجابه عدو لنفسه ! فاشراق الشمس هو الذي يقتله . ولكن ، هل كانت الشمس

تتحمل منه قط عناء ؟
ان العدو هو ذلك الذي يجئ منه العذاب . انه ذلك الذي يحجب عن العقيق ضياء الشمس .
وجميع الكافرين هم حاجبوا أنفسهم عن ذلك الشعاع الذي يفيض من جوهر الأنبياء

795 وكيف يكون الخلق حجابا لبصر ذلك الفريد (الملهم) ؟ ان هؤلاء قد أصابوا أعينهم بالعمى أو زيغ البصر .
انهم كالغلام الهندي الذي يحقد على سيده فيقتل نفسه ليغيظ هذا السيد .
فهذا يسقط فوق رأسه من سطح القصر ، وذلك ليلحق الأذى بسيده .
فلو أن المريض سلك سبيل العداوة مع الطبيب ، ولو أن الطفل وجه عداءه لمعلمه ، فكلا هما في الحقيقة لا يقطع الطريق الا على نفسه ، وكلاهما يغلق أمام نفسه طريق العقل والروح .

800 فلو أن غاسل الثياب غضب على الشمس ، والو أن السمكة غضبت على الماء ، فانظر أيا منهما يحيق به الضر وأيا تكون عاقبته سواد الطالع من جراء ذلك ! فإن كان الحق قد خلقك قبيح الوجه ، فحذار ، ولا تجمع إلى قبح الوجه قبح الطبع ! وان حرمك النعل فلا تمش في المحاجر ، وان كنت منشعبا شعبتين فلا تنفسم إلى شعب أربع .

وانك لتجهر بالحسد قائلا : “ أنا أقل من فلان ! ها هوذا طالعى يزداد انحدارا “ .

805 فالحسد ذاته نقصان وعيب آخر ، بل إنه لأسوأ من جميع النقائص .
ان ذلك الشيطان - حين شعر بسوء السمعة والعار من تخلفه (عن آدم) - أوقع نفسه في مائة نقص وحرمان ! فالحسد قد جعله يطلب بلوغ القمة . ولكن أية قمة ؟ لعلها قمة اهراق الدماء ! وكذلك أبو جهل استشعر العار من تفوق محمد ، ودفعه الحسد إلى أن يتعالى بنفسه إلى القمة ، وكان اسمه أبا الحكم فصار أبا جهل . وكم من فاضل جعله الحسد عديم الفضل !

810 وانى لم أر في عالم السعي والطلب كفاءة قط خيرا من جمال الطبع .
ولقد جعل الله الأنبياء واسطة بينه وبين الخلق ، لكي يظهر ما كمن فيهم من الحسد ، بقلقهم (إزاء بعث الرسل) .
ذلك لأنه لا أحد يشعر بالعار من الخضوع لله ، وما من مخلوق على الأرض يكون حاسدا للخالق .
فالانسان يظن الرسول شخصا شبيها به ، ولهذا السبب فإنه يحمل له السحد .
أما وقد أصبحت عظمة الرسول من الأمور المقررة ، فإنها لم تعد تثير الحسد في نفس انسان ، بعد أن لقيت منها القبول .

815 وليس يخلو أي دور من ولى قائم . وسيبقى امتحان الخلق حتى القيامة .
وكل من كان له طبع حميد فقد نجا ، وأما من كان ذا قلب هش كالزجاجة فقد تحطم .
فالامام الحي القائم هو ذلك الولي ، سواء أكان من نسل عمر أم من نسل علىّ .
انه المهدىّ والهادي ، أيها الباحث عن الطريق ! وهو محتجب عنك وفي ذات الوقت
جالس في مواجهتك ! وهو مثل النور ، وأما العقل فهو له بمثابة جبريل . والولىّ الذي
هو أدنى درجة منه كالقنديل ، يستمد منه النور .

820 وأما ما هو أقلّ من هذا القنديل فمشكاتنا . وللأنوار درجات في مراتبها .
ذلك لأن نور الحق له سبعمائة حجاب . واعلم أنّ هذه الحجب شبيهه بطباق متعددة .
ووراء كل ستار مقام لقوم ، وكل قوم مصطفون وراء ستارهم (في تدرج) حتى
الامام .
وأهل الصف الأخير - لضعفهم - لا تطيق أعينهم مواجهة النور الذي أمامهم .
أما أهل ذلك الصفّ السابق على ضعاف البصر ، فهم لا يحتملون المتاع النور إذا زاد
تقدمهم .

825 والنور الذي هو حياة أول الخلق (وأعلاهم مقاما) يكون عناء لروح ذلك
الأحول ، وفتنة له .
لكنّ الحول يتناقص قليلا ، قليلا فإذا ما تجاوز المرء الأستار السبعمائة أصبح بحرا .

فالنار التي بها صلاح الحديد أو الذهب كيف يكون بها صلاح السفرجل أو التفاح الرطب ! فللتفاح وللسفرجل وكيان خفيف ، وهو - على خلاف الحديد - يتطلب نارا لطيفة .
لكنّ مثل هذه الشُعلات تكون ضعيفة بالقياس إلى الحديد ، فإنه جاذب للهيب ذلك التنين .

830 وذلك الحديد هو الدرويش الذي يتحمل المشاق . وهو تحت المطرقة والنار أحمر الوجه سعيد ! فهو حاجب النار ، يغشاها بدون واسطة ، ويخوض في قلبها من غير أن تربطه بها رابطة .
ان الماء وأبناء الماء لا ينالون من النار - بدون حجاب - طبخا ولا جدوى .
وهذا الحجاب يكون قدرا أو طاسا ، كما أنّ النعل وسيلة السير للقدم .
أو يكون مكانا بين النار والماء حتى يغدو الهواء ساخنا ويحمل الحرارة إلى الماء .

835 فالفقير هو ذلك الذي يكون بلا واسطة ، فيكون للنيران اتصال مباشر بكيانه .
فهو قلب العالم ، الذي بوساطته يتحقق للجسد أداء مهمته بفن .
ولو لم يوجد القلب ، فيكف كان الجسد يعرف القيل والقال ؟
شو لو لم يبحث القلب فهل كان الجسد يعرف البحث والتحري ؟
فموضع شهود الشعاع هو ذلك الحديد . وموضع شهود الله هو

القلب لا الجسد .
وهذه القلوب الجزئية أيضا - إذا قيست بقلب العارف - تبدو شبيهة بالأجساد ، فقلب العارف هو المعدن الصافي .

840 ان هذا الكلام يتطلب الكثير من الأمثلة والشرح ، لكنني أخشى - (لو طال الكلام) - أن تتعثر أوهام العَوام .
وقد تصبح من جرائه كل محاسننا مثالب ! وهذا الذي قلته لم يكن الا عن تجرد من الذاتية .
فخير للقدم الأعوج أن يكون نعله أعوج . وما للمتسول من مكان الا عند الباب .

كيف امتحن الملك هذين الغلامين
الذين كان قد اشتراهما قبل فترة وجيزة

ان الملك اشترى غلامين فاضلين ثم أخذ يكلم أحدهما ، ويسمتع اليه .
فوجده ذكيّ القلب ، حلو الجواب . وما الذي ينبع من الشفة السكرية ؟ انه السكر المذاب !

845 فالمرء مخبوء وراء لسانه . وما هذا اللسان الا الستار الذي يحجب بهو الروح .
فإذا ما عصفت الريح بهذا الستار ، تجلى لنا ما كمن في صحن الدار .
وهل بها جوهر أو قمح ، أو كنز من الذهب ؟ أم أنها مثوى للحيات والعقارب ؟

أم أن بها كنزا والى جانبه ثعبان ؟ ذلك لأن كنز الذهب لا يكون بدون حارس .
لقد كان هذا الفتى يلقى الكلام بدون تأمل . مثلما يلقيه سواه إذا تأمل خمسمائة مرة .

850 فكأنما كان في باطنه بحر ، وهذا البحر كله كان يقذف بالجوهر ! وكأنما نو ركل جوهرة انبثقت منه كان فرقانا بين الحق والباطل ! وهكذا نور الفرقان بالنسبة لنا . انه يفصل الحق عن الباطل ذرة ذرة .
ولقد صار نور الجوهر نورا لأعيننا . فكان منا السؤال وكذلك كان منا الجواب .
فان نظرت بعين حولاء رأيت القمر قمرين . فهذا النظر المشتبه مثل السؤال .

855 فسدد بصرك نحو القمر ، لتراه واحدا ، وهذا هو الجواب .
وقل لفكر : " لا تكن منحرف الابصار ، بل أحسن التأمل ! " فالفكر هو شعاع ذلك الجوهر .
فكل جواب دخل إلى القلب عن طريق الأذن تقول لك عنه العين :
" دعك من هذا ، واستمع اليّ ! " فالأذن سوقية ، وأما العين فأهل للوصال . العين من أصحاب الحال ، وأما الأذن فمن أهل المقال .
وفي استماع الاذن تبديل الصفات . وأما شهود العين ففيه تبديل الذات !

860 فلو أن علمك بالنار أصبح يقينا من قول (سمعته عنها) فأولى بك أن تصلاها لا أن تلزم هذا اليقين .
فما لم تحترق فإنك لن تعاين اليقين . وان أردت اليقين فاجلس في صميم النار ! والأذن حين تكون متفتحة تغدو عينا . والا فان الذكر يغدو بها ملتويا ، غامضا .
وليس لهذا الحديث نهاية ، فلتعد لنرى ماذا كان من أمر الملك مع غلمانه .

كيف صرف الملك واحدا من غلاميه وسائل الآخر

ان الملك - حين رأى هذا الغلام من أهل الذكاء - أشار إلى الغلام الآخر أن يقدم نحوه .

865 وليس ذكرى الغلام بكاف “ 1 “ الرحمة تصغيرا له : فقول الجَد : “ يا بنـيّ “ ليس من قبيل التحقير .
وحين مثل ذلك الغلام الآخر أمام الملك ، كان نتن الفم أسود الأسنان .
ومع أن الملك قد ضاق بأنفاسه النتنة ، فإنه أخذ يستجلى خفـيّ أسراره .
فقال له : “ نظرا لما أنت عليه من شكل (زرىّ) ، وخبث أنفاس ، اجلس بعيدا ، ولكن لا تنصرف !

....
(1) أشار الشاعر إلى الغلام في البيت السابق بكلمة “ غلامك “ والكاف التي تلحق بآخر الفارسية تفيد التصغير أو الرثاء .

فإنك لي كاتب ومحرر ، وليست لي جليسا وصاحبا ورفيقا .

وانى لمحدث علاجا لفمك هذا ، فأنت لي حبيب ، وأنا لك خير طبيب .
فليس بلائق أن يحرق بساط جديد من جراء برغوث ، فهذا منك اغلاق للعين .
فمهما يكن فلتجلس ولتحدثنا بقصتين أو ثلاثا ، حتى نرى بجلاء صورة عقلك “ .
ثم صرف غلامه الذكي الذي ما يشغله . . . إلى حمام . وأمره بأن ينطف جسده .
ثم قال للغلام الآخر : “ وأنت يأها الذكىّ . انك بحق مائة غلام ، لا غلام واحد !

انك لست كما اظهرك لنا رفيقك هذا ! فهذا الحسود قد . جعلنا نلقاك بيرود !
لقد قال عنك انك لص ، منحرف سىء السيرة خسيس عديم الرجولة ، إلى غير ذلك من الصفات “ .
فقال الغلام : “ لقد كان دائما صادق القول . وانى لم أر مثيلا له في صدق القول !
وصدق القول خلق راسخ في جبلته . فهما يكن من قوله فليس بخال من الصدق .
ولست أعلم اعوجاجا عند هذا النزيه الفكر . بل انى ازاءه لأتهم ذاتي !

فلعله يرى بي عيوبا لا أراها أنا في ذاتي ، أيها المليك ! “ .

وكل من أبصر عيوبه قبل عيوب الآخرين ، كيف يبقى لاهيا عن اصلاح ذاته ؟
فهؤلاء الخلق غافلون عن أنفسهم ، أيها الوالد . فلا جرم أن كلا منهم مشغول بعيب سواه .
انني - أيها السمنى - لا أرى وجهي ، بل أرى وجهك وأنت ترى وجهي .
وأما ذلك الشخص الذي يرى وجه ذاته ، فنوره أجلى من نور مخلوقات الله !

885 فان يمت فابصار يظل باقيا ، ذلك لأن بصره يكون بصر الخالق .
فليس من الحس ذلك النور الذي يبصر به وجه ذاته ماثلا أمامه .
قال الملك : " الآن فلتذكر لي عيوب رفيقك ولتفعل مثلما فعل حين حدثني بعيوبك .
وذلك لأعلم أنك رؤوف بي ، وأنك أمين على ملكي وأعمالى " .
فقال الغلام : " أيها الملك . انى ذاكر لك عيوبه ، مع أنه بالنسبة لي نعم الرفيق !

890 ان عيوبه هي الحب والوفاء والرجولة ! عيوبه هي الصدق والذكاء والوفاق !
شو أقل عيوبه الجود والانصاف ، ذلك الجود الذي لا يضنّ حتى بالروح .
ان الخالق هو الذي أبدع الألوف من الأرواح ، فأىّ جود يكون عند من لم يبصر ذلك ؟
فان أبصرها فمتى كان يبخل بالروح ؟ وكيف كان يغتم حزنا على روح واحد ؟

ان الذي يبخل بالماء عند شاطىء النهر ، هو ذلك الذي لا يبصر الماء في النهر .

895 ولقد قال الرسول : ان المرء لو علم علم اليقين ما يكون له من جزاء يوم الدين ، وأنه يُجزى عن كل حسنة بعشرة أمثالها " 1 " ، لا نبعث منه في كل لحظة جود جديد " 2 " .
ان الجود جمعيه منبعث من رؤية الجزاء ، فادراك الجزاء اذن مضاد للخوف (والحرص) .
وأما البخل فهو عجز عن ابصار الجزاء . ان رؤية الدر هي التي تسعد الغواص .
وعلى هذا فان العالم ليس فيه من هو بخيل ، فان أحدا لا يقامر بشئ لا يرجو له بديلا .

900 فالسخاء يأتي من العين لا من اليد . والرؤية هي التي تنفع ، وليس بناج سوى البصير .
" (ولرفيقى) عيب آخر هو أنه برئ من الغرور . وهو دائم البحث عن العيب في كيانه الذاتي .
انه دائما يعيب ذاته ويتقصى عيوبها . وكان دائما رحيما بجميع الناس قاسيا على نفسه . "
فقال الملك : " كفاك مغالاة في مدح رفيقك ! ولا تمتدح ذاتك في سياق مدحك إياه !

....

(1) انظر : سورة الأنعام ، 6 : 160 .
(2) لم أعثر على نص الحديث الذي يشير اليه الشاعر .

فلسوف أضعه موضع الاختبار ، ولربما يعتريك الخجل من جراء ذلك " .

كيف اقسم الغلام لطهر ظنه على صدق رفيقه ووفائه

905 فقال الغلام : " لا وربىّ ! أقسم بالله العظيم ، مالك الملك الرحمن الرحيم .
ذلك الاله الذي أرسل الأنبياء ، لا لحاجة يبتغيها ، بل بفضل وكبرياء .
ذلك الا له الذي خلق من التراب الذليل فرسانا مغاوير ! وطهرهم من مزاج أبناء التراب ، وجعلهم يرتقون فوق عوالم الأفلاك ! والذي خلق النور الصافي مجردا من النار ، فإذا به يتفوق على كافة الأنوار ،

910 ذلك النور البارق الذي أشرق على الأرواح ، فإذا بآدم يقتبس منه العرفان .
وقد حصدت يد شيث ما أنبته آدم ، فلما رأى آدم ذلك أسند اليه خلافته .
ونوح أيضا كان بتلك الجوهرة جديرا ، فكم كان يمطر الدر في جواء بحر الروح !
وروح إبراهيم قد حفلت بتلك الأنوار الهائلة فخاضت لهيب النيران بدون خوف أو حذر .

وإسماعيل - إذ كان قد ارتمى في مجرى هذه الأنوار - أسلم رأسه إلى النصل البارق (في كف أبيه) .

915 وروح داوود حميت بشعاع تلك الأنوار ، فلان الحديد في يده ، وكانت في النسيج صناعا " 1 " .
وسليمان إذ شب على وصال تلك الأنوار ، أصبحت الجن طائعة له ، عبيدا لأمر .
ويعقوب إذ أسلم للقضاء رأسه ، رد لعينيه النور بشذى ولده **!** ويوسف البدري المحيا حين رأى تلك الشمس ، أصبح هكذا يقظ الفؤاد في تعبير الرؤيا .
والعصا حين شربت الماء من كف موسى بلعت في لقمة واحدة ملك فرعون **!**

920 وعيسى بن مريم حين وجد سلما إلى هذه الأنوار ، سارع إلى أفق السماء الرابعة .
وحين تحقق لمحمد ذلك الملك والنعيم ، شق في لحظة قرص القمر نصفين .
وأبو بكر حين صار آية للتوفيق ، أصبح صاحبا لمثل هذا المليك ، وصديقا .
وحينما أصبح عمر ثملا بهذا المعشوق غدا مثل القلب فاروقا بين الحق والباطل .
وعثمان إذ أصبح شاهدا لهذا العيان ، غدا نورا فياضا ، وسمى بذى النورين .

....
(1) إشارة إلى براعة داوود في صناعة الدروع من زرد الحديد .

925 والمرتضى (علىّ) حين أصبح - بفضل شهود محياه - بالغ الجود “ 1 “ ، صار في مرج الروح أسد الله .
والجنيد حين رأى من جنده ذلك المدد ، أضحت مقاماته أكثر من أن تعدّ .
وبايزيد قد أبصر الطريق بمزيد (عرفانه) ، فأسماه الحق بقطب العارفين ! وحينما أصبح الكرخي حارسا لمدينته ، صار خليقة العشق وغدا ربانىّ الأنفاس .
وابن أدهم ساق مركبه سعيدا نحو هذا الجانب ، فأصبح لسلاطين العدل سلطانا .

930 وشقيق حين شق ذلك الطريق العظيم ، صار شمس الرأي وغدا حديد البصر .
وما أكثر من احتجب عنا من هؤلاء الملوك ، مع أنهم من ذوى المقامات العالية ، في ذلك العالم الروحي ! ولقد حجبت غيرة الحق أسماء هؤلاء ، ولهذا فان أهل الفاقة الروحية لا يهتفون بتلك الأسماء .
فبحق ذلك النور ، وبحق هؤلاء النورانيين ، الذين هم كالأسماك في هذا البحر . . .
هذا البحر الذي لو أسميته “ بحر الروح “ أو “ روح البحر “ ما وفيته حقه . وانى لملتمس له اسما جديدا !

935 بل بحق من أخرج إلى الوجود هذا وذاك ومن تكون الألباب

....
(1) حرفيا : “ ناثر الدر “ .

بالنسبة اليه مثل القشور . . .
ان صفات رفيقي وصديقي هذا ، أفضل مائة مرة مما أقوله عنها ! بل إن ما اعرفه عن وصف ذلك النديم ، لن يتسنى لك تصديقه ، ان ذكرته لك أيها الكريم " .
فقال الملك : " الام تحدثني بهذه الصفة أو تلك من صفات رفيقك ؟ ألا فلتحدثنى الآن عن نفسك .
ماذا تملك ، وماذا حصَّلت ؟ وأي درّ قد جلبته من أعمال البحر ؟

940 ففي يوم الموت يغدو حسُّك هذا باطل فهل لدى روحك نور يكون رفيقا لقلبك .
وحين يملا التراب في اللحد هاتين العينين ، هل لديك ما ينير لك القبر ؟
وحينما تتمزق يداك وقدماك . أتكون لك قوادم وخوالف تحلق بها روحك ؟
فما دام هذا الروح الحيواني لا يبقى لك ، فمن الواجب أن ترسى كيان روحك الباقي .
والشرط في قوله تعالى :" مَنْ جاءَ بالْحَسَنَة " *" 1 " ليس الفعل في ذاته ، بل هو تقديم الفعل إلى الله .

945 وهل لديك جوهر انسان أو حمار ؟ وكيف تحمل هذه الأعراض الفانية (إلى الخالق) ؟
فهذه الأعراض من صلاة وصيام ، ما دامت لا تبقى زمانين فقد انتفت .

....
(1) انظر : سورة الأنعام ، 6 : 160 .

فلست بمستطيع ان تنقل الأعراض ، لكنها تنقى الجوهر من الأمراض .
فيتبدل الجواهر بهذه الأعراض ، كما تزول بالحمية الأمراض .
وان عرض الحمية ليغدو بالجهد جوهرا ، كما يغدو الفم المر بالحمية حلوا كالشهد .

950 فالزراعة تجعل من التراب سنابل . ودواء الشعر يجعل من الشعر سلاسل .
ونكاح المرأة كان عرضا وقد انتهى ولكن جوهر الأبناء قد تحقق لنا عن طريقة .
وتزاوج الخيل والجمال ليس الا عرضا ، والغرض منه انجاب الصغار ، وهذا هو الجوهر .
وزراعة البستان أيضا هي عرض ، وأما الجوهر فحصاد البستان ، وهذا هو الهدف .
واعلم أن ممارسة الكيمياء لون من الأعراض ، فإذا تحقق منها جوهر فحصله .

955 والصقل أيضا عرض ، أيها الكريم ! ومن هذا العرض يتولد الجوهر صافيا .
فلا تقل : " انني قد قدمت أعمالا " ، بل أظهر حصاد هذه الأعراض ، ولا تحد عن ذلك .
فهذه الأعمال الموصوفة عرض ، فالزم الصمت ، ولا تذبح ظل العنزة لتقدمه قربانا !
" فقال الغلام : " أيها الملك ! ان قولك بامتناع نقل الأعراض لا يحقق الا قنوط العقل .

أيها الملك .
ان كانت الأعراض التي ذهبت لا تعود ، فليس أمام العبد الا اليأس .

960 فلو لم يكن اللأعراض انتقال وحشر ، فما الأفعال الا باطل وما الأقوال الا هراء
“ 1 “ ان هذه الأعراض تنقل ولكن بلون آخر . وحشر كل فان يكون بصورة مختلفة .
ونقل كل شئ يكون على ما يليق به . وليس يلائم القطيع الا سائقه .
فلكل عرض صورة في يوم الحشر . وصورة كل عرض لها دورها (في الظهور) .
وانظر إلى ذاتك . أولم تكن أنت أيضا عرضا ؟ أولم يكن كذلك الميل إلى النكاح ، ثم النكاح بما ينطوى عليه من غرض ؟

965 وانظر إلى تلك الديار والقصور . ألم تكن هذه في ذهن المهندس خيالا ؟
فهذه الدار التي نراها جميلة ، متوازنة الصفة والسقف والباب ، كانت عند المهندس خيالا عارضا ، وفكرا جَلَب من أصحاب الحرف الآلة والعمد .
وما أصل كل حرفة وأساسها ؟ انه ليس سوى خيال ووهم عارض وتفكر .
فانظر بتجرد إلى جملة أجزاء العالم . وانظر كيف أنها لم تتحقق الا من العرض .

....
(1) استعمل الشاعر هنا كلمة “ فشر “ ، وهي شائعة في اللهجة المصرية الحديثة .

970 فما كان في أول الأمر فكرا أصبح في النهاية عملا . واعلم أن بناء العالم جاء على هذا النحو منذ الأزل .
فالثمار تكون أول الأمر فكرا بالفؤاد ، لكنها - من الوجهة العملية - تظهر في النهاية .
فأنت حين عملت وغرست الأشجار ، كنت تطالع في الحرف الأول نهاية قصتك .
ومع أن أول الشجرة أصل وأغصالن وأوراق ، فهذه كلها مرسلة من أجل الثمار .
فالسر الذي كان لباب هذه الأفلاك، أسفر في النهاية عن سيد حديث " لولاك " "1".

975 فهذا البحث والمقال لنقل الأعراض . وهكذا أيضا هذه الأسد وابن آوى .
لقد كان جميع أهل هذا العالم أعراضا ، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى :" هَلْ أَتى عَلَى الْإنْسان حينٌ منَ الدَّهْر لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً "" 2 " فمن أين تولدت هذه الأعراض ؟ من الصور ! وهذا الصور أيضا من أين تولدت ؟ من الفكر ! فهذا العالم ليس الا فكرة من العقل الكلىّ . فالعقل مثل المليك وأما الصور في الرسل .

....
(1) يقصد الرسول عليه السلام الذي يرى الصوفية انه المقصود بالحديث القدسي القائل " لولاك ما خلقت الأفلاك " .
(2) الانسان ، 76 : 1 .

والعالم الأول هو عالم الامتحان ، وأما العالم الثاني فعالم الجزاء على هذا وذاك .

980 فخادمك - أيها الملك - يرتكب جناية ، فيصبح هذا العرض قيدا وسجنا .
وإذا صنع خادمك فعلا حميدا ، أفلا يصبح هذا العرض خلعة ينالها جزاء لسعيه ؟
فهذا العرض مع الجوهر كالبيضة مع الطائر ، تلك تجيء من ذاك .
وذاك يجئ من تلك ، على التوالي “ .
فقال الملك : “ فلنفترض أن هذا هو المراد . فلماذا لم تنجب أعراضك جوهرا واحدا ؟
“ فقال الغلام : “ ان العقل (الكلىّ) قد أراد الخفاء لهذا ، حتى يبقى غيبا في عالمنا ، عالم الخير والشر !

985 فإنه لو كانت تتضح أشكال الفكر ، لما نطق الكافر والمؤمن الا بالذكر .
انه لو كانت هذه تتجلى ولا تحتجب . . . لو كان نقش الكفر والدين يرتسم على الجبين ، فهل كان يبقى في هذا العالم صنم أو عابد للصنم ؟ وهل كان انسان يجترىء على السخرية ؟
ولكانت دينانا هذه كعالم القيامة . ومن ذا الذي يقترف الجرم والخطأ يوم القيامة ؟
“ فقال الملك : “ ان الله قد حجب جزاء الاثم ، لكن هذا الحجاب مقصور على العامة ، ولا يمتد إلى خواص الله .

990 فلو أنني أوقعت في الأسر أميرا لأخفيته عن الامراء الآخرين ، وليس عن الوزير .
فالحق قد أظهر لي جزاء العمل ، كما كشف لي ألوفا من صور الأعمال .
فاذكر لي علامة واحدة ، أعلم منها كل شئ فان الغمام لا يحجب البدر عنى “ .
فقال الغلام : “ فما الذي تريده من قولي ، ما دمت عليما بكل ما كان ؟ “ .
فقال الملك : “ ان حكمة اظهار الدنيا كان في جعل المعلوم عيانا ظاهرا !

995 والخالق قبل ان يُظهر ما كان قد علمه ، لم يُلق على الخلق ألم الخاض وعناءه .
وانك الست بمستطيع أن تجلس لحظة واحدة بدون عمل بدون أن ينبثق منك شر أو خير .
وهذه الدوافع إلى الأعمال انما هي موكلة بك لتجعل من سرك عيانا .
فأنى يتحقق السكون “ لبكرة الخيط “ التي هي الجسد ، حينما يكون الضمير هو الذي يجذب طرف الخيط ؟
والقلق الذي تعانيه هو علامة ذلك الجذب . وان خلوك من العمل ليكون عندك شبيها بنزع الروح .

1000 فهذا العالم وذلك العالم يلدان على الدوام . وكل سبب أم وهذه تلد الأثر .

وحينما يولد الأثر يصبح هو الآخر سببا ، حتى تتولد منه الآثار العجيبة .
فهذه الأسباب سلالات يتبع بعضها بعضا . والعين (التي ترى ذلك) يجب أن تكون مضيئة نافذة الابصار " .
ولقد وصل الملك في حديثه مع الغلام إلى هذا الحدّ ، حتى أبصر في علامة لم تكن ظاهرة .
ولئن أبصرها ذلك الملك المتطلع فليس هذا ببعيد . لكننا لسنا في حل من ذكر ما أبصر .

1005 وحينما عاد الغلام الآخر من الحمام ، دعاه هذا الملك الهمام إلى الاقتراب منه .
وقال له : " صحة لك ونعيم دائم ! كم أنت لطيف ظريف مليح الوجه ! أواه لم يكن فيك ذلك الذي يذكره عنك فلان . . .
لأصبح سعيدا كل من شهد وجهك ، فان رؤية وجهك تعدل ملك الدنيا ! " فقال الغلام : " ألا فلتذكر لي - أيها الملك - إشارة لما ذكره عنى ذلك الخرب الدين " .

1010 فقال الملك : " ان أول وصفه لك أنك ذو وجهين وأنك في الظاهر دواء ، وفي الخفاء بلاء ! " فحينما استمع من الملك إلى خبث رفيقه جاش على الفور بحر غضبه . وأزبد ذلك الغلام واحمر لونه ، حتى تجاوز موج هجائه كل حدّ !

وقال : “ انه منذ أول لحظة ترافقنا بها ، كان يأكل الروث كالكلب ابان القحط “ .
فلما تتابع منه الهجو تتابع دقات الجرس ، أطبق الملك بيده على شفتى الغلام ليسكته .

1015 وقال : “ انني قد استطعت بذلك أن أمير بينك وبينه . ان النتن في روحك ، وأما هو فالنتن في فمه .
فلتجلس بعيدا عنى أيها النتن الروح ، حتى يكون هو الأمير وتكون أنت المأمور .
ولقد جاء في الحديث أن تسبيح المنافق مثل النبات الأخضر في المزابل “ 1 “ . فاعلم ذلك أيها العظيم .
ولتعلمن أن الصور المليحة الطيبة لا تساوى فلسا ان اقترنت بقبيح الخصال .
وان تكن صورة المرء حقيرة زرية وكان خلقه رضيا فمت عند قدميه .

1020 واعلم أن صورة الظاهر مآلها إلى الفناء ، وأما عالم المعنى فيبقى خالدا **!** فإلى متى تلهو بعشق الإبريق ؟ دعك من صورة الإبريق واطلب الماء .
انك قد رأيت الصورة ولكنك غافل عن المعنى . فالتمس الدرة من الصدف لو كنت عاقلا **!**

....
(1) ثم اعثر على نص حديث يقارب ما ذكره الشاعر .

وأصداف القوالب في هذه الدنيا ، مع أنها جميعا تستمد الحياة من بحر الروح ، ليست تنطوى كلها على الجوهر ، فافتح عينيك جيدا وتأمل باطن كل منها ،

1025 لترى ما تحويه هذه وما تحويه تلك ، وتخير من بينها فان قليلا ما تجد الدرّ الثمين .
فلو توجهت إلى الصورة فان الجبل أعظم في ضخامته من مئات كثيرة من اليواقيت .
وباعتبار الصورة أيضا فان يديك ورجليك وشعرك ، تفوق بأحجامها مائة من صورة عينيك .
لكنه ليس بسر خفيّ عليك أنك ترجح العينين على كافة الأعضاء وبفكرة واحدة تخطر في الضمير ، قد ينقلب مائة عالم رأسا على عقب ، في لحظة واحدة .

1030 ومع أن جسم السلطان في الصورة فرد واحد ، فان آلاف الجنود يهرعون لمتابعته .
وشكل هذا الملك أيضا وصورته يحكمهما فكر واحد محتجب .
ولتتأمل هؤلاء الخلق الذين لا يحصون عد وقد جعلتهم فكرة واحدة يتدفقون كالسيل فوق الأرض .
فهذا الفكر يبدو صغيرا أمام الخلق ، لكنه كالسيل قد ابتلع الدنيا واكتسحها .
فإذا كنت ترى أن كل حرفة في هذه الدنيا قائمة على الفكر ،

1035 وأن الديار والقصور والمدائن ، والجبال والصحارى والأنهار ، وكذلك الأرض والبحار والشمس والفلك كل أولئك تستمد منه الحياة كما يستمد السمك حياته من البحر .
فلماذا أنت في بلاهتك أيها الأعمى تعد الجسد سليمان ، والفكر نملة ؟
ان الجبل يبدو عظيما أمام عينيك ، فالفرك عندك كالفأر والجبل كالذئب .
والعالم يتجلى لك هائلا عظيما ، فترتعد وتهلع من السحاب والرعد والسماء .

1040 أما بالنسبة إلى عالم الفكر - يا أخَّس من حمار - فأنت آمن غافل كالصخرة الصماء ! فما دمت صورة لا نصيب لها من العقل ، فلست بآدمى الصفات ، وما أنت الا حمار صغير .
انك لجهلك تحسب الظل شخصا ولهذا فقد أصبحت الشخصية في نظرك لهوا يسيرا !
فمهلا إلى ذلك اليوم الذي ينطلق فيه الفكر والخيال محلقين بقوادم وخوالف ، لا يخفيهما حجاب .
إذ ذاك ترى الجبال وقد أصبحت كالعهن المنفوش ، وهذه الأرض الباردة الساخنة وقد أصبحت عدما !

1045 ولن ترى إذ ذاك سماء ولا أنجما ولا وجودا ، وليس سوى اله واحد حيّ ودود .
وإليك قصة قد تكون صادقة أو كاذبة ، تعين على ايضاح هذه الحقائق :

كيف حسد خدم الملك غلامه الخاص

كان أحد الملوك قد آثر بكرمه غلاما من غلمانه على جملة خدامه .
فكان راتبه يعدل ما يتقاضاه أربعون أميرا ، ولم يكن ينال عشر هذا المقدار مائة وزير ! فكان لكمال طالعه واقبال بخته مثل أياز ، أما الملك فكان محمود زمانه .

1050 وكانت روحه في أصلها ، قبل هذا الجسد ، مرتبطة بروح الملك ، وثيقة القربى بها ! ولا اعتبار الا لما كان قبل الجسد ، فدعك من كل ما هو جديد الحدوث .
وهذا شأن العارف ، فهو ليس بأحول ، وعينه متطلعة إلى أقدم الغراس .
فحيثما زرع قمح أو شعير فعينه مترقبة سواء في الليل أو في النهار .
وما ولدت الليالي الا ما كانت حاملة به . فما الحيل والمكر الا هواء وهباء .

1055 فكيف يناغى القلب بالحيل الرائعة من كان يرى أن لله حيلة مسلطة فوق رأسه ؟
انه لصيد يلتمس صيدا " 1 " ، فأقسم بحياتك ، لن ينجو هذا الصائد ولا شباكه .
فلو أن مائة عشب نمت ثم عراها الذبول ، ففي العاقبة لا ينمو

....
(1) حرفيا : " انه لأسير شباك يمد شباكه " .

الا ما غرسه الله .
فها هو ذا الانسان قد ألقى بغراس جديدة فوق الغراس الأولى .
فهذه الغراس المستحدثة فانية ، وأما الغراس الأولى فراسخة .
ان الغراس الأولى صالحة منتقاة ، وأما البذور الثانية فهي فاسدة عفنة .

1060 فاطرح عنك هذا التدبير أمام الحبيب مع أن تدبيرك مقتبس من تدبيره .
ان الذي رفعه الحق هو الذي يكون له اعتبار ، وما غرسه في البداية هو الذي ينمو آخر الأمر .
فكل ما زرعته فازرعه من أجله ، ان كنت - أيها المحب - أسير المحبة .
ولا تدر في فلك النفس السارقة (الأمِّارة بالسوء) وفعالها . فكل ما ليس من فعل الحق فهو عدم مطلق .
وذلك من قبل أن ينجلى يوم الدين ، وإذ ذاك يفتضح لص الليل أمام المالك .

1065 فيكون المتاع الذي سرقه بفن وتدبير لا يزال فوق عنقه يوم الدين .
ان آلاف العقول قد تنطلق مجتمعة ، فتحتال للصيد بشباك غير شباكه ، فتجد أنفسها أسارى شباك أقوى وأو في . وكيف يظهر القش قوته أمام الريح ؟
فان أنت قلت : “ ما فائدة الوجود ؟ “ فسؤالك هذا فائدة أيها العنيد.

فإن لم يكن لسؤالك هذا فائدة فما الداعي لأن أستمع اليه عبثا وبدون جدوى ؟

1070 وان كانت لسؤالك هذا فوائد متعددة ، فلماذا يكون العالم بدون فائدة ؟
وان يكن العالم من جهة عديم الفائدة ، فهو من جهات أخرى حافل بالفوائد .
وان كان ما يفيدك غير مفيد لي فلا تتخل عنه ، طالما كان مجديا لك .
لقد كان حسن يوسف مفيدا للعالم كله ، مع أنه بالنسبة لاخوته كان عبثا لا جدوى منه .
ولحن داود كان هكذا محببا إلى القلوب ، لكنه لم يتجاوز - في أذن المحرومين - صوت الآلة الخشبية .

1075 وماء النيبل كان أغزر من ماء الحياة ، لكنه إزاء الكافرين والمنكرين كان دما ! والا ستشهاد حياة للمؤمن على حين أنه للمنافق موت وتعفن ! فخبرني : أية نعمة بهذا العالم لا تكون احدى الأمم محرومة منها ؟
فما فائدة السكر للثور والحمار ؟ ان كل نفس لها غذاء مباين لما تغتذى به سواها .
لكنها إذا تعلقت بقوت عارض . فالنصيحة هي التي تروضها (على تركه) .

1080 كمثل ذلك الشخص الذي - من اعتلاله - أولع بالطين ! فمع أنه كان يتصور الطين غذاءه ،

فقد نسي قوله الأصلي ، وولى وجهه نحو قوت المرض .
لقد ترك الشهد وتناول السم . والتهم قوت العلة كأنه طعام دسم .
وقوت البشر في الأصل هو نور الله . أما القوت الحيواني فغير لائق بهم .
لكن القلب وقع في هذا لا عتلاله ، فأخذه يتناول صباح مساء من هذا الماء والطين .

1085 فغدا شاحب الوجه ، واهى الساقين ، خفيف اللب . فأين منه غذاء السماء " 1 " .
فذلك غذاء الخواص في دولة (الايمان) ، وتناوله يكون بدون حلق ولا أداة .
ان غذاء الشمس مستمد من نور العرش وأما غذاء الحساد والشياطين فهو من دخان الأرض .
ولقد قال الحق عن الشهداء انهم أحياء يرزقون " 2 " ، وما كان تناول هذا الغذاء يقتضى فما ولا طبقا .
بل القلب يتزود بغذاء من كل حبيب ، ويتحلى من كل علم بصفاء

1090 وصورة كل آدمي كأنها كأس ، والعين وحدها هي التي تدرك معناها .
وأنت تتزود بشئ من لقاء كل انسان ، وتظفر بفائدة من ملاقاة كل قرين.

....

(1)حرفيا : فأين غذاء " والسماء ذات الحبك " . (الذاريات ، 51 : 7) .
(2)انظر : سورة آل عمران ، 3 : 169.

فالنجم حين يصبح قرينا لنجم آخر ، فمن اليقين أن يتحقق بذلك ما يناسبهما من أثر .
وحين يقترن الرجل والمرأة يولد البشر ، وكذلك باقتران الحجر والحديد يتولد الشرر .
ومن قران التراب بالأمطار تكون الثمار والخضرة والريحان .

1095 ومن قران الخضرة بالانسان يكون سرور القلب وتفريج الهم والسعادة .
ومن قران السعادة بأرواحنا ينبثق الخير والاحسان فينا .
فالاجساد تصبح متقبلة للطعام ، حينما تتفتح شهيتها بالرياضة والنزهة .
وحمرة الوجه تكون من اقترانه بالدم . والدم يتدفق بفعل الشمس الجميلة الوردية اللون .
ويخر الألوان هو اللون الأحمر ، وهذا من الشمس وهو يقبل منها الينا .

1100 وكل أرض أصبحت قرينة لزجل ، صارت ملحة ولا مجال للزرع فيها .
وقوة الفعل تنبثق من الاتفاق عليه ، كما يكون من اقتران الشيطان بأهل النفاق .
فهذه المعاني الصادقة وان لم تكن ذات مجد ورواء (في الدنيا) فلها من الفلك التاسع مجد ورواء !
والمجد والرواء ليسا سوى عرض في الخلق ، على حين أنهما ماهية لمن له الأمر والمقدرة .

ان الخلق يتحملون الذل في سبيل المجد والرواء . وهم - على أمل العز - سعداء في مذلتهم !

1105 انهم على أمل العز أياما عشرة حافلة بالقلق ، قد جعلوا رقابهم من الهم ناحلة كالمغزل .
فلماذا لا يقبلون إلى هنا ، حيث أقيم في عزة تغمرها اشراقة الشمس .
ومشرق الشمس برج أسود اللون ، أما شمسي فإنها فوق المشارق ! ان مشرقها هو نسبتها إلى الذرات العالقة بها . فذاتها لم ترتفع قط ولم تنخفض .
ومع أنى متخلف وراء ذراتة ، فأنا في العالمين شمس لا تغشاها الظلال !

1110 وهأنذا دائب الدوران حول الشمس ، فما أعجبها ! ولا سبب لهذا سوى جلال الشمس .
وهذه الشمس مطلعة على الأسباب ، لكنها غير مرتبطة بحبال الأسباب .
ولقد قطعت الأمل ألوف المرات . مم ؟ من هذه الشمس ! فهل تصدق قولي ؟
لا . لا تصدق أنني أصبر عن الشمس ، أو أن السمك يصبر عن الماء .
وحتى لو أنني يئست ، فان يأسى ذاته من صنع الشمس ، أيها الرفيق الطيب !

1115 وكيف تنقطع حقيقة الصنع من نفس الصانع ؟ أم كيف يغتذى وجود الا من الوجود المطلق ؟
فجملة الموجودات ترتعى في هذه الروضة ، وسواء في ذلك البراق أو الخيل العراب أو الحمير ! والذي لم يبصر دوران هذا البحر يستقبل بوجهه - في كل لحظة - محرابا جديدا .
فهو قد شرب من البحر العذب ماء ملحاء فأعماه ذلك الماء الملح .
والبحر يقول : “ أيها الأعمى ! اشرب بيدك اليمنى من مائي لعلك تغدو بصيرا “ .

1120 واليد اليمنى هنا هي الظن الصادق ، الذي يعلم أين سبيل الخير وسيبل السوء .
أيها الرمح ، انك حينا تستقيم ، وحينا تعوج فها هوذا صانع الرماح ! وان عشق شمس الدين قد قلم أظافري . والا فكيف لا أجعل هذا الأعمى بصيرا ؟
فيا حسام الدين ، يا ضياء الحق ! ألا فلتعجل بمداواته مهما عميت عين الحسود .
ان توتيا “ 1 “ الكبرياء لعاجلة الأثر ، وهي الدواء المبدد للظلمات (التي تعمى) أهل العناد .

....
(1) انظر عن التوتيا : ابن البيطار : الجامع للمفردات الطبية ، ج 1 ، ص 143 .

1125 فهذه لو مسِّت عين أعمى لا نتزعت منها ظلمة مائة من الأعوام ! فاعمل لمداواة جميع العميان الا الحسود فإنك لن تلقى منه الا الجحود .
ولا تَجُد بروح منك على حاسدك ، حتى ولو كنت أنا ذلك الحاسد ، بل دعني للحسد يهلكني ! فهذا الذي يكون حاسدا للشمس ذلك الذي يضنيه وجودها ألما ، تأمل علته تلك التي لا دواء لها . واها عليه ! تأمل ذلك الذي سقط في قاع البئر إلى الأبد !

1130 ان هذا يحتم انتفاء شمس الأزل ، فقل لي ، كيف يتحقق مراده هذا ؟
ان الباز هو الذي يرجع ثانية إلى المليك . أما ذلك الذي ضلّ طريقة فهو باز أعمى .
لقد ضلّ طريقة فهبط في احدى الخرائب ثم وقع بين البوم في تلك الأرض الخراب .
وهو نور خالص مقتبس من نور الرضى ، لكن أمير جيش القضاء قد أعماه .
لقد نثر التراب في عينيه ، وأضله الطريق ، ثم ألقى به بين البوم في احدى الخرائب .

1135 وفوق ذلك أخذت البوم تضربه فوق رأسه ، وتقتلع من جناحيه القوادم والخوالف الحسان .
وعلا الصياح بينها ، وكانت تقول : " لقد جاء ليغتصب منا مكاننا " .

فكانت مثل كلاب الحيّ الغاضبة الرهيبة ، وقد علقت بأذيان دلق درويش غريب ،
وكان الباز يقول : “ أي تناسب بيني وبين البوم ؟ انى أنزل لها عن مائة مكان مثل هذا .
وما كان مرادي ان أنزل بهذا المكان بل انى كنت راجعا إلى المليك .

1140 فيا أيها البوم ، لا تقتلوا أنفسكم . انى لست مقيما هنا بل عائد إلى وطنى .
فهذا الخراب يبدو في أعينكم عمرانا ، أما أنا فلى عودة إلى ساعد الملك **!** “ فقالت البوم : “ انّ الباز يحتال ، حتى يقتلعكم من منزلكم ودياركم .
وانه المستول بالمكر على ديارنا ، ولسوف يقتلعنا بالنفاق من أو كارنا .
انّ هذا المولع بالاحتيال يتظاهر بالشبع ، مع أنه - والله - أسوأ من كل الطامعين **!**

1145 انه من الحرص يأكل الطين وكأنه الدبس ، فلا تسلموا أيها الرفاق ذيل الشاة للدب .
انه يباهى بالمليك وبكف المليك ، حتى يجعلنا - نحن البسطاء - نضلّ السبيل .
وأي تجانس بين طائر صغير وبين الملك ؟ فإن كان لديكم قليل من العقل فلا تستمعوا اليه .

أهو من جنس الملك أو جنس الوزير ؟ وهل يكون الثوم ملائما لحلوى الجوز ؟
وأما قوله - بمكر واحتيال وفنّ - “ ان السلطان وحشمه يبحثون عنى “ .

1150 فهاكم جنونا لا يتقلبه العقل ! وهاكم مباهاة غرّ ، وفخا يختطف الرؤوس ! فلا بد من البلاهة لتصديق هذا ، والا فما للملك وهذا الطائر الصغير النجيل ؟
فان كانت أصغر بومة تحطم رأسه ، فأنى له العون من المليك ؟
فقال الباز : “ لو أنها كسرت لي ريشة واحدة ، لا قتلع ملك الملوك موطن البوم من أساسه ! فما البومة في ذاتها ؟ انه لو آذى قلبي باز أو نالني بجفائه ،

1155 لجعل المليك في التلال والوهاد بيادر تضمّ تلالا من رؤوس البيزان ! وان عنايته لهى حارسي ، فحيثما توجهت فالمليك يتبعني .
وخيالي مقيم في قلب السلطان . وبدون خيالي يكون قلب السلطان سقيما .
فحينما يطيرنى اللميك في مسالكه ، فانى أرتفع إلى أوج القلب ، كشعاع أنواره !
وأطير مثل القمر ومثل الشمس . وأمزق أستار السماء !

1160 وان استنارة العقول لهى من فكرى ! وان انفطار السماء لهو من فطرتى !

فأنا باز ولكن العنقاء تحار في أمرى ! فما البومة حتى تدرك كامن سرى ؟
ومن أجلى تذكر المليك سجنه فاطلق سراح آلاف من السجناء ! لقد جعلني في لحظة رفيقا للبوم ، ثم جعل البوم بأنفاسي بيزانا ! فما أسعد بومة صادفت مطارى ، وفهمت لحسن طالعها أسرارى !

1165 ألا فلتعلقوا بي لتصبحوا سعداء ، وتصيروا بيزان المليك برغم كونكم من البوم .
فمن كان حبيبا لمثل هذا المليك ، فلماذا يكون غريبا ، مهما اختلفت عليه المنازل " 1 " ؟
ومن كان المليك دواء آلامه ، فإنه لا يكون بلا نصيب مهما ناح مثل الناى .
انني مالك الملك ، ولست الذي يهلع من قرع الطبول فالمليك هو الذي يقرع لي الطبول من جانبه .
وطبل الباز (الذي ألبيه) هو نداء" ارْجعي "" 2 " . والله شاهدي بالرغم من المدعى .

1170 انني لست من جنس ملك الملوك فما ، أبعدنى عن ذلك ! وانما أنا مستضىء بنور من تجليه .
والتجانس لا يكون على أساس الشكل والذات فالماء يتجانس مع التراب في النبات .
والريح تجانس في قوامها النار . والخمر تصبح متجانسة مع

....
(1) حرفيا : مهما حط في أي مكان .
(2) انظر : سورة الفجر ، 89 : 28 .

الطبع الانساني .
ولما كان جنسنا مغايرا لجنس مليكنا ، فقد أصبحت ذواتنا فانية في سبيل ذاته .
وحينما فنيت ذواتنا بقي فردا . وانى لأغدو كالغبار أمام حوافر جواده “ 1 “

1175 والروح تغدو ترابا وتبقى علامات أقدامه منطبعة فوق ترابها .
ألا فلتصبح ترابا تحت قدميه لتظفر بتلك العلامات ، فإنك - حينذاك - تصير تاجا فوق رؤوس الماجدين ! فلا تدع لصورتى سبيلا إلى خداعك ، ولتأكل هنيئا من نقلي ، قبل انتقالى .
فكم من أناس أغلقت الصورة أمامهم السبيل ، فتهجموا عليها ، فكان تهجمهم على الله !
وأخيرا فان هذه الروح مرتبطة بالبدن ، فهل هناك من شبه قط بين هذه الروح وبين البدن ؟

1180 فاشراق نور العين قرين لقطعة من الشحم “ 2 “ ، ونور القلب كامن في قطرة من الدم .
والفرح في الكلى وأما الحزن ففي الكبد . والعقل مثل الشمعة داخل لباب الرأس .
وهذه العلائق ليست بدون كيف ولا شبه . ولكن العقول ضعيفة في ادراك الكيف .

....
(1) انى لا تحرك مستجيبا لأدنى سبب من أسبابه ، كما يتحرك الغبار حينما تثيره حوافر الفرس .
(2) يقصد بقطعة الشحم هنا بياض العين .

ان الروح الكلىّ قد التحم بالروح الجزئية ، فأخذت هذه درة منه وجعلتها في جيبها .
فغدت الروح - من احتكاك تلك الدرة بجيبها - حاملا كمريم ، تلك التي حملت مسيحا يسحر القلوب .

1185 وليس المسيح هو من كان يمشى على اليابسة والماء ، بل إنه ذلك المسيح الذي سما فوق حدود المكان .
فحينما تلقت الروح جملها من روح الروح ، تلقى العالم كله حملا من مثل تلك الروح .
وهكذا يلد العالم عالما آخر ، وتبدو حقيقة الحشر لهذا الجمع الحاشد (من البشر) !
ولو أنني حكيت وعددت حتى يوم الساعة ، فسأبقى مقصرا في ايضاح ذلك الحشر .
فهذه الأقوال كلها تعنى دعاء " يا رب ! " ، وكلماتها شبَاك أنفاس طرحتها شفاه حلوة .

1190 فكيف يقصر المرء ، وكيف ينطوى على نفسه ، ما دام جواب " لبيك " يستجيب لدعاء " يا رب " .
فكلمة " لبيك " هي (ذلك الجواب الالهىّ) الذي لا تستطيع سماعه ، لكنك تتذوقه بكل كيانك ، من الرأس إلى القدم .

كيف الفي ظامى فوق قمة جدار احجارا في مجرى الماء

يُحكى أن جدارا عاليا كان مقاما على شاطىء نهر ، وأنه كان فوق هذا الجدار رجل ظامىء يلاقى العناء .

وكان هذا الجدار مانعا له من الماء . فكان في ألم من أجل الماء مثل السمك .
وفجأة ألقى بحجر في الماء ، فوقع صوت الماء في أذانه مثل الخطاب .

1195 لقد كان لصوت الماء في سمعه فعل النبيذ ، أو فعل حديث محبوب حلو لذيذ .
فلصفاء صوت الماء ، أخذ ذلك المبتلى يقتلع الأحجار من الجدار ويلقى بها في الماء .
فهتف به الماء قائلا : " أية فائدة (حققتها) من ضرب إياي بالأحجار ؟ " .
فقال الظمآن : " أيها الماء . ان لي من ذلك فائدتين . ولهذا فلن أقلع عن هذا الصنع .
فالفائدة الأولى هي سماع صوت الماء . ووقع هذا عند الظماء مثل الرباب .

1200 فهذا الصوت صار شبيها بصوت إسرافيل . وبفعل هذا تنبثق الحياة في الموتى .
أو هو كصوت الرعد في أيام الربيع . يظفر منه البستان بمتعدد الصور .
أو هو مثل أيام الزكاة عند الدرويش ، أو مثل رسالة الخلاص عند السجين ! أو
كصوت الرحمن الذي كان يصل إلى محمد من اليمن ، وذلك من غير أن ينقله فم .
أو كعبير أحمد الرسول المصطفى ، حين يدرك بشفاعته أحد العصاة .

1205 أو مثل شذى يوسف الطيب اللطيف ، إذ هبّ على روح يعقوب بعد أن براه الأسى .
والفائدة الثانية أنني كلما اقتلعت حجرا من هذا الجدار ، اقترب من الماء المعين .
فكل حجر اقتلع من ذلك الجدار العالي ، كان مدعاة إلى انخفاضه .
وانخفاض الجدار هو السبيل إلى القرب ، والانفصال عنه هو العلاج المؤدّى إلى الوصال .
فاقتلاع تلك الأحجار المتماسكة مثل السجود . والسجود موجب للقرب ، كما جاء في قوله تعالى :” وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ““ 1 “ .

1210 فما دام ذلك الجدار شامخا بعنقه ، فهذا مانع له من أن يخفض هامته .
وليس لي سبيل إلى أن أسجد فوق ماء الحياة ، ما لم أجد الخلاص من ذلك الجسم الترابىّ .
وكل من كان - فوق الجدار - أكثر ظمأ فإنه يكون أسرع في اقتلاع الحجر والمدر .
وكل من كان أكثر عشقا لصوت الماء ، كانت الحجارة التي يقتلعها من السور أكبر حجما .
وهو من سماع صوت الماء يغدو مليئا بالخمر حتى العنق ، أما الغريب فلا يسمع من ذلك الا مجرد الصوت .

1215 فما أسعد ذلك الذي يغتنم أيامه الأولى ، ويؤدى بها دينه ،

....
(1) انظر : سورة العلق ، 96 : 19 .

تلك الأيام التي تكون له فيها قدرة وصحة وقوة قلب وشدة بأس .
حيث الشباب مثل بستان أخضر ريان ، ينضج - بدون تقصير - حصادا وثمارا .
وحيث ينابيع القوة والشهوة جارية ، تغدو أرض الجسد بها مخضلة يانعة .
وحيث الدار معمورة وسقفها سامق رفيع ، وأركانها معتدلة ، لم يشو هما ترميم ولا ركائز .

1220 وذلك قبل أن تحلّ أيام الهرم ، فتربط جيدك بحبل من مسد “ 1 “ .
وقبل أن يصبح التراب ملحا منحلا واهيا ، والتراب الملح لا ينبت قط نباتا طيبا .
وقبل أن يغدو ماء القوة وماء الشهوة منقطعا ، فلا يكون للانسان نفع في نفسه ولا في غيره .
ويتراخى حاجب العين كالحبل فوق ذيل الدابة . وتصبح العين دامعة وتغشاها والظلمة .
ويغدو الوجه من التشنج شبيها بظهر الحرباء ويقلع عن العمل النطقُ والتذوق والإنسان .

1225 ويكون النهار قد ولىّ ، والحمار أعرج ، والطريق طويلا ، والحانوت قد خرب والعمل أصابه البوار .
وجذور الخلق السيّء قد أصبحت راسخة ، والقوة على اقتلاعها قد أصابها الوهن !

....
(1) في البيت اقتباس من آية كريمة . انظر : سورة المسد ، 111 : 5 .

كيف امر الوالي أحد الرجال قائلا :
" اقتلع ذلك الشوك الذي زرعته فوق الطريق "

ومثال ذلك هذا الشخص الغليظ ، الناعم الحديث ، الذي غرس الشوك في وسط الطريق .
وكان العابرون بهذا الطريق يلومونه ، وكم طلبوا اليه أن يقتلع الشوك لكنه لم يفعل ذلك ! وكان نبات الشوك يزداد نموا في كل لحظة ، وصارت أقدام الناس من وخزه تقطر دما .

1230 وكانت الأشواك تمزق ثياب الخلق ، وأما أقدام الدراويش فما أقسى ما نالها من الألم ! وحينما دعاه الحاكم بجدّ إلى اقتلاع هذه الأشواك ، قال :
" نعم ، سوف أقتلعها ذات يوم " .
وبقي مدة يعد في يومه أن يفعل ذلك في غده ، حتى صارت دوحة الشوك راسخة الكيان .
فقال له الحاكم ذات يوم : " أيها الحانث بوعده . أقيل الانفاذ أمرنا ، ولا تلزم التراجع عنه " .
فقال الرجل : " الأيام - يا عم - بيننا ! " . فقال الحاكم . عجّل ، ولا تماطل في أداء ديننا " .

1235 فيا من دأبت على قولك " غدا " ، اعلم أنه في كل يوم يمرّ من الزمان ، تغدو هذه الشجرة الخبيثة أقوى شبابا ، ويغدو مقتلعها شيخا عاجزا .

وتكون شجرة الشوك (قد ازدادت) قوة وارتفاعا ، في حين أن مقتلع الشوك قد ازداد هر ما وانحدارا .
وشجرة الشوك في كل يوم وكل لحظة ، ذات اخضرار ونضرة ، أما مقتلع الشوك فيزداد في كل يوم علة وذبولا .
فهي تزداد شبابا وأنت تزداد شيخوخة ، فسارع ولا تكن مضيعا لوقتك .

1240 واعلم أن كل خلق قبيح فيك انما هو شجرة شوك ! ولكم وخزت الأشواك قدميك آخر الأمر ! وما أكثر ما غدوت جريما بطباع ذاتك ! انك الست بذى احساس ! بل أنت غاية في انعدام الحس ! فان كنت إزاء تجريح غيرك من الناس - الذين يرميهم بذلك خلقك القبيح - تغفل عن فعلك أحيانا ، أفلست هكذا غافلا عما تحدثه بنفسك من جراح ؟ انك لغداب لنفسك وكل من عداك ! فلتحمل الفأس ، ولتضرب مثل الرجال ! اقتلع مثل علىّ باب خيبر هذا !

1245 أو اجعل هذا الشوك مقترنا بشجرة ورد . اجعل النار مقترنة بنور الحبيب .
حتى يسحب نورُه ما فيك من نار ، ويجعل وصلُه أشواكك بستان ورد .
فإنك مثيل لنيران الجحيم ، أما المرشد فمؤمن . والؤمن ذو مقدرة على اخماد النار .

فلقد أخبر المصطفى عن نطق الجحيم ، وأنها تغدو من خوفها مخاطبة للمؤمن .
تقول له : " جز يا مؤمن نفقد أظفأ نورك لهبى " 1 " .

1250 ففنور المؤمن هو الذي يهلك النار . والضدّ لا يمكن دفعه الا بضده .
والنار تكون يون العدل مضادة للنور . فهذه قد انبثقت من قهر الله ، وذاك من فضله .
فان كنت تريد دفعا لشر النار ، فابعث إلى قلبها بماء الرحمة .
والمؤمن هو ينبوع ماء الرحمة هذا . أما ماء الحياة فهو روح المحسن الطاهر .
ولهذا فان نفسك الأمارة بالسوء تغدو هاربة منه ، لأنك من النار ، وأما المؤمن فهو ماء سلسبيل .

1255 والنار تولى هاربة من الماء ، فالنار تلقى من الماء الهلاك والدمار .
وحسك وفكرك كلاهما من النار ! وأما حس الشيخ وفكره فهما نور لطيف ! فعندما يقطر ماء نوره فوق النار ، يعلو أزيزها وتتدلع .
فإذا ما أزِّت فقل لها : " موتا وهلاكا " ، وإذ ذاك يغدو جحيم نفسك بردا .
وحينذاك لا يحترق به بستانك ، ولا يشتعل به عدلك واحسانك !

....

(1) الشاعر قد ذكر الحديث هنا بتصرف ، وقد أوردناه بنصه في الترجمة . وقد روى هذا الحديث في حلية الأولياء لأبى نعم الاصفهاني ، عن يعلى بن منبه قال : قال رسول الله : تقول النار للمؤمن يوم القيامة ، جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى .
(المنهج القوى ، ج 2 ، ص 295) .

1260 وكل ما تزرعه بعد ذلك يغدو مثمرا ، ويُنبتُ لك الشقائق والنسرين والنمام .
لقد عدنا لنقطع الطريق المستقيم بالعرض ، فلنعد أيها السيد . أين طريقنا ؟
وكنا قد شرحنا لك أيها الحسود ، أن حمارك أعرج والمنزل بعيد ، فسارع بانطلاقك .
فالعام قد فات أوانه ، وليس هذا بوقت الغرس . فلم يبق الا سواد الوجه والفعل القبيح .
ان الدود قد أصحاب أصل شجرة الجسد ، فوجب اقتلاعها والقاؤها في النار .

1265 حذار حذار أيها السائر على الطريق فقد تأخر الوقت ، وشمس العمر قد تدانت من بئر المغيب .
وفي يوميك اللذين تملك فيهما القوة ، انشر جناحيك محلقا في طريق الجود ! وازرع ذلك القدر الذي بقي لك من البذور ، ينبت لك من هاتين اللحظتين عمر مديد ! ولكي لا يخبو هذا السراج اللألاء ، سارع باصلاح فتيله وامداده بالزيت .
وكن حذرا ولا تقل “ غدا “ ، فكم من غد قد مضى ، فلم تبق لك قط أيام للغرس .

1270 واستمع إلى نصحى ، وأنت بعدُ في عنفوان قواك الجسدية : ان كنت تميل إلى الجديد ، فتخلص من القديم .

أغلق شفتيك ، وافتح كفا مليئة بالذهب ، ودعك من بخل الجسد ، وأقبل على الجود .
وترك الشهوات واللذات سخاء . وما نهض قط انسان صار غريق شهواته .
وهذا السخاء غصن من سرو الجنان . فواها على من رمى من كفه مثل هذا الغصن .
والتخلي عن الهوى هو العروة الوثقى . فهذا الغصن يرتفع بالروح إلى السماء .

1275 وإذ ذاك يرفعك غصن السخاء - أيها المؤمن - فتتسامى معه إلى أصله .
انك يوسف الحسن ، وهذا العالم مثل البئر . والحبلُ (الذي يخصلك) هو البصر على أمر الله .
يا يوسف ، ها هو ذا حبل (النجاة) قد تدلى ، فتعلق به بكلتا يديك ، ولا تغفل عنه ، فقد تأخر الوقت .
والحمد لله أنه قد أدلى هذا الحبل ، فهنا ، قد امتزج فضله برحمته .
وذلك لترى عالم الروح الجديد ، وهو عالم بالغ الظهور وان احتجب عن العيان .

1280 فعالم الفناء هذا قدر صار كأنه الوجود (الحق) ، وأما عالم الوجود (الحق) فقد صار بالغ الخفاء ! كالتراب يتلاعب فوق الهواء ، ويبدي مظهرا كاذبا وينشر أستارا .
فهذا عاطل أجوف ظاهره العمل . وأما ذلك المحتجب فهو لبه وأصله .

فالتراب مثل الآلة في يد الهواء ، أما الهواء ، فاعلم أنه عال ، وأنه رفيع المصدر . فالعين الترابية هي التي يقتصر ابصارها على التراب . أما العين التي تبصر الهواء فهي من نوع آخر .

1285 فالحصان يعرف الحصان لأنهما شبيهان . وكذلك الفارس يعلم أحوال نظيره من الفرسان .
وعين الحس هي الحصان وأما نور الحق فهو الفارس . ولا جدوى للحصان بدون الفارس .
فخلص حصانك من الخلق القبيح ، والا فإنه لا يكون مقبولا عند المليك .
وعين الحصان تهتيد في السير بعين المليك . وبدون عين المليك يسوء حال تلك العين .
ولو أنك دعوت عيون الخيل إلى أيّ مكان سوى العشب والمرعى ، لكان جوابها : " لا " ، " لماذا ؟ "

1290 أما حين يمتطى نورُ الحق نور الحس ، فان الروح تغدو مشتاقة إلى الحق .
وماذا يعرف الحصان - بدون راكبه - عن رسم الطريق ؟ فمن أجل أن يعرف الطريق الملكيّ ، لا بدّ له من فارس ملك ! فتوجه نحو حس يكون النور رائده ، ذلك لأن النور صاحب كريم للحس .
ونور الحق هو الذي يزين نور الحس ، وذلك معنى قوله تعالى :

“ نُورٌ عَلى نُورٍ ““ 1 “ .
ونور الحس يجتذب الانسان نحو الثرى ، وأما نور الحق فيسمو به نحو العلى .

1295 ذلك لأن المحسوسات عالم أدنى . بل إن نور الحق شبيه بالبحر ، وأما الحس فمثل قطرات الندى ! لكن راكب الحسن هذا لا يكون ظاهرا الا في جميل الأثر وطيب الكلم .
ان نور الحس مع غلظه وكثافته يكون مستترا في سواد العينين .
فما دمت لا ترى بالعين هذا النور الحسى ، فكيف تستطيع أن ترى بها ذلك النور الروحي ؟
ان نور الحس - بر غم غلظه - محتجب عن الأبصار ، فكيف لا يكون خفيا ذلك الضياء الصافي ؟

1300 فهذا العالم كالقشة في أيدي رياح الغيب ، وقد أصبح العجز ازاءها شيمة له “ 2 “ . ذلك لأن حكم الغيب .
حينا يرفعه وحينا يخفضه وطورا يهبه السلامة وطورا يحطمه ! وقد يوجهه حينا نحو اليمين ، وحينا نحو الشمال ! وحينا يجعله بستان ورد وحينا يجلعه شوكا ! فتأمل كيف أن اليد مختفية ، والقلم يرسم الخطوط ! وكيف أن الحصان يتجول وفارسه غير ظاهر للعيان ! وتأمل كيف أن السهم منطلق ، على حين قد خفي القوس . وتأمل كيف أن الأرواح ظاهرة ، وكيف احتجب روح الروح !

....
(1) انظر : سورة النور ، 24 : 35 .
(2) حرفيا : “ وقد اتخذ العجز حرفة له “ .

1305 ولا تحطم السهم فإنه سهم المليك ، وليس سهما نابيا ، بل هو منطلق من قوس العليم الخبير .
ولقد قال الحق :" وَما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ "" 1 " . ان فعل الحقّ سابق على كل الفعال .
فحطم غضبك ولا تحطم السهم . ان عين غضبك هي التي تبصر الحليب دماء ! وقبل السهم - ذلك السهم الملطخ بالدماء ، المبلل بدمك أنت - ثم احمله إلى المليك .
فهذا العالم المتجلى للعيان عاجز مقيد ضعيف وأما ذلك المحتجب فعنيف أبيّ !

1310 اننا نحن الصيد ، فلمن تكون مثل هذا الشباك ؟ ونحن كرة الصولجان ، فأين الضارب بالصولجان ؟
أين هذا الحائك الذي يمزق ويحيك ؟ وأين ذلك النفاط الذي يطفئ " 2 " ويشعل ؟
فهو حينا يجعل الكافر صديقا وحينا يجعل الزاهد زنديقا ! ذلك لأن المخلص يكون في خطر من الشباك ما لم يظفر بالخلاص الكامل من ذاتيته .
فهو يكون على الطريق ، وما أكثر قطاع الطريق . وان الناجي لهو الذي يكون في أمان الله .

1315 فإن لم يغدُ مرآة صافية ، فهو (مجرد رجل) مخلص ، وهو لم يصد الطائر بعد ، بل ما يزال يقتنص .

....
(1) الأنفال ، 8 : 17 .
(2) حرفيا : ينفخ ، والمقصود بالنفخ هنا الاطفاء ، كما يتضح من السباق .

والمخلص يلقى النجاة حين يكتمل له الخلاص . فهو إذ ذاك يبلغ مقام الأمن ويتحقق له الفوز .
وما عادت مرآة قط إلى سابق عهدها حديدا ، ولا ارتد الخبز فصار قمح البيدر .
ولا عنب ناضج عاد فجا ، ولا ثمار ناضجة عادت بواكير .
فابلغ النضج وابتعد بنفسك عن التغير . اذهب ، واغد نورا مثل برهان المحقق “ 1 “ .

1320 فإنك ان خصلت من ذاتيتك غدوت كلك برهانا . وما دمت لم تعد عبدا غدوت سلطانا .
وان أردت العيان فقد أظهره صلاح الدين . فقد جعل الأعين مبصرة ، وجلاها **!** فكل عين استضاءت بنور الوحدانية ، كانت تبصر الفقر في عينيه وسيماه .
ان الشيخ مثل الحق ، فعّال بدون آلة . فهو يلقن مريديه دروسا بدون قول **!** فالقلب في يده كالشمع الرقيق الطيع . وهو يدمغه تارة بالعار وتارة بالفجار .

1325 فالصورة المنطبعة على الشمع شبيهة بالخاتم . ولكن ماذا يحاكيه نقش هذا الخاتم ؟
انه محاكاة لفكر هذا الصائغ . فها هي ذي سلسلة مترابطة الحلقات .

....

(1) في هذا البيت تمجيد لبرهان الدين محقق الترمذي أستاذ الشاعر .

وهذا الصدى في جبال قلوبنا صوت من ؟ وحينا هذا الجبل ملىء بذلك الصوت ، وحينا هو خال منه .
فحيثما كان حكيم ، وأينما كان أستاذ ، فلا يكن جبل قلبه خاليا من ذلك الصوت .
ومن الجبال ما يجعل الصوت الذي يتلقاه ضعفين ، ومنها ما يضاعفه مائة مرة .

1330 وان الجبل ليفجر - من هذا الصوت والمقال - مائة ألف عين من الماء الزلال .
فإذا ما فارق الجبل ذلك اللطف ، صارت المياه في الينابيع دماء .
ان هذا المليك الأكبر قد مر بنعليه المباركتين على جبل الطور فجعله ياقوتا .
لقد تقبلت أجزاء الجبل الروح والعقل ، فهل نحن - أيها القوم - أقل من الحجر اداركا ؟
فليس في الروح نبع واحد يتفجر ، ولا الجسم قد غدا يانع الخضرة مزدهرا !

1335 وما تتردد أصوات الشوق في جنباته ، ولا هو اتنشى من صفاء جرعة الساقي .
فأين الحمية التي تقتلع بالفأس والرمح مثل هذا الجبل بأكمله ؟
فلعل قمرا يشرق فوق أجزائه ! لعل نور البدر ينفذ خلاله ، ويجد سبيلا فيه !

فما دامت القيامة سوف تقتلع الجبال ، فكيف يكون سبيلها لتنشر فوق رؤوسنا الظلال ؟ ومتى كانت القيامة (الروحية) " 1 " أقل من قيام الساعة ؟ ان هذه القيامة (الكبرى) كالجرح ، وأما البعث الروحي فهو كالمرهم !

1340 فكل من عرف هذا المرهم فقد أمن الجراح . وكل مسُيء أبصر هذا الحسن فإنه محسن .
فما أسعد القبيح الذي غدا الجميل له نديما ! وواها على مليح وردئّ المحيا غدا الخريف له قرينا ! ان الخبز الميت - حين يصبح رفيقا للروح - يغدو حيا ، بل يغدو عين الحياة ! والحطب المظلم يصير رفيقا للنار ، فيذهب عنه اظلامه ، ويغدو كله أنوارا ! ان الحمار الميت - حين سقط في منجم الملح - تخلى عن حماريته ، وعن تحلل جسده .

1345 وصبغة الله " 2 " تكون من وعاء لون الوحدانية . ففيه تغدو الألوان المتنوعة لونا واحدا ! فإذا وقع في هذا الوعاء أحد ، وقلت له : " قم " ، فإنه يقول لك طربا : " انني أنا الوعاء فلا تلمني " .

....
(1) " القيامة الروحية " هي الوصول إلى حال اليقظة الروحية بعد التخلص من سلطان الحس وشهوات الجسد .
(2) انظر : سورة البقرة ، 2 : 138 .

وان قوله : " أنا الوعاء " لهو عين قول : " أنا الحق " . وهل سوى الحديد ما يحوز لون النار ؟
فلون الحديد يمحى في لون النار . وكأنما الحديد في صمته يباهى بناريته ! فحينما غدا - في حمرته - مثل ذهب المنجم ، فهو يباهى بدون لسان قائلا : " أنا النار" !

1350 لقد صار مهيبا بلون النار وطبيعتها . فهو يهتف قائلا : " انني أنا النار ، أنا النار ! " انني أنا النار ، فان كنت في شك من ذلك أو ريب ، فلتجرب ولتضع فوقى يدك .
انني انا النار ، فإن كان لك في ذلك اشتباه ، فضع وجهك فوق وجهي لحظة واحدة !
والانسان حين يقتبس النور من الله ، يكون الجدير بسجود الملائكة لأن الله اجتباه .
وكذلك يكون جديرا بسجود الانسان ، الذي خلصت روحه من الشك والطغيان مثل الملائكة .

1355 وما النار ؟ وما الحديد ؟ ألا فتلغلق شفتيك ، ولا تهزأ بلحية تشبيه المشبِّه .
ولا تضع قدمك في البحر ، وأقلل من حديثك عنه . ولتقف على شاطىء البحر صامتا ، تعض (من الحيرة) شفتيك .
ومع أنه لا طاقة لمائة مثل بالبحر ، فإنه لا اصطبار لي عن أن أغدو غريق لجه !

فليكن روحي وعقلي فداء للبحر . فهذا البحر هو الذي أدى دية العقل والروح .
فما دامت لي قدم تسعى فانى مندفع اليه . وحين لا تبقى لي قدم فأنا فيه مثل البط .

1360 والحاضر - ولو كان عديم الأدب - خير من الغائب . فالحلقة - مع أنها معوجة - أليست فوق الباب ؟
أيها الملوث الجسد . لتدر حول الحوض . والا فيكف يتطهر خارج الحوض انسان ؟
بل إن الطاهر - الذي أقام بعيدا عن الحوض - هو أيضا قد وقع بعيدا عن طهارة ذاته .
فطهارة هذا الحوض لا حدود لها ، أما طهارة الأجسام ، فهي طفيفة القدر .
والقلب حوض ، لكنه محتجب ، ولهذا فان له سبيلا خفيا إلى البحر !

1365 فطهارتك المحدودة تحتاج إلى مدد ، والا فان العدد يتناقص بالانفاق .
لقد قال الماء للمواث : “ أسرع الىّ “ ، فقال الملوّث : “ انني أخجل من الماء ! “ فقال الماء : “ وكيف يذهب عنك هذا الخجل بدونى ؟ أم كيف يزول بدونى هذا التلوّث ؟
فكل ملوّث قد احتجب عن الماء فإنه مصداق لقول القائل :
“ الحياء يمنع الايمان “ .

ان سلم حوض الجسد قد لوّث القلب ، أما حوض القلب فقد طهر بمائة الأجساد .

1370 فلتكن - يا بنىّ - قريبا من سلم حوض القلب ، وتنبه ، وكن حذار من سُلم حوض الجسد .
وبحر الجسد ، وبحر القلب يلتقيان ،” بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغيان “” 1 “ .
فان كنت مستقيما ، أو كنت معوجا ، فتقدم زاحفا نحوه ، ولا تتقهقر عنه “ 2 “ .
فإن كان في القرب من الملوك خطر على الروح ، فان أهل الهم لا يصبرون عن ذلك القرب **!** فالمليك إذ كان أحلى من السكر فخير للروح أن تذهب فداء لحلاوته .

1375 فيا أيها اللائم **!** لتنعم أنت بالسلامة . وأنت يا طالب السلامة **!** انك واهى العرى .
ان روحي كالتنور ، وهي سعيدة بالنار **!** وحسب التنور أنه منزل النار .
وللعشق محروقات مثلما للتنور . وكل من عمى من ذلك فليس بتنور .
وحينما أصبح غذاؤك الاعراض عن غذاء الحس ، تحقق لك الروح الباقي ، وانصرف عنك الموت .

....
(1) الرحمن ، 55 : 20 .
(2) تقدم نحو خالقك مهما كان التقدم بطيئا ، ولا تتراجع عن قربه قيد أنملة .

وحينما استولى عليك ذلك الحزن الذي يزيد السرور ، شاع الورد والسوسن في روضة روحك !

1380 وأصبح أمنا لك ما يخيف سواك . ان البط لقوىّ في البحر ، وأما الطيور الأليفة فواهية ضعيفة .
هأنذا قد عاودنى الجنون ، أيها الطبيب ! وها هوذا الوجد قد عاودنى ، أيها الحبيب !
وان حلقات سلسلتك لذات فنون ، وكل حلقة منها تهب لونا من الجنون .
فعطاءُ كل حلقة فن مختلف عن سواه ، ولهذا فان لي في كل لحظة جنونا فريدا ! ولهذا فان قول القائل : " الجنون فنون " ، قد أصبح مثلا .
ويصدق هذا - بخاصة - على سلاسل هذا الأمير الأجلّ

1385 ومثل هذا الجنون قد حطم عندي كل قيد ، حتى غدا كل مجنون يسدى اليّ النصح !

كيف جاء الرفاق إلى البيمارستان من أجل ذي النون قدس الله سره العزيز

هكذا وقع لذي النون المصرّى : أن ولها وجنونا جديدا قد تولدا عنده ! وازدادت حدة طبعه حتى تجاوزت الآفاق ، نافذة بمرارتها " 1 " إلى الأكباد .

....
(1) حرفيا : مصيبة بملحها الأكباد .

فحذار أيتها الأرض الملحة ، ولا تقيسى ملحك بملح الشيوخ الطاهرين .
فلم يكن للخلق طاقة بجنونه . لقد كانت ناره تمحو لحاهم !

1390 وحينما أصابت ناره لحى العوام ، فإنهم قيدوه وأدخلوه السجن .
وليس في الامكان جذب هذا اللجام ، مهما ضاق العوام بهذا الطريق “ 1 “ .
ان هؤلاء الملوك قد استشعروا الخوف على أرواحهم من العوام ، فهؤلاء عمى ،
والملوك ليست لهم علامة ظاهرة ! فحينما يكون الحكم في يد المعربدين ، فلا جرم أن
ذا النون يكون في السجن ! ان الملك يمتطى جواده ويمضى وحيدا ، فيغدو - كما تغدو
الدرّة اليتيمة - (ألعوبة) في أيدي الأطفال .

1395 وما الدرة (إذا قيست به) ؟ انه بحر قد تحجب في قطرة ! انه شمس قد اختفت
في ذرّة ! انه شمس قد تبدّت في صورة ذرة ، ثم كشفت وجهها رويدا رويدا ! ولقد
فنيت بها جميع الذرات ، والعالم كله سكر بها ثم صحا ! وحينما يكون قلم (الحكم)
في يد غدّار ، فلا شك أنه يقضى بشنق المنصور “ 2 “ !

....

(1) وليس في الامكان وقف اندفاع الصوفي مهما ضاق العوام بطريق التصوف .
(2) الحسين بن منصور الحلاج .

وحينما يكون للسفهاء هذا الأمر والسلطان ، فلا بد أنهم “ يقتلون الأنبياء “ 1 “ ! “
1400 ومن السفه قال هؤلاء القوم الضالون للأنبياء :” إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ ““ 2 “ فتأمل جهل المسيحىّ الذي يلتمس الأمان من ذلك السيد الذي صُلب .
فإن كان - كما يقول - قد صُلب على أيدي اليهود ، فكيف يستطيع أن يمده بالعون ؟
ومهما تفجر بالدم قلب ذلك المليك من أجلهم ، فكيف تتحقق العصمة التي ينطوى عليها حضورة بينهم “ 3 “ ؟
ان الذهب الخالص والصائغ هما أكثر من سواهما تعرضا لخطر المزيف الخائن .

1405 وكل مليح كيوسف يتوارى من حسد القباح ، ذلك لأن أعداء الملاح يعيشون في لهيب (الحسد) .
ان الذين هم في ملاحة يوسف يعيشون في بئر من حسد اخوانهم .
وان هؤلاء - من الحسد - ليسلمون يوسف للذئاب .
وما الذي أصاب يوسف المصرىّ من جراء الحسد ؟ لقد كان هذا الحسد ذئبا كبيرا كمن له في الخفاء ! فلا جرم أن يعقوب الحليم ، كان دائم الخوف والشفقة على يوسف من هذا الذئب .

....
(1) انظر : سورة آل عمران ، 3 : 112 .
(2) انظر : سورة يس ، 36 : 18 .
(3) حرفيا : التي ينطوى عليها (قوله تعالى) : “ وأنت فيهم “ .
(8 : 33) .

ولم يحم حول يوسف قط ذئب ظاهر . لكن هذا الحسد جاوز في أثره فعل الذئاب !

1410 فذئب الحسد هذا قد ضرب ضربته ، ثم جاء العذر اللبق ، (قائلا) :” إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ . ““ 1 “ .
وليس لآلاف من الذئاب مثل هذا المكر . لكن هذا الذئب يفتضح في النهاية ، فاصبر وانتظر .
ذلك لأن حشر الحاسدين في يوم العقاب يكون بدون شك على صورة الذئاب ! وحشر الحريص الخسيس ، آكل الجيف يكون على صورة الخنزير يوم الحساب .
وأما الزناة فتكون أعضاؤهم المستورة خبيثة الرائحة ، وكذلك يفوح النتن من أفواه شاربي الخمر !

1415 وأما النتن الخفىّ الذي كان يدرك القلوب ، فيكون يوم الحشر محسوسا ظاهرا .
ان الوجود الآدمي مثل الأجمة ، فكن حذار من هذا الوجود ان كنت من أصحاب تلك الأنفاس (الإلهية) .
ففي وجودنا آلاف من الذئاب والخنازير وفيه الصالح والطالح ، والحسن والقبيح .
والحكم يكون لذلك الخلق الذي تتحقق له الغلبة فحين يكون الذهب أكثر من النحاس عُدّت السبيكة ذهبا .
فالسيرة التي تكون غالبة على وجودك ، هي أيضا تلك الصورة التي يجب أن تكون عليها يوم الحشر .

....
(1) انظر سورة يوسف ، 12 : 17 .

1420 فحينا يدخل الكيان البشريّ ذئب وحينا يدخله مليح يوسفيّ الوجه مثل القمر .
والخصال الصالحة والكريهة تتنقل من صدر إلى صدر خلال طريق خفيّ ! بل ربما
انتقلت الحكمة والعلم والفضل من الآدمي إلى الثور والحمار ! فالحصان المتعثر يغدو
منطلقا طيعا ، والدب يرقص ، والعنزة تؤدى السلام .
وانتقل الحرص من الانسان إلى الكلب ، فأصبح هذا راعيا أو صياد أو حارسا .

1425 وانتقل الصلاح من أصحاب الكهف الرقود إلى كلبهم ، فأصبح هذا ممن
يطلبون الله .
وفي كل لحظة ينبثق في الصدر نوع جديد ، فتارة هو شيطان وتارة هو ملك وتارة هو
وحش كاسر ! فمن هذه الأجمة العجيبة - التي تعرفها جميع الأسود - طريق خفيّ
يصلها بشباك الصدور .
فيا من أنت أقل من الكلب ! اسرق من الباطن جوهرة الروح .
اسرقها من صدور العارفين .
فما دمت لصا ، فلتسرق مرة هذه الدرة اللطيفة وما دمت ستغدو حاملا فهذا عبء
شريف .

كيف فهم المريدون ان ذا النون لم يجن
وانما قصد التظاهر بالجنون

1430 لقد ذهبت الرفقاء إلى السجن من جراء قصد ذي النون ، وأبدوا في تلك القصة رأيا .
قائلين : “ انه فعل ذلك عن قصد أو لحكمة ، فهو في هذا الدين قبلة وهو فيه آية ! فكك هو بعيد عن عقله المماثل للبحر ، أن يغدو الجنون دافعا إياه إلى السفه .
وحاش لله أن ذا النون - وهو في كمال جاهه - تعجب بدره سحب المرض ! لقد دخل هذا المنزل تحاشيا لشر العوام . وهو من عار العقلاء قد صار مجنونا !

1435 انه من عار العقل الغبيّ الذي يقدس البدن ، ذهب متعمدا ، وأصبح مجنونا .
(قائلا) : “ أحكموا قيدى ، واضربونى على رأسي وظهري بأذناب البقر ، ولا تبحثوا عن (أسباب) ذلك ! لعلنى أجد الحياة في ضربات هذه السياط كما اقتبس القتيل حياة من بقرة موسى ، أيها الثقاة .
لعلنى بضربة ذنب البقرة يحسن حالي ، وأغدو سعيدا كما غدا القتيل ببقرة موسى .
لقد بعث القتيل حيا بضربة من ذنب البقرة كما غدا النحاس بالكيمياء ذهبا خالصا !

1440 لقد نهض القتيل ، ثم نطق بالأسرار . وكشف عن هذه العصبة المتعطشة للدماء ! وقال : " ان من الواضح أن هذه الجماعة قد قتلتني . وهي ذاتها الآن تثير الخصومة من أجلى " .
وحينما يقع القتل بهذا الجسم الغليظ ، يكون في ذلك حياة للكيان الذي يدرك الأسرار .
فترى روحه الجنة والنار ، وتعلم أيضا جملة الأسرار .
وتكشف عن الشياطين الدائبة على سفك الدماء كما تظهر شباك الخداع والرياء .

1445 وان قتل البقرة لهو من شرط الطريق فلعل الروح ينفق بضربة من ذنبها .
فسارع إلى قتل بقرة نفسك حتى يغدو روحك المستتر حيا واعيا .

عود إلى حكاية ذي النون قدس الله روحه

حينما اقترب منه هؤلاء الأفراد ، صاح بهم قائلا : " من أنتم ؟
اتقوا الله ! " .
فأجابوه بأدب : " اننا من الأصدقاء ، وقد جئنا إلى هنا سائلين عنك بأرواحنا .
كيف أنت يا من عقله بحر متعدد الفنون ؟ وأي بهتان نسب إلى عقلك الجنون ؟

1450 وكيف يرقى إلى الشمس دخان موقد الحمام ؟ أم كيف يستطيع الغراب التغلب على العنقاء ؟
فلا تحجب الحقيقة عنا ، بل وضح لنا ذلك الأمر . اننا محبوك فلا تعاملنا على هذا النحو ! فليس ينبغي للمرء أن يبعد عنه محبيه ، أو يخدعهم بالتظاهر والادعاء .
ألا فلتوضح لنا السر ، أيها المليك ! ولا تحجب وجهك خلف السحاب أيها البدر ! فنحن محبون صادقون ، وقد جرحت قلوبنا فنحن قد جعلناها مرتبطة بك في كلا العالمين .

1455 فابتدر هم بفاحش القول وجزاف السباب ، وتلفظ بالهراء مثل المجانين ! وقفز ثم أخذ يقذف بالحجارة ويلوّح بالعصا فهرب الجميع خوفا من ضرباته .
فقهقه ضاحكا ، وهزّ رأسه ثم قال : “ تأمل غرور هؤلاء الأصدقاء “ 1 “ ! تأمل الأصدقاء ! فأين علامة الصداقة عندهم ؟ ان الألم حبيب إلى الأصدقاء مثل الروح ! فكيف يتنحِّى الصديق عن ألم صديقه ؟ ان الألم هو اللب ، والصداقة له بمثابة القشور .

....
(1) حرفيا : “ تأمل هواء لحى هؤلاء الأصدقاء “ .

1460أو لم يغد من علائم الصداقة الحق أن يكون الانسان سعيدا في البلاء والعناء وعند نزول المحن ؟
فالصديق مثل الذهب والبلاء مثل النار ، والذهب الخالص يكون سعيدا في قلب النار " .

كيف امتحن سيد لقمان حكمة لقمان

ألم يكن من أمر لقمان - الذي كان عبدا طاهرا ، وكان مجتهدا في الخدمة ليل نهار - أن سيده كان يجعله مقدما في الأمور ، وكان يعتبره أفضل من أبنائه ؟
فلقمان كان ابنا لأحد العبيد ، لكنه - مع ذلك - كان سيدا ، وكان حرا من الهوى .

1465 ان أحد الملوك قال للشيخ في معرض الحديث : " سلني أن أنعم عليك ببعض العطاء . "
فقال الشيخ : " أيها الملك ! أما تستحى أن تقول لي مثل هذا القول ؟ ألا فلتترفع عن ذلك ! انى أملك غلامين ، كلاهما ممتهن حقير ، لكن كلا منهما سلطان عليك وأمير ! " فقال الملك : " ومن هذان ؟ ان قولك هذا لخاطىء " . فقال الشيخ : " أحدهما هو الغضب ، وأما الثاني فهو الشهوة . "
فاعلم أن الملك الحق هو الذي تحرر من الملك . فهذا يكون بازغ النور بدون قمر ولا شمس!

1470 وما ملك الكنز الا من كانت ذاته هي الكنز ، كما أن الوجود (الحق) لا يتحقق الا لمن كان عدوا لوجوده الذاتي ! ان سيد لقمان كان في الظاهر شبيها بالسادة . لكن هذا السيد في الحقيقة كان عبدا ، ولقمان سيده ! وكم لهذا من أشباه في عالمنا المعكوس . فالجوهر في نظر الناس أدنى مقاما من القش .
لقد أصبحت كلمة " مفازة " اسما لكل (نوع من) الصحارى .
وهكذا أصبحت الأسماء والألوان فخاخا لعقولهم .
وعند فريق منهم أن الثياب هي التي تعرّف بالانسان . فمن لبس القباء يقال عنه : " انه من العامة "

1475 وفريق يحكمون بظاهر الزهد المبنى على النفاق . ولا بد من نور ليكون المرء بالزهد خبيرا " 1 . "
لا بد من نور برئ من التقليد والتضليل ، لتتسنى معرفة المرء بدون فعل أو قول .
نور ينفذ إلى القلب عن طريق العقل ، فيرى حقيقة الحال ، ولا يكون مقيدا بالنقل .
وان خواص علام الغيوب من بين العباد هم في عالم الروح جواسيس القلوب " 2. "

....

(1)حرفيا : " لا بد من نور ليكون المرء جاسوس زهد " . والمعنى : لا بد من نور لتعرف حقيقة الزهد ، وهل هو صدق أو رياء . فالجاسوس هنا يقصد به من يعرف الأسرار .
" (2)جواسيس القلوب " معناها : المطلعون على اسرار القلوب.

فمنهم من يدخل القلب مثل الخيال ، فيغدو سر الحال منكشفا أمامه .

1480 وماذا في جسم العصفور من طاقة أو مقدرة تكون خافية على عقل الباز ؟
وماذا يكون سر المخلوقات أمام من أصبح مدركا لأسرار الوحدانية ؟
وهذا الذي يكون مسيره فوق الأفلاك ، أي مشقة يلاقيها من السير فوق الأرض ؟
وما دام الحديد قد غدا في كف داوود مثل الشمع فيكف يكون الشمع في راحته أيها الظلوم ؟
ان لقمان كان سيدا في صورة عبد . وما كانت العبودية الا ديباجة فوق ظاهره !

1485 فحين يذهب السيد إلى مكان لا يكون فيه معروفا فإنه يُلبس خادمه لباسه .
ويلبس هو ثياب غلامه ، ثم يجعل الغلام مقدما عليه .
ويمشى وراء كما يفعل العبيد في الطريق وذلك إليك لا يعرفه أحد .
ويقول : " أيها الغلام . تقدم أنت واجلس في مكان الصدارة وسأحمل أنا نعلك كما يفعل أحقر العبيد ! وعاملنى بشدة واشتمنى ولا يكن منك لي أي توقير!

1490 وسوف أعتبر أن خدمتك لي هي تركك الخدمة ، وذلك لكي أغرس بذور الحلية في أرض الغربة. "

ان السادة كانوا يفعلون فعل العبيد . حتى يظن أنهم من العبيد .
لقد كانون مترعين بالسيادة وعيونهم ملأى بها ، فمارسوا تلك الأعمال برضاء واقبال ! أما غلمان الهوى فهم على عكس ذلك . انهم يتظاهرون بأنهم سادة العقل والروح ! ومن السيد يأتي نهج التواضع . أما العبد فلا يجئ منه سوى أخلاق العبيد .

1495 فلتعلم أن الأمور هكذا تبدو عكس ما هي عليه بين هذا العالم وذاك العالم .
ولقد كان سيد لقمان عارفا بتلك الحال الخفية عند لقمان ، وكان قد شهد من الغلامات ما يدل عليها .
فهذا العابر السبيل كان يعرف السر جيدا ، لكنه تابع سيره " 1 " (ملتزما الصمت) من أجل المصلحة .
وكان من البداية يريد تحريره ، لكنه كان ينشد رضاء لقمان ، فقد كان هذا مراد لقمان حتى لا يعرف أحد سره ، وهو الأسد الشجاع !

1500 وأي عجب في أن تكتم السر عن الأشرار ؟ ان العجب ليس الا في كتمانك السر عن نفسك .
الا فلتخف عملك عن عينيك حتى يسلم عملك من العين الحاسدة!

....

(1)حرفيا : لكنه كان يسوق حماره.

ولتُسلم نفسك إلى شباك المثوبة . ثم انتزع من ذاتك شيئا حينما تكون خارجا عن وعيك " 1 " ان الرجل الطعين يُعطى الأفيون حتى يُستطاع اخراج رأس الحربة من جسده .
وفي ساعة الموت يغدو مشغولا بهذا المخدر ، في حين أنهم يمزقونه ألما ويذهبون بحياته .

1505 فأنت كلما أسلمت فؤادك إلى فكرة (تتملكه) ، يُسلب منك شئ في الخفاء .
ومهما يكن لك من تفكر أو تحصيل فان اللص يدخل عليك من ذلك الجانب الذي تستشعر منه الأمان .
فليكن اشتغالك اذن بما هو أهم ، حتى يكون ما يسلبه اللص منك هو الأدنى قيمة .
ان التاجر إذا سقطت بضائعه في الماء ، سارعت يده إلى استنقاذ أثمنها .
ولما كان من المحتم أن شيئا سيضيع في الماء ، فلتقل بترك الأدنى ولتنقذ ما هو أفضل .

كيف ظهر فضل لقمان وحكمته امام ممتحينه

1510 ان كل طعام كان يُحضر إلى السيد ، كان يبعث به مع شخص إلى لقمان ،

....
(1) المراد : " بانتزاع شئ من الذات حينما يكون المرء خارج الوعي " أن يخلص الانسان الذات من انانيتها .

حتى يضع لقمان يده فيه ، وكان قصد السيد من ذلك أن يأكل فضلة طعامه .
لقد كان يأكل بقية طعامه ، فينتشى بها . أما الطعام الذي لم يأكل منه لقمان فقد كان يرميه ! وان أكل منه فذلك كان بدون رغبة ولا اشتهاء . لقمان كان ارتباطه به لا انفصام له .
(وذات يوم) أهديت اليه بطيخة ، فقال (لأحد الغلمان) :
" اذهب وادع ولدى لقمان " .

1515 وحينما اقتطع منها قطعة وناوله إياها ، أكلها وكأنما هو يأكل السكر أو الشهد .
ومن التذاذه بتذوقها ناوله قطعة ثانية ، وظل (يعطيه) حتى أكمل سبع عشرة قطعة .
وبقيت قطعة فقال السيد : " سوف أكل أنا هذه القطعة ، لأرى كم هي حلوة هذه البطيخة .
ان لقمان يتناولها ملتذا حتى أن تذوقه لها قد جعل الطباع تشتهيها وتلتمس لقمه منها " .
فحين تناولها السيد وجد لحموضتها مذاق النار ، فالهبت لسانه وأحترق بها حلقه !

1520 وأذهله طعمها المر عن نفسه حينا ، ثم قال بعد ذلك للقمان .
" يا من أنت الروح والوجود ! كيف جعلت هذا السم ترياقا ؟ أم كيف تصورت هذه القسوة لطفا ؟

أي صبر هذا ؟ ومن أي وجه هذا الجلد ؟ أم لعلك تعد الحياة عدوا لك ؟
لما ذا لم تتعلل بحلية تحتج بها ، قائلا : " ان لي عذرا ، فمهلا على برهة من الزمان ".
فقال لقمان : " انني من يديك المنعمتين كم أكلت حتى انحنيت خجلا !

1525 وقد استحييت ألا أستسيغ المر من كفك مرة واحدة ، يا صاحب المعرفة ! فما دامت كل أجزائى قد نبتت من انعامك وما دمت غريق حَبِّك وشباكك .
فان أنا صرخت واستغثت من تذوق مرارك مرة واحدة فليُحث فوق كل أعضائي تراب مائة طريق ! لقد كان لهذا البطيخ حلاوة يدك السكرية العطاء ! وكيف كانت هذه تدع أية مرارة في البطيخ ؟ " ان المحبة تجعل المر حلو المذاق ! وبالمحبة يغدو النحاس ذهبي (الصفات) !

1530 وبالمحبة يغدو المتكر ذا صفاء وبالمحبة تكون الأوجاع هي الشفاء ! وبالمحبة يُبعث الميت حيا ! والمحبة هي التي تجعل من الملك عبدا .
وهذا المحبة انما هي نتيجة المعرفة . ومن ذا الذي جلس جزاقا على مثل هذا التخت ؟
وكيف تلد المعرفة الناقصة مثل هذا العشق ؟ انها تلد عشقا ناقصا يتعلق بالجماد !

فإذا ما أبصر في جماد لونا مطلوبا ، فكأنما سمع صوت حبيب يدعوه بالصفير .

1535 ان المعرفة الناقصة لا تحسن التمييز . فلا جرم أنها تحسب البرق شمسا .
فالرسول حين قال إن الناقص ملعون ، كان تأويل النقص هنا نقصان العقل .
ذلك لأن ناقص الجسم يكون موضعا للرحمة . وكيف يليق بالمرحوم اللعن والايذاء ؟
أما نقص العقل فهو المرض الخبيث . انه موجب اللعنة ، الجدير بأن يُقصى صاحبه (عن حضرة الخالق) .
ذلك لأن اكمال العقول ليس بعيد المنال أما اكمال الأبدان فأمر ليس في المقدور .

1540 فكل كافر بعيد (عن لقاء ربه) ، لم ينبثق كفره وفرعونيته الا من نقصان عقله ! أما (المبتلى) بنقصان البدن فقد جاءه الفرج في قوله تعالى :" لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ " *" 1 " .
ان البرق يكون آفلا مفرط البعد عن الوفاء . وبدون الصفاء لن تعرف الآفل من الباقي .
البرق يضحك ، فعلى من يضحك ؟ خبرني ! انه يسخر من المرء الذي جعل قلبه متعلقا بنوره .

....
(1) الفتح ، 48 : 17 .

ان أنوار الفلك مقطعة الأرجل ، فأين هي من ذلك النور الذي لا هو شرقي ولا غربى " 1 " .

1545 واعلم بأن البرق مثال لمن يخطف الأبصار " 2 " ، أما النور الباقي فهو الذي يُمدها بالعون " 3 " .
فركوبك الفرس فوق زبد البحر ، أو قراءتك كتابا في نور البرق ، هما - بدافع الحرص - عمى عن ابصار العواقب . انهما سخرية منك بقلبك وعقلك .
فمن خصائص العقل أنه بصير بالعواقب . أما النفس فهي التي لا ترى العواقب .
فالعقل الذي تغلبت عليه النفس أصبح نفسا . انه المشترى ، تغلب زحل عليه ، فصار نحسا .

1550 فأدر في ذلك النحس هذا النظر ، وتأمل حقيقة من صنع لك النحس .
ان ذلك انظر الذي يشهد هذا البحر والمد ، قد شق في النحس سبيلا إلى السعد .
ذلك لأنه (الخالق) يحولك دوما من حال إلى حال ، مظهرا لك الضد بضده ابان الانتقال .
وإذ ذاك يتولد لك الخوف من أن تكون من أصحاب الشمال .
وما يشتاق لذة أصحاب اليمين الا الرجال .

....
(1) انظر : سورة النور ، 24 : 35 .
(2) انظر : سورة البقرة ، 2 : 20 .
(3) حرفيا : " أما النور الباقي فإنه لها كل الأنصار " .

ويكون لك جناحان “ 1 “ ، فالطائر ذو الجناح الواحد يعجز عن الطيران ، أيها المفضال .

1555 فلتسمح لي - يا الهى - ألا أعود إلى الكلام ، أو هب لي اذنا بأن أبوح بكل شئ .
وان لم ترد لي هذا ولا ذاك ، فالأمر إليك . فأنى للمرء أن يعرف أين يكون مقصدك .
فلا بد من روح إبراهيم لكي يبصر المرء بنورها الفردوس والقصور في صميم النار !
ويرقى درجة إلى القمر ثم الشمس ، ولا يبقى مثل الحلقة أسير الباب .
ثم يتجاوز السماء السابعة مثل الخليل ، قائلا :” لا أُحبُّ الْآَفلينَ ““ 2 “ .

1560 ان عالم الجسد هذا مورد للخطيئة ، الا بالنسبة لمن تخلص من الشهودة والهوى .

تتمة قصة الحسد الذي اضمر هؤلاء الحشم
لذلك الغلام الذي كان أثيرا عند السلطان

ان قصة المليك والأمراء ، وحسدهم ذلك الغلام الخاص الذي كان سلطان الحكمة ،

………………………………………………………
(1) الجناحان يراد بهما الخوف والرجاء المشار اليهما في البيت السابق
(2) الأنعام ، 6 : 76 .

قد أبعدنا عنها ما جرنا اليه استطرادنا في القول . وقد وجبت العودة إليها الآن لاكمالها .
فكيف لا يعرف بستاني الملك - ذلك الموفق السعيد - كيف يميز بين شجرة وشجرة ؟ بين تلك الشجرة التي هي مرة منبودة ، وذلك الشجر الذي تعدل واحدة منه سبعمائة شجرة .

1565 وكيف يسوى بينهما في الرعاية حين ينظر اليهما بعين العاقبة ؟
ومهما بدت هذه الأشجار متشابهة ساعة النظر إليها ، فما الغاية منها ؟ انها الثمار .
ان الشيخ الذي تحقق له أن ينظر بنور الله ، أصبح عارفا بالنهاية والبداية .
لقد أغلق في سبيل الحق تلك العين التي ترنو إلى حظيرة (الدنيا) ، وسارع إلى فتح تلك العين التي تبصر العاقبة .
وهؤلاء الحاسدون كانوا أشجارا رديئة . لقد كانوا ذوي جوهر مر ، وطالع منحوس !

1570 لقد كانوا يجيشون بالحسد ويُزبدون ، وكانوا ينشرون المكر في الخفاء .
وذلك لُيطيحوا برأس ذلك الغلام الأثير ، ويقتلعوا جذوره من الزمان .
وكيف يغدو فاينا وقد كان المليك ، روحه ؟ وأما جذوره فقد كانت في عصمة الله .
ولقد وقف الملك على هذه الأسرار ، لكنه لزم الصمت مثل أبى .

بكر الربابى " 1 " .
وبينما هو يشهد قلوب ذوي الجوهر الخبيث كان يصفق بيديه (ساخرا) من هؤلاء الخزافين .

1575 لقد كانوا قوما محتالين يصطنعون المكر ، ليغرقوا المليك في كوب فقاع !
وكيف يتسع كوب الفقاع - أيها الحمير - لملك بالغ العظمة لا حدود له ؟
لقد كانوا يحيكون شبكة للمليك لكنهم في عاقبة الأمر تعلموا منه ذلك التدبير .
فماأنحس التلميذ الذي يشرع في منافسة أستاذه ويتصدى له ! ولأي أستاذ (يكون هذا التصدي) ؟ انه أستاذ الكون الذي يستوى أمامه الظاهر والمكنون !

1580 لقد صارت عيه ناظرة بنور الله فمزقت بذلك حجب الجهل .
وهذا التلميذ فد تحجب أمام ذلك الحكيم بستار من قلبه المهلهل كالبساط البالي .
فهذا الستار يضحك مه بمائة فم ، كل فم منها غدا ثغرة (تنكشف من خلالها أسراره) .
فيقول الأستاذ للتلميذ : " يا أخس من الكلب ! أما عندك وفاء لي ؟

....

(1) يذكر الشراح ان أبا بكر الربابى كان أحد الصوفية المولهين وأنه لزم الصمت مدة طويلة ، بلغت سبعة أعوام . وأنه كان إذا سمع كلاما موجبا للقهر تحمله وضرب الأرض برجله . انظر المنهج القوى ، 2 ، 363 وكذلك تعليقات نيكولسون .

فهب أنني لست أستاذا يقطع الحديد ، وهب أنني مثلك تلميذ عمي القلب ،

1585 ألم يكن لك منى عون في نفسك وورحك ؟ وبدون ما كان ينساب من أجلك ماء ! فقلبي كان مصنعا لحسن طالعك ، فلماذا تُحطم هذا المصنع ، أيها الخالي من الرشد ؟
انك تقول : “ لقد كنت أقدح النار في الخفاء “ . أو ليست هناك نافذة بين القلب والقلب ؟
فهو في العاقبة يطلع من هذا النافذة على فكرك . فالقلب يشهد على ما يدور في خلدك .
وهب أنه - لكرمه - لا يعنف في مواجهتك ويبتسم لكل ما تحدثه به ، ويقول : “ نعم “ .

1590 فليس ابتسامه لأنه ملتذ بريائك بل هو يضحك (هازئا) من خفي أفكارك !
فالخداع قد أضحى جزاء للخداع فاضرب بكأس تُضرب بكوز ، ذلك جزاء وفاق .
فلو أنه كان قد ابتسم لك بسمة الرضى ، لتفحت لك مثات الألوف من الورود .
فقلبه ان أقدم برضاء على عمل ، فاعلم أنه مثل الشمس تدخل برج الحمل .
فبها يضحك النهار ويزدهر الربيع . وبها تتفتح الأزاهير وتمازج خضرة الرياحين .

1595 وآلاف البلابل والقمارى تصب غناءها في هذا العالم المحروم .
فان أنت أبصرت أوراق ورحك مصفرة ثم مسودة فكيف لا تدرك غضب المليك ؟
ان شمس المليك في برج العتاب تجعل الوجوه سوداء مثل الكتاب “ 1 “ .
وأرواحنا أوراق لعطارد (يخط فيها) ، وهذا البياض وذاك السواد ميزاننا .
ثم يعود فيخط منشورا بمداد أحمر وأخضر وذلك لتنجو الأروح من الكآبة والعجز .

1600 ولقد جاء خط الربيع باللون الأحمر والأخضر ، بل هو - لو تأملته “ 2 “ - شبيه بخط قوس قزح .

كيف شع تعظيم كتاب سليمان عليه السلام
من صورة الهدهد الحقيرة إلى قلب بلقيس

مائة رحمة على بلقيس ، تلك التي وهبها الله عقل مائة رجل ! لقد حمل الهدهد إليها كتابا ، عليه خاتم سليمان ، وبه بضع كلمات ذات بيان .
فقرأت تلك النكات ذات الشمول ، ولم تنظر باحتقار إلى الرسول .
لقد رأته عينها هدهدا ، أما روحها فقد أبصرته عنقاء ! ورآه حسها مثل الزبد وأما قلبها فرآه مثل البحر !

....
(1) فضلنا هنا رواية “ همجون كتاب “ على “ همجون كباب “ ، لأنها أوثق ارتباطا بمعانى الأبيات التالية .
(2) حرفيا : “ وهو في الاعتبار . . . “

ان العقل - من جراء هذه الطلاسم ذات اللونين - في حرب مع الحسن كحرب محمد مع أمثال أبى جهل .
فعند الكفار أن أحمد ليس سوى بشر ، ما داموا لم يشهدوا منه معجزة شق القمر .
فعينك التي لا تتجاوز شهود الحس جديرة بأن تملا بالتراب . ان عين الحسن عدو للعقل والدين ! ولقد وصف الله عين الحسن بأنها عشواء ، ونعتها بأنها عابدة للصنم عدو لنا .
ذلك لأنها أبصرت الزبد ولم تبصر البحر ، وكذلك لأنها شهدت الحال ولم تشهد الغد .

ان سيد الغد والحال أمامها ، لكنها لا ترى من الكنز مثقال شعيرتين ! فلو أن ذرة حملت رسالة من تلك الشمس لغدت شمس الدنيا خادمة لتلك الذرة ! والقطرة التي جاءت سفيرا من بحر الوحدة ، تكون البحار السبعة من أساراها ! ولو أن سفيره كان حفنة من تراب ، لخفضيت الأفلاك رؤوسها أمام ترابه ! فتراب آدم حين غدا سفيرا للحق ، خفضت رؤوسها له ملائكة الحق .
ولأي شئ كان انشقاق السماء “ 1 “ ؟ ان ذلك لأن ترابيا قد فتح عينا !

....
(1) انظر : سورة الانشقاق ، 84 : 1 .

ان التراب يرسب تحت الماء لكثافته . لكن تأمل ذلك التراب الذي تجاوز العرش مسرعا ! فاعلم اذن أن لطافة الماء ليست من الماء ، وانها ليست سوى عطاء المبدع الوهاب .
فلو أنه جعل الهواء والنار سفلين ولو أنه جعل الشوك يتفوق على الورد ، فهو الحاكم وهو الله يفعل ما يشاء . وهو الذي يبعث الدواء من عين البلاء !

1620 فلو أنه جعل الهواء والنار سفليين ، وجعلهما ظلمة وكدرا وثقلا ، ولو أنه جعل الثرى والماء علويين ، وجعل طريق الأفق ممهدا تطويه الأقدام ، فقد أصبح من اليقين أن الذي يعز من يشاء هو الذي قال لكائن ترابى : “ انشر جناحيك “ .
وهو الذي قال للنار : اذهبي ، وكونى إبليس ، واهبطى بتلبيسك إلى حضيض الأرض السابعة .
يا آدم ، أيها الترابى ! اصعد فوق السها ! وأنت يا إبليس أيها النارى ! اهبط إلى حضيض الثرى !

1625 انني لست الطبائع الأربع “ 1 “ ولا العلة الأولى ، وانما أنا الباقي والمتصرف على الدوام .
وفعلى مستقيم وليس بذى علة . كما أن تقديرى لا علة فيه ، أيها السقيم .

....
(1) الطبائع الأربع هي الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة .

وانى لأبدل عادتي حين أشاء . وأقر هذا الغبار الثائر حين أريد .
وأقول للبحر : “ هيا ، كن مليئا بالنار “ . وأقول للنار :
“ اذهبي وكونى بستان ورد “ وأقول للجبل : “ كن خفيفا كالصوف “ “ 1 “ . وأقول للفلك “ كن ممزقا متداعيا أمام العين “ .

1630 وأقول : “ أيتها الشمس كونى مقترنة بالقمر “ ، واجعلهما معا كقطعتين من الحساب الأسود .
ونحن الذين نجفف عين الشمس ، ونجعل بالقدرة عين الدم مسكا .
والشمس والقمر يغدوان كثورين أسودين ، يثقل الاله عنقيهما بالأعباء .

انكار المتفلسف قراءة “ ان أصبح ماؤكم غورا “

كان أحد المقرئين يقرأ من الكتاب (قوله تعالى) :” إنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً ““ 2 “ ، يعنى “ لو أنني حبست الماء عن العين ، وحجبت المياه في الأغوار ، وجففت العيون وجعلت الأرض قاحلة ،

....
(1) إشارة إلى قوله تعالى : “ وتكون الجبال كالعهن المنفوش “ . سورة القارعة ، 101 : 5 .
(2) اقتباس من قوله تعالى : “ قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين “ . (سورة الملك ، 67 : 30) .

1635 فمن ذا الذي يعود بالماء ثانية إلى العيون ، سواي أنا ، من تنزه عن مثيل في الفضل والجلال “ .
وكان يمر بجوار المكتب حينذاك متفلسف منطقي مستهان القدر .
فحينما استمع إلى الآية قال ساخرا : “ سوف نحصل على الماء بالمعول .
اننا بضربة الفأس وحدة المعول نخرج الماء من جوف الأرض إلى سطحها “ “ 1 “ .
ونام تلك الليلة ، فرأى في المنام أن رجلا شجاعا ضربه ضربة أعمت كلتا عينيه ،

1640 وقال له : “ أيها الشقي ! ان كنت صادقا فاستنبط بالفأس بعض النور من نبعى عينيك “ .
ونهض الرجل في الصباح فوجد عينيه قد عميتا . ووجد أن النور الفياض قد اختفي منهما ! فلو أنه انتحب واستغفر ربه لرد اليه - بكرم الله - ما فارقه من نور البصر !
لكنه لم يكن في وسعه الاستغفار فمذاق التوبة ليس نقلا لكل نشوان .
ان قبح أعماله وشؤم جحوده قد أغلقا أمام قلبه سبيل التوبة

1645 ان قلبه بقسوته صار مثل وجه الصخر . فكيف تستطيع التوبة أن تشقه من أجل الغراس .
فأين مثيل شعيب حتى يجعل الجبل بدعائه تربة للزراعة .

....

(1) حرفيا : “ من أسفل إلى أعلى “ .

ان الأمر الصعب المستحيل قد غدا ممكنا بضراعة الخليل وايمانه .
وكذلك بسؤال المقوقس ، للرسول ، صارت أرض صخرية مزرعة كاملة الصفات !
وعلى العكس من ذلك انكار المرء ، فهو يجعل الذهب نحاسا والصلح حربا !

1650 ان هذا الغش بمثابة كهرباء المسخ ! وانه ليحول الأرض الخصبة إلى حجارة وحصى ! وليس كل قلب بمأذون أن يخر ساجدا ، فجزاء الرحمة ليس نصيبا لكل عامل .
فحذار ، لا تقترف الجرم والاثم مستندا إلى ذلك ، (قائلا) :
“ لسوف أتوب ثم ألتجىء إلى الله “ .
فلا بد للتوبة من لهيب وماء ! لا بد للتوبة من برق وسحاب ! ولا بد للثمار من نار وماء . وتلك الظاهرة يلزم لتحقيقها البرق والسحاب .

1655 فبدون برق القلب وسحاب العينين ، كيف كانت تسكن نار التهديد والغضب ؟
وكيف كانت تنمو خضرة ذوق الوصال ، أم كيف كانت تجيش العيون بالماء الزلال ؟
وكيف كانت حديقة الورد تبوح بسرها للبستان ؟ أم كيف كان البنفسج يرتبط بالعهد مع الياسمين ؟
وكيف كان شجر الغرب يبسط أيديه في الدعاء ؟ أم كيف كانت أية شجرة تعلو برأسها في الهواء ؟

وكيف كانت البراعم ذات الأكمام الحافلة بالنثار تنفض أكمامها أيام الربيع ؟

1660 ومتى كانت خدود الأقاحى تشتعل بلون الدماء ؟ ومتى كان الورد يبرز العسجد من أكياسه ؟
ومتى كان البلبل يأتي ويشم عبير الورد ؟ ومتى كانت الفاختة تهتف " كوكو " كأنها تقول " أين ؟ أين ؟ " " 1 " .
ومتى كان اللقلق يهتف بروحه " لك لك " ؟ وماذا تعني " لك " ؟
انها تعنى : " لك الملك أيها المستعان " .
وكيف تظهر الأرض أسرار الضمير ؟ وكيف يغدو البستان منيرا كالسماء ؟
ومن أين قد جاءا بهاتيك الحلل ؟ انها كلها من كريم رحيم .

1665 فهذه اللطائف كلها علامة للشاهد . انها آثار القدم (يقتفيها) الرجل العابد .
وليس يسعد بالأثر الا من رأى المليك . أما من لم يره فليس له انتباه إلى ذلك .
فروح ذلك الانسان الذي في ساعة " ألست " ، رأى ربه ، وغدا ذاهلا ثملا ، هو الذي يعرف رائحة الخمر ، لأنه قد احتسى الخمر . ومن لم يكن قد احتساها فإنه لا يعرف شذاها .
ذلك لأن الحكمة مثل الناقة الضالة ، لكنها كالمنادى ، دالة للملوك .

....
(1) حرفيا : " ومتى كانت الفاختة تهتف (كوكو) كأنها طالب " . و " كو " معناها " أين ؟ " .

1670 وانك لترى في منامك وجها لطيفا ، وهذا يعطيك وعدا وعلامة ، (قائلا) ان مرادك سوف يتحقق ، وآية ذلك أن فلانا سوف يزورك في الغد .
ومن علامات ذلك الزائر أن يكون راكبا . ومن علاماته أنه يحتضنك .
ومن علاماته أنه سوف يواجهك مبتسما . ومن علاماته أنه سوف يطوى أمامك ساعديه .
ومن العلامات أنه حين يجئ الغد - فإنك لا فتتانك بهذا الحلم - لا تخبر به انسانا .

1675 ومن تلك العلامات أيضا قول الحق لزكريا :" آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ "" 1 " .
فالزم الصمت ثلاثة أيام مهما أصابك من خير أو شر . فهذه آية منبئة بأن يحيى سوف يأتي إليك .
ولا تنبس بكلمة طيلة الأيام الثلاثة . فان هذا السكوت آية حصول مرادك .
فحذار ، ولا تبح في القول بتلك العلامة . واجعل هذا الكلام خبيئا في قلبك .
وهكذا يحدثه بهذه العلامات الحلوة كالسكر . بل ماذا تكون هذه ؟ انه ينبئه بمائة أخرى .

1680 فهذه علامة بأنك سوف تتلقى من الله ذلك الملك الذي كنت تنشده –

....
(1) انظر : سورة آل عمران ، 3 : 41 .

ذلك الذي بكيت من أجله خلال الليالي الطوال ! ذلك الذي كنت تتحرق بالضراعة من أجله خلال الأسحار ! ذلك الذي - بدون تحققه - غدا نهارك مظلما ، وغدا عنقك نحيفا كالمغزل ! ذلك الذي قدمت كل ما تملك زكاة في سبيله ، فغذت بضاعتك شبيهة بزكاة الذين يتخلون عن كل شئ .
فتخليت عن متاعك ونومك ولون وجهك ، وجعلت رأسك فداء لمرادك ، وغدوت في نحول الشعرة " 1 " !

1685 ولكم (في سبيله) جلست في النار مثل العود ، وكم تصديت للسيف مثل الخوذة .
ومن أمثال هذه الاندفاعات - التي لا حيلة فيها - مئات الآلاف ، وكلها من صفات العشاق التي لا يسعها حصر ! وأقبل الصبح بعد أن رأيت في ليلك هذا الحلم ، فغدا نهارك مظفرا بتلك البشائر .
فأدرت عينيك نحو الشمال ونحو اليمين ، متفكرا ، أين تلك الآية وأين هاتيك العلامات ؟
فها أنت ذا ترتعد كورقة النبت (قائلا) : " أواه لو مضى النهار بدون أن تظهر تلك الآية " .

1690 وها أنت ذا تجرى في الشوارع والأسواق والديار ، كما يجرى رجل قد أضاع عجلا !

....
(1) يصف هنا الصوفي الذي يتخلى عن كل متع الحياة ومغرياتها المادية .

خيرا أيها السيد ؟ ولأي شئ جريك هذا ؟ ومن هذا الذي يخصك ، وقد أضعته هنا ؟
فتقول : " انه خير ، ولكن خيري أنا لا يجوز أن يعرفه أحد سواي ! فلو أنني تحدثت عنه لضاعت مني آيتي . وان ضاعت الآية ، فقد حان وقت الموت " .
وها أنت ذا تحملق في وجه كل راكب ، فيقول لك : " لا تحملق في وجهي كالمجنون ! "

1695 فتقول له : " انني قد فقدت صاحبا . وقد وليت وجهي لطلبه والبحث عنه .
فيا أيها الراكب ، كن رحيما بالعشاق ، ومهد لهم الأعذار ! أدام الله لك السعادة " .
فحينما اجتهدت في الطلب تحقق لك النظر . والجدّ لا يخطئ ، كما جاء في الخبر .
فقد أقبل - على غير توقع منك - فارس سعيد ، وإذا به يضمك بقوة إلى صدره .
وإذا بك تفقد الوعي ، وتقع فوق ظهرك . فيقول من لا خبر عنده : " ان هذا لخداع ونفاق " .

1700 وأي بصر لهذا بما يداخل سواه من الوجد ؟ انه لا علم له بمن تنبىء بوصاله هذه العلامة .
ان هذه العلامة ذات مغزى لمن أبصرها (من قبل) . أما سواه فكيف تتضح له هذه العلامة ؟

فالمرء تتلقى روحه روحا ، كلما أقبلت من الخالق احدى الآيات .
انها الماء وقد أقبل نحو السمكة المسكينة . فهذه العلامات هي ما يعنيه قوله تعالى :"
تِلْكَ آياتُ الْكتاب " *" 1 " .
وهذه الآيات التي خص بها الأنبياء ، وقف على ذلك الروح الذي يكون من العارفين .

1705 لقد بقي هذا الكلام ناقصا وبدون قرار . فلا طاقة لي فاعذرنى ، انى فقدت فؤادي ! وكيف يستطيع امرؤ أن يعد الذرّات ، وبخاصة من كان قد ذهب بعقله العشق ! فهأنذا أعد أوراق البستان ! وهأنذا أحصى أصوات البط والغربان ! وليس يحصيها عدّ ، لكني أعدها ليكون ذلك سبيلا لرشد المتحن .
ولو أنك عددت نحس كيوان أو سعد المشترى فما للحصر سبيل إلى ذلك .

1710 لكن من الواجب شرح بعض من هذين الأثرين ، أعنى ما ينجم عنهما من نفع أو ضر .
وذلك ليعلم أهل السعد والنحس قدرا يسيرا من آثار القضاء .
فمن كان طالعه المشترى غدا سعيدا بابتهاجه ونباهة شأنه .
ومن كان طالعه زحل ، فلا بد له أن يكون في الأمور محتاطا من كل الشرور .

....
(1) هذه العبارة وردت في مواضع عدة من القرآن الكريم . انظر مثلا :
سورة يونس ، 10 : 1 .

ولو أنني حدثت زحلي الطالع عن نار زحل ، لاحترق بها ذلك المسكين !

1715 لقد أذن لنا الله (أن نذكره) إذ قال :" اذْكُرُوا اللَّهَ " *" 1 " . فقد رآنا في النار فوهبنا النور .
وقال : " مع أنني منزه عن ذكركم ، ومع أن تصاويركم ليست لائقة بي ، فإنه لا سبيل - أمام المولع بالتصوير والخيال - إلى ادراك ذاتنا بدون مثال .
وان التصور الجسماني لخيال ناقص . فوصف الجلالة برئ من تلك (التصورات الحسية) .
فلو أن شخصا يقول : " ان المليك ليس بحائك " . فأي مدح هذا ؟ لا بد أن قائله من الجهلاء .

كيف أنكر موسى عليه السلام مناجاة الراعي

[رؤية موسى الراعي ومناجاته]
1720 رأى موسى راعيا على الطريق ، وكان هذا يردد : " الهي ، يا من تصطفي (من تشاء) ، أين أنت حتى أصبح خادما لك ، فأصلح نعليك ، وأمشط رأسك !
وأغسل ثيابك ، وأقتل ما بها من القمل ! وأحمل الحليب إليك ، أيها العظيم ! وأقبل يدك اللطيفة وأمسح قدمك الرقيق ، وأنظف مخدعك حين يجئ وقت المنام .

....
(1) انظر : سورة الأحزاب ، 33 : 41 .

يا من فداؤك كل أغنامى ! ويا من لذكرك حنينى وهيامي ! "

1725 وأخذ الراعي يردد هذا النمط من هراء القول . ورآه موسى ، فناداه قائلا :
" مع من تتحدث أيها الرجل ؟ " فقال الراعي : " مع ذلك الشخص الذي خلقنا . مع من ظهرت بقدرته هذه الأرض ، وتلك السماوات " .
فقال موسى : " حذار ، انك قد أو غلت في ادبارك . وما غدوت بقولك هذا مسلما بل صرت من الكافرين .
ما هذا العبث وما هذا الكفر والهذيان ؟ ألا فلتحش فمك بقطعة من القطن .
ان نتن كفرك قد جعل العالم كله منتنا ! بل إن كفرك قد مزق ديباجة الدين !

1730 ان النعل والجورب يليقان بك . ولكن متى كان مثل هذين يليقان بالشمس ؟
فلو أنك لم تغلق حلقك عن مثل هذا الكلام ، فان نارا سوف تندلع وتلتهم الخلق ! وان لم تكن النار قد أندلعت فما هذا الدخان ؟ ولماذا أصبحت نفسك مسودة وروحك مردودا ؟
وان كنت تعلم أن الله هو الحاكم ، فكيف اعتقدت بمثل هذا السفه والوقاحة ؟
ان صداقة الأحمق هي عين العداوة . وما أغنى الحق تعالى عن مثل هذه العبادة !

1735 فمع من تتحدث ؟ أمع العم أو الخال ؟ وهل الجسم والحاجة من صفات ذي الجلال ؟

ان الحليب يشربه من يكون قابلا للنشأة والنماء . والنعل يلبسه من هو بحاجة إلى القدم .
وحتى لو كان هذا القيل والقال (موجها) لعبد الله الذي قال عنه الحق : " انه ذاتي وأنا ذاته " ، هذا العبد الذي هو مغزى حديث الحق : " مرضت فلم تعدنى .
لقد غدوت مريضا ، وليس عبدي وحده هو الذي مرض " ، لكان مقالك هذا عبثا وهراء في حق هذا العبد ، بعد أن غدوت له سمعا وبصرا " 1 "

1740 ان التحدث بدون أدب مع خواص الحق ، يميت القلب ويجعل الصحائف سودا .
فمع أن الرجال والنساء جميعا من جنس واحد ، فإنك لو سميت رجلا " فاطمة " ، لسعى لقتلك ان وجد إلى ذلك سبيلا ، مع أنه قد يكون حسن الخلق حليما وادعا .
ان اسم فاطمة مدح في حق النساء ، لكنك لو دعوت رجلا به كان كطعن السنان !
واليد والقدم هما في حقنا من صفات المديح . لكنهما في حق الخالق المنزه ذم !

1745 وقوله : " لم يلد ولم يولد " هو الوصف اللائق به ، مع أنه خالق الوالد والمولود .

....
(1) حرفيا : " وقد غدا بي يسمع وبي يبصير " .

وكل ما كان جسما فالولادة صفة له . وكل ما يولد فهو من هذا الجانب من النهر . ذلك لأنه من عالم الكون والفساد ، فهو مهين . ومن المحقق أنه حادث ويقتضى محدثا " .
فقال الراعي : " يا موسى ، لقد ختمت على فمي ! وها أنت ذا قد أحرقت بالندم روحي ! " ومزق ثيابه وتأوه ، ثم انطلق مسرعا إلى الصحراء ومضى .

كيف عاتب الحق تعالى موسى عليه السلام من اجل الراعي

1750 فجاء موسى الوحي من الله (قائلا) : " لقد أبعدت عنى واحدا من عبادي ! فهل أيتت لعقد أواصر الوصل ، أم أنك حئت لايقاع الفراق ؟
فما استطعت لا تخط خطوة نحو ايقاع الفراق ، فأبغض الحلال " 1 " عندي هو الطلاق ! لقد وضعت لكل انسان سيرة ، ووهبت كل رجل مصطلحا للتعبير ، يكون في اعتباره مدحا على حين أنه في اعتبارك ذم . ويكون في مذاقه شهدا وهو في مذاقك سم !

1755 انني منزه عن كل طهر وتلوث ، وعن كل روح ثقلت (في عبادتي) أو خفّت .

....
(1) حرفيا : " أبغض الأشياء . . . "

والتكليف من جانبي لم يكن لربح أنشده . لكن ذلك كان لكي أنعم على عبادي .
فأهل الهند لهم أسلوبهم في المديح . ولأهل السند كذلك أسلوبهم .
ولست أغدو طاهرا بتسبيحهم بل هو المتطهرون بذلك ، الناثرون الدر .
ولسنا ننظر إلى اللسان والقال ، بل نحن ننظر إلى الباطن والحال .

1760 فنظرنا انما هو لخشوع القلب ، حتى لو جاء اللسان مجردا من الخشوع . فالقلب يكون هو الجوهر ، أما الكلام فعرض . والعرض يأتي كالطفيلى أما الجوهر فهو المقصد والغرض .
فإلى متى هذه الألفاظ ، وذلك الاضمار والمجاز ؟ انى أطلب لهيب (الحب) ، فاحترق ، وتقرّب بهذا الاحتراق ! أشعل في روحك نارا من العشق ، ثم احرق بها كل فكر وكل عبارة ! يا موسى ! ان العارفين بالآداب نوع من الناس ، والذين تحترق نفوسهم وأرواحهم (بالمحبة) نوع آخر “ .

1765 ان اللعشان احتراقا في كل لحظة ! وليس يفرض العشر والخراج على قرية خربة ! فلو أنه أخطأ في القول فلا تسمه خاطئا . وان كان مجللا بالدماء ، فلا تغسل الشهداء فالدم أولى بالشهداء من الماء ! وخطأ المحب خير من مائة صواب ! فليس في داخل الكعبة رسم للقبلة .
وأي ضرر يحيق بالغواص

ان لم يلبس النعل الواقى من الغوص في الثلوج ؟
فلا تلتمس الهداية عند السكارى . وكيف تطلب ممن تهلهلت ثيابهم رفو تلك الثياب ؟

1770 ان ملة العشق قد انفصلت عن كافة الأديان . فمذهب العشاق وملتهم هو الله . ولو لم يكن تلياقوتة خاتم فلا ضير في ذلك . والعشق في خضم الأسى ، ليس مثيرا للأسى !

كيف جاء الوحي موسى عليه السلام
موضحا عذر ذلك الراعي

ولقد ألقى الله - بعد ذلك - أسرارا في أعماق قلب موسى ، ليست مما يُباح به .
لقد تدفقت الكلمات إلى قلب موسى ، وامتزج الشهود بالكلام .
فكم ذهل عن ذاته وكن عاد إلى الوعي ! وكم طار محلقا من الأزل إلى الأبد !

1775 فلو أنني شرحت أكثر من هذا لكان من البلاهة . ذلك لأن شرح هذا يتجاوز علمنا .
ولو أنني ذكرته لا قتلعت العقول ! ولو أنني كتبته لا نشق كثير من الأقلام ! فحين سمع موسى هذا العتاب من الحق ، هرع وراء الراعي موغلا في البيداء .

وانطلق مقتفيا آثار قدمي ذلك الحيران . فكان نيثر الغبار من أذيال الصحراء .
وان خطوة قدم الانسان المولہ لهی متمیزة عن خطی الآخرین .

1780 فتارة يمضى مستقيما كالرخ من القمة نحو القرار . وتارة يمضى بخطى متقاطعة مثل الفيل “ 1 “ .
وتارة يمضى كالموج متطاولا رافعا علمه . وتارة يمضى زاحفا فوق بطنه كالسمكة .
وتارة يخط وصف حاله فوق التراب ، كالرمِّال الذي يضرب الرمال .
وفي النهاية أدرك موسى الراعي ورآه . وقال البشير (للراعى) .
“ ان الاذن قد جاء ! فلا تلتمس آدابا ولا ترتيبا ، وانطق بكل ما يبتغيه قلبك الشجي !

1785 ان كفرك دين ، ودينك نور للروح ! وانك لآمن ، والعالم بك في أمان ! أيها المعافي ! ان الله يفعل ما يشاء . فاذهب ، وأطلق لسانك بدون محاباة “ “ 2 “ .
فقال الراعي : “ يا موسى . انى قد تجاوزت ذلك . انني الآن مجلل بدماء قلبي ! لقد تجاوزت سدرة المنتهى . وخطوت مائة ألف عام في ذلك الجانب !

....
(1) الإشارة هنا لقطع الشطرنج وطريقة نقل الرخ والفيل .
(2) بدون أية مراعاة للمجاملة ولطيف القول .

انك قد أعملت سوطك ، فدار حصانى ، فبلغ قبة السماء ، ثم تجاوز الآفاق !

1790 فعسى الله أن يجعل جوهرنا الانساني نجي سر لاهوته . وليبارك الله لك يدك وساعدك ! فالآن قد تجاوز حالي نطاق القول . فهذا الذي أقوله ليس حقيقة حالي " . انك تبصر النقش الذي يكون في المرآة . وهذا النقش صورتك أنت ، وليس صورة المرآة .
والأنفاس التي ينفثها لاعب الناى في الناى ، هل تنتمى للناى ؟
لا ، بل هي منتمية للرجل .
فكن متنبها حين تنطق بالحمد والثناء ، واعلم أنهما شبيهان بهراء ذلك الراعي !

1795 فحمدك ان بدت أفضليته بالقياس إلى حمد الراعي ، فإنه بالقياس إلى الحق عاجز أبتر ! فلكم تقول - حين يرتفع الغطاء - " ليس هذا ما كانوا يظنون " .
فقبول ذكرك هذا انما هو من الرحمة . لقد رُخص لك به ، مثل صلاة المستحاضة !
فصلاتها تكون ملوثة بالدماء . وذكرك يكون مشوبا بالتشبيه والكيف ! والدم نجس ، لكنه يغسل بالماء ، لكن للباطن نجاسات ،

1800 لا تتناقص من باطن الرجل المجد ، الا بماء لطف الخالق ! فليتك في سجودك كنت تدير وجهك ، وتدرك معنى دعائك :
سبحان ربى .

قائلا : “ يا من سجودى مثل وجودي ، غير جدير به ، ألا فلتبهنا الخير جزاء منك على شرنا ! “ ان هذه الأرض لتحمل أثرا من حلم الحق . فهي قد تلقت النجس ولكنها جادت بالورد ثمارا ! انها تحجب لنا أقذارنا ولقاء ذلك تنبت منهما الأزاهير !

1805 فحين رأى الكافر أنه في العطاء والجود أقل من التراب ، وأدنى أصالة منه ، وأنه لم ينبت من وجوده ورد ولا ثمار ، وأنه لم ينشد سوى فساد كل ما هو نقى ،
قال : “ انني قد تقهقرت في السير ، فواحسرتاه ! (يا ليتني كنت ترابا “ 1 “) .
يا ليتني ما اخترت السفر من ترابيتى ، اذن لكنت أتلقى الحب كما يتلقاه التراب .
فحينما قمت بالسفر امتحنني الطريق . فماذا كانت الهدية التي جلبتها من هذا السفر ؟ “

1810 فهو من جراء كل هذا الميل نحو التراب ، لم يكن يبصر أمام وجهه أية فائدة للسفر .
لقد كان اعراضه بوجهه هو ذلك الحرص والطمع ! أما توجهه نحو الطريق فكان ذلك الصدق ، وتلك الضراعة ! فكل عشب يكون له ميل نحو العلا ، فهو في ازدياد وحياة ونماء .
فإذا ما حوّل رأسه نحو الثرى ، فهو في تضاؤل وذبول ونقص وغبن .

....
(1) سورة النبأ ، 78 : 40 .

فحينما يكون ميل روحك إلى العلو ، فأنت في ارتقاء ، ويكون مرجعك إلى هناك .

1815 وان كنت منقلبا فوق رأسك متوجها نحو الأرض ، فأنت آفل ، والله لا يجب الآفلين " 1 " .

كيف سال موسى عليه السلام الحق تعالى عن سر غلبة الظالمين

فقال موسى : " أيها الكريم الفعَّال . يا من ذكرك لحظة واحدة يعدل عمرا طويلا ! لقد رأيت نقوشا مشوهة عوجاء من الماء والطين ، فاعترض قلبي عليها كما فعلت الملائكة .
فماذا يكون القصد من تصوير نقش ثم غرس بذور الفساد فيه ؟
أو من اشعال نار الظلم والفساد ، التي تحرق المسجد والساجدين ؟

1820 ولماذا إثارة نبع الدموع الدامية ، أو الملوثة بالدم " 2 " ، من أجل الضراعة ؟
وانى لأعلم يقينا أن هذا عين حكمتك ، لكن مقصودى هو العيان والمشاهدة .
فذلك اليقين يدعوني إلى أن ألزم الصمت ، وأما الحرص على المشاهدة فيدفعنى إلى الجيشان !

....

(1) انظر قوله تعالى ، حكاية عن إبراهيم : " لا أحب الآفلين " .
(6 : 76) .
(2) حرفيا : " الدموع الدامية أو الصفراء . . . " .

لقد كشفت للملائكة سرك ، (وأظهرت) أن مثل هذا الشهد جدير بأن (تكتنفه) الابر ! فعرضت عليهم نور آدم عيانا ، فانجلت بذلك المشكلات أمام الملائكة .

1825 وحشرك هو الذي يخبر عن سر الموت ، كما تنبىء الثمار عن سر الأوراق .
والدم والنطفة هما سر الحسن الآدمي ، فالقلة - في النهاية - سابقة على كل كثرة .
فالطفل الجاهل يبدأ بغسل اللوح ، وبعد ذلك يكتب فوقه الحروف .
والله يجعل القلب دما ودمعا مستهانا ، وبعد ذلك يخط فوقه الأسرار ! ففي وقت غسل اللوح ، يجب على الطفل أن يعلم أن اللوح سيُجعل دفترا .

1830 وحينما يوضع أساس لأحد المنازل ، فان أساس المنزل القديم يُقتلع في أول الأمر .
والطين يُرفع من قاع الثرى في البداية ، حتى تستطيع - في النهاية - أن تحسب الماء المعين .
والأطفال يبكون من الحجامة بكاء مرا ، ذلك لأنهم لا يعلمون سر ذلك الأمر .
أما الرجل فهو يدفع الذهب للحجَّام ، ويعتز بالإبرة التي تشرب الدماء !

والحمَّال يجرى نحو الحمل الثقيل ، ثم يختطف ذلك الحمل من الآخرين .

1835 فتأمل صراع الحمالين من أجل الحمل . فهكذا يكون اجتهاد البصير بالأمور .
ولما كانت الأحمال هي أساس الراحة ، فان المرارة أيضا هي البشير بالنعمة .
ولقد حُفت الجنة بمكروهاتنا ، كما حُفت النار بشهواتنا " 1 " .
فالبذرة التي انبثقت عنها مادة نارك ليست سوى غصن ندى " 2 " .
وأما من احتراق بالنار " 3 " فهو قرين الكوثر ! وكل من كان في السجن قرين المحنة ، فذلك جزاء له على لقمة وشهوة !

1840 وكل من كان في القصر قرين السعادة ، فذلك جزاء له على كفاح وعناء !
وكل من رأيته فريدا بما يحوز من ذهب وفضة ، فاعلم أنه قد لزوم الصبر في تكسبه .
فحينما تصبح العين نقّاذة فإنها تشاهد (الحقيقة) بدون أسباب .
أما أنت - يا أسير الحس - فلتنصت إلى الأسباب .

....

(1) هذا البيت مقتبس من حديث عن أبي هريرة رواه أحمد في مسنده وكذلك رواه مسلم . ونص الحديث أن الرسول قال : " حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات " .
(2) يقصد " بالغصن الندى " اللذات والشهوات .
(3) من عانى نار مجاهدة النفس ومكافحة الأهواء .

وكل من تحررت روحه من سلطان الطبائع ، فهو الذي بلغ منزلة تجاوز الأسباب . فإذ ذلك تبصر العين نبع معجزات الأنبياء غير مقترن بالأسباب ولا منبعث من الماء والعشب .

1845 فهذا السبب شبيه بما بين الطبيب والعليل ، أو هو مثل ما بين السراج والفتيل . فافتل لسراج ليلك فتيلا جديدا ، وكن على علم بأن ضياء الشمس أنقى من كل ذلك . اذهب ، وهيىء الطين من أجل سقف الدار وكن على علم بأن سقف السماء منزه عن الطين ! أواه لقد انقضت خلوة الليل وبزغ النهار ، ساعة أن غدا حبيبنا مبددا لنا الهموم .

وما يكون تجلى البدر الا في الظلام . فلا تنشد مُراد القلب الا بعناء القلب !
1850 لقد أعرضت عن عيسى ، وربيت الحمار " 1 " ، فلا جرم أنك كالحمار خارج الأستار ! والعلم والعرفان هما طالع عيسى ، وليسا طالع الحمار ، أيها الحمارى الصفات .
انك تسمع أنين الحمار فتستشعر الرحمة . ثم أنت لا تدرى - أيها الحمار - أن حمارا يسيطر عليك " 2 " .

....
(1) لقد أعرضت عن الروح وربيت الجسد .
(2) حرفيا : " يأمرك " .

فكن رحيما بعيسى ولا تكن رحيما بالحمار ! ولا تجعل الطبع سيدا على عقلك ! ولتدع الطبع يبكى بكاء حارا مريرا ! ولتأخذن منه لكي تؤدى دين الروح .

1855 لقد قضيت السنين غلاما للحمار ، فكفاك هذا . ذلك لأن غلام الحمار يكون متخلفا وراء الحمار .
ونفسك هي المراد من قول الرسول “ أخروهن . . . “ فالنفس يجب أن تكون الأخيرة في حين أن العقل يكون الأول .
وهذا العقل الوضيح قد أصبح شريكا للحمار في مزاجه ! فليس له تفكر الا في طريقة للحصول على العلف ! أما حمار عيسى فقد تخلق بمزاج القلب ، واتخذ له منزلا في مقام العقلاء .
ذلك لأن العقل كان غالبا والحمار ضعيفا ، فالراكب القوى قد جعل الحمار نحيفا .

1860 وهذا الحمار الذابل قد غدا تنينا ، من جراء ضعف عقلك يا من لست تعدو في قيمتك الحمار ! فلو أن عيسى جعلك عليل القلب ، فلا تتركه فان منه أيضا تجيئك الصحة .
وكيف أنت مع الآلام يا عيسى ، يا صاحب الأنفاس العيسوية ؟
انه ليس في العالم كنز بدون ثعبان .
وماذا تستشعر يا عيسى من رؤية اليهود ؟ وكيف أنت يا يوسف مع المكار الحسود ؟

لقد كانت كل أيامك ولياليك وقفا على هؤلاء الحمقى ، وكنت تمدهم بالحياة وكأنك الليل والنهار !

1865 فآها من هؤلاء المجردين من الفضل ذوى الوجوه المصفرة ! وأي فضل يتولد من الصفراء ؟ شئ سوى ألم الرأس .
فلتفعل بالنفاق والاحتيال والسرقة والخداع ما تفعله بها شمس المشرق .
فأنت في الدنيا والدين عسل ، ونحن خل . وعلاج هذه الصفراء هو مزيج الخل والعسل .
ونحن نزيد الخل لأننا قوم نعانى من الزحير . فلتزد أنت العسل ، ولا تمسك كرمك عنا ! فهذا ما كان لأنقا بنا ، وهكذا جاء فعلنا . والرمال في العين ماذا تزيدها ؟ لا شئ الا العمى .

1870 وذاك ما كان لائقا بك ، أيها الكحل العزيز ! فكل من ليس بشئ يجد عندك شيئا .
ولقد أصبح قلبك مكتويا بنار هؤلاء الظالمين . ولم يكن لك من خطاب سوى قولك : “ اهد قومي “ “ 1 “ .
انك منجم العود ، فلو أنهم أشعلوا بك النار ، للمؤوا هذا العالم بالعطر والريحان .
ولست أنت بذلك العود الندى تنتقص منه النار ، ولا أنت بذلك الروح الذي يغدو أسير الحزن .

....

(1) إشارة إلى ما ررى من أن الرسول عليه السلام - حينما كسرت سنه في غزوة أحد - دعا ربه قائلا : “ اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون “ .

فالعود يحترق ويبقى منجم العود بمنأى من الاحتراق وكيف تحمل الريح على منبع النور ؟

1875 يا من (قبست) منك السماوات الصفاء ! يا من جفاؤك أحلى من الوفاء .
ذلك لأنه لو وقع من العاقل جفاء ، فإنه يكون أفضل من وفاء الجاهلين .
ولقد قال الرسول : “ عداوة العاقل ، خير من صداقة الجاهل “ .

كيف ازعج أمير رجلا نائما كانت أفعى
قد دخلت في فمه

كان أحد العقلاء ممتطيا صهوة حصان ، (فمر بالقرب من) أفعى كانت تدخل في فم رجل نائم .
ولقد أبصر ذلك الراكب الأفعى ، فسارع إليها ليفزعها لكن الفرضة أفلتت .

1880 ولما كان لهذا الرجل مدد كبير من عقله ، فإنه ضرب النائم بضع ضربات قوية بالدبوس .
فحملته ضربات ذلك الدبوس القوى على الفرار حتى التجأ إلى احدى الأشجار .
وكان قد تساقط من الشجرة تفاح كثير ، وغدا عفنا . فقال الأمير :
“ كل من هذا ، يا من تعلقت بالآلام ! “ .
وأعطى الرجل كثيرا من التفاح ليأكلة ، حتى صار ذلك التفاح يتساقط من فمه .

فصاح قائلا : " وما نهاية هذا ، أيها الأمير ؟ لماذا تسلطت على ؟
وماذا صنعت بك ؟

1885 فان كنت من الأصل تستشعر عداء لروحي ، فاضرب بسيفك ضربة واحدة ، وأرق دمى ! فما أشأم تلك الساعة التي ظهرت لك فيها ! وما أسعد من لم يقع بصره على وجهك ! فلا جناية ، ولا اثم ولا كثير ، ولا قليل . ان الملحدين لا يجيزون هذا الظلم .
ان الدم ليتفجر من فمي مع الكلمات ! فلتجره على ذلك يا الهى في النهاية " .
وكان في كل لحظة يلقى سبابا جديدا . أما الأمير فكان يضربه ، (قائلا) : " اجر في هذه الصحراء " .

1890 فمن ضربات الدبوس ، (ومن خوف) ذلك الفارس المنطلق كالريح ، كان الرجل يعدو ، ثم يعود فيسقط فوق وجهه .
لقد كان ممتلئا بالطعام مثقلا بالنعاس ، مرهقا . وقد أصابت قدميه ووجهه آلاف الجراح .
وظل حتى المساء يجرة ثم يرخى ليه العنان حتى أصابه القئ من تأثير الصفراء .
فخرجت منه المآكل ، رديئها وطيبها . وقفزت الأفعى خارجة منه مع ذلك القئ .
فحينما رأى أن تلك الأفعى قد خرجت من جوفه ، سجد أمام ذلك الطيب الفعال !

1895 وما أن أبصر تلك الأفعى السوداء الرهيبة ، القبيحة الجسيمة ، حتى ذهبت عنه تلك الآلام .
وقال : " انك أنت جبريل الرحمة ! أم لعلك الاله الذي هو ولى النعمة ! فبوركت تلك الساعة التي رأيتك فيها ! لقد كانت ميتا ، وأنت وهبتانى روحا جديدا ! لقد كنت لي طالبا ، كما تفعل الأمهات . وكنت أنا هاربا منك كما تفعل الحمير .
فالمحار يدفعه الغباء للفرار من صاحبه . وصاحبه يدفعه كرم العنصر إلى اقتفاء أثره .

1900 وهو لا يطلبه من أجل نفع ولا ضرر . لكنه يطلبه حتى لا يمزقه ذئب أو وحش كاسر .
فما أسعد هذا الذي يرى وجهك ، أو يقع فجأة على جادتك ! يا من أثنت عليك الروح الطاهرة ! لكم وجهت إليك من الكلمات ما هو عبث وهراء ! فيا أيها السيد الملك الأمير ! انى لم أتكلم ، بل جهلي هو الذي تكلم ، فلا تؤاخذني على ذلك ! فلو أنني عرفت القليل عن هذه الحال ، فكيف كنت أستطيع النطق بالسخف ؟

1905 ولو أنت حدثتني بإشارة واحدة إلى تلك الحال . لكنت قد لهجت بالثناء عليك يا مليح الخصال ! لكنك كنت مثيرا بالتزامك الصمت ، وكنت في صمتك تضربني فوق رأسي !

قصار رأسي ذاهلا وطار العقل من رأسي ، وبخاصة لأن رأسي هذا قليل العقل .
فاصفح عنى يا من أنت مليح الوجه والفعال . وتجاوز لي عما وجهته إليك بدافع من الجنون .
فقال الأمير : " لو أنني كنت نطقت بإشارة إلى ذلك لذابت مرارتك في الحال رعبا " 1 " .

1910 ولو أنني كنت قد ذكرت لك أوصاف الأفعى ، لكان الخوف قد جلب على روحك الدمار ! ولقد قال المصطفى : لو أنني أفضت في شرح ذلك العدو الكامن في أرواحكم ، لتفجرت مرائر الشجعان ، ولما سلك أحدهم سبيلا ولا اهتم بعمل .
ولما بقيت لقلبه حرارة في الضراعة . ولا بقيت لجسمة قوة على الصوم والصلاة !
ولغدا عدما مثل الفأر أمام القط ! ولزلزل مثل الحمل أمام الذئب !

1915 ولم تبق عنده حيلة ولا حراك . ولهذا فقد جعلت سكوتى عن ذكر هذا تدعيما لكم .
فهأنذا صامت مثل أبى بكر الربابى ، وهأنذا أضرب الحديد بيدي مثل داوود .
حتى يغدو المحال بيدي محققا . ويصير الطائر المفتقد جناحيه ذا

....
(1) حرفيا : " لغدت مرارتك في الحال ماء " . والمرارة تذكر كثيرا على أنها موطن الشجاعة في الرجل .

قوادم .
فما دام الخالق قد قال :" يَدُ اللَّه فَوْقَ أَيْديهِمْ "" 1 " ، فان الله قد أعلن أن أيدينا هي يده .
ولهذا فانى على يقين أن لي يدا طولى ، تصل إلى ما فوق السماء السابعة .

1920 ولقد أظهرت يدي فضلها فوق السماء . فيا قارىء القرآن ! أقرأ آية شق القمر " 2 " .
وهذا الوصف أيضا انما هو من أجل ضعاف العقول ! وكيف يتسنى شرح القدرة للضعفاء " 3 " ؟
ولسوف تعلم بنفسك حين ترفع رأسك من غفوتك ، أن قد حان ، اختتام (قولي) ، والله أعلم بالصواب .
فأنت لم تكن ذا قوة على تناول الطعام ، ولا كان لك سبيل إلى القئ ولا اهتمام به " 4 " .
وكنت أستمع إلى فحشك وأسوق حماري . وكنت أتمتم بقولي :
" رب يسر " .

1925 ولم يكن لدى اذن بأن أبوح بالسبب . ولا كانت لي قدرة على أن أقول بتركك .
وكنت في كل لحظة أهفت من آلام قلبي : " اللهم اهد قومي ، انهم لا يعلمون " .

....
(1) سورة الفتح ، 48 : 10 .
(2) سورة القمر ، 54 : 1 .
(3) اظهار المعجرة المشهودة كان ضرورة املاها ضعف عقول الناس فالضعفاء عاجزون عن تصور معنى القدرة بدون دليل محسوس .
(4) الخطاب هنا موجه إلى الرجل الذي ابتلع الثعبان .

وكان ذلك الرجل الذي برئ من الألم يوالى السجود (قائلا) :
" يا من أنت لي سعادة واقبال وكنز ! لسوف تلقى جزاءك من الله أيها الشريف ! فليس يملك القوة على شكرك هذا الضعيف ! ان الحق هو الذي سيؤدى شكر ، أيها المقتدى فليست لي شفة ولا فم " 1 " ، ولا صوت كفء ذلك " .

1930 فعلى هذا المثال تكون عداوة العقلاء . ان سمهم يكون بهجة للروح ! أما صداقة الأبله فهي عناء وضلال . فاستمع إلى هذه الحكاية ، على سبيل المثال :

الاعتماد على تودد الدب ووفائه

[بيان الحكاية]

كان تنين يجتذب (بين فكيه) دبا ، فأقبل رجل شجاع وقام بنجدته .
والرجال الأبطال في هذا العالم هم المدد ، حينما تدرك أسماعهم صرخات المظلومين .
انهم يستمعون من كل جانب إلى صرخات المظلومين ، فيسرعون نحوها مثل رحمة الله .

1935 فهؤلاء هم العمد لهذه الدنيا المتداعية ! هؤلاء هم الأطباء لخفىّ الأدواء !

....

(1) حرفيا : فك .

انهم محض محبة وعدالة ورحمة ! بل هم مثل الحق بريئون من العلة والرشوة ! (فان سألت أحدهم) : " لماذا تبادر إلى منح (المستغيث) كل هذا العون ؟ " أجابك قائلا : " دافعى إلى ذلك حزنه وافتقاره " .
ان المحبة هي صيد الرجل الشجاع ، وليس للدواء ما ينقِّب عنه في الدنيا سوى المرض .
فحيثما يوجد المرض يذهب اليه الدواء . وحيثما توجد القيعان ، يندفع نحوها الماء .

1940 فان كنت بحاجة إلى ماء الرحمة ، فامض وكن للتواضع ملتزما ، ثم اشرب بعد ذلك خمر الرحمة خرم الرحمة وكن بها منتشيا .
وسوف تتوالى الرحمات حتى تغمر . فلا تقتصر - يا بنيّ - على الدخول تحت رحمة واحدة .
واجعل الفلك تحت قدمك ، أيها الشجاع ! واستمع من فوق الفلك إلى ألحان السماع !
وأخرج من أذنك قطن الوسواس ، حتى ينفذ إلى سمعك هتاف الأفلاك .
ونظف كلتا عينيك من شعر العيب ، لتستطيع شهود حديقة الغيب وبستانه .

1945 وادفع عن ذهنك وعن أنفك الزكان ، حتى تنفذ إلى مشامك نسمات الله .
ولا تدع (في كيانك) قط أثرا للحمى أو الصفراء ، وذلك لكي تجد للكون مذاق السكر .

وعالج رجولتك ولا تتخذ العنة مهربا ، حتى تظهر لك مائة لون من ملاح الوجوه .
وانزع قيد الجسد عن قدم الروح لتكون قادرة على التجول حول المنتدى .
وأبعد عن يدك وعنقك غلّ البخل . وحقق لنفسك حظا جديدا في هذا الفلك العتيق !

1950 وان لم تقدر على ذلك فطر إلى كعبة اللطف ، واعرض عجزك هذا على المعين .
فالنواح والبكاء ذخيرة عظيمة أما الرحمة الكلية فهي المربى الذي يفوقهما قوة واقتدارا .
ان المربية والأم لتلتمسان الذرائع (للعطف) . وانهما - لهذا - تترقبان بكاء الطفل .
ولقد خلق الله لك طفل الحاجات ، وذلك لك يبكى فيأتيه - إذ ذاك - الحليب .
قال تعالى :” قُل ادْعُوا اللَّهَ “” 1 “ ولا تكفوا عن الضراعة ، وذلك لينهمر عليكم حليب رحماته .

1955 فهزيم الرياح ، والسحب التي تمطر الحليب هما لتفريج همنا ، فاعتصم بالصبر ساعة .
ألم تسمع قوله تعالى :” في السَّماء رزْقُكُمْ “” 2 “ ؟ فلماذا تشبثت بهذا المكان الوضيع ؟

....
(1) سورة الاسرارء ، 17 : 110 .
(2) انظر : سورة الذاريات : 51 : 22 .

فاعلم أن خوفك ويأسك هما صوت الغول الذي يجتذب أذنك إلى قرارة الوضاعة .
وكل نداء يجتذبك نحو العلا ، فاعلم أنه قد جاءك من الأعالي وأما كل نداء يستشير فيك الحرص ، فاعلم أنه صوت الذئب الذي يمزق الناس !

1960 وليس الارتفاع هنا باعتبار المكان بل إنه هو كلّ تعال نحو العقل والروح .
وكل سبب قد جاء أسمى من الأثر . فالحجر والحديد هما أكثر تفوقا من الشرر .
فهذا رجل قد احتل مكانة أرفع من آخر يشمخ برأسه مع أنه - في الصورة - قد جلس إلى جانبه .
فالارتفاع هنا هو من ناحية الشرف . فالمكان النائي عن صدارة الشرف يُستخف به .
والحجر والحديد - من جهة سبقهما في العمل - هما جديران بهذا التفوق .

1965 لكن ذلك الشرر - (ان نظر اليه) من جهة المقصود منه - كان من هذا الوجه أكثر تفوقا من الحديد والحجر .
ان الحجر والحديد هما البداية ، وأما الشرر فهو النهاية ؛ لكن هذين هما الجسد ، وأما الشرر فهو الروح .
ولئن كان هذا الشرر متأخرا في الزمان ، فإنه في الصفة أسمى من الحجر والحديد .
فالغصن أسبق في الزمن من الثمار . لكن الثمار أكثر فضلا من الأغصان .

ولما كان المقصود من الشجر هو الثمر . فالثمر هو الأول وأما الشجر فهو الآخر .

1970 ان الدب - حين استغاث من التنين - أنقذه من بين مخالبه رجل شجاع .
فالحيلة والرجولة قد تضافرتا معا ، فاستطاع (الرجل) أن يقتل التنين بهذه القوة .
فالتنين قويّ ، لكنه ليس بصاحب حيلة . وهناك أيضا حيلة فوق حيلتك **!** فحينما ترى حيلتك فارجع وعد إلى البداية لترى من أين أتت .
فكل ما كان في المنخفض فقد جاء من القمم . فسارع وارفع بصرك نحو الأعالي .

1975 ان النظر إلى أعلى يهب البصر نورا ، مع أنه في بداية الأمر ، بلاء ، يخطف الأبصار **!** فلتجعلنّ العين أليفة للنور . وان لم تكن خفاشا ، فانظر نحو ذلك الجانب .
وان ابصارك للعاقبة لهو علامة اشراق نورك . . أما الشهوة العاجلة فهي حقيقة قبرك **!** فمن كان بصيرا بالعاقبة ، وقد شهد مائة لعبة لا يرقى إلى مشابهته من سمع بلعبة واحدة .
لقد أصبح هذا مغترا بتلك اللعبة الواحدة ، إلى حدّ أن التكبر أبعده عن الأساتذة .

1980 فهو كالسامرىّ حينما شهد في نفسه مثل هذا الفضل ، فدفعه الكبر إلى عصيان موسى .
انه كان قد تعلم هذا الفضل من موسى ، ثم أغمض العينين عن معلمه .
فلا جرم أن موسى قد لعب لعبة أخرى ، محت لعبة السامرىّ واختطفت حياته ! فما أكثر المعرفة التي تسرع إلى الرأس فتؤدى إلى تفوقه ثم هي ذاتها تذهب بالرأس ! فان كنت تريد ألا يذهب رأسك ، فكن قدما . ثم التجيء إلى حمى قطب من أصحاب الرأي .

1985 ولئن كنت ملكا فلا تعتبر نفسك أسمى منزلة منه ! وان كنت شهدا فلا تحصد سوى نباته .
ان فكرك صورة أما فكره فهو روح ! ونقدك زائف وأما نقده فهو المنجم ! انه أنت فابحث عن ذاتك فيه ! واهتف : " كوكو " " 1 " ، وطر كالفاختة نحوه .
فإن لم ترد أن تخدم (الشيوخ) من أبناء الجنس الانساني فأنت مثل الدب في فم التنين ! فلعل أستاذا يقوم بانقاذك ، ويسحبك بعيدا عن الخطر .

1990 وما دمت لا تملك القوة فالزم الضراعة . وما دمت أعمى فلا تتمرد على البصير .

....
(1) " كوكو " معناها " أين أين ؟ " ، فهنا تورية بين لفظ الكملة وبين معناها .

وانك لأسوأ من الدب ، لأنك لست تنوع من الألم . فالدب قد نجا من الألم حينما استغاب .
الهى ! اجعل قلوبنا الحجرية مثل الشمع ! واجعل ضراعتنا إليك حلوة ، مستجابة برحمتك !

كيف قال سائل أعمى : " انني اعانى من عمى مضاعف! "

كان أعمى قد دأب على أن يقول : " أمانا ، فانى أقاسى لونين من العمى ، يا أهل الزمان ! فانتبهوا ، واشفقوا عليّ اشفاقا مضاعفا ، ما دام على نوعان من العمى ، أنا واقع بينهما " .

1995 فقال أحدهم له : " انا نرى لك عمى واحدا . فما هو العمى الآخر ؟ أظهره لنا !
" فقال : " انني قبيح الصوت خشن الدعاء ! وقد اقترن قبح الصوت عندي بالعمى !
فصوتى القبيح صار مصدرا اللغم .
ومن وقع صوتي ينكمش عطف الخلق .
وان صوتي القبيح لينطلق إلى كل مكان ، فيغدو مصدرا للسخط والغمّ والبغضاء .
فضاعفوا رحمتكم لهذا العمى المضاعف !
وأفسحوا مجالا لهذا الذي لا مجال له " .

2000 ولقد تناقص - بهذه الشكوى - قبحُ صوته ، وصار الناس - في العطف عليه - قلبا واحدا ! فلطفُ صوت قلبه - حين أعلن السرّ - قد جعل صوته لطيفا وأما من كان صوت قلبه قبيحا فان عما المثلث يبعده بعدا سر مديا .
لكن الوهابين (من أصل الكمال) يمنحون بدون ما سبب ، فلعلهم يضعون يدا فوق رأسه القبيح .
فحين غدا صوت ذلك السائل حلوا مثيرا للشفقة ، كانت تلين له كالشمع قلوب من تحجرت قلوبهم .

2005 أما ضراعة الكافر فهي إذ كانت قبيحة كالنهيق ، فإنها - من جراء ذلك - لم تقترن بالإجابة .
ان قوله تعالى :” اخْسَؤُا ““ 1 “ ، قد انطبق على قبيح الصوت ، الذي هو كالكلب ثمل بدم الخلق .
ولما كانت ضراعة الدب قد الجتذبت الرحمة ، وضراعتك لم تكن كذلك بل كانت قبيحة .
فاعلم أنك سلكت إزاء يوسف “ 2 “ مسلك الذئاب ، أو أنك شربت من دم برئ ! فقدم التوبة ثم استفرغ ما شربت . وان كان جرحك قديما ، فاذهب وداوه بالاكتواء .

....

(1) انظر : سورة المؤمنون ، 23 : 108 .
(2) انظر : سورة يوسف ، 12 : 8 - 20 .

تتمة حكاية الدب وذلك الأبله الذي كان قد ركن إلى وفائه

2010 ان الدب حين خلص من التنين ، ورأى هذا الكرم من ذلك الرجل الجسور ، ذلك الدب المسكين أصبح مثل كلب أصحاب الكهف ، مقتفيا أثر من حمل عنه العبء ! وقد استلقى من العناء ذلك المسلم وصار الدب - لتعلقه به - حارسا له ! ومرّ به رجل فقال له : " ما الحال ؟ وما صلة هذا الدب بك ، أيها الأخ ؟ " فذكر له القصة وحديث التنين : فقال الرجل : " لا تعلق قلبك بدب ، أيها الأحمق .

2015 ان صداقة الأبله أسوأ من عدواته . فأولى بك أن تدفعه عنك بكل حيلة تعلمها . "
فقال صاحب الدب : " والله ما قال هذا الا عن حسد ! والا فأي خليقة الدب تراها فيه ؟ أنظر إلى هذه المحبة ! " فقال الرجل : " ان مودة الحمقى لخادعة . وحسدي هذا خير لك من محبة الدب ! فهيا ، أقبل معي ، وادفع عنك هذا الدب . لا تتخذ الدب صفيا ! لا تترك أبناء جنسك ! " فقال صاحب الدب : " اذهب عنى . اذهب لشأنك أيها

الحسود ! " فقال الرجل : " لقد كان هذا شأني ، لكنه لم يكن من نصيبك " 1 " .

2020 انني لست أقل من الدب ، أيها الشريف . فلتتركه حتى أصبح لك رفيقا .
فقلبي يرتعد قلقا من أجلك فلا تدخل الأجمة مع مثل هذا الدب .
فقلبي هذا لم يرتعد قط جزافا . انه نور الحق ، ولا ادعاء في ذلك ولا غرور .
انني مؤمن وقد أصبحت ناظرا بنور الله . فحذار حذار . اهرب من بيت النار هذا !
" لقد قال عابر السبيل كل هذا ، ولم ينفذ قوله إلى أذن صاحب الدب ، فسوء الظن سد عظيم بين المرء وسمعه .

2025 وأمسك الرجل بيد صاحب الدب ، فسجها ذلك منه . فقال " سأنصرف الآن ما دمت لست بصاحب رشيد " .
فقال صاحب الدب : " اذهب ولا تحمل الهم من أجلى . وأقلل من تكلف العرفان " 2 " ، يا أبا الفضول ! " فعاد اى مخاطبته قائلا : " انني لست عدوا لك . ولو أنك أقبلت ورائى لكان ذلك لطفا منك " .
فقال صاحب الدب : " انى مثقل بالنعاس فاتركنى واذهب " .
فقال الناصح : " ليتك تنقاد " 3 " للرفيق في آخر الأمر ،

....
(1) لم يكن من نصيبك ان تفيد من نصحى لك وتدخلى في امرك .
فقد كان نصحى إياك واجبا افترضته على نفسي ، وشأنا يعنيني .
(2) حرفيا : " وأقلل من نحت العرفان . . . "
(3) حرفيا : " كن منقادا للرفيق . . . " .

حتى تنام في ظل عاقل ، وفي جوار محب من أصحاب القلوب ! "

2030 فاستولى الخيال على صاحب الدب ، لما أبداه هذا الرجل من دأب ، وسرعان ما تملكه الغضب وتغير وجهه ، قائلا : " لعل هذا جاء للعدوان عليّ . أم لعله قاتل ، أو سائل طامع ، أو أتونىّ " 1 " حقير ، أو أنه عقد رهانه مع أصدقائه على أن يخيفنى من صحبة هذا الجليس ! " ومن خبث ضميره لم يرد بخاطره قط أي ظن حسن .
وكان كل ظنه الحسن موقوفا على الدب ! فلعله كان من ذات جنس هذا الدب !

2035 فالخسِّة " 2 " قد جعلته يتهم أحد العقلاء ، ويعتقد أن الدب ، من أهل المحبة والعدالة .

كيف قال موسى عليه السلام لعابد العجل :
" أين خيالك المتفكر واين حزمك ؟ "

قال موسى لرجل ثمل بالخيال : " يا من ساء ظنُّك من جراء شقائك وضلالك ! لقد كان لك مائة شك في نبوّتى ، مع مثل هذا البرهان ، وهذا الخلق الكريم !

....

(1) " الأتونى " هو الذي يشعل النار في الحمامات ، وكان هذا العمل من المهن الحقيرة .
(2) حرفيا : فالكلبية . . .

ولقد شهدت منى آلاف المعجزات فتضاعفت بها أو هامك وظنونك وشكك مائة مرة !
لقد كنت تضيق بما ينتابك من خيال ووسواس ، فتوجه الطعن إلى نبوّتى !

2040 انى رفعت التراب من قاع البحر عيانا ، حتى أن أنقذتكم من حتى أنقذتكم من شر آل فرعون ! وكانت المائدة والأطباق تنزل من السماء طوال أربعين عاما !
وبدعائى تفجر الماء “ 1 “ من الحجر ! فهذه ومائة من أمثالها ، وكل هذه الدلائل الحارة والباردة لم تنتقص من الأوهام عندك أيها البارد ! لقد أطلق العجل خوارا ، فسجدت مسحورا ، وهتفت قائلا : أنت الهى ! فكأنما طوفان قد جرف إليك تلك الأوهام ، وتغلب النومُ على عقلك البارد .

2045 فكيف لم تستشعر سوء الظن ازاءه ! وكيف سجدت على هذه الصورة أيها القبيح الوجه ؟
ولماذا لم يتطرق إليك خيال عن تزويره “ 2 “ ، أو عن فساد سحره الذي يستولى على الأحمق ؟
فمن ذا يكون السامرىّ - أيها الكلاب - حتى يصوغ في الدنيا الها ؟

....

(1) حرفيا : “ النهر “ .
(2) المقصود بالضمير هنا هو السامري الذي أضل بني إسرائيل ، ودعاهم إلى عبادة العجل . وسيرد ذكره في البيت التالي .

فكيف غدوتم معه قلبا واحدا على هذا التزوير ؟ وكيف غدوتم عاطلين من كل اشكال حوله ؟
فهل يصبح العجل - بالدجل - جديرا بالألوهية في حين أن نبوة مثلي يقع حولها مائة خلاف ؟

2050 ان الغباء دفعك إلى أن تسجد أمام العجل . وغدا عقلك صيدا لسحر السامرىّ .
لقد سرق عينيك من نور ذي الجلال ما أنت عليه من هذا الجهل الوافر ، والضلال الحق ! فساء عقلك هذا وساء اختيارك . فمن كان مثلك منجما للجهل فما أجدره بالقتل ! لقد أطلق العجل الذهبي خواره ، فماذا قال ، حتى تفتقت لدى الحمقى كل هذه الرغاب ؟
ولقد شهدتهم منى الكثير الذي يفوق ذلك عجبا ، ولكن متى كان كل خسيس يتقبل الحق ؟

2055 فما الذي يجتذب أهل الباطل ؟ انه الباطل . وما الذي يروق العاطلين ؟ انه العاطل ! ذلك لأن كل جنس يجتذب جنسه . فكيف يتوجه الثور نحو الأسد الضاري .
وأيان يستشعر الذئب عشق يوسف ؟ الا ان كان ذلك عن مكر يعلله بافتراسه .
فان خلص من طباع الذئاب غدا نديما للأسرار ، ككلب أصحاب الكهف الذي بلغ مرتبة البشر .

ان أبا بكر - حين تنسم أريج محمد - قال : " ليس هذا ! الوجه وجه كاذب " .

2060 أما أبو جهل - فهو إذ لم يكن من أصحاب الشجن - فقد رأى انشقاق القمر مائة مرة ، ولم يصدق ! فنحن نخفي الحقيقة عن الملتاع ، الذي افتضح أمره " 1 " ، لكنها لا تخفي عليه ! وأما ذلك الذي يكون جاهلا بها ، بعيدا عن ألم هواها فكثيرا ما يُرشد إليها ، لكنه لا يراها ! فيجب أن تكون مرآة القلب صافية ، لتستطيع أن تميز بين ما ينعكس فيها من صور جميلة وأخرى قبيحة .

كيف قرر ذلك الرجل الناصح ترك المغتر بالدب
بعد ان بالغ في نصحه

ان ذلك المسلم ترك الأبله ، وعاد مسرعا ، وهو يتمتم : " لا حول ولا قوة الا بالله " .

2065 وقال : " ما دام اجتهادي في النصح والجدال ، يزيد تولد الأوهام في قلبه ، فقد سدّ سبيل الموعظة والنصح ، والله قد أمرنا بالاعراض عنه " 2 " .

....

(1) حرفيا : " الذي وقع له من السطح طشت " ، وهذه العبارة كناية عن الفضيحة .
(2) حرفيا : واتصل بنا أمر " أعرض عنهم " وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى : " فأعرض عنهم وانتظر انهم منتظرون " . (السجدة ، 32 : 30) .

فحين يكون دواؤك مما يزيد الداء ، فادخر القصة لمن يكون راغبا فيها ، واقرأ قوله تعالى :" عَبَسَ وَتَوَلَّى "" 1 " .
فلئن جاءك الأعمى طالب حق فليس يجوز أن تجرح قلبه من جراء فقره .
انك - يا محمد - لحريص على رشاد الكبراء وذلك لكي يتعلم العوام من سراتهم .

2070 يا أحمد ! لقد رأيت أن جماعة من الأمراء أصغوا إليك ، فسعدت بذلك ، لعل هؤلاء الرؤساء يصيرون للدين ولاة مؤيدين ، وهم السادة بين العرب والحبش .
ويتجاوز صيت ذلك البصرة وتبوك ، ذلك لأن الناس على دين الملوك .
ولهذا فقد حوّلت وجهك عن هذا الضرير المهتدى ، وضاق به صدرك .
قائلا : " ان هذه الفرصة قلما يتاح لها هذا الجو ، وأنت من الأصدقاء وأمامك فسحة من الوقت .

2075 ولقد زحمتنى في هذا الوقت الضيق . وانى أسدى لك هذه النصيحة لا عن غضب ولا خصام " .
يا أحمد ! ان ضريرا واحدا كهذا خير عند الله من مائة قيصر ، ومائة وزير ! فلتتذكرن أن الناس معادن ، وأن معدنا واحدا خير من مائة ألف !

....
(1) انظر : سورة عبس ، 80 : 1 - 4 .

فمنجم الياقوت والعقيق المستور ، خير من مائة ألف منجم للنحاس ! يا أحمد . ان المال هنا ليس بذى جدوى . بل لا بد من صدر ملىء بالعشق والألم والآهات .

2080 لقد جاءك أعمى مستنير القلب . فلا تغلق الباب . وابذل له النصح فان النصح من حقه .
فلو أن أبلهين أو ثلاثة أصبحوا لك منكرين ، فكيف تصير مرا ، ما دمت أنت منجم السكر ؟
ولو أن أبلهين أو ثلاثة يلقون عليك التهم ، فان الحق هو شاهدك الذي يؤيدك .
فقال الرسول : انني لست أحفل باقرار الخلق بي . فمن كان الحق له شاهدا فأي غم يعتريه ؟
فلو أن خفاشا وجد ما يلائمه في احدى الشموس فقد قام الدليل على أنها ليست هي الشمس !

2085 فنفرة الخفافيش (منى) قد نهضت دليلا على أنى أنا الشمس المشرقة الجليلة .
فلو أن جُعَلا أقبل راغبا على ماء ورد ، فهذا يقوم دليلا على أنه ليس بماء ورد .
ولو أن نقدا زائفا غدا مقبلا على المحك فهذا دليل على أن المحك يتطرق اليه النقص والشك ! واللص يريد الليل ولا يطلب النهار ، فاعلم ذلك . وأنا لست الليل بل أنا النهار الذي يضئ العالم !

انني أنا الفارق ، وأنا الفاروق . أنا مثل الغربال ، لا سبيل للقش إلى أن ينفذ خلاله .

2090 انني أفصل الدقيق عن النخالة ، فأظهر أن هذه هي القشرة ، وذاك هو اللب “ 1 “ .
فأنا في الدنيا مثل ميزان الخالق ، فأنا أميز بها بين كل خفيف وكل ثقيل .
ان العجل يظن أن الثور هو الاله . فالمشترى (هنا) حمار والبضاعة لائقة به “ 2 “ .
وأنا لست بثور ، ولا العجل بمقبل على شرائى . أنا لست شوكا حتى تتخذني الجمال مرعى .
ان الكافر ليظن أنه قد آذاني بالجور ، ولعله لم يعدُ إزاحة الغبار عن مرآتى .

كيف تملق أحد المجانين جالينوس
وكيف خاف جالينوس من ذلك

2095 قال جالينوس لأصحابه : “ ليعطنى (واحد منكم) هذا الصنف من الدواء “ .
فقال له أحد هؤلاء : “ يا صاحب الفنون ! ان هذا الدواء يطلب .

....
(1) حرفيا : “ فأظهر ان هذه هي النقوش وذاك هو النفوس “ .
والنقوش رمز لأهل الصورة أما النفوس فهي رمز لأهل المعنى .
(2) أخطا الشراح كثيرا في فهم هذا البيت . والمراد بالمشترى هنا العجل الذي يبحث عن الله ، فيظن أنه الثور . فما دام هذا الباحث غبيا كالحمار ، فهو لم يستطع ان يتصور كائنا أعظم من الثور .

من أجل الجنون ! وما أبعد هذا عن عقلك ! فلا تعدالى ذكر هذا “ . فقال جالينوس :
“ لقد تطلع أحد المجانين بوجهه نحوى ! ونظر بلطف إلى وجهي برهة من الوقت .
وغمز لي بعينه ، وجذب “ 1 “ كمي ! فلو لم يكن لي تجانس معه ، لما كان هذا القبيح الطلعة يتجه بوجهه نحوي .

2100 ولو لم يشاهد فيّ جنسه فيكف كان يقبل نحوي ؟ وكيف كان يتعلق بمن لم يكن من جنسه ؟ “ فحين يرتبط شخصان معا ، فليس من شك قط أن شيئا مشتركا يجمعهما .
وكيف يطير طائر مع غير جنسه ؟ ان صحبة غير المجانس معناها القبر واللحد .

السبب الذي من اجله طار طائر والتمس الغذاء مع طائر آخر لم يكن من جنسه

قال أحد الحكماء : “ لقد رأيت في برية غرابا ولقلقا يجريان معا .
فبقيت في عجب من ذلك ، وبحثت حاليهما ، لعلى أجد أثرا لما يربط بينهما .

2105 وحينما اقتربت منهما حيران متعجبا ، وجدت أن كليهما كان أعرج “ .

....
(1) فضلنا رواية “ كشيد “ في هذا البيت بدلا من “ دريد “ في نص نيكولسون .

وأي ارتباط للباز الملكي المتسامى إلى العرش ببومة عالقة بمنخفض من الأرض .
فهذا ينتمى إلى الشمس في آفاقها العالية ، وأما تلك فليست الا خفاشا من قرارة سجين !
هذا نور برئ من كل عيب . وأما تلك فعيماء متسولة على كل باب ! هذا قمر يطاول
في تعاليه المشترى . وأما تلك فدودة تغوص بين البعر .

2110 هذا يوسفىّ المحيا ، عيسوى الأنفاس ، وأما تلك فهي ذئبة أو هي أتان ذات
جرس .
هذا قد أصبح محلقا في اللامكان ، وأما تلك فقابعة في الحظائر مثل الكلاب .
ان الورد يقول - بلسان الحال - للجعل : “ أيها النتن الإبط ! لئن كنت تفرّ من بستان
الورد ، فليس من شك أن نفرتك علامة على كمال البستان ! ان غيرتى لعصا تضربك
فوق رأسك قائلة : “ أيها الخسيس اذهب بعيدا عن هنا !

2115 فإنك لو اختلطت بي أيها الدنىء لوقع الظن بأنك من معدنى .
فالخميلة هي المكان الذي يليق بالبلابل . وخير موطن للجعلان هو المزابل .
فما دام الحق هو الذي صاننى من القذارة فكيف يجوز أنه يرسل الىّ القذارة ؟

لقد كان بي عرق واحد منها ، قطعه الله . فكيف السبيل إلى أن ينفذ الىّ هذا العرق الخسيس ؟
لقد كانت لآدم علامة منذ الأزل ، أن الملائكة - لمكانته - خرّت ساجدة له .

2120 وعلامة لآدم أن إبليس لم يسجد له ، قائلا : " انى أنا الملك وأنا الرئيس " .
فلو كان إبليس قد سجد له ، لما كان ذلك آدم ، بل كان شخصا سواه **!** فسجود كل ملك آدم كان ميزان (فضله) ، وكذلك كان جحود كل عدوله برهان (صدقه) .
وكما أن اقرار الملك شاهد له ، فكذلك كفران الكلب الخسيس " 1 " شاهد له **!**

تتمة قصة اعتماد ذلك المغرور على تملق الدب

لقد نام الرجل ، وكان الدب يدفع عنه الذباب . لكن الذباب كان يرجع بعناد .

2125 ولقد ذبه بضع مرات عن وجه الشاب ، لكنه سرعان ما كان يعود اليه .
فصار الدب غاضبا من الذباب ، فمضى ، وأخذ من الجبل حجرا غليظا ،

....
(1) " الكلب الخسيس " هنا يقصد به " إبليس " .

وأحضره معه ، فرأى الذباب قد اتخذ مكانه من جديد فوق وجه الرجل النائم .
فرفع حجر الطاحون هذا ، وضرب به الذباب ، لعل الذباب يتراجع وينصرف .
فجعل الحجر وجه الرجل حطاما . ولقد أعلن هذا المثل للناس جميعا :

2130 أن حب الأبله هو - على وجه اليقين - مثل حب الدب . فبغض الأبله محبة ، وأما محبته فهي البغضاء .
وعهده واه خرب ضعيف . وكلامه سمين وأما وفاؤه فنحيف ! ولو أنه أقسم لك فلا تصدقه . فالرجل المعوج الكلام يحنث في القسم .
وما دام كلامه - من غير قسم - كان كذبا ، فلا يخدعنك مكره وقسمه " 1 " .
فنفسه هي الحاكمة ، وأما عقله فأسير ! فافترض أنه أقسم مائة ألف مرة على القرآن .

2135 فما دام يحنث في العهد - بغير قسم - فهو لو أقسم يحنث أيضا في قسمه .
ذلك لأن نفسه تغدو أكثر ثورة من جراء ذلك ، فإنك قد قيدتها بالقسم العظيم .

....
(1) حرفيا : " فلا تقع في اللبن المخض بمكره وقسمه " ، أي لا يجعلنك مكره وخداعه ضحية لغشه فتأخذ اللبن المخض منه على أنه حليب .

فحين يضع أسير قيدا على الحاكم ، فان الحاكم يحطم القيد ، وينطلق خارجه .
وفي غضب يدق بهذا القيد رأس الأسير ، ويلقى بقسمه في وجهه .
فلتنفض يدك من (استجابته لقوله تعالى) :" أَوْفُوا بِالْعُقُود "" 1 " .
ولا تخاطبه (بقوله تعالى) :" احْفَظُوا أَيْمانَكُمْ "" 2 " .

2140 وأما ذلك الذي يعرف العهد لمن عاهده فإنه يجعل من جسده خيطا ويلتف حول صاحب عهده .

كيف ذهب المصطفى عليه السلام لعيادة صحابي مريض
وبيان فائدة العيادة

[بيان القصة]
مرض أحد أعلام الصحابة وأصبح من جراء هذا المرض في نحول الخيط .
فتوجه المصطفى لعيادته ، فخلق المصطفى كان كله كرما ولطفا .
ففي ذهابك لعيادة المريض فائدة . وفائدة ذلك عائدة إليك .
فالفائدة الأولى أن ذلك الشخص العليل ، ربما يكون قطبا أو .
مليكا (روحيا) جليلا .

1245 وان لم يكن قطبا ، فلعله يكون رفيقا للطريق . وان لم يكن مليكا ، فلعله يكون فارس الجيش .
فاعتبر أن من واجبك صلة رفقاء الطريق مهما يكن هؤلاء ، وسواء في ذلك من كان منهم ماشيا أو راكبا .

....
(1) انظر : سورة المائدة ، 5 : 1 .
(2) انظر : سورة المائدة ، 5 : 89 .

ولئن كان عدوا ، فهذا الاحسان ذاته خير ، وكم من عدو قد غدا بالاحسان صديقا !
ولئن لم يغد العدو به صديقا تناقص حقده ، ذلك لأن الاحسان يكون بلسما للحقد .
وكم للاحسان من فوائد أخرى غير ذلك ، لكنني خائف من الإطالة ، أيها الرفيق الطيب .

2150 فالحاصل هو هذا : كن صديقا للجميع ، وكصانع الأصنام انحت من الحجر صديقا ! ذلك لأن احتشاد القافلة وتجمعها يقصم ظهر قاطع الطريق ، ويحطم سنانه .
وما دام قلبك ليس بذى عينين أيها العنيد ، إلى حدّ أنك لا تميز بين الحطب والعود ، فلا تيأس ما دام في العالم كنز . ولا تحسبنّ خربة قط خالية من الكنز .
ولتقصدن كل درويش جزافا ، فإذا ما وجدت عند أحدهم العلامة ، فابذل جهدك في ملازمته .

2155 وما دمت لم ترزق هذه العين البصيرة بالبواطن ، فلتحسبنّ أن في كل وجود كنزا .

كيف أوحى الحق تعالى إلى موسعليه السلام (قائلا) :
" لماذا لم تحضر لعيادتى ؟ "

لقد جاء من الحق إلى موسى هذا العتاب : " يا من شهدت طلوع البدر من جيبك !

يا من جعلتك مشرقا بالنور الإلهي ! لقد غدوت - أنا الحق - مريضا ، فلم تَعُدنى !
" فقال موسى : " سبحانك يا من أنت منزّه عن الضر ! ما هذا الرمز ؟ بينه لي ، يا الهى ! " فقال الحق : " لماذا لم تسأل عنى في مرضى ، على سبيل الكرم ؟ "

2160 فقال موسى : " يا رب ، ان النقص لا يعتريك . لقد ضاع عقلي ، فاكشف لي سر هذا القول ! " فقال الحق : " نعم ، ان عبدا لي خاصا مختارا قد مرض . وما هو الا أنا ، فتأمل جيدا .
فعذره في مرضه عذر لي وكذلك مرضه ، انه مرض لي ! فمن أراد أن يكون جليسا لله ، فليجلس في حضرة الأولياء .
فان أنت انقطعت عن حضرة الأولياء ، فإنك هالك ، لأنك - حينذاك - تكون جزاء بدون كل !

2165 فكل من فرّقه الشيطان عن أهل الكرم ، فإنه يلقاه - بعد ذلك - وحيدا ، ويلتهم رأسه .
ان الابتعاد عن الأحباب شبرا واحدا ، ولمدة لحظة واحدة لا يكون الا من مكر الشيطان فاعلم ذلك جيدا !

كيف فرق البستاني بين الصوفي والفقيه والعلوي

بينما كان بستانىّ يتفقد بستانه ، رأى به ثلاثة رجال كأنهم من اللصوص .

وكان أحدهم فقيها ، وثانيهم شريفا ، وثالثهم صوفيا . وكل منهم كان وقحا خبيثا ،
عديم الوفاء ! فحدث نفسه قائلا : “ ان لي مائة حجة في مواجهة هؤلاء لكنهم جمع ،
والجماعة قوة .

2170 فلن أقدر منفردا على ثلاثة أفراد ، فلافرق بينهم جميعا في أول الأمر .
لأفصلن الواحد منهم عن الآخرين ، فإذا ما أصبح منفردا اقتلعت شاربه “ .
فاصطنع حيلة أخرج بها الصوفىّ إلى الطريق ، حتى يفسد ما بينه وبين رفيقيه .
فقال للصوفىّ : “ اذهب إلى الدار ، وأحضر بساطا من أجل هذين الرفيقين “ .
فلما ذهب الصوفىّ ، قال البستاني في الخلوة لهذين الرفيقين :
“ انك فقيه ، وهذا شريف ذائع الصيت .

2175 وانا لنأكل الخبز بفتواك ! بل انا لنحلق بجناح علمك .
وهذا أيضا أميرنا وسلطاننا . انه سيد من أسرة المصطفى ! فمن يكون هذا الصوفىّ
الشره الخسيس ، حتى يكون جليسا لأمثالكما من الملوك ؟
فحينما يجئ فاجعلاه (بضر با تكما) قطنا ! وأقيما أنتما سبعة أيام في بستاني
وسفحى ! وماذا يكون البستان ؟ ان روحي لكما ، يا من أنتما لي بمثابة عيني اليمنى !
“

2180 لقد وسوس لهما وخدعهما . أواه . ان من الواجب ألا يصبر المرء على (بعد) أصدقائه .
وحينما أخرجا الصوفىّ إلى الطريق ، ومضى تعقبه خصمه بعصا غليظة ، وقال :
“ أيها الكلب . أيكون من التصوف أنك تسارع إلى دخول بستاني بالرغم منى ؟
فهل أرشدك الجنيد أو أبو يزيد لهذا الطريق ؟ وعن أي شيخ أو مرشد جاءك هذا ؟
“ لقد أشبع الصوفىّ ضربا حينما ألفاه وحيدا . وكاد أن يجهز عليه ، وشج رأسه .

2185 فقال الصوفىّ : “ ان ما أصابني قد انقضى ، لكن خذا حذر كما جيدا أيها الرفيقان ! لقد عددتمانى غريبا عنكما ، فتنبها فلست بأكثر غربة عنكما من هذا العُتُلّ .
وانكما لجديران بشرب ما قد شربته . وان مثل هذه الشربة لجزاء لكل دنىء .
فهذا العالم كالجبل ، فما رددتماه من القول سوف يرتد اليكما مع رجع الصدى “ .
وحينما فرغ البستانىّ من الصوفىّ ، فإنه - بعد ذلك - انتحل عذرا من النوع ذاته .

2190 فقال : “ أيها الشريف . لتذهب إلى الدار ، فانى قد أعددت من أجل الافطار رقاقا .

ولتهتف بقيماز " 1 " من باب الدار أن يحضر ذاك الرقاق ، والأوزة " .
فلما أخرجه إلى الطريق قال (للآخر) : " أيها البعيد النظر . انك فقيه . وهذا الأمر ظاهر ويقين .
وان هذا يدعى الشرف ، وهي دعوى بارة . فمن ذا الذي يدرى من قد زنى بأمه ؟
فهل تركنون إلى المرأة وإلى فعلها ؟ وهل يُعتمد عليها وهي ناقصة العقل ؟

2195 لقد ربط نفسه بعلى وبالنبي وكم بهذا الزمان من غبي (يصدق قوله) ! " ان كل من جاء من الزنى ، وكان من الزناة ، فهو يحمل مثل هذا الظن في حق الربانيين ! وكل من غدا رأسه دائرا من دورانه حول نفسه ، يظن أن الدار دائرة مثله ! فهذا الذي قاله ذلك البستانىّ الفضولىّ كان وصف حاله .
فما أبعد هذا عن أولاد الرسول ! فإن لم يكن من سلالة المرتدين ، فكيف كان يقول هذا عن أسرة الرسول ؟

2200 وتفوّه وبخداع أصغى اليه ذلك الفقيه . فمضى الشريف وتبعه ذلك الظالم السفيه .
فقال (للشريف) : أيها الحمار . من إذ الذي دعاك إلى هذا البستان ؟ وهل بقيت لك السرقة ميراثا عن الرسول ؟

....

(1) اسم علم .

ان الشبل يجئ شبيها بالأسد فمن أي وجه تشبه أنت الرسول خبرني ! " فهذا الرجل الملتجىء (إلى الحيلة) قد صنع بالشريف ما يصنعه خارجىّ بآل الرسول ! فكم ذا تحمل الحقد دوما على آل الرسول شياطين وغيلان من أمثال شمر ويزيد .

2205 لقد غدا الشريف محطما من ضربات ذلك الظالم . فقال للفقية " هأنذا قد قفزت إلى خارج الماء .
فاثبت أنت الآن ، فإنك قد بقيت فردا منتقرا (للعون) . ولتتلق الضربات فوق بطنك مثل الطبل ! فإن لم أكن شريفا ، ولا ثقا بك ، وصفيا ، فانى - بالنسبة لك - لست أسوأ من ذلك الظالم " .
ولقد فرغ البستانىّ من الشريف ، ثم أقبل قائلا : " أيها الفقيه أي فقيه أنت ، يا عار كل سفيه ! فهل فتواك هذه - أيها اللص " 1 " - أنك تدخل (بستاني) ولا تسأل : هل من اذن ؟

2210 وهل قرأت هذه الرخصة في الوسيط ؟ أم هل كانت هذه المسألة في المحيط ؟ " فقال الفقيه : " الحق معك ، فاضرب . لقد حقت لك الغلبة . وهذا هو الجزاء لمن افترق عن أصحابه " .

....
(1) حرفيا : أيها المقطوع اليد .

عود إلى قصة المريض وعيادة الرسول
صلى الله عليه وسلم

ان هذه العيادة كانت من أجل تلك الصلة (الروحية) . وانها لصلة منطوية على مائة محبة ! فهذا الرسول - الذي لا ندّ له - قدء ذهب للعيادة فرأى ذلك الصحابىّ في حال النزع .
انك حين تصبح بعيدا عن حضرة الأولياء ، تكون - في الحقيقة - قد غدوت بعيدا عن الله !

2215 فلئن كان الغم يحدث نتيجة لهجر الرفاق ، فهل تكون الفرقة عن وجه الملوك " 1 " أهون من ذلك ؟
فسارع في كل لحظة إلى طلب ظلّ الملوك ، حتى يجعلك هذا الظلّ أبهى رواء من الشمس " 2 " ! ولئن كنت مسافرا ، فلتسافر على هذه النية . وان كنت مقيما فلا تغفل عن ذلك .

كيف قال أحد الشيوخ لأبي يزيد
" انى انا الكعبة فقم بالطواف حولى "

ان شيخ الأمة بايزيد " 3 " كان قد توجه إلى مكة مسرعا ، من أجل الحج والعمرة .
وكان كلما نزول مدنية بدأ بالبحث عمن بها من الشيوخ الأعزاء .

....
(1) الملوك هنا هم الصوفية من ذوى المكانة الروحية الرفيعة .
(2) حرفيا : " حتى تغدو بهذا الظل أفضل من الشمس " .
(3) بايزيد ، هو أبو يزيد البسطامي ، الصوفي المعروف (ت 260 ه) .

2220 لقد كان يتجول سائلا : " من بهذه المدينة ممن استند على أركان البصيرة ؟
ولقد قال الحق : " حيثما توجهت في سفرك ، فعليك - في أول الأمر - أن تطلب رجلا
" فاقصد إلى الكنز ، فان هذا الربح وتلك الخسارة يأتيانك تبعا .
فلتعدهما من المسائل الفرعية .
فكل من يزرع يكون مقصده القمح ، لكنه يحصل على التبن تبعا لذلك .
ولو أنك زرعت التبن فلن ينبت لك قمحا . ألا فلتبحث عن رجل ! ابحث عن رجل !

2225 فلتقصد إلى الكعبة حين يحلّ وقت الحج . فإذا ما أتيت إلى هناك فسترى مكة أيضا .
لقد كان قصد الرسول من المعراج رؤية الحبيب ، فرأى العرش والملائكة تبعا لذلك .

حكاية

[بناء منزل المريد]

لقد بنى مريد جديد منزلا جديدا ، وجاء الشيخ ليتفقد منزل تلميذه ، فقال الشيخ لمريده الجديد ، وذلك ليختبر سداد فكره :
" لأي شئ جعلت له نافذة أيها الرفيق ؟ " فقال المريد : " لينفذ النور اليه من هذا الطريق " .

2230 فقال الشيخ : " هذا أمر فرعيّ ، والواجب أن تكون حاجتك إليها لتسمع عن طريقها صوت الأذان " .

لقد فتش أبو يزيد كثيرا في سفره ، لعله يجد رجلا يكون خضر زمانه .
فرأى شيخا ذا قد مقوّس كالهلال وشهد فيه الجلال ، وكذلك حديث الرجال .
لقد كان ضرير العينين ، وأما قلبه فكان مثل الشمس كان مثل فيل شهد في منامه بلاد الهند ! فبينما هو نائم وعينه مغلقة يرى مائة طرب . فإذا ما فتح عينيه لا يرى ذلك . واعجبا !

2235 فكم يتجلى في النوم من أمر عجاب ! ان القلب ليغدو نافذة ابان المنام .
أما ذلك الذي يكون يقظا ويشهد أحلاما طيبة ، فهو عارف .
فلتكحل عينيك بترابه ! فجلس أبو يزيد أمامه ، وسأله عن حاله . فوجده درويشا ، وأيضا صاحب عيال .
فقال الشيخ : " إلى أين عزمك يا أبا يزيد ؟ وإلى أي مكان سوف تجرّ متاع الغربة ؟
فقال أبو يزيد : " انى قاصد الكعبة عند انبلاج الصبح " . فقال الشيخ : " وماذا تحمل معك من زاد الطريق ؟ "

2240 فقال أبو يزيد : " ان معي مائتي درهم من الفضة ، وها هي ذي مثبتة باحكام في زاوية ردائي " .
فقال الشيخ : " ألا فلتطف حولى سبع مرات ، ولتعدّ هذا أفضل من طواف الحج !

ولتضع أمامي تلك الدارهم أيها الجواد . ولتعلم أنك أديت الحج ، وتم لك المراد ! وأنك قضيت العمرة ، ووجدت حياة الخلود . وصرت صافيا ، وتساميت مسرعا نحو الصفاء .
فبحق ذلك الحق الذي شهدته روحك انه قد فضلني على بيته .

2245 فمهما كانت الكعبة منزل برّه ، فان خلقتى أيضا منزل سرّه .
فهو منذ خلق الكعبة لم ينزل بها . وأما هذه الدار " 1 " فلم منزل بها سوى ذلك الحي .
فإذا ما أبصر تنى فقد أبصرت الله ، وطوّفت حول كعبة الصدق .
وما دمت لا تعتقد أن الحق بعيد عنى ، فان أداءك خدمتي طاعة .
وحمد لله ! فافتح عينيك جيدا وانظر اليّ ، حتى ترى نور الحق في البشر .

2250 ولقد أصغى أبو يزيد إلى تلك الأسرار ووضعها في أذنيه ، كأنها قرط ذهبي ! ثم انصرف أبو يزيد عن هذا الشيخ وهو في مزيد (من الطاقة الروحية) ، وفي النهاية وصل إلى منتهاها .

كيف علم الرسول عليه السلام أن السبب في مرض ذلك الشخص كان تجاسره في الدعاء

حينما رأى الرسول ذلك المريض ، فإنه سرّى بلطف عن ذلك الرفيق الأليف .

....
(1) يشير بذلك إلى قلبه .

فانبعثت فيه الحياة حينما رأى الرسول . وكأنما تلك اللحظة قد خلقته .
فقال : “ لقد وهبني المرض هذا الحظ السعيد فجاء سلطان (الروح) ساعة الصبح عندي !

2255 حتى تعود إلى الصحة والعافية ، بقدوم هذا المليك الذي ليست له حاشية .
فيها لها من سعادة ذلك العناء وتلك العلة والحمى ! وكم هو مبارك ذلك الألم وسهر الدجى ! فها هو ذا الحق - بلطفه وكرمه - قد وهبني في الشيخوخة مثل هذا الضنى والسقم .
ولقد وهبني أيضا ألم الظهر ، فلا بد أن أقفز من النوم مسرعا في منتصف الليل .
ان الحق بلطفه قد وهبني هذه الآلام حتى لا أنام طول الليل مثل الثور !

2260 وبهذه العلة تفجرت لي رحمة الملوك ، ولزمت جهنمُ الصمت عن تهديدى “ .
ان الألم كنز ، وكم في داخله من الرحمات ! واللب يغدو أكثر نضرة إذا سلخت عنه القشرة .
يا أخي ! ان المكان المظلم البارد ، والصبر على الحزن والوهن والآلام .
كل أولئك عين ماء الحياة وكأسُ النشوة ، ذلك لأن هذه الأعالي كامنة في المنخفضات !

فهذا الربيع مضمر في الخريف . والخريف مضمر في الربيع فلا تهرب من ذلك .

فكن رفيقا للشجى ، واسكن إلى الوحشة . والطلب العمر الطويل في موت النفس ! ومهما تقل لك النفس ان هذا المكان قبيح فلا تصغ إليها فان دأبها أن تكون ضد (الصلاح) ! ولتخالفها ، فان هذا هو ما قالت به وصية الأنبياء في الدنيا . وان المشاورة في الأمور لواجبة ، حتى يكون الندم قليلا في العاقبة . ولقد قالت الأمة : " ومن ذا الذي نشاوره ؟ " فقال الأنبياء : " شاوروا العقل (فهو) الامام " .

فقال أحدهم : " فلئن جاء طفل أؤ امرأة لا تملك رأيا ولا عقلا مستنيرا ؟ " قيل : " شاورها ، واعمل بضد ما تقوله لك ، وامض لسبيلك ! " واعلم أن نفسك كالمرأة أو أسوأ منها ! ذلك لأن المرأة جزء (من الشر) ، وأما النفس فهي كل الشر ! فان أنت شاورت نفسك الأمَّارة بالسوء فخالف تلك الدنيئة في كل ما توحى به ! ولو أنها أمرتك بالصلاة وبالصوم فالنفس ماكرة ، ولعلها تلد لك مكرا .

فإذا شاورت نفسك في الأفعال ، فكل ما قالته لك فضده هو الكمال !

فإن لم تقدر عليها وعلى حقدها . فاذهب إلى رفيق والزم مخالطته فالعقل يكتسب القوة من عقل آخر . وقصب السكر يكتسب الكمال بقصب السكر .
انى قد رأيت من مكر النفس أشياء ، فهي التي تسلب بسحرها كل تمييز ! وهي تقدم لك الوعود نضرة بيديها ، بعد أن تكون قد أخلفتها آلاف المرات !

2280 فلو امتدّ بك العمر لتبلغ مائة عام ، فإنها تتعلل لك كل يوم بعذر جديد ! وهي تزجى بحرارة وعودها الباردة . انها لساحرة تربط للرجل رجولته .
ألا فلتحضر يا ضياء الحق ! يا حسام الدين فإنه ! بدونك - لا ينبت العشب في الأرض الملحة ! فان ستارا قد تدلى من الفلك ، من جراء لعنة قلب جريح .
وليس يدرى علاجا لهذا القضاء الا القضاء . فعقل الخلق حائر ذاهل في قضاء الله .

2285 ان الثعبان الأسود - الذي كان دودة ملقاة على الطريق - قد أصبح تنينا .
لكن التنين يغدو يدك عصا ، وكذلك الثعبان يا من أنت روح موسى المنتشى بالمحبة .
فلقد وهبك الله حكم” خُذْها وَلا تَخَفْ "" 1 " ، وبذلك يغدو

....
(1) انظر : سورة طه ، 20 : 21 .

التنين عصا في يدك .
فهيا ، أظهر يدك البيضاء ، أيها المليك واكشف لنا صبحا جديدا من بين الليالي المظلمة ! ان جحيما قد اشتعل ، فانفث عليه سحرك ، يا من أنفاسك ، أغنى من أنفاس البحر !

2290 انها (النفس) بحر ماكر ، يبدي قليلا من الزبد . بل هي الجحيم الذي أبدى بمكر قليلا من اللهب .
وهي تظهر صغيرة أمام عينيك ، حتى تراها ضعيفة ، فيثور غضبك ، مثلما ظهر الجيش الكثيف قليل العدد ، أمام عيني الرسول .
فكان أن هاجمه الرسول بدون أن يهاب خطره ، ولو رآه كثيرا لكان التزم الحذر ازاءه .
لقد كانت هذه عناية (من الله) ، وكنت أهلا لها يا أحمد .
ولولاها لكنت غدوت وجل الفؤاد .

2295 لقد كان الله يهوّن في نظره ونظر أصحابه جهاد الظاهر وجهاد الباطن .
وذلك لكي ييسر له اليسرى ولكي لا يحوّل وجهه عن العسرى .
ولقد كان اظهار الأمر له هينا نصرا له ، ولأنه كان للحق حبيبا ، والحق هو الذي علمه الطريق .
أما من لم يكن الحق ظهيرا له في الظفر ، فويل له لو تبدّى له الأسد الضاري مثل الهرة ! وواها عليه لو ظهرت له المائة من بعيد واحدا ، فيدفعه الغرور إلى أن يخوض الوغى !

2300 ولهذا فان الله يظهر سيف الرسول وكأنه حربة . ولهذا أيضا يظهر الأسد الضاري وكأنه هرة .
حتى يرتمى (كل) أحمق في غمار الحرب متجاسرا ، وبهذه الحيلة يوقعهم في مخالبه ! وحتى يقبل كل هؤلاء الحمقى بأقدامهم نحو بيت النار ! انه يظهر لك وكأنه عود من القش ، فتسارع إلى نفخه لتزيله من الوجود ! فحذار فان هذه القشة قد اقتلعت جبالا ! لقد جلعت العالم يبكى وبقيت هي ضاحكة !

2305 انه يبدي ماء النهر وكأنما لا يتجاوز عمقُه كعب القدم ، على حين أنه قد أغرق مائة من أمثال عوج بن عنق ! انه يبدي موج الدماء تلا من المسك ! انه يبدي قاع البحر أرضا يابسة ! لقد رأى فرعون الأعمى هذا البحر يبسا ، فاقتحمه بكل شجاعته وقوته .
وهو - حين خاضه - أصبح في قاعه . وكيف تكون عين فرعون بصيرة ؟
ان العين تغدو بصيرة بلقاء الحق . وهل يكون الحق نجيّ السرّ لكل أحمق ؟

2310 ان الأحمق يبصر القند ، فإذا به السم الزعاف ! وهو يرى الطريق ، ولا يكون ما رآه سوى نداء الغول ! أيها الفلك . انك لتسرع في دورانك بفتنة آخر الزمان . ألا

فلتمهلنا بعض الوقت ! انك لخنجر حاد في تهجمك علينا ! بل انك لرمح ملوث بالسموم ! أيها الفلك . تعلم الرفق من رحمة الحق . ولا تنهش بمثل لدغة الحية قلوب النمال .
فبحق من جعلك دولابا دائرا فوق هذه الدار (الدنيا) .

2315 دُر على صورة أخرى ، وكن رحيما بنا ، من قبل أن تستأصل حذورنا ! بحق أنت كنت مربينا في البداية ، فنمت أغصاننا من الماء والتراب ! بل بحق ذلك المليك الذي خلقك صافيا ، وأطلع فيك كل تلك المشاعل ، وجعلك هكذا معمورا باقيا ، حتى ظن الدهري انك أزلي ! والشكر (لله) أننا قد عرفنا بدايتك فالأنبياء قد أخبرونا بسرك هذا .

2320 فالآدميّ يعلم أن الدار حادثة ، وليس يعلم ذلك العنكبوتُ العابث في جوانبها ! وكيف تعلم البعوضة من أيّ وقت كان البستان ؟ وهي التي تولد في الربيع ويكون موتها في الشتاء ! والدودة التي تتولد في الخشب وهو واهى الحال ، كيف تعلم حال الخشب حينما كان غصنا ؟
ولو أن الدودة علمت بماهيته ، لكانت عقلا تبدى على صورة دودة .
وان العقل ليظهر ذاته في كثير من الألوان ، لكنه يبعد فراسخ

عن هذه الألوان . كبعد الجن (عن الصور التي تتبدى فيها) .

2325 بل هو أسمى من الملك ، فايّ مجال هنا للجن ؟ لكنك تطير بجناح الذباب ، ولهذا فإنك تتهاوى في طيرانك ! ومع أن عقلك يطير محلقا نحو العلا ، فان طائر تقليدك يرتعى في الحضيض .
وما العلم التقليدي الا وبال على أرواحنا . انه عارية ، ونحن قد ركنا إلى أنه علمنا (الحقيقي) .
بل إن من الواجب أن يغدو المرء متجاهلا مثل هذا العقل ، ويجب عليه - ازاءه - أن يتشبث بالجنون ! فكل ما رأيت فيه نفعا لذاتك فاهرب منه ! لتحسُ السهم ولتهرق ماء الحياة !

2330 وكل من يمتدحك كن له معنِّفا وأقرض المفلس ربحك ورأس مالك .
ودع الأمان ، وانزل منزل الخوف ! وتخل عن حسن السمعة وكن مفتضحا ذائع الصيت ! انني قد جربت العقل البعيد الفكر . فمن بعد هذا سوف أجعل نفسي مجنونا !

كيف اعتذر فتى مستهتر لرجل فاضل انكر عليه زواجه من احدى العاهرات

لقد قال السيد الأجل ذات مساء لذلك المستهتر : " انك قد تزوجت متعجلا بامرأة فاجرة !

وكان الواجب أن تنبئنى بأمرك . حتى نزوجك من امرأة ذات عفاف “ .

2335 فقال : “ انني قد تزوجت تسع عفيفات صالحات ، فغدون عاهرات ، واضمحل من الحزن بدني ! فتزوجت هذا العاهرة بدون معرفة بها لأرى ماذا يؤول اليه أمرها . انني كثيرا ما جربت العقل . وانى - بعد هذا - لملتمس مغر سا للجنون ! “

كيف استطاع مستفسر ان يدفع إلى الكلام ذلك العظيم
الذي كان يتظاهر بالجنون

كان أحد الرجال يقول : “ انى أريد رجلا عاقلا لكي أشاوره في احدى المشكلات “ .
فقال امرؤ له : “ ما في مدينتنا عاقل قط ، سوى هذا الرجل الذي يبدو كالمجنون !

2340 ها هو ذا فلان ، وقد امتطى عودا من القصب وأخذ يعدو به بين الأطفال . انه صاحب رأى ، (ذكاؤه) جذوة من اللهب وقدره (رفيع) كالسماء وشأنه كالنجوم ! عدالته “ 1 “ قد أصبحت روحا للملائكة المقربين ! لكنه قد احتجب

....

(1) العدالة من معاني كلمة “ فر “ ، وقد اخترنا هذا المعنى في ترجمة البيت .

وراء هذا الجنون ! “ لكن ، لا تحسبن كل مجنون روحا (عاقلا) . لا تسجد للعجل كما فعل السامرىّ ! فحينما تحدث إليك الولىّ ، كاشفا لك مائة ألف غيب وسر خفيّ ،

2345 فان ذلك الفهم لم يكن لك ، ولا كان لك ذلك العلم . وما كنت تستطيع - من قبل - أن تميز بين البعر وبين العود ! فإذا ما حجب الولىّ نفسه بقناع من الجنون ، فكيف تتسنى لك معرفتة ، أيها الأعمى ؟
فلو أنك فتحت عين اليقين ، لأبصرت “ 1 “ بها تحت كل حجر جنديا (من جنود الله) .
فأمام تلك العين المفتوحة الرشيدة ، يكون كل رادء صوفىّ محتضنا كليما .
ان الولىّ هو الذي يذيع أمر الولىّ ، ويجعل من يشاء ذا حظ من ذلك .

2350 وليس يستطيع انسان أن يعرفه بالعقل ، ما دام هو قد تظاهر بالجنون .
فلو أن لصا بصيرا سرق متاع رجل أعمى ، فهل يستطيع الأعمى أن يتعرف على اللص لو مر بجانبه ؟
ان الأعمى لا يعرف من كان سارقه ، حتى ولو اصطلام به ذلك اللص العنيد .
....
(1) حرفيا : فأبصر .

فحين يعض كلب رجلا أعمى مهلهل الثياب ، فأنى له أن يعرف ذلك الكلب الضاري ؟

كيف تهجم الكلب على السائل الأعمى

كان في أحد الطرقات كلب يتهجم كليث الوغى على سائل أعمى .

2355 فالكلب يتهجم غاضبا على الدراويش ، في حين أن القمر يكتحل بتراب أقدامهم ! فأصبح الأعمى عاجزا أمام صوت الكلب ومن خشيته . فأقبل الأعمى على الكلب يزجى له التعظيم ! قائلا : “ يا أمير الصيد يا ليث القنص ! ان الحكم لك ، فارفع يدك عنى ! “ فالضرورة قد دفعت ذلك الحكيم أن يعظم ذلك حمار ويلقبه بالكريم .
ولقد جعلته الضرورة أيضا ، يقول : “ ما الذي يعود عليك من اصطياد نحيف مثلي ؟

2360 ان أمثالك يصطادون حمار الوحش في الفلوات ، وأنت تصيد الأعمى في الطريق ! ألا ما أسوأ هذا ! ان نظراءك يطلبون حمار الوحش صيدا ، وأنت للكيد تطلب أعمى في الطريق .
فذلك الكلب العالم هو الذي تصيد حمار الوحش . وأما الكلب الخسيس فهو الذي تهجم على الأعمى .

والكلب حينما تزود بالعلم ، خلص من الضلال . فهو يتصيد في الآجام الصيد الحلال . والكلب - حينما صار عالما - أصبح سريع الوثبات . وهو حين صار عارفا غدا من أصحاب الكهف !

2365 لقد غدا الكلب عارفا بمن هو أمير الصيد ! فيا الهى ، أىّ شئ هو ذلك النور العليم ؟
ولا يكون امتناع المعرفة على الأعمى لأنه بدون عينين . بل لعل ذلك يكون لأنه ثمل بالجهالة ! وليس الأعمى بأكثر من الأرض افتقادا للعينين . والأرض قد غدت - بفضل الحق - مبصرة للخصوم ! لقد رأت نور موسى فأظهرت له الاعزاز ! ولقد خسفت قارون ، (حينما) عرفت قارون ! ولقد رجفت لا هلاك كل دعىّ “ 1 “ . وفهمت من الحق قوله :” يا أَرْضُ ابْلَعي ماءَك ““ 2 “ .

2370 فالتراب والماء والهواء والنار ذات الشرر ، كلها ليست بذات خبر عنا ، لكنها عارفة بالحق ! لكننا - على عكس ذلك - خبيرون بغير الحق ، وأما الحق فلا خبر لنا عنه ولا عن الكثير من نذره ! فلا جرم أن جملتهن قد” أَشْفَقْنَ منْها ““ 3 “ ، وفتر سعيهن إلى الامتزاج بهذه الحياة .

....
(1) إشارة إلى قصة صالح مع قومه وكيف زلزلت بهم الأرض .
(2) سورة هود ، 11 : 44 .
(3) انظر : سورة الأحزاب ، 33 : 72 .

وقلن : " اننا جميعا نافرات من هذه الحياة التي يكون المرء فيها حيا إزاء الخلق ، ميتا إزاء الخالق ! والمرء حين ينقطع عن الخلق يكون يتيما . وللأنس بالحق لا بد من قلب سليم .

2375 فحينما يسرق لص متاعا من رجل أعمى ، فان هذا الأعمى يظل يصرخ في عماه .
وما لم يقل له اللص : " انني أنا اللص الذي سرق منك ، أنا اللص البارع ! " فكيف يعرف ذلك الأعمى سارقه ، ما دام لا يمتلك نور العين ولا ذاك الضياء ؟
فإذا قال لك ذلك فأحكم الامساك به ، حتى يذكر لك علامات المتاع (المسروق) .
فالجهاد الأكبر هو احكام القبض على ذلك اللص حتى يخبرك بما سرق وما حمل .

2380 فهو - أولا - قد سرق منك كحل عينيك . فلئن أخذته منه استرجعت بصرك !
أما متاع الحكمة الذي أضاعه قلبك ، فهو موجود - يقينا - عند أصحاب القلوب .
ان صاحب القلب الأعمى - مهما كان ذا روح وسمع وبصر - لا يعرف اللص الشيطان بآثاره .
فسل عن ذلك أهل القلوب ، ولا تسل عنه جمادا . فالخلق - بالقياس إلى صاحب القلب - مثل الجماد .

لقد اقترب طالب المشورة من ذلك (المتنظاهر بالجنون) ، وقال :
" أيها الوالد الذي أصبح طفلا ! أطلعنى على السر ! "

2385 فأجابه قائلا : " تخلّ عن حلقة الباب ، فليس هذا الباب مفتوحا .
وانصرف اليوم ، فإنه ليس يوم الأسرار ! فلو كان للمكان سبيل مع الكلامكان ، لكنتُ كالشيوخ (جالسا أعلم) فوق دكان ! "

كيف نادى المحتسب ثملا أطاح به السكر ليصحبه إلى السجن

وصل المحتسب في منتصف الليل إلى أحد الأماكن ، فرأى رجلا منطرحا إزاء قاعدة جدار .
فقال : " انك لسكران ، فماذا شربت ، خبرني ! " فأجاب " لقد شربتُ مما بهذا الإبريق ! " فقال المحتسب : " فأخبرني ، ماذا بهذا الإبريق ؟ " ، فقال الرجل : " بقية ما شربت ! " ، فقال المحتسب : " ان هذا لخفيّ ! "

2390 وأردف قائلا : " ما هذا الذي شربته ؟ " فقال الرجل : " انه بعض ما احتواه هذا الإبريق ! وتتابع السؤال والجواب في حلقة مفرغة . فوحل المحتسب مثلما يَوحَل الحمار .
وقال للرجل : تنبه ، ثم قل : آه . فأخذ السكران يردد : هو ، هو .
فقال المحتسب : أأقول لك انطق " آه " ، فتنطق " هو " ؟

فقال السكران : انني سعيد وأما أنت فقد حنى الهم ظهرك .
والآه تصدر عن (الاحساس) بالألم أو الحزن أو الظلم . وأما “ هو “ ، هتاف السكارى ، فإنه ينبعث من السرور !

2395 فقال المحتسب : “ لست أعرف هذا ، فانهض ! انهض ! ولا تتكلف العرفان “ 1 “ ، ودعك من هذا العناد “ .
فقال السكران : “ ما شأنك وشأني ؟ اذهب عنى ! “ فقال المحتسب : “ انك سكران ، فانهض ، وأقبل معي إلى السجن “ .
فقال السكران : “ أيها المحتسب ! دعني وامض لسبيلك ! فمن ذا الذي يستطيع أن يأخذ رهنا ممن لا يملك الثياب ؟
فلو كانت لي قوة على الذهاب لذهبت إلى منزلي ، ولما جرى هذا بيننا ! ولو أنني كنت ذا عقل وامكان ، لتبوأت منصة مثل الشيوخ ! “

كيف جر المستفسر ذلك العظيم مرة ثانية إلى الكلام
ليزداد علما بحاله

2400 فقال هذا الطالب : “ يا من امتطيت عودا من القصب . سُق حصانك لحظة نحو هذا الجانب ! “ فركب نحوه قائلا : “ هيا ، عجل بالقول ، : فان حصانى عنيف ، حاد الطبع ! سارع حتى لا يضربك الحصان ، وأوضح ما تريد السؤال عنه “ .

....
(1) حرفيا : “ لا تنحت العرفان “ ، ومعناه : “ لا تتصنع العرفان “ .

فلم ير السائل مجالا لكي يبوح بسر قلبه . فلجأ إلى المراوغة ، وجرّه إلى المزاح .
فقال : “ أريد أن أتزوج امرأة من هذا الدرب . فأي من نسائه تليق بمثلى ؟

2405 فقال : “ ان في العالم ثلاثة أنواع من النساء ، نوعان منهن عناء ، وأما النوع الثالث فهو كنز الروح ! فاحداهن حين تتزوجها ، تكون كلها لك . وآخرى يكون نصفها لك ، ونصفها الآخر منفصلا عنك .
وثالثة لا تكون لك قط فاعلم ذلك . والآن ، وقد سمعت ، فتنحّ عن طريقي ، فانى منطلق .
والا عاجلك حصانى بركلة تطيح بك ، فلا تنهض منها حتى الأبد ! “ وركب الشيخ منطلقا بين الأطفال . فناداه ذلك الشاب مرة أخرى .

2410 قائلا : “ أقبل ، واذكر لي تفسير هذا . لقد قلت إن النساء ثلاثة أنواع ، فاختر (لي من بينهن) “ .
فركب نحوه وقال له : “ ان البكر التي تخصك ، تكون كلها لك ، وبها تجد من الغم الخلاص .
والثيب (بلا ولد) يكون لك نصفها . وأما ذات الولد فهذه لا تكون لك قط .
فما دامت ذات ولد من زوجها الأول ، فان حبها وكل خاطرها يتوجه اليه .
والآن ابتعد والا سدّد حصانى لك ركلة ، وتلقيت ضربة من حافر هذا الجواد القويّ ! “

2415 وأطلق الشيخ صيحات الوجد ثم انطلق ، ونادى الأطفال ليقبلوا ثانية نحوه .
فناداه ذلك السائل مرة أخرى وقال : “ أقبل ، فقد بقي لدىّ سؤال ، أيها الملك العظيم !
“ فتوجه ثانية نحوه وقال : أسرع وقل لي ما هذا السؤال ، فان هذا الطفل قد سرق كرتى من الميدان ! “ فقال السائل : “ أيها المليك . ما هذا الوله وما هذا الفعل ، مع مثل هذا العقل والأدب ؟ ألا ما أعجب ذلك ! لقد تجاوزت العقل الكلىّ في البيان . انك شمس فكيف احتجبت وراء الجنون ؟ “

2420 فقال (الحكيم) : “ ان هؤلاء الأوباش قد ارتأوا رأيا ، أن يجعلوني قاضيا في مدينتهم .
ولقد امتنعت من ذلك ، لكنهم أبوا قائلين : “ ليس لدينا عالم صاحب فن مثلك .
فمع وجودك ، يكون من الحرام والخبيث أن يروى الحديث في مجلس القضاء من هو دونك (علما وعرفانا) .
فالشريعة لا تأذن لنا بأن نختار من لا يساويك مليكا واماما “ .
فلهذه الضرورة غدوتُ مثل الأحمق المجنون ، لكنني - في الباطن - بقيت على حالي .

2425 فعقلى كنز ، وأنا الخربة (التي تخفيه) . فلو أنني أظهرت الكنز لكنت مجنونا ! وما المجنون الا من لم يغد مجنونا . انه ذلك الذي رأى العسس ولم يذهب إلى داره .

ومعرفتي جوهر ، وليست عرضا . فهي ليست ثمنا لكل غرض (دنيوىّ) .
انى منجم القند ، بل أنا منبت قصب السكر ! فهو ينبت منى ، وأنا في الوقفت ذاته آكل منه ! والعلم يكون تقليديا مصطنعا ، عندما يأسى صاحبه لنفور مستمعيه .

2430 فلئن كان (علم الدين) من أجل الرزق " 1 " ، لا من أجل الأستنارة ، فصاحبه دنىء كطالب علم الدنيا .
فهو طالب علم من أجل العام والخاص لا ليجد من هذا العالم الخلاص .
فهو مثل الفأر جعل كل طرف جُحرا ، حينما ردّه عن الباب نور النهار قائلا : " ابتعد " .
فلما لم يكن له سبيل إلى المرج والضياء ، فإنه قد أخذ يبذل جهده في تلك الظلمات .
فلو أن الله وهبه جناحين جناحي العقل ، لخلص من طبيعة الفأر وحلّق مثل الطيور !

2435 وان هو لم ينشُد الجناحين بقي تحت الثرى ، بدون أمل في أن يسلك سبيل السماك " 2 " .
ان علم الكلام الذي لا روح فيه ، يكون متعشقا لوجوه من يشترونه !

....

(1) حرفيا : من اجل الحبة . السماك أحد الكواكب النيرة .
(2) ويطلق هذا الاسم عادة على كوكبين يعرفان بالسماكين ، أحدهما في جهة الشمال والآخر في جهة الجنوب .

ومع أنه وقت البحث فيه يبدو عظيما ، فإنه يعدو موانا ويمضى حينما لا يجد المشترى ! وأما أنا فمشتريّ هو الله . وهو الذي يرفعني ، (على مقتضى قوله) :" إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ "" 1 " وثمن دمى هو جمال الحق ذي الجلال . وانى لأغتذى من ثمن دمى بكسب حلال .

2440 فدعك من هؤلاء المشترين المفلسين وأي شراء تقدر عليه قبضة من الطين ! ولا تأكل الطين ، ولا تكن له مشتريا ولا طالبا ، فآكل الطين يكون دائما مصفر الوجه (شاحب الطلعة) .
واغتذ بقلبك حتى تكون دائم الشباب ويجعل التجلي طلعتك مثل الأرجوان ! يا رب ، ان هذا العطاء ليس على قدر أعمالنا . فلطفك هذا لائق بما لك من لطف خفيّ فخذ بيدنا ، وخلصنا من قبضة (وجودنا المادي) ، وارفع الحجاب بيننا وبينك ولا تمزّق سترنا .

2445 ثم خلصنا من هذه النفس (الحيوانية) الخبيثة ، فان سكينها قد بلغ منا العظام .
فمن ذا الذي يرفع هذا القيد المحكم عنا ، أيها المليك الذي لا تاج له ولا تخت ؟
ومن ذا الذي يستطيع أن يفتح مثل هذا القفل الثقيل سوى

....

(1) التوبة ، 9 : 111 .

فضلك ، أيها الودود ! فلنحوّل رؤوسنا عن أنفسنا متجهين نحوك ما دمت أنت أقرب الينا من أنفسنا .
وهذا الدعاء أيضا من عطائك وتعليمك والا فكيف ينبت بستان الورد في (رماد) الموقد ؟

2450 وليس سوى اكرامك ما يستطيع أن ينقل الفهم والعقل بين الدم والأمعاء .
وهذا النور المناسب من قطعتين من الشحم “ 1 “ ، تلاطم أمواجه السماء ! وقطعة اللحم التي قُدَّ منها اللسان ، يتدفق سيل الحكمة منها مثل النهر ، نحو فجوات تسمى بالآذان ، ومنها إلى بستان الروح ، وثمراتُه هي العقول .
وشرع الخالق هو الطريق الأرحب إلى بستان الروح . وكل بساتين العالم وحدائقه فرع لهذا البستان .

2455 ذلك أصل السعادة ! ذلك نبعها ! فسارع إلى قراءة قوله تعالى :” تَجْري منْ تَحْتهَا الْأَنْهارُ “ *” 2 “

تتمة نصح الرسول عليه السلام للمريض

قال الرسول لذلك المريض ، عندما ذهب لعيادة هذا الصاحب العليل ،

....

(1) العينان .
(2) سورة البروج ، 85 : 11 .

" لعلك قد دعوت دعاء ، كان لك بمثابة سمّ زعاف تناولته عن جهل .
فلتذكر أي دعاء هتفت به ، عندما غدوت ثائرا من جرّاء مكر النفس " .
فقال : " انني لست أذكر ، فاجعل همتك معي ، تَعد إلى الذاكرة برهة من الزمن " .

2460 ولقد تجلَّى في خاطره هذا الدعاء ، بحضور المصطفى ، الذي أفاض عليه من نوره ! فبهمة المصطفى ، معدن النور ، تجلَّى أمام خاطره ما كان قد نسيه ! وأشرق من تلك النافذة ، التي تصل بين القلب والقلب ذلك النور الذي يظهر الحق من الباطل .
فقال : " ها هي ذي ذاكرتى قد عادت ، أيها الرسول ! وها هو ذا الدعاء الذي هتفتُ به ، أنا الفضوليّ ! فحينما أصبحتُ أسير الاثم ، وأغرقنى ، أخذت أتعلق بالأعشاب ،

2465 وكان يجيئنا منك التهديد والوعيد ، منذرا المجرمين بعذاب بالغ شديد ، فغدوتُ مضطربا ، ولم تكن لي حيلة ! لقد كان القيد محكما ، لا سبيل إلى فتح أقفاله ! ولم يكن هناك مكان للصبر ، ولا سبيل للهرب ، ولا أمل في التوبة ، ولا مجال للعناد ! فأخذت أتأوّه من الحزن مثل هاروت وماروت ، قائلا : يا خالقي !

ان هاروت وماروت قد اختارا بوضوح بئر بابل ، على خطر (عذاب الآخرة) .

2470 حتى يلقيا هنا عذاب الآخرة ، وانهما لما كران عاقلان ، شبيهان بالسحرة !
ولقد أحسنا صنعا ، فقد كان ألم الدخان أهون عليهما من عذاب النار .
فإنه لا حدّ لوصف آلام ذلك العالم " 1 " ، ولكم يهون أمامه ألم الدنيا ! وما أسعد من جاهد البدن ، وكان له زاجرا وألزمه العدالة ! ولكي يخلص من عذاب ذلك العالم ، يلزم نفسه بمشقة العبادة .

2475 لقد كنت أقول : يا الهى ! أرسل اليّ هذا العذاب عاجلا في الدنيا ، حتى يكون لي فراغ منه في الآخرة ! لقد كنت أطرق الباب بمثل هذا الرجاء ! وهكذا ظهر بي هذا المرض ، وأصبحت روحي لا قرار لها من الألم .
وهكذا عجزت عن ذكرى وأورادى ، وأصبحت لا أدرى بنفسي ، ولا بالخير والشر !
ولو أنني لم أر وجهك الآن ، أيها السعيد المبارك النفحات ،

2480 لا نطلقت من قيد الحياة انطلاقا كاملا . لقد أضفيت عليّ هذا العطف بأسلوبك الملكيّ " .

....
(1) الآخرة .

فقال الرسول : “ حذار ، ولا تهتف بهذا الدعاء مرة ثانية ! لا تقتلع نفسك من أصلها وأساسها ! فأية طاقة لك - يا من أنت كالنملة الواهية - حتى يضع فوقك مثل هذا الجبل العالي ؟ “ فقال : “ لقد تبت - أيها السلطان - ولن تدفعني الجرأة بعد ذلك إلى التفوه بجزاف القول ! ان هذه الدنيا تيه ، وأنت لنا مثل موسى ! ونحن من الاثم قد بقينا في التيه رهن البلاء !

2485 ونحن نقطع الطريق سنين ، وفي آخر الأمر ، نجد أنفسنا أسارى أول منازله ! فلو أن قلب موسى كان راضيا عنا ، لبدت لنا السبيل في التيه ، وتجلت حدودها .
وأما ان كان بالغ النفور منا ، فكيف تصل الينا موائدنا من السماء ؟
ومتى كانت الينابيع تتفجر من الصخر ؟ أم كيف يكون لأرواحنا أمان في القفار ؟
بل إن النار لتأتينا بد لا من الخوان ! وان اللهب ليدهمنا في هذا المنزل !

2490 فلما أصبح موسى صاحب قلبين إزاء أحوالنا ، فإنه حينا يكون خصمنا وحينا يكون صاحبنا ، فغضبه يشعل النار في متاعنا ، وأما حلمه فيكون درعا لنا في مواجهة البلاء .

وكيف يتحول الغضب أيضا إلى حلم ؟ ان هذا أيضا ليس بغريب على لطفك ، أيها العزيز .
وان مدح الحاضر لمدعاة للحرج ، ولهذا فانى قد تعمدت - على هذا النحو - ذكر اسم موسى .
والا فكيف يجيز لي موسى أن أذكر أي انسان في حضرتك ؟

2495 وعهدنا يتحطم مائة مرة ، بل وألف مرة ، وأما عهدك فهو ثابت راسخ كالجبل ! وعهدنا كالقش ضعيف أمام كل ريح ، وأما عهدك فجبل ، بل هو أقوى " 1 " من مائة جبل ! فبحق ما لك من قوة على تلويننا ، كن رحيما بنا ، يا أمير الألوان ! لقد رأينا أنفسنا ورأينا عارنا ، فلا تزدنا امتحانا ، أيها المليك ! فلعلك بذلك تدع فضائحنا الأخرى مستورة ، أيها الكريم المستعان !

2500 فأنت بدون حدّ في الجمال والكمال ، ونحن بدون حد في العوج والضلال ! فوجه - أيها الكريم - (كمالك) الذي لا يُحدّ إلى زمرة اللئام ، الذين يعافون عوجا لا يحدّ ! هيا ، فان التمزق لم يُبق منا سوى خيط واحد . لقد كنا مصرا (عامرا) فلم يبق منا سوى حائط واحد ! (وتدارك) البقية ! تداركها أيها المولى ، حتى لا تفعم السعادة روح الشيطان .

....
(1) حرفيا : أكثر .

وليس ذلك من أجلنا ، بل من أجل اللطف الأول ، فإنك به تبحث عن التائهين .

2505 فلتظهر لنا الرحمة ، مثلما أظهرت قدرتك ، يا من أودعت الرحمات في اللحم والشحم **!** ولئن كان هذا الدعاء يزيدك غضبا ، فلتعلمنا أنت الدعاء ، أيها العظيم **!**
مثلما (صنعت) بآدم حين سقط من الجنة ، فوهبته الرُجعى ، فخلص من الشيطان القبيح .
وما الشيطان حتى يتفوق على آدم ، وحتى يغلبه في اللعب على مثل هذه الرُقعة **!** ولقد صار كل هذا - في الحقيقة - نفعا لآدم ، كما صارت الخديعة لعنة على (الشيطان) الحاسد .

2510 لقد رأى لعبة واحدة ، لكنه غفل عن مائتي لعبة ، وبهذا دمر دعائم منزله **!** انه - في الليل - قد أشعل النار في مزرعة الآخرين ، فإذا بالريح تحمل النار إلى مزرعته **!** ان اللعنة التي أصابت الشيطان كانت حجابا لعينيه ، وبهذا ظن أن خداعه مضرة لخصمه .
فاللعنة هي التي تجعل المرء مُعوج الابصار ، وتصيره حاسدا مغرورا حقودا ، حتى أنه لا يعلم أن كل من عمل السوء ، يرتدّ اليه السوء - في عاقبة الأمر - ويصيبه .

2515 انه يبصر جميع اللعب البارعة معكوسة ، وبهذا تنقلب وبالا عليه ونقصانا ووكسا ! ذلك لأنه لو أبصر حقيقة نفسه ، لرأى جرحها مُهلكا لا يلتئم ! وإذ ذاك تشبّ آلامُه من جراء هذه الرؤية الباطنية ، ويخرجه ذلك الألم من حجابه .
فالأمهات ما لم يشعرن بآلام الوضع ، فان الأطفال لا يجدون سبيلا قط إلى أن يولدوا .
فهذه الأمانة (الإلهية) مكانها القلب . والقلب حامل بها . وهذه النصائح شبيهة بالقابلة .

2520 وقد تقول القابلة ان المرأة لا تتألم . لكن الألم ضروريّ . انه هو السبيل أمام الطفل .
والذي يكون بدون ألم قاطعُ طريق . ذلك لأن الخلوّ من الألم يجعل المرء يقول : " أنا الله ! " ان قول : " أنا " في غير وقتها لعنة (على قائلها) . وأما قولها في وقتها فرحمة عليه " 1 " .
فقول المنصور " أنا " كان رحمة محقَّقة ! وأما قول فرعون " أنا " فكان لعنة ، فتأمل ذلك ! فلا جرم أن كل طائر صاح في غير وقته ، يكون قطعُ رأسه واجبا ، (لضمان صدق) الاعلام .

....

(1) يقصد بقول : " انا " في غير وقتها ، قولها حين يُوكد الانسان ذاته ، ويظهر غروره . أما " أنا " التي تقال في وقتها ، فهي عند الصوفية قول " أنا " بعد أن يكون قائلها قد افنى ذاته في الله ، ولم يعد لذاته الانسانية وجود منفصل يستشعره أمام الخالق .

2525 فما قطعُ الرأس ؟ انه قتل النفس (الحيوانية) بالجهاد ، وترك القول بتأكيد الذات الانسانية .
فذلك مثل اقتلاعك الإبرة من العقرب ، حتى تظفر هذه بالنجاة من الموت .
وانك لتقتلع أنياب الثعبان المفعمة بالسموم حتى ينجو الثعبان من بلاء الرجم .
وليس يقتل النفس الحيوانية سوى ظل العارف ، فكن وثيق التعلق بأهداب قاتل النفس هذا ! فان أنت أحكمت التعلق به ، فذلك توفيق الله . وكل قوة تظهر بك ، فتلك اشعاع منه " 1 " .

2530 فكن على يقين صادق من قوله تعالى : " وما رميت إذ رميت " .
فكل ما تزرعه الروح يكون من روح الروح .
انه الآخذ باليد ، وهو حامل الأعباء . فكن في كل لحظة على أمل في تلقى الهامه .
ولا بأس عليك لو طال انتظارك إياه . فأنت قد سميته الممهل وكذلك الآخذ .
وانه ليتأخر في أخذك برحمته ، لكنه يحكم انزال الرحمة بك .
وحضوره يجعلك لا تغيب عنه لحظة واحدة .
وان كنت تريد شرحا لهذا الوصل والولاء ، فاقرأ - بتفكير ممعن - سورة " الضحى " .

....
(1) حرفيا : " فتلك من جذبه " .

2535 وان أنت قلت إن كل الشرور منه ، فمتى كان في ذلك نقصان لفضله ؟
فصنعه للشر يكون أيضا من كماله . وانى لذاكر لك مثالا ، أيها المفضال :
ان نقَّاشا قد نقش لونين من النقوش ، أحدهما صاف ، والآخر خال من الصفاء .
لقد نقش صورة يوسف ، والحور ذات الصور المليحة ، ونقش صورة العفاريت
والأبالسة القباح ! وكلا هذين اللونين من النقوش ناطق بأستاذيته . وليس ذلك القبح
قبحه ، بل إنه جوده !

2540 لقد جعل القبيح غاية في قبحه ، وقد أحاطت به كافة ألوان القبح ، حتى يتضح
كمال علمه ، ويحيق العار بمنكر أستاذيته .
ولو لم يعرف كيف يصنع القبح لكان ناقصا ! ولهذا السبب فإنه هو خلاق الكافر
والمخلص ! فالكفر والايمان - من هذا الوجه - شاهدان على ألوهيته ، وكلاهما له
ساجدان ! لكن المؤمن يكون ساجدا طوعا ، ذلك لأنه ملتمس رضى الله ساع اليه .

2545 وأما الكافر فيكون عابدا الله كرها ، لكن قصده يكون من أجل مُراد آخر .
انه يعمر قلعة السلطان ، لكنه يدعى الامارة فيها ! ولقد أصبح باغيا لتغدو القلعة ملكا
له ، لكن القلعة تعود - في النهاية - إلى السلطان ."

وأما المؤمن فإنه يعمر هذه القلعة من أجل المليك ، لا من أجل الجاه .
ان القبيح يقول : " أيها المليك الذي يخلق القبح ! انك قادر على خلق الجمال والقبح المهين !

2550 وأما الجميل فيقول : " يا مليك الحسن والبهاء ! لقد جعلتني نقيّا من العيوب " .

كيف وصى الرسول عليه السلام ذلك المريض وعلمه الدعاء

قال الرسول لذلك المريض : " ادع هكذا : يا من تجعل العسير يسيرا !
آتنا في دار دنيانا حسن * آتنا في دار عقبانا حسن " 1 "
واجعل طريقنا لطيفا مثل البستان . انك أنت مقصدنا ، أيها الكريم " .
ان المؤمنين يقولون يوم الحشر : " أيتها الملائكة ! ألم تكن النار طريقا مشتركا ؟

2555 أليس يجب أن يمرّ بها المؤمن والكافر ؟ انا لم نر في هذا الطريق دخانا ولا نارا ! ها هي ذي الجنة وبلاط الأمان ! فأين كان ذلك الممرّ الدنىء ؟ "

....
(1) هذا البيت عربى في الأصل ، ويتضمن اقتباسا من القرآن الكريم .
انظر : ، سورة البقرة ، 2 : 201 .

فيقول لهم الملائكة : " ان تلك الروضة المخضلة ، التي شاهد تموها في ذلك المكان أثناء عبوركم ، كانت هي الجحيم ، ومستقر العذاب الشديد ! ولقد أصبحت لكم حديقة وبستانا وشجرا ! ذلك لأنكم - إزاء هذه النفس الجهنمية الطباع ، هذه النارية الكافرة ، الباحثة عن الفتنة –

2560 قد بذلتم الجهود ، فأصبحت مفعمة بالصفاء ، وأطفأتم نارها في سبيل الله .
ونارُ الشهوة التي تقذف باللهب ، صارت - عندكم - روضة من التقوى ، ونور هداية !
ونار الغضب أيضا قد أصبحت عندكم حلما ! وظلمة الجهل كذلك قد أصبحت عندكم علما ! ونار الحرص قد صارت عندكم ايثارا ! وهذا الحسد كان مثل الشوك فصار بستان ورد ! فما دمتم أنتم قد بادرتم من قبل إلى اطفاء نيران أنفسكم ، في سبيل الله ،

2565 فقد جعلتم النفس النارية مثل البستان ، وغرستم بها بذور الوفاء ! وها هي ذي بلابل الذكر والتسبيح ، تصدق بالألحان العذبة في روضتها ، على شاطىء النهر !
انكم قد أجبتم داعى الحق ، فحملتم بذلك الماء إلى جحيم النفس .
وها هو ذا جحيمنا أيضا قد أصبح ازاءكم روضة وحديقة ورد ، وأوراقا وتغريدا ! "

فما مكافأة الاحسان يا بنىّ ؟ انها اللطف والاحسان والثواب المعتبر .

2570 ألستم أنتم الذين قلتم : “ ان (وجودنا الذاتي) ضحية مبذولة للخالق “ 1 “ ، ونحن الفانون أمام صفات البقاء ! ومهما نكن عقلاء أو مجانين ، فانا سكارى ذلك سكارى ذلك الساقي وتلك الكأس .
وانا لنحنى الرؤوس لا رادته ومشيئته . ونهبُ الأرواحَ الحلوة رهنا (لمحبته) .
فما دام خيال الحبيب نجىّ أسرارنا ، فدأبنا أن نكون خداما له ونقدم اليه أرواحنا “ .
فحيثما أُشعلت شمعة البلاء احترقت بها مائة ألف من أرواح العشاق .

2575 فالعاشقون الذين وصلوا إلى داخل الدار هم الفَراش لشمع وجه الحبيب .
أيها القلب ! توجه إلى حيث تُقابل بالاشراق ، إلى من يكونون لك كالمجن في مواجهة البلاء ! إلى من يفسحون لك مكانا في أرواحهم ، حتى يجعلوك مفعما بالحميًّا مثل الكأس ! ولتتخذ لك مقرا بين أرواحهم ! ألا فلتجعل الفلك منزلك ، أيها البدار المنير !

....

(1) ترجمنا الشطر الأول بشئ من التصرف .

ولسوف يفتحون أمامك دفتر القلب ، مثل عطارد ، حتى يكشفوا لك الأسرار .

2580 وحين تكون حائرا ، فالتحق بذويك . ولئن كنت قطعة من القمر فالتحق بالبدر .
فلماذا يكون للجزء اجتناب لكله ؟ وماذا يكون كل هذا الامتزاج بالمخالفين ؟
فتأمل كيف أصبح الجنس في مسيره أنواعا . وتأمل كيف أصبحت المغيَّبات بتجليها أعيانا .
فإلى متى تشترى الخداع كالنساء ، أيها الخالي من الرشد ؟
وكيف تتلقى المدد من الكذب والخداع ؟
انك لتأخذ الملق واللفظ الحلو والخداع ، وتضعها بجيبك كأنما هي ذهب !

2585 وان (تلقيك) الشتم والضرب من ملوك (الروح) لخير لك من ملق أهل الضلال ! فتقبل صفع هؤلاء الملوك ، ولا تقبل شَهد الأخسَّاء ، حتى يجعلك رجلا اقبالُ هؤلاء الرجال .
ذلك لأن الدولة والخلعة تجيئك من هؤلاء . فالجسد يغدو في كنف الروح روحا .
وحيثما رأيت عاريا جائعا ، فاعلم أنه قد هرب من الأستاذ ، حتى يغدو على ذلك النحو الذي يبتغيه قلبه ، ذلك القلب ، الكفيف الشرير الذي لا حاصل له !

2590 ولو أنه غدا على هذا النحو الذي أراده أستاذه ، لا زدانت بذلك

نفسه وغدا زينة لذويه ! فكل من يهرب من الأستاذ في الدنيا ، فاعلم أنه انما يهرب من السعادة ! لقد تعلمت حرفة يتكسب بها البدن فشمِّر عن ساعدك وتعلَّم حرفة دينية “ 1 “ .
انك قد غدوت في هذه الدنيا غنيا را فلا في الحلل ، فماذا أنت فاعل حين تخرج منها ؟ فتعلم الحرفة التي تعود عليك في الآخرة بدخل ، هو كسب المغفرة !

2595 فذلك العالم (الآخر) مدينة حافلة بالأسواق والكسب فلا تظن أن الكسب وقف على هذه الدنيا ! فالحق تعالى قال إن كسب الدنيا - أمام ذلك الكسب (الأخروى) - كلعب الأطفال .
انه كمعانقة طفل آخر ، يلتصق به التصاق المتحابين .
أو كالأطفال حينما يقيمون في لعبهم دكانا ، لا جدوى منه الا قضاء الوقت ! فإذا ما جاء المساء فان الطفل (صاحب الدكان) يعود إلى منزله جائعا ، وقد ذهب الأطفال وتركوه وحيدا .

2600 فهذه الدنيا ملعب ، والموت هو المساء . وأنت تعود منها خالى الكيس بالغ العناء .
وكسب الدين هو العشق ، والجذب الباطني . انه القابلية لتلقى نور الحق ، أيها الحرون .

....

(1) حرفيا : فادفع قبضتك إلى احدى الحرف الدينية .

وهذه النفس الخسيسة تريد لك الكسب الفاني ! فالأم تعمل لهذا الكسب الخسيس ؟ ألا فلتدعه ، كفاك ! ولو أن النفس الخسيسة التمست لك الكسب الشريف لكان لها من وراء ذلك حيلة ومكر !

كيف أيقظ إبليس معاوية رضي الله عنه قائلا :
“ قم ، فقد حان وقت الصلاة “

[بيان القصة]
لقد جاء في الخبر أن معاوية كان نائما في احدى زوايا القصر .

2605 وكان باب القصر مغلقا من الداخل ، ذلك لأنه كان متعبا من لقاء الناس . فأيقظه - على غير توقع منه - أحد الرجال . فلما فتح عينيه اختفى ذلك الرجل ! فحدث نفسه قائلا : “ انه لم يكن لأحد سبيل إلى القصر . فمن ذا الذي أظهر هذا التوقح والجرأة ! ودار في القصر منقبا حينذاك لعله يجد أثرا لذلك المختفي .
فرأى وراء الباب رجلا تعس الصورة كان يحجب وجهه بالباب والستار .

2610 فقال : “ يا هذا ، من أنت وما اسمك ؟ “ . فقال : “ ان اسمى - بصريح القول - إبليس الشقىّ ! “ فقال معاوية : “ فلماذا سعيت إلى ايقاظى ؟ ألا فلتقل الصدق ولا تخاطبني بعكس ذلك ، وضده .

كيف غش " 1 " إبليس معاوية وتظاهر بغير الحق
والتمس الذارئع وكيف اجابه معاوية

فقال إبليس : " ان ميقات الصلاة قد أو شك على الانتهاء . فيجب عليك أن تهرع مسرعا إلى المجسد ! فالمصطفى - حينما كان ينظم درر المعاني - قال : " عجلوا الطاعات قبل الفوت " .
فقال معاوية : " كلا ! كلا ! فليس يكون من مقاصدك أن تكون مرشدى إلى الخير .

2615 فلئن دخل لص مسكنى في الخفاء ثم قال لي : انى أقوم هنا بالحراسة ، فمن أين لي أن أصدق هذا اللص ؟ وأنى للص أن يعرف المثوبة ، وحسن الجزاء ؟ "

كيف عاد إبليس إلى جواب معاوية

فقال إبليس : " لقد كنت في بداية أمرى مَلكا . وما أكثر ما سلكت بالروح سبيل الطاعة ! لقد كنت أمين سر السالكين بهذا الطريق . كما أنني كنت رفيقا لسكان العرش !

....
(1) حرفيا : " كيف أوقع إبليس معاوية من فوق حماره " ، وهذا كناية عن الغش والخداع .

فكيف يخرج من قلب الانسان شغله الأول ؟ وكيف يفترق عن فؤاده أول حب ؟

2620 ولو أنك شهدت في سفرك بلاد الروم أن الخُتن ، فيكف يذهب من قلبك حب الوطن ؟
لقد كنت أنا أيضا من سكارى هذه الخمر ! وكنت في حضرته من العشاق ! وانني قد استقلبت الحياة على محبته كما أن عشقه كان قد غُرس في روحي ! ولقد لقيت من الزمان أياما طيبة ، كما أنني احتسيت مياه الرحمة ابان ربيعى .
ألم تكن يدُ فضله هي التي غرستنى ؟ أليس هو الذي قد أخرجني من العدم ؟

2625 وما أكثر ما كنت قد شهدت من ألطافه ! ولكم تجولت في بستان رضاه ! انه كان يضع فوق رأسي يد رحمته . وكم كان يُفيض ينابيع اللطف منى ! وفي وقت طفولتى ، حينما كنت رضيعا ، من ذا الذي كان يهزّ مهدى ؟ انه هو ! “ وأيان كان لي حليب أحتسيه غير حليبه ؟ ومن ذا الذي رعانى غير تدبيره ؟
وكيف يمكن أن تفصل عن المرء تلك الخليقة التي دخلت كيانه مع الحليب ؟

2630 فئلن كان بحر الكرم قد عاتبني ، فمتى كانت توصد أبواب كرمه ؟
فأصل نقده عطاء ولطف وسخاء ، وما القهر فوق أولئك الا كالغبار الدى يغشى النقد .
وهو قد خلق العالم من أجل اظهار لطفه . وشمسه هي التي لا طفلت بأشعتها الذرات .
فلئن كانت الفرقة عنه منطوية على قهره " 1 " ، فما ذلك الا لكي يعرف قدرُ وصله !
فان فراقه هو الذي يعرك أذن الروح ، وإذ ذاك تعرف قدر أيام الوصال .

2635 ولقد روى الرسول أن الخق تعالى قال : كان الاحسان هو قصدي من الخلق .
لقد خلقت الخلق لكي يفيدوا من نوالى ، لكي يغمسوا أيديهم في شهدى .
وليس لكي أفيد منهم ربحا ، أو لأتنزع من العاري قباء .
فهأنذا قد بقي بصرى متعلقا بوجهه الجميل ، خلال تلك الأيام القليلة التي أبعدت فيها .
فيا له من عجب أن يصدر مثل هذا القمر ، عن مثل هذا الوجه ! لقد أصبح كل انسان (من جراء هذا) مشغولا بالسبب !

2640 وانى لا أنظر إلى السبب فان ذلك السبب حادث ، والحادث يكون باعثا لحادث آخر .
وانما أنا أنظر إلى لطفه السابق . وأما ما هو حادث فانى أحطمه " 2 " .

....
(1) حرفيا : " حبلى بقهره " .
(2) حرفيا : " أشقه نصفين " .

فمع تسليمي بأن الامتناع عن السجود لآدم كان من جراء الحسد ، فان هذا الحسد قد انبعث من العشق لا من الجحود ! ومن اليقين أم كل حسد ينبعث من الحب ، فالمحب يخشى أن يغدو الغيرر جليسا للحبيب .
والغيرة الناضجة هي شريط المحبة ، كما اشترط قولك " طال عمرك " لمن عطس .

2645 انني لم يكن أمامى سوى هذه اللعبة فوق رقعة لعبه ، وقد أمرني بأن ألعب فماذا أعرف أكثر من ذلك ؟
فلعبت تلك اللعبة الوحيدة التي بقيت ، وبهذه ألقيت بنفسي في البلاء ! وانى - في البلاء أيضا - لأنهل من لذّاته ، وأنا أمامه المنهزم المخذول المقهور ! وكيف يستطيع المرء أن يخلص نفسه - أيها المفضال - في ست جهات من ستة أبواب ! وكيف يتخلص جزء الستة من كلها ، وبخاصة إذا كان الخالق - الذي لا شبيه له - قد جعله أعوج !

2650 فكل من كان داخل الستة ، فهو في داخل النار ، ولا مخلِّص له منها الا خالقها .
فلئن كان كفرا أو كان ايمانا ، فهو من نسج يد الحضرة وهو ملك لها " .

كيف عاد معاوية إلى تقرير مكر إبليس على مسمع منه

فقال الأمير : “ ان هذه أمور صحيحة ، ولكنك تفتقر إلى نصيب منها .
انك أغلقت السبيل أمام عشرات الآلاف من أمثالي ! لقد أحدثت حفرة تسللت منها إلى بيت المال ! فأنت النار والنفط ! وانك لتحرق ، ولا حيلة لك في ذلك ! ومن ذا الذي لم تمزيق يداك له ثيابه ؟

2655 فما دام الاحراق هو طبيعتك مثل النار ، فلا مناص لك من أن تحرق شيئا .
ان لعنة الله هي التي جعلتك تحرق ، وهي التي جلعتك أستاذا لكافة اللصوص .
لقد تحدثت إلى الله واستعمت منه وجها لوجه . فمن أكون أنا أمام مكرك أيها العدوّ !
فمعارفك هذه شبيهة بهصوت الصفير فهذا نداء للطير لكنه - (في الحقيقة) - شرك لها .
وصفيرك هذا قد أضل آلاف الطيور ، فكان كل منها ينخدع فيظن أن صديقا قد أقبل .

2660 فهو حين استمع في الهواء صوت الصفير ، نزل من الهواء فأصبح هنا أسيرا ! ان قوم نوح لفى نواح من جراء مكرك ! فأما قلوبهم فمحترقة ، وأما صدورهم فممزقة !

ولقد أسلمت عادا للريح في هذه الدنيا ، وألقيت بها إلى العذاب والأحزان .
ورجم قوم لوط بالحجارة كان من جرائك ! وبسببك أيضا غرقوا في المياة السواد !
ومن جرائك أيضا تبدد ذهن النمرود ، يا من أثرت الآلاف من الفتن !

2665 وعقل فرعون الذكيّ الفليسوف ، أصبح من جرائك أعمى ، ولم يجد إلى الفهم سبيلا ! وأنت الذي جعلت أبا لهب فاقد الأهلية . وأنت الذي غدا أبو الحكم - من جرائك - أبا جهل ! يا من قهرت - للذكرى - آلاف الأساتذة فوق هذا الشطرنج ! يا من بألعابك البارعة المستغلقة قد احترق القلوب ، واصطبغ بالسواد قلبك ! انك بحر المكر ، وما الخلائق الا قطرة ! بل انك أنت الجبل ، وما هؤلاء البسطاء الا ذرة !

2670 فمن ذا الذي ينجو من مكرك أيها الخصم ! اننا جميعا غريقو طوفانك ، الا من عصم .
فكم من نجم سعد قد جعلته محترقا ! وكم من جيش وكم من جمع غدا بك مشتتا مفترقا ! "

كيف عاد إبليس إلى جواب معاوية

فقال له إبليس : " ألا فلتحلّ هذه العقدة ! انني أنا المحك للنقد الزائف والصحيح !

فالحق هو الذي جعلني فيصلا بين الأسد والكلب . والحق هو الذي جعلني فيصلا بين صحيح النقد وزائفه .
ومتى كنت أنا الذي جعل الزائف أسود الوجه ؟ انني أنا الصيرفيّ الذي حدد قيمته .

2675 أنا الذي يظهر السبيل للطيبين . وأنا الذي يستأصل ذابل الأغصان .
فلماذا أضع أمام الخلق هذه الألوان من العلف ؟ لكي يتضح لي إلى أي جنس ينتمى الحيوان ! فلو أن ذئبة ولدت صغيرا لغزال ، ووقع الشك حول الصغير ، وهل ينتمى إلى الذئاب أو الغزلان ، فانثر أمامه أعشابا وعظاما ، ثم انظر إلى أي جانب يخطو مسرعا ! فلو أنه اتجه نحو العظام فهو كلب ! ولئن طلب العشب فهو ينتمى يقينا إلى الغزلان !

2680 ان القهر واللطف قد اقترن كل منهما بالآخر . فولد من كليهما عالم الخير والشر .
فلتقدم اللخلق الأعشاب والعظام ، ولتعرض عليهم قوت النفس وقوت الروح .
فمن طلب غذاء النفس فهو أبتر ، وأما من طلب غذاء الروح فهو سيد نبيل .
ومن سعى إلى خدمة الجسد فهو حمار ، ومن ذهب إلى بحر الروح ظفر بالجوهر .
ومع أن الخير والشر مختلفان فإنهما معا مشتغلان بعمل واحد .

2685 فالأنبياء يعرضون (على البشر) الطاعات وأما الأعداء فيعرضون عليهم الشهوات .
وكيف أجعل من الخير شريرا ؟ انني لست الها ان أنا الاداع ، ولست خالقا لهما .
وهل أجعل من الجميل قبيحا ؟ انني لست ربا . وما أنا الا مرآة للقبح والجمال .
ان الألم قد دفع الهندي إلى أن يحرق المرآة (مدعيا) أن هذه تظهر الرجل أسود الوجه ! ولقد خلقني الله كاشفا ، ناطقا بالصدق وذلك لأبين أين يكون القبيح ، وأين الجميل !

2690 انني لست الا شاهدا ، وأنى يليق السجن بالشاهد ؟ فلست أهلا للسجن والله شاهدي على ذلك ! فحيثما أبصر غصنا مثمرا ، فاننى أقوم برعايته كأنني الحاضن (المربى) .
وحيثما أرى شجرة مرة ذواية فاننى أقتلعها لكي يخلص المسك من البعر .
ان الشجرة الذابلة تقول للبستاني : " أيها الفتى ! لماذا تحتز رأسي بغير خطأ منى ؟ " فيجيبها البستاني قائلا : " الزمى الصمت أيتها الخسيسة الطبع ! أوليس ذبو لك جرما كافيا لك ؟ "

2695 فتقول الشجرة الذابلة : " انني مستقيمة ، ولست معوجة .
فلماذا تستأصل - بدون ذنب - جذورى ؟ "

فيجيبها البستاني قائلا : “ لو أنك كنت سعيدة الطالع ، فليتك كنت معوجة ، وكنت ندية (في الوقت ذاته) ! اذن لغدوت جاذبة لماء الحياة ولأصبحت مغمورة بهذا الماء ! ان بذرتك كانت خسيسة ، وكذلك أصلك ولم يكن لك ارتباط بشجرة طبيعته .
ولو أن غصنا مريرا وصل بآخر حلو ، لتسلك إلى طبيعته تلك الحلاوة “ .

كيف عنف معاوية إبليس

2700 فقال معاوية : “ حسبك جدالا يا قاطع الطريق . فلا سبيل لك الىّ ، فلا تنشد ذلك السبيل ! انك قاطع طريق ، وأنا غريب ، وتاجر . فكيف أشترى منك ما تحضره من ثياب ؟
فلا تدر حول متاعي بدافع من كفرك . فإنك لست تشترى متاع انسان .
فقاطع الطريق لا يكون مشتريا قط من انسان . ولو أنه اتخذ مظهر المشترى لكان ذلك مكرا وخداعا .
فما الذي يحمله الىّ في وعائه هذا الحسود ؟ يا الهى ! انك مغيثنا من هذا العدو !

2705 فهذا اللص لو تلا علىّ فصلا آخر (من خداعه) ، لسلب منى شعار ديني !

كيف شكا معاوية إبليس إلى الحق تعالى
والتمس منه النصرة

ان حديثه - يا الهى - مثل الدخان فخذ بيدي ، والا غدوت ملتحفا بالسواد .
انني لا أستطيع أن أطاول بالحجة إبليس ، ذلك لأنه فتنة كل شريف وكل خسيس .
فآدم - وهو أمير علم الأسماء - لا قوة له أمام هذا الكلب الذي ينقض كالبرق ! فقد أسقطه من الجنة إلى وجه الثرى . لقد وقع آدم من السماك في شخص إبليس كما تقع السمكة !

2710 وكان ينوح : “ انا ظلمنا أنفسنا “ ، فليس هناك حدّ لقصة الشيطان ، وخداعه .
ففي باطن كل حديث له شر ، وفيه مائة ألف سحر مضمر ! انه يربط رجولة الرجال في لحظة واحدة ، كما أنه يلهب بالهوس نفوس النساء والرجال ! فيا إبليس يا حارق الخلق ، يا طالب الفتنة ! لماذا أيقظتنى ؟
خبِّرنى بصدق ! “

عودة إبليس إلى تقرير خداعه

فقال إبليس : “ ان الرجل السىء الظن لا يستمع إلى الصدق ولو كانت له مائة علامة !

2715 فكل فؤاد أصبح متفكرا بالخيال ، يزداد خياله كلما أتيته بدليل !

فحينما يدخله الكلام يصير علة ، مثل يوسف الغازي حين يصبح سلاحا للسارق .
فمثل هذا يُرد عليه بالسكوت والسكون . ذلك لأن التحدث إلى فاقد العقل جنون ! فلماذا تضرع إلى الحق منى ، أيها الغرّ اضرع اليه من شر تلك النفس اللئيمة ! انك تأكل الحلوى ، فيتولد لك دُمل منها . وتغشاك الحمى ثم يختل طبعك .

2720 فتلعن إبليس بدون اثم ارتكبه . فيكف لا تبصر هذا الخداع في نفسك ؟
فليس من ذنب إبليس ، بل من ذنبك - أيها الغوىّ - أنك كالثعلب ، تعدو وراء أذناب الخراف الدسمة ! فحيثما رأيت بين الخضرة ذَنَبا ، أصبح لك شركا ، فلماذا لا تدرك هذا ؟
انك لا تدرى لأن ميلك لشحم الذنب قد أقصاك عن المعرفة ، وأعمى بصرك وبصيرتك .حبك الأشياء يعميك يصمّ * نفسك السواد جنت لا تختصم " 1 "

2725 فلا تطرح اثمك فوقى ، ولا تبصر الأمور معكوسة . فانى برئ من الشر والحرص والضغينة ! لقد اقترفت الاثم ، ولكنني الآن نادم . وانى لمنتظر أن ينبثق من ليلى النهار .

....

(1) هذا البيت عربى في الأصل .

لقد غدوت متهما بين الخلق ، فنسب الرجال والنساء اليّ أفعالهم ! فالذئب المسكين يكون جائعا ومع ذلك ، يتهم بالوفرة وازدهار الحال .
وحينما يجعله الضعف غير قادر على السير في الطريق ، يقول الخلق : انها التخمة من جراء دسم الطعام ! “

كيف عاود معاوية الالحاح على إبليس

2730 فقال معاوية : “ ليس سوى الصدق ما يخلصلك . ان العدالة تدعوك إلى (قول) الصدق .
فلتقل الصدق ، حتى تنجو من قبضتي . ان المكر لن يهدىء غبار قتالي ! “ فقال إبليس : “ وكيف تعرف الصدق من الكذب ، أيها المتفكر بالخيال ، المفهم بالأوهام !
“ فقال معاوية : “ ان الرسول قد أعطى علامة لذلك ، ووضع محكا لتمييز الرائف من الصحيح .
فقال (ما معناه) : ان الكذب ريبة في القلوب ، وأما الصدق فهو لها طمأنينة وبهجة “ 1 “ .

2735 فالقلب لا يستريح إلى كاذب القول . ان الماء والزيت لا يشعلان قط سراجا .

....

(1) روى عن الحسن بن علي أنه قال : “ دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فان الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة “ . (المنهج القوى ، ح 2 ، ص 542) .
ولم اعثر على نص الحديث الذي يشير اليه الشاعر .

وأما حديث الصدق ففيه راحة للقلب . فالحقائق هي الحَبُ في الشباك التي تأسر القلوب .
فالقلب الذي لا يميز بين طعم هذا وذاك هو حقا قلب مريض ، أو مرّ الفم ! وحينما يغدو القلب بريئا من المرض والعلة فإنه يصير عليما بطعم الكذب وطعم الصدق .
فآدم - عندما ازداد عنده الحرص على القمح - سلب ذلك منه سلامة القلب !

2740 فأصغى إلى كذبك وخداعك واغترّ بهما ، فشرب السم القاتل .
فلم يميز في تلك اللحظة بين العقرب والسنبلة فالتمييزُ يطير ممن سكر بالهوس .
وان الخلق لسكارى بالأمل والهوى ، ولهذا يكونون متقبلين لخداعك ! فكل من خلص نفسه من مثل الهوى ، فقد جعل عينه أليفة للأسرار .

كيف شكا القاضي من آفة القضاء وكيف اجابه نائبه

ولِّيَ أحد القضاة ، فأخذه في البكاء ! فقال نائبه : “ أيها القاضي ! لماذا تبكى ؟

2745 فليس هذا وقت بكائك وانتحابك . انه وقت سرورك وتلقيك التهاني ! “

فقال القاضي : " أواه كيف يسوق الحكم - بلا قلب - جاهل يحكم بين عالمين ! فكل من هذين المختصمين واقف على حقيقة حاله . فما الذي يعرفه القاضي المسكين عن هاتين العقدتين ؟
انه جاهل بحال كل من المتنازعين ، غافل عنه ، فكيف يتقدم للحكم في دمائهما ومالهما ؟ " فقال النائب : " ان الخصيمن عالمان ، لكنهما معتلان ! وأما أنت فجاهل ولكنك نور الملة !

2750 ذلك لأنك لا تقف في سبيلك علة وهذه البراءة من العلة نور للعينين ! وأما هذان العالمان فقد أعماهما الغرض . فالعلة قد ذهبت بعلمهما إلى القبر ! فالبراءة من العلة تجعل الجهل علما ! والعلة تجعل العلم معوجا ظالما ! فما دمت لا تأخذ الرشوة فأنت بصير ! فإذا مارست الطمع ، فأنت ضرير مستعبد ! وانى قد انحرفت بخلقى عن الهوى ، وأقللت من تناول لقم الشهوات .

2755 فأصبحت حاسة التذوق القلبي عندي مقترنة بالنور ، فهي تميز بحق بين الصدق والكذب " .

كيف حمل معاوية إبليس على الإقرار

“ لماذا أيقظتنى ؟ انك عدوّ لليقظة أيها المخادع ! انك مثل الخشخاش تجلب النوم للجيمع ! بل انك مثل الخمر ، تذهب بالعقل والمعرفة ! هأنذا قد صلبتك فحذار ، ولتقل الصدق . انني أعرف الحقيقة فلا تلتمس الحيلة ! انى لا أتوقع من انسان الا ما يكون عنده ، في طبعه ، وخليقته .

2760 فأنا لا ألتمس السكَّر من الخل ! أنا لا آخذ المخِّنث ليكون جنديا ! ولست كالكفَّار ، أنشد من الصنم أن يكون الها ، أو أن يكون آية من الله .
كما أنني لا أطلب من البعر رائحة المسك ، ولا التمس اللبنة الجافة من ماء النهر .
(ولهذا) فاننى لا أتوقع من الشيطان - وهو العدو المخالف - أنه يوقظنى للخير “ .

كيف افصح إبليس من مكنون فكره لمعاوية

لقد نطق إبليس بكثير من المكر والغدو لكن الأمير لم يستمع اليه ، واعتصم بالمقاومة والصبر .

2765 فنطق الشيطان من تحت أسنانه ، قائلا : فلتعلم - يا فلان - أنني أيقظتك من أجل ذلك :

حتى تلتحق بالجماعة في الصلاة وراء النبي ، صاحب المقام العالي .
فلو أنك ذهبت الصلاة بعد فوات وقتها ، لأصبحت هذه الدنيا أمامك مظلمة معدومة الضياء ، ولكانت دموع الأسى والألم تنهمر من عينيك كالماء من القرب وكل انسان استشعر مذاقا للطاعة ، فمن اليقين أنه لا يصبر عنها ساعة .

2770 ومثل هذا الأسى والألم يعدلان مائة صلاة . وأين الصلاة من نور تلك الضراعة ! "

فضيلة تحسر أحد الأتقياء على فوت صلاة الجماعة

كان رجل يدخل إلى المسجد على حين أن الناس كانوا يخرجون منه .
فأخذ يسأل الناس قائلا : " ماذا كان من أمر الجماعة ، حتى أن الناس يخرجون منها بهذه السرعة ! فقال له أحد المصلين : " ان الرسول قد أدّى - مع الجماعة - الصلاة ، وفرغ من أسرارها .
فإلى أين أنت ذاهب - أيها الرجل الغر - ما دام الرسول قد ختم الصلاة ؟ "

2775 فانطلقت منه آهة تصاعد منها الدخان . وحملت هذه الآهة رائحة من دم قلبه .

فقال له رجل من الجمع : " هبني تلك الآهة ، وصلاتي لك ! " فقال : " وهبتها لك وقبلت الصلاة ! " . وأخذ الرجل تلك الآهة (مقترنة) بمائة ضراعة .
وفي الليل قال له هاتف في علي المنام : " انك اشتريت ماء الحياة ، وشفاء (الروح) ! " فبحرمة هذا الاختيار وهذا الدخول قُبلت صلاة كافة الخلق ! " .

تتمة اقرار إبليس بمكره لمعاوية

2780 ثم قال عزازيل " 1 " لمعاوية : " أيها الأمير النبيل : لا بد أن أبوح لك بمكرى :
فلو أن الصلاة فاتتك في ذلك الحين ، لأطلقت من ألم القلب الآهات والضراعة ، ولكان هذا الأسف وذاك الأسى وتلك الضراعة تفوق مائتي ذكر وصلاة .
وانى قد أيقظتك خشية أن تحرق مثل هذه الآهة " 2 " الحجاب ، ولكي لا تكون لك مثل هذه الآهة ، ولا يكون لك سبيل إليها .

2785 انني حسود والحسد كان دافعى إلى هذا ! انني عدوّ ، ولا فعل إلى الا المكر والبغضاء ! "

....
(1) عزازيل هو اسم إبليس قبل سقوطه .
(2) " مثل هذه الآهة " يعنى آهة شبيهة بتلك التي انطلقت من قلب المؤمن الذي فاتته الصلاة . (انظر الأبيات 2775 - 2779) .

فقال معاوية : “ لقد بحث بالحقيقة الآن ، فأنت صادق ! فمثل هذا الخداع يجئ منك ، فأنت قمين به ! فأنت عنكبوت ، وصيدك هو الذباب ! وأنا لست ذبابة - أيها الكلب - فلا تضايقنى ! انني باز أبيض ، لا يصيدنى الا المليك ! فكيف ينسج العنكبوت حولى شباكه ؟
فاذهب ، وأمسك من الذباب ما استطعت . وادع الذباب إلى تناول اللبن المخيض .

2790 ولئن أنت دعوته إلى العسل ، فذلك كذب ، وما هو في الحقيقة الا المخيض .
لقد أيقظتنى فكانت اليقظة نوما ! وأظهرت لي سفينة وتلك في الحقيقة دوّامة ! ولقد دعوتني إلى خير ، وذلك لتدفعنى بعيدا عن خير أفضل منه ! “

كيف أفلت اللص لأن رجلا نادى صاحب المنزل بعد ان اقترب من اللص وكاد يلحق به ويقبض عليه

وان ذلك لشبيه (بقصة) ذلك الشخص الذي رأى في المنزل لصا ، فجرى وراءه .
لقد جرى وراءه ميدانين أو ثلاثة ميادين ، حتى سال عَرَقُه من جراء ذلك التعب “ 1 “ .

....
(1) حرفيا : “ حتى رماه في العرق ذلك التعب “ .

2795 وحينما اقترب بهذا الجهد من اللص ، وأو شك على اللحاق به بقفزة واحدة ، هتف به لص آخر قائلا : " أقبل حتى تشاهد عدمات البلاء تلك ! أسرع بالعودة أيها الرجل الهمام ، حتى ترى كيف ساءت هاهنا الأحوال ! " فحدث الرجل نفسه قائلا : " لعل في ذلك الجانب لصا (آخر) .
فإن لم أسارع بالعودة ، فقد يتهجم عليّ ! ولربما اعتدى على زوجتي وابني ، فأية فائدة تعود على من القبض على هذا اللص (الذي أطارده) .

2800 فهذا المسلم قد تكرم بمناداتى ، فلئن لم أرجع فسوف يحيق بي البلاء ! " فعلى رجاء من شفقة ذلك الرجل الخيِّر ، ترك اللص ، وتراجع على الطريق .
وخاطبه قائلا : " ما هذه الأحوال ، أيها الصديق الطيب ؟ وأي دافع قد دفعك إلى هذا الصياح والصراخ ؟ " فأجابه قائلا : " انظر ، ها هي ذي آثار قدمي اللص ! لقد مضى من هذا الجانب ذلك اللص الخسيس ! ها هي ذي علامات قدمي اللص الفاجر . فامض وراءه مقتفيا هذه العلائم والآثار ! "

2805 فقال (صاحب الدار) : " ماذا تقول لي أيها الأبله ؟ انني قد كنت على وشك الامساك به ! وان صياحك هو الذي جعلني أترك اللص ! لقد حسبت حمارا مثلك انسانها !

فما هذا الهراء والهذيان ، أيها الرجل ؟ لقد وجدت الحقيقة ، فماذا تكون العلامة ؟
" فقال الرجل : " انى أعطيك علامة للحقيقة . فهذه هي العلامة وأنا عارف بالحقيقة " .
فقال (صاحب الدار) : " اما أنك عابث أو أبله ! أم لعلك لص ، وعلى علم بتلك الحال !

2810 لقد كانت أن أجر خصمي جرا ، وأنت الذي خلصته (لتقول لي) : " انظر ، ها هي ذي علاماته ! " انك تقول بالجهات ، أما أنا فقد تحررت من الجهات ! وهل في الوصال مكان للآيات والبينات ؟
فمن خفيت عليه الصفات يرى الصنع . وكذلك يتعلق بالصفات من أضاع الذات .
وحينما يكون الواصلون غارقين في الذات ، فكيف يتوجهون بنظرهم إلى الصفات ؟
وإذا ما أصبح رأسك في قاع النهر ، فكيف يقع بصرك على لون الماء ؟

2815 وان أنت عدت من قاع النهر إلى لون الماء ، كنت كمن أخذ ثوبا خشنا لقاء فراء ! ان الطاعة عند العوام هي الاثم عند الخواص ! وما يكون وصالا عند العوام ، فهو عند الخواص حجاب ! فلو أن الملك جعل الوزير محتسبا ، لكان الملك عدوّا له ، لا صديقا .

ولربما كان هذا الوزير قد ارتكب اثما . فهذا التغير لا بدّ له من سبب .
فمن كان في أول . أمره محتسبا ، فان هذا المنصب يكون له - من البداية - سعدا ورزقا .

2820 أما من كان في بداية أمره وزيرا للملك ، فجعلهُ محتسبا لا يكون الا من سوء فعله .
فحينما يدعوك الملك من عتبة الباب إلى حضرته ، ثم يعود فيدفعك إلى الباب ، فاعلم يقينا أنك قد ارتكبت جرما ، وأنك قد جعلت (هذا الابعاد) - بجهلك - أمرا محتَّما !
(وانك لتقول) : " ان هذا قد كان لي قسمة ونصيبا ! " ، فلماذا اذن كان هذا الاقبال الأمس في يديك ؟
انك أنت الذي قطعت نصيبك بجهلك ! أما الرجل الكفء فهو الذي يضاعف نصيبه !

قصة المنافقين وبنائهم مسجد الضرار

[بيان القصة]

2825 وهاك مثالا آخر على العوج ، ان كنت ممن يستمعون إلى ما رواه القرآن " 1 " .
ان أهل النفاق قد لعبوا مثل هذه اللعبة المعوجة ، بصورة أو بأخرى " 2 " ، ضد الرسول .

....
(1) سورة التوبة ، 9 : 107 - 108 .
(2) حرفيا : " لعبوا هذه اللعبة بالمفرد والمزدوج " .

قائلين : “ اننا سنبنى مسجدا لاعزاز الذين المحمدىّ **!** “ وما كان ذلك الا ارتدادا **!** لقد كانوا يلعبون مثل هذه اللعبة المعوجة ، فبنوا مسجدا إلى جانب مسجده “ 1 “ .
وزينوا أرضه وسقفه وقبته لكنهم أرادوا بذلك تفريق الجماعة .

2830 وأقبلوا على الرسول ضارعين ، وركعوا أمامه كما تبرك الجمال ، وقالوا :
“ يا رسول الله **!** هل تُجشِّم قدميك المسير إلى هذا المسجد كرما واحسانا ؟
وذلك ليغدو مباركا بقدومك اليه ، جعل الله أيامك مزدهرة حتى القيامة **!** انه مسجد من أجل اليوم الوحل واليوم المطير . انه مسجد ليوم الشدة وزمان الفقر .
وذلك ليجد الغريب فيه خيرا ومأوى ، وليغدو بيت العبادة هذا عامرا (بالقاصدين) **!**

2835 وحينذاك تنتشر شعائر الدين وتشيع . وان صحبة الاخوان لتجعل المرّ حلوا **!**
فلتشرف ذلك المكان ساعة من الزمان ، ولتكن مزكيّا لنا ، معرفا بنا **!** ولتكرم المسجد وأصحاب المسجد . انك أنت البدر ونحن الدجى .
فاجعل لنا معك برهة من الوقت ،

....
(1) مسجد الرسول المقصود هنا هو مسجد قباء ، وقباء قرية بجوار المدينة .

حتى يغدو ليلنا نهارا بجمالك ، يا من جمالك مثل الشمس التي تضئ الظلام ! " فوا أسفاه أن هذه الكلمات لم تكن من القلب ، والا لكانت مدعاة لتحقيق الأمل لهؤلاء الناس !

2840 فاللطف ، الذي ينطق به اللسان - بدون اخلاص من القلب والروح - شبيه بالخضرة فوق رماد المواقد ، أيها الأصدقاء ! فانظر إليها من بعيد ثم تجاوزها .
فليست مثل هذه الخضرة - يا بنى - صالحة لان تؤكل أو تُشمّ .
فأضع اليّ ! لا تتوجه بنفسك نحو لطف من تجردوا من الوفاء ، فما ذلك الا جسر مهدم ! فلو أن جاهلا وضع قدمه فوق هذا الجسر ، لا نكسر الجسر وانكسرت أيضا تلك القدم .
وحيثما وقعت الهزيمة بأحد الجيوش كان ذلك من جراء اثنين أو ثلاثة من المخنثين الضعفاء !

2845 فالواحد منهم يدخل الصف كالرجل مدججا بالسلاح ، فتتعلق به القلوب قائلة : " ها هوذا رفيق الغار ! " لكنه يدير وجهه إذا ما أبصر الجراح ، فيحطم بهذا الفرار " 1 " ظهرك ! ان هذا الحديث لطويل وقابل للإطالة ، ولسوف يؤدى إلى خفاء مقصودنا .

....

(1) حرفيا : الذهاب .

كيف خادع المنافقون الرسول عليه السلام
حتى يأخذوه إلى مسجد الضرار

لقد ترنموا بخداعهم على مسمع الرسول الحق ، وأخذوا يسوقون أمامه فرس الغش والرياء .
أما الرسول المحب الرحيم فلم يكن منه سوى التبسم واعلان القبول .

2850 لقد باح بالشكر لتلك الجماعة ، وأسعد هؤلاء القصاد باستجابته لهم .
وكان مكرهم ظاهرا أمامه بكل تفصيلاته كما يتجلى الشعر في الحليب ! لكن هذا الرسول اللطيف تجاهل رؤية الشعر ، ثم تلطف فباح بالثناء على الحليب ! لقد رأى آلافا من شعر المكر والخداع ، لكنه - حينذاك - أغلق عينيه عنها جميعا ! ولقد صدق بحر الكرم هذا حين قال : انني أكثر اشفاقا عليكم من أنفسكم .

2855 فلقد جلست على حافة نار ذات أوار ولهب بالغ الايذاء ، وغدوتم أنتم مندفعين نحوها كالفراش على حين أن يدىّ تذودانكم عنها ! وحينما استقر الأمر على أن يذهب الرسول “ 1 “ ، هتفت به غيرة الحق (قائلة) : لا تستمع إلى نداء الغول !

....
(1) عاد الشاعر هنا إلى رواية قصة “ مسجد الضرار “ .

فهؤلاء الخبيثون قد اصطنعوا الحيلة والمكر ، فكل ما جاءوا به فهو على عكس (ظاهره) ! وما كان لهم من قصد سوى سواد الوجه ، والا فمتى أراد النصارى واليهود خيرا لدينك ؟

2860 لقد بنوا مسجدا على جسر النار . (وأرادوا) أن يلعبوا مع الله نرد الخداع ! لقد كان قصدهم أن يفرقوا أصحاب الرسول . ومتى كان كل فضوليّ يعرف فضل الحق ؟
وأن يجلبوا (للمسجد) يهوديا من الشام كان هؤلاء اليهود يطربون لوعظه .
لقد قال الرسول : “ نعم لكننا الآن على أهبة السفر معتزمين الغزو ، فحينما أعود من السفر فاننى سوف أسارع بالتوجه إلى ذلك المسجد “ .

2865 لقد دفعهم عنه ثم سارع إلى الغزو ، ولعب لعبة المكر مع الماكرين ! وحينما رجع من الغزو ، عادوا اليه ، وطالبوه بانجاز سابق وعده .
فقال له الحق : “ أيها الرسول ! اكشف غدرهم . ولئن شبّت الحرب (من جراء ذلك) فادع إليها ! “ فقال الرسول : “ ألا فلتسكتوا أيها القوم المخادعون ! الزموا الصمت والا أذعت أسراركم ! “ فلما كشف الرسول عن المحات قليلة من أسرارهم ، ساءت أحوالهم .

2870 فارتد عنه القصاد حينذاك هاتفين : “ حاش لله ، حاش لله ! “

2870 وجاء كل منافق إلى الرسول مخادعا ، وقد تأبط مصحفا ، وذلك ليقسموا عليها الأيمان ، فالأيمان جُنة " 1 " ! ان الأيمان لهى سنة للأشرار ! فما دام الرجل الشرير لا وفاء له في الدين ، فإنه يحنث بقسمه في كل لحظة .
وأما أهل الصلاح فلا حاجة لهم إلى القسم ، ذلك لأن (كلا منهم) قد أشرقت عيناه بالنور .

2875 فنقض المواثيق والعهود مبعثه الحماقة ، وأما حفظ الأيمان والوفاء بها فهو شيمة الأتقياء .
لقد قال الرسول : " هل أثق بأيمانكم أم أثق بعهد الله ؟ " لكن هؤلاء القوم عادوا فأقسموا قسما آخر ، وكان المصحف في أيديهم ، وخاتم الصوم على شفاههم ، قائلين : بحق هذا الكلام الطاهر الصادق ، ان بناء هذا المسجد انما هو من أجل الله ! وليس فيه قط من حلية ماكرة ! بل إنه ينطوى على الذكر والصدق ودعاء الله !

2880 فقال الرسول : " ان صوت الحق يرن في أذني مثل الصدى .
ولقد ختم الله على آذانكم حتى لا تبادر إلى سماع صوت الحق .
ها هوذا صوت الحق يصل اليّ صريحا ، كصافى الشراب الذي برئ من الكدر ،

....
(1) انظر : (سورة المجادلة ، 58 : 16) ، (سورة المنافقون ، 63 : 2) .

كما سمع موسى صوت الحق من جانب الشجرة يناديه : أيها السعيد الطالع ! لقد سمع من الشجرة نداء :” إِنِّي أَنَا اللَّهُ “” 1 “ ، وتجلِّت له الأنوار مع هذا الكلام !

2885 فحينما عجز هؤلاء المنافقون أمام نور الوحي ، عادوا من جديد إلى اللغو بالأيمان .
ولما كان الحق يسمى القسم جُنة “ 2 “ ، فيكف يطرح المعاند المجن من يده ؟
ولهذا فان الرسول قد واجههم بتكذيب صريح ، وأفصح لهم يقوله : “ قد كذبتهم ! “

كيف تفكر أحد الصحابة رضي الله عنهم منكرا على الرسول انه لم يتستر عليهم

ولقد كان أن واحدا من أصحاب الرسول ، أنه بقلبه ذلك الردع (للمنافقين) .
فحدث نفسه : “ أيدمغ هذا الرسول بالعار مثل هؤلاء الشيوخ ذوى الشيب والوقار ؟

2890 فأين الكرم ، وأين الستر ، وأين الحياء ؟ ان الأنبياء ليسترون الآلاف من العيوب ! “

....
(1) انظر : سورة القصص ، 28 : 30 .
(2) انظر البيت 2872 وشرحه .

لكنه عاد فسارع إلى الاستغفار بقلبه ، حتى لا يصفر وجهه من جراء هذا الاعتراض ! وان شؤم صحبة أهل النفاق ، ليجعل المؤمن مثلهم قبيحا عاقا .
فعاد إلى الضراعة قائلا : " يا علام السر . لا تتركني مصرا على الكفران ! ان قلبي ليس - مثل عينىّ - طوع يدي ! ولولا هذا لأحرقت الآن هذا القلب بغضبى ! "

2895 وبينما هو في هذا التفكر غلبه النوم ، فبدا له مسجد هؤلاء ممتلئا بالبعر . بناء خربا تلوثت أحجاره بالأقذار وكان الدخان الأسود يتصاعد من تلك الأحجار ! ونفذ الدخان إلى حلقه فغص به . وأفزعه الدخان المرّ فهب من سباته ! فخرّ على الفور ساجدا ، وهو يبكى ، (قائلا) : ان هذه علامات الانكار ! فالغضب عليهم - يا الهى - خير من مثل هذا الحلم الذي يحجبنى عن نور الايمان !

2900 فلو أنك شققت اجتهاد أهل المجاز لوجدته كالبصَلَة مكونا من طبقات (متراصة) من النتن ! وكل واحد منهم أوهى لبا من الآخر ! وأما الصادقون فكل منهم أعمق ادراكا من الآخر ! فهؤلاء القوم قد شمروا جميعا عن ساعد الجد ، وذلك ليهدموا

مسجد قباء “ 1 “ فهم كأصحاب الفيل من بلاد الحبش ، الذين بنوا كعبة فأضرمها الحق بالنيران .
فتوجهوا إلى الكعبة قاصدين الانتقام . فاقرأ (ما جاء) عن مآلهم في كلام الله “ 2 “ .

2905 فهؤلاء الذين اسودات بدينهم وجوههم ليست لهم عُدة سوى الحيلة والمكر والضغينة **!** فكل صحابي رأى (في منامه) من عيان ذلك المسجد ، ما جعل سرّه يصبح - عند الصحابة يقينا **!** ولو أنني قصصت وقائع ذلك واحدة واحدة ، لتيقن أهل الشك من صفاء (هؤلاء الصحابة) .
لكنني أتهيَّب كشف أسرارهم . فهم المدللون الذين يليق بهم الدلال **!** وهم الذين تلقوا الشرع بدون تقليد . وهم الذين تقبلوا هذا النقد ، من غير (حاجة إلى) محك **!**

2910 فكأنما حكمة القرآن ضالة المؤمن وكأنما كل منهم على يقين من ضالته **!**

....
(1) حرفيا : “ فهؤلاء القوم قد عقد كل منهم على قبائه مائة حزام “ ، وعقد الحزام على القباء كناية عن الجد في العمل .
(2) وفي البيت جناس بين كلمتي قبا (بكسر القاف) وقبا (بضمها) . وقباء (بضم القاف) اسم قرية بجوار المدينة اشتهرت بتوقف الرسول بها في طريق هجرته ، وكذلك بمسجدها الذي بنى في عهد الرسول . سورة الفيل .

قصة ذلك الشخص الذي كان يبحث عن جمله الضال ويسال عنه

لئن كنت تبحث بجد عن جمل أضعته ، فكيف لا تعرف - حين تجده - أنه لك ؟
فما الضالة ؟ انها ناقة قد أضعتَها فهربت من يدك ، إلى مكان خفيّ .
فالقافلة قد بدأت تضع الأحمال فوق الجمال ، على حين أن جملك قد اختفي من بينها .
فها أنت ذا تجرى في هذه الناحية ، وذلك الجانب ، وقد جفت شفتاك ، على حين أن القافلة قد أصبحت بعيدة والليل قد اقترب .

2915 وقد بقي متاعك على الأرض في طريق الخوف ، وأنت تجرى وتدور باحثا عن الجمل .
تقول : “ أيها المسلمون ! من ذا الذي رأى جملا هرب في هذا الصباح من الحظيرة ؟
فكل من أدلى الىّ ببينة عن جملي ، جزيت بشارته بكثير من الدراهم “ .
وانك لتعود فتلتمس من كل انسان إشارة ، فيهزأ بك - من جراء هذا - كل خسيس !
(قائلين) : “ لقد رأينا جملا يمضى نحو تلك الناحية ، رأينا جملا أحمر يتجه نحو ذلك المرعى “ .

2920 وهذا يقول : انه كان مبتور الأذن ! وذاك يقول : انه كان مزركش السرج .

وآخر يقول : انه كان جملا أعور ، على حين أن سواه يقول : لقد كان أجرب مجردا من الوبر .
فإذا بكل خسيس قد أدلى - من أجل المكافأة - بمائة - بيان جزافا !

التردد بين المذاهب المختلفة وايجاد مخرج وطريقة للخلاص من ذلك

فهكذا شأن الناس بالنسبة للمعرفة ، فكل منهم يصف الموصوف الغيبىّ بإحدى الصفات .
فهذا متفلسف يدلى بشرح من نوع آخر ، فيجرّحُ أحدُ الباحثين مقاله .

2925 وثالث يطعن فيهما معا ، ورابع يكاد يُسلم الروح نفاقا .
فكل منهم يدلى بعلامات لذلك الطريق حتى يُظن أنهم ينتمون إلى تلك القرية ! فلتعلم هذه الحقيقة : ان هؤلاء جميعا ليسوا على حق ! كما أن هذا القطيع ليس ضالا من كل الوجوه ! ذلك لأنه بدون الحق لا يتضح الباطل . فرائحة الذهب هي التي أغرت الأبله بزائف النقد " 1 " .
فلو لم يكن النقد الصحيح منتشرا في الدنيا ، فهل كان يمكن اصدار النقد الزائف ؟

....
(1) حرفيا : " فالأبله قد اشترى زائف النقد على رائحة الذهب " ، اى أنه اشتراه على أمل أن يكون نقدا من الذهب الخالص .

2930 ولو لم يوجد الصدق فهل كان يوجد الكذب ؟ فهذا الكذب يتلقى من الصدق نورا (يكشفه) .
ان الأعوج يُشترى على أمل في السوىّ . والسم يوضع في السكر ، وحينذاك يؤكل .
فلو لم يوجد القمح المحبوب اللذيذ ، فماذا كان يجنى بائع الشعير الذي يدعى أنه قمح ؟
فلا تقل ان جملة هذه الأقوال باطلة ، فأهل الباطل هم الأحابيل التي تصيد القلب برائحة الحق ! ولا تقل ان كل هذا خيال وضلال ، فليس في العالم خيال بدون حقيقة .

2935 فحقيقة ليلة القدر قد احتجبت بين اليالى ، حتى تلتمسها الروح في كل ليلة .
فليست كل الليالي هي ليلة القدر ، أيها الفتى ، كما أن كل الليالي لا تخلو من تلك الليلة .
وبين لا بسى الدلق لا بد من فقير واحد ، ففتش عنه ، ومن وجدته صادقا فتقبله ! فأين المؤمن ، صاحب الكياسة والتمييز ، الذي يعرف كيف يميز بين الرجل وبين المخنثين ! ولو لم تكن في هذه الدنيا سلع معيبة ، لكان (ميسورا) لجيمع البُله أن يصبحوا تجارا !

2940 ولكان تقويم البضائع أمرا بالغ اليسر . فحينما لا يوجد العيب ، فما الفرق بين القادر (على التقويم) والعاجز عنه ؟

ولو كان كل شئ معيبا فلا جدوى من المعرفة ، فما دام كل ما هنالك خشب فلن يوجد العود ! فمن يقل ان جملة الأحوال حق فهو أحمق ! ومن يقل ان جملتها باطل فهو شقيّ ! فالأنبياء بتجارتهم قد حققوا الأرباح وأما تجار الألوان والروائح فهم عمى تعساء ! فالثعبان يظهر في أعينهم مالا ! ألا فلتمسح جيدا كلتا عينيك !

2945 ولا تنظر إلى سرورك بهذا البيع والربح ، بل انظر إلى خسران فرعون وثمود !

حول امتحان كل شئ حتى يظهر ما فيه من خير وشر

ان السماء وهي ذات الرونق والجلال ، قال بشأنها الحق :" ثُمَّ ارْجِع الْبَصَرَ "" 1 " .
ولا تقنع بنظرة واحدة من هذا السقف الميز ، بل انظر مرات ،" هَلْ تَرى منْ فُطُورٍ "" 2 " .
وما دام قد أمرك بأن تنظر مرات إلى هذا السقف المضئ نظر الرجل الباحث عن العيوب ، شفقد علمت كم يجب أن يُوجَّه إلى تلك الأرض المظلمة من التأمل والتمييز ، لتكون جديرة بالاعجاب !

....
(1) انظر : سورة الملك ، 67 : 3 .
(2) انظر : سورة الملك ، 67 : 4 .

2950 وكم يجب على عقولنا أن تتحمل من عناء لكي نستخلص أهل الصفاء من بين الكدر ! ان تجربه الشتاء والخريف ، وحرارة الصيف ، والربيع الشبيه بالروح ، والرياح والسحب والبروق ، كلها جاءت لتظهر عوارض الفروق ، لتخرج الأرض ، الترابية اللون كلَّ ما حملته في جيبها من ياقوت وأحجار .
فكلُّ ما سرقته هذه الأرض المظلمة من خزانة الحق ، ومن بحر الكرم ،

2955 (يسألها عنه) شرط التقدير قائلين : “ قولي الصدق واذكري ما أخذته ذرة ذرة “ 1 “ ! “ فيقول اللص ، يعنى الأرض : “ لا شئ قط “ ، فيأخذ الحاكم في تعذيبها .
فحينا يخاطبها الحاكم بقول لطيف كالسكر وتارة يعلقها في الهواء ويسومها كل ما هو أسوأ من ذلك ، حتى تظهر بين القمر واللطف تلك الخفايا ، بفعل نار الخوف والرجاء ! فهذا الربيع هو لطف الحاكم ذي الكبرياء ، وأما الخريف فهو تخويف الله وتهديده .

2960 وأما الشتاء فهو صليب معنوي ، حتى تكشف عن نفسك أيها اللص الخفيّ !

....

(1) حرفيا : شعرة شعرة .

وكذلك يكون للمجاهد زمان لا نبساط القلب ، وزمان للقبض والألم والغش والضغينة .
ذلك لأن أبداننا المفطورة من الماء والطين ، منكرة سارقة نور أرواحنا ! والحق تعالى يلقى على أجسادنا الحر والبرد والألم والعناء أيها الرجل الشجاع .
فالخوف والجوع والنقص في الأموال والبدن كلها من أجل اظهار جوهر الروح !

2965 لقد أطلق هذا الوعد وذاك الوعيد ، من أجل الخير والشر اللذين قد امتزجا باذنه .
فما دام الحق والباطل قد امتزجا ، والنقد الصحيح قد امتزج بالنقد الزائف في جعبة واحدة ، فلا بد لهما من محك أحسن اختياره ، ومشهود في امتحان الحقائق ، حتى يكون فيصلا إزاء كل مظاهر الزيف ، ويكون دستورا لتلك التدبيرات .
فيا أم موسى ، أرضعيه ثم ألقيه في اليم ولا تخافي عليه من البلاء !

2970 فكل من شرب من هذا الحليب في يوم : " ألست " ، يستطيع تمييز الحليب ، كموسى (في طفولته) " 1 " .
فان كنت حريصا على اعطاء طفلك التمييز فاغذه الآن بالحليب ، كما فعلت أم موسى " 2 " ،

....
(1) رفض موسى حليب المرضعات ، وعرف حليب أمه ، كما ورد في قصته بعد أن التقطه آل فرعون . حرفيا :
(2) " فأرضعيه الآن يا أم موسى " .
وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى : " وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه " .
الآية : سورة القصص ، 28 : 7 .

حتى يعرف حليب أمه منذ البداية ، ولا ينخفض رأسه سعيا إلى مربية خسيسة .

شرح الفائدة من حكاية ذلك الشخص الذي كان يبحث عن الجمل

انك - أيها المفضال - قد أضعت جملا وكان كل شخص يذكر لك علامة لهذا الجمل ! وأنت لا تعلم أين هذا الجمل ، ولكنك تعلم أن هذه العلامات كلها خاطئة !

2975 وذلك الذي لم يُضع جملا يمارى أيضا فيبحث عن جمل ، كمن أضاع جمله . قائلا : " انني أيضا قد أضعت جملا ، فمن عثر عليه وهبته أجره ! " وذلك ليجعل نفسه شريكا في جملك . . . ان طمعه في الجمل دفعه إلى أن يلعب هذه اللعبة . فكلما قلت الانسان : " ان هذه العلامة خاطئة " ، قال عين ما تقول ، مقلدا إياك . فهو لا يميز العلامة الكاذبة من العلامة الصادقة ، لكن قولك هو العصا لذلك المقلد (الأعمى) .

2980 وحينما تُذكر لك العلامة الصادقة أو ما يشبهها ، فإنك تصبح على يقين" لا رَيْبَ فيه " *" 1 " .

....
(1) البقرة ، 2 : 1 .

ويصبح هذا اليقين شفاء لروحك العليل ، ويغدو نضرة لون لك ، وصحة وقوة .
وتستنير به عيناك وينطلق به قدماك ، ويغدو جسدك نفسا ، ونفسك روحا ! فتقول حينذاك : “ لقد قلت الحق أيها الأمين ! وهذه العلامات قد جاءت بلاغا مبينا ، فيه آيات ثقات بينات ! انه لبراءة بل هو تقدير للنجاة ! “

2985 فهو حين أظهر لك هذه العلامة هتفت به قائلا : “ تقدّم ! ان هذا وقت العزيمة فكن أنت دليلي .
ولسوف أقتفى أثرك أيها الصادق المقال . لقد حملت اليّ رائحة من جملي ، فأرني أين يكون “ .
أما بالنسبة لذلك الشخص الذي ليس بصاحب جمل ، ذلك الذي يبحث عن الجمل من أجل المراء ، فان هذه العلامة الصادقة لا تزيده يقينا ، الا بمقدار ما ينعكس عليه من ذلك الباحث بصدق عن الجمل .
فهذا المقلد يقتبس شذا من جدّ الصادق وحرارته ، (موقنا) بأن آهاته تلك لا يمكن أن تكون جزافا “ 1 “ .

2990 انه لم يكن صاحب حق في هذا الجمل ، ولكنه هو أيضا قد أضاع جملا .
فالطمع في جمل “ 2 “ غيره قد ألقى على وجهه ، قناعا ، فأنساه ما كان قد ضاع منه !

....

(1) حرفيا : “ ليست جزافا “ بدلا من “ لا يمكن أن تكون جزافا “ .
(2) يضطر الشاعر أحيانا بحكم الوزن إلى استخدام كلمة “ ناقة “ بدلا من اشتر . ولما لم يكن هناك من مبرر لذلك سوى الوزن فقد استخدمنا في الترجمة كلمة “ جمل “ بصورة مطردة ، محافظة على السياق في الترجمة .

فحيثما جرى المالك الأصيل جرى هذا المقلد ، وقد جعله الطمع شريكا في الألم لصاحب الجمل **!** فحينما ينطلق كاذب مع واحد من أهل الصدق ، فسرعان ما يغدو كذبه صدقا .
وفي تلك الصحراء التي توغل الجمل مسرعا فيها عثر هو أيضا على جمله .

2995 وحالما رآه تذكر ما كان له فأصبح بريئا من الطمع في جمال الأصدقاء والأقارب .
فهذا المقلد قد أصبح محقِّقا ، حينما أبصر جمله الذي كان يرتعى هناك **!** فأصبح في تلك الحظة طالبا للجمل ، فهو لم يكن يفتش عنه قبل مشاهدته في الصحراء .
فبعد ذلك بدأ ينطلق وحيدا ، وفتح عينيه (متوجها) نحو جمله .
فقال له ذلك الصادق : " لقد تركتني ، وكنت حتى هذه اللحظة تبدى مراعاتك لي **!** "

3000 فقال : " لقد كنتُ خرافة حتى هذه اللحظة وكان الطمع يدفعني إلى تملقك .
أما الآن - وقد انفصلتُ بالجسد عنك في الطلب - فقد أصبحت شريكا لك في الألم **!**
انني كنت أسرق منك وصف الجمل ، فلما رأت روحي جملها امتلأت به عيني **!** وقبل أن أجده لم أكن له طالبا **!** لقد غلب النحاس الآن وأضحى الذهب له غالبا **!**

وأصبحت سيئاتي كلها طاعات ، فشكرالله . وأصبح الهزل فانيا والجدّ ثابتا ، فشكرالله .

3005 وما دامت سيئاتي قد أصبحت وسيلة إلى الحق ، فلا توجه ضربات لومك قط إلى سيئاتي ! ان صدقك هو الذي كان قد جعلك طالبا ، وأما أنا فالجد والطلب مهدا لي سبيل الصدق ! لقد قادك صدقك نحو الطلب ، وأما أنا فبحثى هو الذي قادنى إلى الصدق ! لقد كنت أغرس في الأرض بذور السعادة وكنت أحسب ذلك سخرة ، وبدون أجر ! وما كان ذلك سخرة بل كان كسبا سريعا ، فكل حتة غرستها قد أنبتت مائة حبة .

3010 ان لصا قد قصد خلسة إلى أحد المنازل ، فلما دخله رأى أن هذا المنزل منزله .
فاستشعر الحرارة أيها البارد ، فلعلها تغشاك . واصبر على الشدة ، فلعلها تكون طريق اللين .
وما كان هذان بجملين ، بل جمل واحد ! ألا ما أضيق الفظ وما أغزر المعنى ! فاللفظ دائما عاجز عن ادراك المعنى ، ولهذا فان الرسول قال :
" قد كلّ اللسان " .
ان النطق يكون كالاصطرلاب في حسابه وماذا يعرف هذا عن الفك والشمس ؟

3015 وبخاصة ذلك الفلك الذي لا يتجاوزُ فلكُنا هذا فرَاشة منه ! ولا تزيد شمسُنا على ذرة من شمسه !

في بيان ان كل نفس تنطوى على فتنة مسجد الضرار

لما ظهر أن ذلك لم يكن مسجدا بل كان منزل خديعة ، وأحبولة نصبها اليهود ، أمر الرسول بأن يهدم ، ويجعل كناسة للقمامة والأقذار .
ان صاحب المسجد كان زائفا كالمسجد فنثرُ القمح فوق الشرك ليس من الوجود !
وقطعة اللحم التي في شصك تختطف السمكة . فمثل هذه اللقمة ليست عطاء ولا سخاء !

3020 ومسجد قباء - وقد كان من الجماد - لم يسمح الرسول بأن يُساوى بما لم يكن كفؤا له ! ففي حق الجمادات ليم يجز مثل هذا الحيف ، فأشعل أمير العدل النار في هذا (المسجد) غير الكفء ! فاعلم أن عالم الحقائق - وهو أصل الأصول - توجد به فروق وفصول .
فلا حياة هذا شبيهة بحياة ذلك ، ولا موت هذا شبيه بموت سواه .
ولا تحسبن قبر أحد الناس شبيها بقبر الآخر . فكيف أشرح لك فوارق الأحوال في ذلك العالم ؟

3025 فاختبر بالمحك عملك أيها العامل ، حتى لا تبنى مسجد الضرار .
فكم كنت قد سخرت من بناة ذلك المسجد ، فلما أمعنت النظر كنت أنت من هؤلاء !

حكاية الهندي الذي خاصم رفيقه بسبب فعل معين ولم يكن يعلم أنه هو أيضا مبتلى بذلك الفعل

دخل أربعة من الهنود في أحد المساجد ، وأضحوا من أجل أداء الطاعة ركعا ساجدين .
وكل منهم كبر على نية ، ثم أقدم على الصلاة بمسكنة وألم .
وجاء المؤذن ، فأفلتت من أحدهم كلمة (إذ قال) : " أيها المؤذن هل أذنت ؟ لقد حان الوقت " .

3030 فقال ثاني هؤلاء الهنود (بدافع) من ضراعته : " لقد تكملت ، فأصحبت صلاتك بالطلة " .
فقال ثالثهم لثانيهم : " أيها العم ، لماذا توجه اليه هذا اللوم ؟
خاطب به نفسك ! " أما رابعهم فقال : " حمد الله أنى لم أقع في البئر كهؤلاء الرجال الثلاثة ! " وهكذا بطلت صلاة كل من هؤلاء الأربعة ، وكان الهاتفون بالعيب منهم أكثر ضلالا ! فما أسعد الروح التي ترى عيبها ، والتي إذا هتف انسان بعيب حملته على نفسها ،

3035 ذلك لأن نصف الانسان كان من عالم العيب ، وأما نصفه الآخر فكان من عالم العيب ! فما دام رأسك يعاني من عشرة جراح ، فالواجب عليك أن تتخذ المرهم لعلاج نفسك .
فحين يُعاب الجرح فهذا (بداية) علاجه ، وأما حين يقع الكسر فهنا مكان الرحمة .
وان لم تكن تعاني من عيب فلا تستسلم (لهذا الظن) ، فلربما يظهر ذلك العيب منك أيضا .
ألم تستمع إلى قوله تعالى : “ لا تخافوا “ ؟ فلماذا اذن رأيت نفسك آمنا طيب الحال ؟

3040 لقد عاش إبليس سنين وهو ينعم باسم طيب ، ثم افتضح ، فتأمل أي اسم أصبح له الآن ! لقد كان في الكون معروفا بعلاه ، فأصبح معروفا بعكس هذا ، فواها عليه !
فما لم تكن آمنا فلا تطلب الشهرة ! واغسل بالخوف وجهك ثم أظهره ! وما لم تنبت لحيتك - أيها الرجل الطيب - فلا تنتقد سواك ان تجرد من اللحية .
فتأمل من أصيبت روحه بالبلاء حتى سقط ، وأصبح عبرة لك .

3045 وأما أنت فلم تسقط لتكون عبرة له . لقد شرب سمّ (الخذلان) ، فكل أنت سكر (الرضى) !

كيف قصد الغز أن يقتلوا رجلا وذلك ليخيفوا سواه

لقد أقبل هؤلاء الأتراك الغزّ سفاكو الدماء للغارة فدخلوا احدى القرى .
فوجدوا اثنين من أعيان تلك القرية فبادروا مسرعين إلى الفتك بواحد منهما .
فقيدوا يديه ليجعلوه قربانا ، فناداهم : “ أيها الملولك والأركان العظام ! لأىّ سبب قد قصدتم قتلى ؟ و . ما الغاية من تعطشكم هذا لدمى ؟

3050 وأية حكمة وأي غرض يتحقق بقتلى . ما دمت هكذا درويشا عريان الجسد ؟
فقال (أحدهم) : “ لكي نوقع الفزع برفيقك ، فيخاف ويظهر لنا الذهب ! “ فقال :
“ ولكنه أشد فقرا منى “ . فقال التركماني : “ لقد قصد (اظهار ذلك) ، وانه ليمتلك الذهب “ .
فقال (الأسير) : “ ما دام الأمر بالنسبة لكلينا وهم ، فنحن متساويان في مقام الاحتمال والشك .
فاقتلوا صاحبي أولا - أيها الملوك - حتى أخاف وأرشدكم إلى مكان الذهب “ .

3055 فتأمل كرم الله ، إذ جعلنا نجىء في آخر الزمان ، وهو يوشك على النهاية .

وان القرون الأخيرة لهى السابقة على القرون . وقد جاء في الحديث : “ نحن الآخرون السابقون “ .
وهكذا أظهر داعى الرحمة لأرواحنا هلاك قوم نوح وقوم هود .
انه (الخالق) قد قتلهم حتى نخافه ، ولو أنه فعل عكس ذلك لكان وبالا عليك .

بيان حال المغرورين الذين لا يستشعرون نعمة
وجود الأنبياء والأولياء عليهم السلام

ان كلا من هؤلاء تكلم عن العيب والاثم ، وعن القلب المتحجر والروح المظلمة ،

3060 وعن تلقى أو امر (الله) باستهانة ، وعن الخلو من هموم الغد ، وعن الهيام بهذه الدنيا وتعشقها ، كما تخضع المرأة للنفس الأمارة ، وعن ذلك الفرار من محكم أقوال الناصحين وعن الهرب من لقاء الصالحين ، وعن الغربة عن القلب ، وأصحاب القلوب ، وعن التزوير ولعب الثعالب إزاء الملوك (الروحيين) .
وعن التفكر بأن القانعيين متسولون ، واضمار الحسد والعداوة لأولئك القانعين !

3065 فلو أن واحدا من هؤلاء (الأنبياء والأولياء) تقبل منك شيئا تقول : انه متسول ! وان لم يقبل قلت : ان هذا نفاق ومكر وخداع !

فهو لو خالط الناس قلت : " انه طامع " . ولو لم يفعل ذلك قلت : انه مولع بالكبر ! أو تلتمس لنفسك عذرا كعذر المنافق قائلا : " انني مُعَوَّق بنفقة ولدى وامرأتي ! فليس لدىّ وقت أحك به رأسي ، ولا عندي فراغ لانماء ديني .
فاذكرنا - يا فلان - بهمتك ، فلعلنا نغدو - في عاقبة الأمر - من الأولياء ! "

3070 وهو لا ينطق بهذا الكلام في ألم وحرقة . انه كمثقل بالنعاس هذى بكلمات ثم عاد إلى الوسن .
(انه يقول) : " ليس لي مناص من كسب قوت العيال وأنا أحصل بغاية الجهد " 1 " على الكسب الحلال " .
وأي حلال ذلك يا من غدوت من أهل الضلال ! انني لست أرى حلالا سوى دمك !
(فمثلك) له مناص من الله ولا مناص له من الطعام ! وله إزاء الدين حيلة ، ولا حيلة له إزاء الطاغوت ! فيا من لا اصطبار لك عن الدنيا الدون ، كيف يكون اصطبارك عمن (اتصف بقوله) :" فَنِعْمَ الْماهِدُونَ "" 2 " .

3075 ويا من لا صبر لك عن الدلال والنعيم ! كيف يكون صبرك عن الرب الكريم !

....

(1) حرفيا : " وانا أحصل بأنيابى . . . "
(2) إشارة إلى قوله تعالى : " والأرض فرشناها فنعم الماهدون " ، (الذاريات ، 51 : 48) .

ويا من لست تطيق صبرا عن النظيف والملوث **!** كيف تطيق صبرا عن خالقهما **!** أين الخليل الذي خرج من الغار ، فقال : هذا ربى . ألا فلتتنبه **!** أين الخالق ؟
فلست بناظر إلى كلا العالمين ما لم أعرف من هو مالك هذين المجلسين .
فلو أنني أكلت الخبز - بدون أن أتأمل صفات الله - لا حتبس في حلقي **!**

3080 وكيف تهضم لقمة بدون مشاهدته ، وبدون اجتلاء وورده وبستان ورده .
وبدون الأمل في الله من ذا الذي كان يشرب من هذه العين لحظة واحدة سوى ثور أو حمار .
فمن كان ممن (وصفهم القرآن) بأنهم :" كَالْأَنْعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ " *" 1 " ، وفهو نتن الريح ، برغم ما قد يكون له من دهاء بالغ .
ان مكره منقلب ، وهو ذاته منقلب (على رأسه) . ولقد عاش برهة قصيرة ثم انقضى يومه .
ولقد غدا فكره متراخيا وعقله خرفا ، وانقضى عمره من غير أن يظفر بشئ ، (فهو في تجرده) كحرف الألف " 2 " .

3085 وذلك التفكر الذي يقول : انه ملازم له ، لا يعدو أن يكون أقصوصة من أقاصيص تلك النفس الحسية **!**

....

(1) انظر : سورة الأعراف ، 7 : 179 .
(2) الألف دائما مجردة من كل الحركات .

وأما ما يهتف به من قوله : “ غفور رحيم “ ، فليس الا حيلة النفس اللئيمة ! فيا من قتلك الغم لخلو يديك من الخبز ، لماذا هذا الخوف ما دام الله غفورا رحيما ؟

كيف شكا شيخ من الأمراض لأحد الأطباء
وكيف اجابه الطبيب

قال شيخ لأحد الأطباء : “ انني في عذاب من ألم الدماغ “ .
فقال الطبيب : “ ان ضعف الدماغ هذا من الشيخوخة “ ، فقال الشيخ : “ وفوق عيني سحب من الظلمة “ .

3090 فقال الطبيب : “ هذا من الشيخوخة ، أيها الشيخ القديم “ .
قال الشيخ : “ وظهري ينتابه ألم عظيم “ .
فقال الطبيب : “ هذا من الشيخوخة ، أيها الشيخ الضعيف “ . قال الشيخ : “ وكل ما آكله ليس يهضم “ .
فقال الطبيب : “ ضعف المعدة أيضا من الشيخوخة “ . قال الشيخ : “ وفي وقت التنفس تتعثر أنفاسى “ .
فقال الطبيب : “ نعم ، هذا هو انقطاع النفس . فحينما تحل الشيخوخة ، تجىء معها مئتان من العلل ! “ قال الشيخ : “ أيها الأحمق ، لقد وقفت عند هذا ، فهو قصارى ما تعملته من الطب !

3095 أما أرشدك عقلك - أيها المخبول - إلى أن الله قد جعل لكل داء دواء ؟

انك لحمار أحمق ضعفت همته ، فبقى طريح الأرض لعجز قوائمه ! “ .
فقال له الطبيب : “ يا من بلغت الستين من عمرك ! ان غضبك هذا وسخطك هما أيضا من (آثار) شيخوختك ! فما دامت كل ملكاتك وأعضائك قد ضعفت ، فقد ضعف معها صبرك وسيطرتك على نفسك ! “ ان الشيخ لا يطين كلمتين فيعلو من جرائهما صياحه . ولا طاقة له بجرعة واحدة ، فهو يقيئها .

3100 وليس كذلك الشيخ الذي هو ثمل بالحق ، ففي باطن هذا حياة طيبة ! فهذا يكون في الظاهر شيخا لكنه في الباطن فتىّ ! فما كنه ذاته ؟ انه ولى أو نبي ! فإن لم تكن (حقيقة) هؤلاء (الأنبياء والأولياء) ظاهرة أمام الأخيار والأشرار . فلماذا يحمل لهم الأخساء مثل هذا الحسد ؟
ولو كان الأشرار يعرفونهم معرفة يقينية ، فلماذا هذا البغض والتآمر والحقد ؟
ولو أنهم كانوا موقنين بالبعث والقيامة ، فكيف ألقوا بأنفسهم فوق هذا السيف الحاد ؟

3105 ان (النبي أو الوليّ) يبتسم لك ، فلا تأخذ الأمر على ظاهره ، فقد احتجبت في باطنه مائة قيامة ! فالنار والجنة كلاهما أجزاء منه ، وانه لفوق كل ما قد يخطر بفكرك !

وكل ما تتفكر فيه قابل للفناء . والله وحده هو الذي لا يتسع له الفكر .
فلماذا يتبجحون على باب هذه الدار ، ما داموا يعرفون من بداخلها ؟
ان الحمقى يقومون بتعظيم المسجد ، على حين أنهم يسعون في خراب أصحاب القلوب !

3110 وما هذا (المسجد) الا مجاز ، وأما هذه (القلوب) فهي الحقيقة ، أيها الحمير ! فما المسجد الا قلوب (هؤلاء) الكبراء ! فذلك المسجد الذي انطوت عليه قلوب الأولياء هو مسجد كافة الخلق ، فهناك الله .
وما دمغ الله بالعار قرنا من القرون الا حين تألم - من جرائهم - قلب واحد من رجاله " 1 " ! فقد ان هؤلاء يعمدون إلى مجاربة الأنبياء . فهم كانوا يرون جسم النبي فيحسبونه مجرد آدميّ .
وان فيك لأخلاق هؤلاء الأوائل ! فكيف لا تخاف أن تصبح مثلهم ؟

3115 فما دامت بك كل هذه العلامات ، وما دمت واحدا منهم ، فإلى أين تريد النجاة ؟

قصة جحى وذلك الطفل الذي كان ينوح امام نعش أبيه

كان طفل ينوح بمرارة ، ويدق رأسه أمام نعش أبيه ،

....

(1) ترجم هذا البيت بشئ من التصرف ليتضح معناه . والقرن في الناس أهل زمان واحد . قال الشاعر :إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم * وخلفت في قرن فأنت غريب

(قائلا) : “ أبتاه ! إلى أين يحملونك آخر الأمر ، حتى يعتصروك تحت التراب ؟
انهم يحملونك إلى منزل ضيق مؤلم ، ليس به بساط ولا بداخله حصير .
لا سراج به في الليل ، ولا خبز في النهار . وليست به رائحة للطعام ولا أثر منه .

3120 وليس به باب معمور ، ولا سبيل إلى سطح ، ولا جار واحد يكون ذلك ملاذا .
وجسمك الذي كان موضع قبل الخلق ، كيف ينزل دارا كهذه مظلمة تعسة ؟
انه منزل لا قيام فيه ، بالغ الضيق وليس يبقى فيه وجه ولا لون ! “ وأخذ يعدد
أوصاف المنزل على هذا النحو ، وهو يعتصر الدموع الدامية من عينيه .
فقال جحى لأبيه : “ يا سيدي ، والله انهم ليحملون هذا إلى منزلنا ! “

3125 فقال الأب لجحى : “ لا تكن أبله “ ، فقال جحى : “ استمع يا أبى إلى هذه العلامات :
فهذه العلامات التي ذكرها واحدة واحدة هي لمنزلنا بدون ريب ولا شك ! فليس به
حصير ولا سراج ولا طعام ! ولا بابه معمور ، ولا صحن له ولا سقف ! “

فعلى هذا النسق يحمل الطغاة على أنفسهم مائة علامة ، ولكن متى كان هؤلاء
يبصرون أنفسهم ؟
فمنزل القلب الذي يبقى بدون ضياء من شعاع شمس الكبرياء ،

3130 ضيق مظلم مثل أرواح اليهود ، وقد حرم رزقه من نفحات السلطان الودود !
فليس يشرق في هذا القلب نور الشمس وليست له عرصة رحبة ولا باب مفتوح !
فالقبر خير لك من قلب مثل هذا ! ألا فلتنهض الآن من ضريح قلبك ! انك حيّ وقد
ولدت من حيّ ، أيها المرح الضحوك أفلا تضيق أنفاسك بهذا القبر الضيق ! انك
يوسف الوقت ، وشمس السماء فاصعد من قرارة هذا الجب وذلك السجن وتجلّ
بطلعتك !

3135 انك مثل يونس ، وقد طُبخت في بطن الحوت ، فمن أجل خلاصك لا بد لك
من التسبيح ! فلو لم يكن يونس مسبحا في بطن الحوت ، لبقى في حبسه وسجنه إلى
يوم يبعثون ! فهو بالتسبيح قد خلص من جسد الحوت . فماذا يكون التسبيح ؟
انه آية يوم " ألست " .
فلئن كنت قد نسيت تسبيح الروح هذا ، فاستمع الآن إلى تسبيح هذه الحيتان ! فكل من
رأى الله فهو الهيّ . وكل من شهد هذا البحر ، فهو ذلك الحوت .

3140 ان هذه الدنيا بحر ، والجسم فيها حوت ، وأما الروح فهو يونس المحتجب عن النور الصبوح .
فإن كان الروح مسبِّحا نجا من الحوت ، والا هضمه الحوت وتلاشى كيانه ! وان أسماك الروح لتملأ هذا البحر ، وأنت لا تبصرها وهي تطير حولك ! وان هذه الأسماك لتدفع بأنفسها نحوك ، فافتح عينيك حتى تشهدها عيانا ! فان أنت لم تر هذه الأسماك ظاهرة ، فان أذنك قد سمعت تسبيحها في عاقبة الأمر .

3145 والصبر هو روح تسبيحاتك فكن صابرا فان هذا هو التسبيح الحق ! وليس لتسبيح قط مثل هذه الدرجة ، فاصبر فان الصبر مفتاح الفرج .
ان الصبر كجسر الصراط والجنة في تلك الناحية . وفي صحبة كل جميل مرب قبيح .
فما دمت تفرّ من المربى فلن يكون وصال ، ذلك لأن المربى لا يفترق عن الجميل .
وماذا تعرف عن مذاق الصبر يا من قلبك مثل الزجاجة ، وبخاصة إذا كان الصبر عن حسان جكل .

3150 ان الرجل يتذوق الغزو والكر والفر ، وأما المخنث فلا يتذوق الا الفسوق " 1 " .
فليس للمخنث دين ولا تسبيح الا الفسوق ، ذلك لأن فكره يحمله إلى أسفل " 2 " .

....
(1) ترجمنا هذا البيت بقليل من التصرف .
(2) ترجمنا هذا البيت بقليل من التصرف .

فلو أنه تسامى إلى الفلك فلا تحسب له حسابا ، ذلك لأنه حذق درسه في عشق التسفل . انه يركض فرسه نحو الدنايا مع أنه يلوّح بجرسه نحو الأعالي ! وأية مهابة تكون لرايات الشحاذين ؟ ان هذه ليست الا وسيلة إلى كسر الخبز .

كيف خاف صبي من شخص غليظ الجسد وكيف قال ذلك الشخص للصبي : لا تخف ، فانى لست برجل .

3155 ان مخنثا غليظ الجسد لقى صبيا على انفراد فاصفر وجه الصبى خوفا من قصد ذلك الرجل .
كفت أيمن باش اى زيباى من * كه تو خواهد بودبر بالاى من " 1 "
من اكر هو لم مخنث دان مرا * همجو اشتر برنشين مران مرا " 2 "
فصورة الرجال إذا اقترنت بمثل هذا المعنى فهي مظهر آدمىّ ، في باطنه شيطان لعين ! فيا من تشبه بضخامتك قوم عاد انك لشبيه بذلك الطبل الذي كانت الريح تقرعه بالغصن .

....
(1) أعرضنا عن ترجمة هذا البيت لأنه ينطوى على مضمون لا تلبق ترجمته .
(2) هذا البيت كسابقه ينطوى على مضمون لا تليق ترجمته . والبيتان يشيران إلى مرض اجتماعي خطير . وخلاصتهما ان ذلك المخنث كشف للصبي عن حقيقة حاله ، فاتضح بذلك أنه صورة هائلة لكنها لا تنطوي على حقيقة .

3160 ان ثعلبا قد أضاع صيده من أجل طبل كحقيبة امتلأت بالهواء ، فلما لم يجد في ذلك الطبل شحما قال : “ ان خنزيرا هو خير لي من تلك الحقيبة الجوفاء “ والثعالب هي التي تخاف من قرع الطبول . أما العاقل فكثيرا ما يقرعها حتى تلزم الصمت .

قصة رامى السهام وخوفه من ذلك الفارس
الذي كان يتجول في الغابة

كان فارس مسلح ذو مظهر مهيب يتجول في الغابة على فرس نجيب .
فرآه أحد الرماة - فشدّ - من خشيته - قوسه ،

3165 حتى يرميه بسهم ، فصاح به الفارس : “ انني ضعيف برغم أن جسدي عظيم ! فحذار حذار ، لا تنظر إلى ضخامة جسمي ، فانني في وقت الحرب أهون من امرأة عجوز ! “ فقال له الرامي : “ اذهب فقد أحسنت القول ، ولولا ذلك لدفعني الخوف إلى أن أرميك بسهم “ .
فكم من رجال قتلتهم آلات الحرب ، وكانوا يحملون بأيديهم مثل هذا السيف ، وهم مجردون من الرجولة ! فلو أنك لبست سلاح أمثال رستم ، ولم تكن أهلا لذلك ، ذهبت روحك .

3170 فاجعل روحك درعا لك ، وتخلّ عن السيف ، أيها الفتى ! فكل من كان بدون رأس ، ظفر برأس من المليك .
ان سلاحك هو حيلتك ومكرك ، وهما قد انبثقا منك ، كما أنهما قد جرحا روحك .
وما دمت لم تحقق ربحا من هذه الحيل ، فتخلّ عنها لعل السعادة تقبل إليك .
وطالما أنك لم تظفر في لحظة واحدة بثمرة من الخداع ، فقل بترك الخداع ، والطلب رب المنن ! وما دامت هذه العلوم لم تكن ذات بركة عليك . فاجعل نفسك غرّا ، وتخلص من الشؤم !

3175 وقل مثل الملائكة :" سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا "" 1 " .

قصة الأعرابي الذي وضع رمالا في كيس وكيف لامه ذلك الفيلسوف

وضع أعرابي على ظهر جمله كيسين كبيرين ، ممتلئين بالحب ، وركب الأعرابي فوق رأسي هذين الكيسين . وكان أن جاذبه الحديث رجل لبق المقال .
فسأله عن وطنه وجرّه إلى الكلام ، ونظم كثيرا من درر القول أثناء مساءلته .
وبعد ذلك قال له : " بماذا امتلا هذان الكيسان ؟ ألا فلتخبرني بحقيقة الحال " .

....
(1) انظر : سورة البقرة ، 2 : 32 .

3180 فقال الأعرابي : " ان في أحد الكيسين قمحا ، وأما الآخر فيحتوى رملا ، لا يقتات به الناس " .
فقال (المتفلسف) : " ولماذا حملت (الجمل) هذه الرمال ؟ " ، قال الأعرابي :
" حتى لا يبقى هذا الكيس وحيدا " .
فقال (المتفلسف) : " فلتصب نصف ذلك الكيس المتخم في الآخر ، تمشيا مع الحكمة .
حتى يخف (ثقل) الكيسين ، وكذلك الجمل " . فقال الأعرابي :
" مرحى أيها الحكيم القدير الحر ! أمثل هذا الفكر الدقيق والرأي الصائب (لديك) ، وأنت هكذا عريان ، تمضى على قدميك في عناء ؟ "

3185 وشعر الأعرابي بالشفقة على هذا الحكيم ، واعتزم هذا الرجل الطيب أن يركبه فوق الجمل .
ثم أردف قائلا : " أيها الحكيم البارع القول ، تحدث اليّ قليلا عن حالك ! فبمثل ما لك من عقل وما أنت عليه من كفاية ، أأنت وزير أم ملك ؟
ألا فلتصدقنى القول ! " فقال المتفلسف : " انني لست (واحدا من) هذين ، بل أنا من العامة ! انظر إلى حالي وإلى ثيابي ! " قال الأعرابي : " فكم تملك من الجمال والثيران ؟ " ، فقال المتفلسف : " لا هذه ولا تلك ، فلا تجرحنا ! "

3190 قال الأعرابي : " فأي بضاعة تملكها في دكانك ؟ " ، فقال المتفلسف : " ومن أين إلى الدكان ، وأنى لي المكان ؟ "

قال الأعرابي : " سأسألك عن النقد كم تمتلك منه . فأنت متفرد السبيل ، ونصحك محبب .
وان لديك كيمياء لكل نحاس العالم ! وعقلك وعلمك جوهر تراكم بعضه فوق بعض !
" فقال المتفلسف : " والله يا وجيه العرب ليس كل ما أملك بكاف للانفاق على قوت ليلة واحدة ! وانني لأعدو عارى الجسد حافى القدمين ، وأسعى نحو كل من يقدم إلى الخبز ،

3195 ولم يتحقق لي من هذه الحكمة والفضل والذكاء سوى الخيال ووجع الرأس !
" فقال له الأعرابي : " ابتعد الآن عن جانبي ، حتى لا يمطر شؤم طالعك فوق رأسي ! واحمل حكمتك المشؤومة هذه بعيدا عنى ، فنطقك شؤم على أهل الزمن ! أو اذهب أنت في تلك الناحية ، وسأنطلق أنا من هذه الناحية .
فلو كان طريقك أمامى فسوف أرجع إلى الوراء ! ان كيسا من القمح وكيسا من الرمل هما خير لي من هذه الحيل الجوفاء .

3200 انني أحمق ، لكن هذا الحمق كثير البركة ، فقلبي صاحب رزق ، وروحي ذات تقوى ! فإذا أردتَ أن يقل شقاؤك فابذل جهدك لكي تقل حكمت ! فالحكمة التي تتولد من الطبع ومن الخيال هي حكمة مجردة من نور رب الجلال .

ان حكمة الدنيا تزيد من الظن والشك ، وأما حكمة الدين فتحلق فوق الفلك ! ان حكماء آخر الزمان الأخساء قدر فعوا أنفسهم فوق السلف !

3205 لقد أحرقوا أكبادهم وهم يتعلمون الحيل وحذقوا أفعالا وألوانا من المكر !
وأسلموا إلى الريح الصبر والايثار وسخاء النفس والجود ، وتلك (الصفات) إكسير كل ربح .
ان الفكر هو ذلك الذي يفتح طريقا ، والطريق هو ذلك الذي يسير فيه أحد الملوك .
أما الملك فهو من يكون ملكا بذاته ، وليس ملكا بخزائنه وجيشه ! وذلك ليبقى ملكه سرمديا ، كما بقيت عزة الملك للدين الأحمدي .

كرامات إبراهيم بن أدهم قدس الله روحه العزيز
على شاطئ البحر

3210 هكذا يروى عن إبراهيم بن أدهم أنه جلس على شاطئ البحر ليستريح من الطريق ، وأخذ يرتق دلقه . وفجأة وصل إلى المكان أمير كان يتجول على الساحل .
وكان هذا الأمير من عبيد الشيخ ، فعرف الشيخ وسارع بالسجود له ! ولقد حار هذا الأمير في الشيخ وفي دلقه . لقد أصبح خلقه وخلقه على صورة أخرى .
انه قد تخلى عن مثل ذلك الملك العظيم واختار ذلك الفقر الموغل في رقة الحال .

3215 فها هوذا قد أضاع ملك سبعة أقاليم ، وها هوذا كالمتسول يعمل الإبرة في دلقه ! وانكشف للشيخ تفكير هذا الأمير ، فالشيخ مثل الأسد وأما القلوب فهي غابته .
انه يدخل القلوب مثل الخوف والرجاء وليست تخفى عليه أسرار الدنيا ! فراقبوا قلوبكم أيها العاطلون من الثمار حينما تمثلون في حضرة أصحاب القلوب .
فأمام أصحاب الأجساد يكون الأدب مقتصرا على الظاهر ، ذلك لأن الله قد حجب عنهم الباطن .

3220 وأما أهل القلوب فالأدب أمامهم أدب الباطن ، ذلك لأن قلوبهم ذات فطنة بالسرائر ! وأنت على عكس ذلك : تقبل بمزيد من الأدب على العميان - طلبا للجاه - وتجلس في أدنى مكان ! وأمام المبصرين تعمد إلى ترك الأدب ، انك قد غدوت حطاب لنار الشهوة ! فما دمت لا تملك فطنة ولا نور هدى ، فلتبالغ في جلاء وجهك العميان ! ولطِّخ وجهك بالأقذار أمام المبصرين ! وتدل عليهم برغم ما أنت عليه من نتن الحال !

3225 لقد بادر الشيخ إلى رمى ابرته في الماء ، ثم عاد فناداها بصوت جهير .

فإذا بآلاف من الأسماك الإلهية ، بين شفتى كل منها إبرة من ذهب ، وقد رفعت رؤوسها من بحر الحق ، (قائلة) : “ خذ أيها الشيخ ابر الحق ! “ فالتفت إلى الأمير وقال له : “ أمملكة القلب خير أم مثل هذا الملك (المادّى) الحقير ؟
وهذه هي العلامة الظاهرة ، وليست بشئ قط ! (فمهلا) حتى تصل إلى الباطن لترى عشرين (من أمثالها) !

3230 فقد يُحمل إلى المدينة غصن من الحديقة ، ولكن أنى للمدينة أن تحمل إليها الحديقة والبستان ! وبخاصة تلك الحدقية ، التي ليس هذا الفلك الا ورقة واحدة منها ، بل لعلها هي اللب ، وكل ما عداها كالقشور ! فإن لم تكن تتوجه بخطاك نحو هذه الحديقة ، فالتمس زيادة العطر ، وادفع عنك الزكام ، حتى يغدو هذا العطر جاذبا لروحك ، ويصير هذا العطر نورا لعينيك .
فمن أجل الشذا قال يوسف بن يعقوب النبي :” اذْهَبُوا بقَميصي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْه أَبي "" 1 “ .

3235 وبسبب هذا الشذا قال أحمد في عظاته : جعلت قرة عيني في الصلاة “ .

………………………………………………………………

(1) يوسف ، 12 : 93 .

ان الحواس الخمس مرتبط بعضها بالبعض الآخر ، ذلك لأنها جميعا قد نبتت من أصل واحد ، فقوة واحدة منها قوة لباقيها ، وكل واحدة منها تكون ساقية للأخريات .
فابصار العين يقوّى النطق والنطق يزيد العين تصديقا .
ويصبح الصدق منبها لكل حسن ، فيغدو الذوق مؤنسا (لجميع) الحواس !

بداية استنارة العارف بالنور الذي يرى الغيب

3240 حينما تصبح احدى الحواس متحررة من قيدها ، فان ما بقي من الحواس تصبح كلها مبدلة ! وحينما تغدو احدى الحواس مبصرة لغير المحسوسات فان الغيب يصير ظاهرا لكل الحواس ! فلو أن كبشا من القطيع قفز من فوق القناة فان سائر القطيع يقتفى أثره نحو ذلك الناحية .
فسق خراف حواسك وادفعها إلى الارتعاء في ذلك المرعى (الذي يعنيه قوله تعالى) :" وَالَّذي أَخْرَجَ الْمَرْعى "" 1 " .
حتى تأكل هناك السنبل والنسرين وتسلك سبيلا إلى رياض الحقائق !

....
(1) سورة الأعلى ، 87 : 4 .

3245 ويغدو كل حس من حواسك نبيا للحواس ، فيقودها جميعا إلى تلك الجنة !
فتناجى الحواس حسك بالأسرار ، بدون لسان ولا حقيقة ولا مجاز ! ذلك لأن هذه الحقيقة قابلة للتأويلات كما أن هذا التوهم أس التخيلات ، أما تلك الحقيقة التي تكون عينا وعيانا ، فليست تتسع قط لأي تأويل .
وإذا ما صارت الحواس خاضعة لحسك ، فلن يكون للأفلاك بدّ (من طاعتك) .

3250 فلو أن دعوى قامت حول امتلاك القشور . فان الذي يملك اللباب هو مالك القشور .
وإذا وقع تنازع حول حمل من القش ، فانظر من يكون مالك الحب .
فالفلك اذن هو القشر ونور الروح هو اللب ، والفلك ظاهر ، وأما نور الروح فخفيّ فلا تخطىء فهم هذا المعنى ! ولقد جاء الجسم ظاهرا ، وأما الروح (الحيواني) “ 1 “ فهو محتجب : فالجسم مثل الكم وأما الروح فهو مثل اليد .
كما أن العقل أكثر خفاء من الروح (الحيواني) ، فالحس أكثر سرعة في سلوكه سبيل الروح .

....

(1) الحديث هنا عن الروح الحيواني ، وهو الذي يبث الحياة في الأجساد . وهذا مختلف عن الروح الانساني الذي يمثل عند الصوفية جوهر الانسان ، وحقيقته .

3255 فلو أنت أبصرت كائنا يتحرك لعرفت أنه حي ، ولكنك لا تعرف من ذلك أنه ممتلئ بالعقل ، حتى تظهر منه حركات موزونة ، وحتى يجعل نحاس الحركة بالعرفان ذهبا ! فمن التناسب الذي يظهر في أفعال اليدين ، يجيئك الفهم بأن هناك عقلا .
وأما الروح الملهم “ 1 “ فهو أكثر خفاء من العقل ذلك لأنه غيب ، فهو ينتمى لذلك الجانب (الآخر) .
فعقل أحمد لم يكن خافيا على شخص قط ، أما روح الملهم فلم يكن مما يدركه كل روح .

3260 وللروح الملهم هذا أفعال متناسبة أيضا ، ولكن العقل لا يدركها ، لأن ذلك الروح عزيز (ممتنع على الادراك) .
فالعقل قد يرى هذا (الروح) جنونا ، وقد يحار فيه . والأمر كله رهن بأن يغدو هذا العقل روحا “ 2 “ .
فهكذا كانت أفعال الخضر المتناسبة مصدر كدر لعقل موسى ، حين كان يراها !
فموسى - إذا لم تكن له ذات حال الخضر - كانت أفعال الخضر غير مقبولة في نظره .
فإن كان عقل موسى عانى القيد في ملاحقة الغيب ، فماذا يكون عقل الفأر ، أيها المفضال ؟

....
(1) حرفيا : “ روح الوحي “ وهو الروح الذي يتلقى الوحي .
(2) لا سبيل للعقل إلى ادراك حقيقة الروح الا إذا آمن بها وعمل على اتخاذ طبيعتها .

3265 ان العلم التقليدى يكون من أجل البيع ، فما أكثر ما يلتمع حين يجد المشترى **!**
وأما العلم الحقيقي فمشتريه هو الحق ، ولهذا فان سوقه دائما ذات رونق **!** فصاحب
هذا العلم قد أغلق شفتيه فهو ثمل في البيع والشراء والمشترون بدون حصر لأن” اللَّهَ
اشْتَرَى "” 1 “ .
فالملائكة هم المشترون لدرس آدم ، وأما الجن والشياطين فليسوا بأهل لتلقيه .
فيا آدم ، أنبئهم بالأسماء ، وألق عليهم درسك ، واشرح أسرار الحق بكل تفصيلاتها
“ 2 “ .

3270 فمثل ذلك الشخص الذي يكون قصير النظر ، غريق التلوّن عديم التمكن ، قد
دعوته فأرا ، لأن مقره في التراب ، والتراب للفأر مستقر ومعاش .
انه يعرف كثيرا من الطرق ولكنها جميعا تحت التراب ، ولقد سق لنفسه تحت الأرض
سبلا في كل اتجاه .
فلا هم لنفس الفأر الا مضغ اللقم ، ولهذا فقد أعطى الفأر عقلا على قدر حاجته .
ذلك لأن الخالق العزيز لا يعطى انسانا قط شيئا لا تكون له حاجة اليه .

....
(1) انظر : سورة التوبة ، 9 : 111 .
(2) حرفيا : “ واشرح اسرار الحق شعرة شعرة “ .

3275 فلو لم تكن للعالم حاجة إلى الأرض لما كان رب العالمين قط خلقها .
ولو لم تكن هذه الأرض المضطربة محتاجة للجبال لما أبدعها الله (راسخة) ذات جلال .
ولو لم تكن للأفلاك حاجة إلى السماوات السبع لما أوجدها من العدم .
والشمس والقمر وهذه النجوم ، هل ظهرت للعيان من غير حاجة إليها ؟
فالحاجة هي الوهق الذي يجتذب (الكائنات) إلى الوجود وللانسان آلات على قدر حاجته .

3280 فلتعجل أيها المحتاج بزيادة حاجاتك حتى يجيش بالسخاء بحر الجود .
فهؤلاء المتسولون ، وكل المبتلين يظهرون حاجتهم للخلق على الطريق ، (انهم يظهرون) العمى والشلل ، والمرض والألم فلعل هذه الحاجة تحرك رحمة الناس .
وليس أحد هؤلاء قط يقول : " أيها الناس ، تصدقوا عليّ بالخبز فان لي مالا وخزائن ومائدة ! " ان الله لم يجعل للخُلد " 1 " عينين ذلك لأنها لا تحتاج اليهما في تحصيل قوتها .

....
(1) الخلد فارة عمياء أو دابة تحت الأرض ويضرب بها المثل في شدة السمع .
واسمها الفارسي " كور موش " ، ومعناه " الفارة العمياء " .

3285 انها تستطيع العيش بدون العين والبصر ، فهي في التراب الرطب قد خلت من حاجة إلى العينين .
وهي لا تخرج من باطن الأرض الا متلصصة وانها لكذلك حتى يطهرها الخالق من السرقة ، فإذ ذاك توهب جناحين وتصير طيرا ، فتحلق وتترنم بتسبيح الخالق ! وتتغنى في بستان شكر الله كالبلبل بمائة لحن في كل لحظة ! قائلة : " يا من خلصتنى من الوصف القبيح ! أيها الصانع من الجحيم جنة !

3290 انك أنت الذي تضع النور في قطعة من الدهن " 1 " ، وأنت - أيها الغنى - وأهب السمع لقطعة من العظم " 2 " ! " فأي تعلق لهذه المعاني " 3 " بالجسم ، وأي تعلق لفهم الأشياء بالاسم ! ان الجسم كالوكر ، والمعنى هو الطائر ! الجسم كمجرى النهر ، والروح هو الماء ! فهو منطلق وأنت تقول : انه واقف ! وهو جار مندفع وأنت تقول : انه عاكف ! فان كنت لا ترى انطلاق الماء بين الطين ، فما هذا القش الذي يتوالى ظهوره فوق (صفحته) ؟

....

(1) يقصد " بقطعة الدهن " العين .
(2) يقصد " بقطعة العظم " الأذن .
(3) البصر والسمع .

3295 وصور فكرك هي لك شبيهة بهذا القش ، تتوارد منها على التوالي أشكال بكر .
ونهر فكرك في انطلاقه لا تخلو صفحته من قش محبوب وقش قبيح الشكل .
فهذه القشور فوق صفحة هذا الماء الجاري قد أقبلت مندفعة من ثمار بستان الغيب .
فابحث في البستان عن لباب هذا القشر ، ذلك لأن الماء يقبل إلى مجراه من البستان .
فان كنت لا تبصر جريان ماء الحياة فانظر إلى حركة هذه الأعشاب في النهر .

3300 فحينما يزداد اندفاع الماء في جريانه ، تزداد به قشور الفكر سرعة في انطلاقها .
فإذا ما بلغ هذا النهر غاية سرعته في جريانه ، لا يستقر غم في ضمير العارفين .
فهذا النهر حين يكون في قمة امتلائه وسرعته ، فإنه لا يبقى به متسع الا للماء .

كيف طعن غريب في أحد الشيوخ
وكيف أجابه مريد الشيخ

اتهم شخص أحد الشيوخ (قائلا) : “ انه فاسد : لا يسلك سبيل الرشاد **!** فهو شارب للخمر منافق خبيث ، فأنى له أن يكون مغيثا لمريديه ؟ “

3305 فقال له أحد (المريدين) : “ الزم الأدب ، فليس بهين مثل هذا الظن بالكبار !
ولكم هو بعيد عنه وعن صفاته أن يعكر صفاءه سيل (من الخطيئة) ! فلا ترم بمثل هذا البهتان أهل الحق ! ان هذا ليس سوى خيالك فافتح صفحة (جديدة) .
ان هذا لا يجوز ، أيها الطائر البرىّ ! وهب أنه جاز ، فأىّ خوف لبحر القلزم من أن ترمى به جثة ؟
انه ليس حوضا صغيرا ، دون القلّتين ، حتى يمكن أن تلوثه قطرة (من الدنس) .

3310 فالنار لا تكون خطرا على إبراهيم . أما كل نمرود ، فادعه إلى أن يحذرها !
“ ان النفس هي النمرود ، وأما العقل والروح فهما الخليل .
فالروح (مستقرها) عين الحقيقة وأما النفس فعالقة بالدليل .
والدليل انما هو للسائر في الطريق ، الذي هو - في كل لحظة - عرضة للضلال في البيداء .
أما الواصلون فليس لهم سوى العين والسراج ، وقد استراحوا من (هم) الدليل والطريق .
فلو أن رجلا من الواصلين ذكر أحد الأدلة ، فإنه يفعل ذلك ليفهم أصحاب الجدال .

3315 ان الأب يصطنع أصوات الطفولة لوليده الجديد ، مع أن عقله قد يبدع هندسة الدنيا !

فليس يهبط فضل الأستاذ من عليائه لو أنه قال : ان الألف لا تقبل أي تحريك .
فالمرء - من أجل تلعيم ذلك (الطفل) المعقود اللسان - يجب عليه أن يخرج عن لسانه .
ان عليك أن تصطنع نطقه حتى يتعلم منك العلم والفن .
فمن اللازم للشيخ في وقت النصح أن يعتبر جميع الخلق مثل أطفاله .

3320 واعلم أن هناك حدّ للكفر ومداه ، أما الشيخ ونوره فليست لهما حدود **!**
فالمحدود عدم أمام اللامحدود . وكل شئ سوى وجه الله مآله إلى الفناء " 1 " .
فحيثما وجد الشيخ فلا مجال للكفر والايمان ، ذلك لأنه لب ، وليس هذين سوى ألوان وقشور **!** فهذه الأمور الفانية أصبحت حجابا لذلك الوجه ، كما اختفي نور اسراج تحت طست .
فرأس هذا الجسد اذن حجاب لذلك الرأس (الروحىّ) **!** ورأس الجسد كافر إذا قيس بذلك الرأس **!**

3325 فمن الكافر ؟ انه الغافل عن ايمان الشيخ **!** ومن الميت **!** انه من لا علم له بروح الشيخ **!** شان الروح ليست الا خبرا (قابلا) للتجربة فكل من ازداد علما بها ، زدات روحه قوة .

....
(1) قال تعالى : " كل شى هالك الا وجهه " . (القصص ، 28 : 88) .

وروحنا أعظم من روح الحيوان ، فلماذا ؟ لأنها أكثر علما من روح الحيوان .
وأرواح الملائكة أعظم من أرواحنا ، لأنها منزهة عن الحس المشترك .
وأما ملوك القلوب “ 1 “ فأرواحهم أعظم من أرواح الملائكة فدعك من الحيرة !

3330 ولهذا السبب كان سجود الملائكة لآدم ، فروح آدم أعظم من كيانهم .
والا لما كان من اللائق قط أن يؤمر كائن أعظم بالسجود لمن هو دونه .
وكيف تروق عدالة الخالق ولطفه أن تخر الوردة ساجدة للشوك ؟
فالروح حين قوى وتجاوز المنتهى ، أصبحت أرواح جملة الكائنات طوع حكمه ، (سواء في ذلك) الطير والسمك والجنّ والناس ذلك لأن هذا الروح (الكامل) عظيم ، وتلك الأرواح ناقصة .

3335 فالأسماك تغدو صانعة الابر لدلق الشيخ ، وتكون تابعة له كما يتبع الخيط الإبرة !

بقية قصة إبراهيم بن أدهم قدس الله روحه
على شاطىء البحر

حين رأى ذلك الأمير نفاذ أمر الشيخ بقدوم الأسماك نحوه ظهر عليه الوجد ،

....
(1) الصوفية .

وتأوه قائلا : " ان السمكة عارفة بالشيوخ فساء من كان طريد بلاطهم ! الأسماك عارفة بالشيخ ونحن بعيدون عنه ! فنحن (بحرماننا) من هذا الحظ - أشقياء ! وتلك الأسماك سعيدة ! فخرّ ساجدا ، ومضى باكيا ولها ، وجُنّ بتعشقه فتح ذلك الباب !

3340 فما الذي أنت مشتغل به ، يا من لم تغسل وجهك ! ومع من أنت في صراع وحسد ؟
انك تعبث بذيل أسد ! انك تشنّ غارة على الملائكة ! لماذا حديثك بالسوء عن الخير المحض ؟ حاذر ، ولا تحسبن هذا التوقح رفعة ! فماذا يكون الخبيث ؟ انه النحاس المفتقر المهان ! ومن هو الشيخ ؟
انه الكيمياء التي لا حدّ لها .
فلئن كان النحاس غير متقبل للاكسير ، فان الإكسير لا يغدو قط نحاسا بفعل النحاس .

3345 وماذا يكون الخبيث ؟ انه العنيد الناريّ الفعل ! ومن الشيخ ؟
انه بحر الأزل بعينه ! والنار دائمة الخوف من الماء أما الماء ، فهل خاف قط من اللهيب ؟
انك لتتفرس في وجه القمر باحثا عن عيب ! بل انك لتملتمس الأشواك في فردوس !
فيا ملتمس الشوك ! لو أنك دخلت الجنة ، فلن تجد فيها شوكة سواك .

فهل تسعى إلى تغطية الشمس بقطعة من الطين ؟ أم هل تلتمس صدعا في البدر المكتمل ؟

3350 فهذه الشمس التي تضيء الدنيا ، كيف تحتجب من أجل خفاش ! ان العيوب قد صارت - برفض الشيوخ لها - عيوبا ، والغيوب قد أضحت - بغيرتهم عليها - غيوبا ! ولو كنت بعيدا عنهم ، فكن لهم صديقا بخدمتهم أحيانا . وسارع إلى الندم ثم بادر إلى العمل .
فلعل نسيما يهب نحوك من هذا السبيل . فلماذا تدفع عن نفسك ماء الرحمة بالحسد ؟
ومهما كنت بعيدا عنهم فأظهر لهم أمارات الودّ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم (نحوهم) .

3355 فلو أن حمارا انزلق في الوجل من جراء خطوة مسرعة ، فإنه يتحرك على الدوام لكي ينهض .
وهو لا يمهد ذلك المكان من أجل الإقامة ، فقد علم أنه ليس مكانا للعيش ! فحسك كان أدنى من حسّ الحمار ، ذلك لأن قلبك لم ينهض من هذه الأوحال ! فها أنت ذا تتأول رخصة للإقامة في الوحل ، ما دمت لا تريد أن تنتزع منه قلبك ! قائلا : “ ان هذا يجوز لي فأنا مضطر ، والحق بكرمه لن يأخذني بعجزى ! “

3360 وهو في الحقيقة قد أخذك ولكنك كالضبع الأعمى لم تر أخذه إياك ، من جراء غرورك !

ان الصيادين يقولون : “ الضبع “ 1 “ غير موجود هنا ، فابحثوا عنه في الخارج فإنه ليس في كهفه “ .
يقولون هذا وهم يضعون فوقه القيود ، على حين أن الضبع يقول : “ لا خير لديهم عنى ! فلو أن هذا العدوّ كان يعرف مكاني ، فكيف كان يهتف : أين هذا الضبع ؟ “

كيف ادعى رجل ان الله تعالى لن يأخذه بالاثم
وكيف اجابه شعيب

قال رجل في عهد شعيب : “ ان الله رأى منى كثيرا من العيب !

3365 فكم من اثم شهده منى ، وكم من جرم ، لكن الله بكرمه لا يأخذني بذلك !
“ فأجابه الحق تعالى بكلام فصيح ألقاه من الغيب في أذن شعيب :
(قائلا) : “ انك قد قلت : كم ارتكبت من آثام ، لكنّ الله بكرمه لم يأخذني بجرمى !
وأنت تقلب (الحقيقة) وتقول بعكسها أيها السفيه ! يا من تخليت عن الطريق وتمسكت بالتيه ! فكم آخذك بجرمك وأنت لا تشعر بذلك ! ها أنت ذا مقيد بالسلاسل من قدميك إلى رأسك !

3370 ان الصدأ المتراكم عليك طبقة فوق طبقة - أيها الوعاء الأسود - قد خرّب سيما باطنك !

....
(1) الضبع في رأى بعض اللغويين مؤنث . وفي رأى بعضهم أنه يذكر ويؤنث . وقد أخذنا بالرأي الأخير .

لقد تراكمت فوق قلبك طبقات من الصدأ حتى أصبح أعمى عن (مشاهدة) الأسرار !
“ فلو أن هذا الدخان هبط فوق قدر جديدة لبقى أثره فوقها ، مهما قلّ هذا الأثر “ 1 “ .
ذلك لأن الشئ يتميز بضده فذلك السواد تظهر شناعته فوق البياض .
فإذا ما أصبحت القدر سوداء فمن ذا الذي يلحظ بعد ذلك تأثير الدخان عليها بالنظرة العجلي ؟

3375 ان الحداد الزنجي يكون لون الدخان من لون وجهه .
أما الرومي الذي يحترف الحدادة فوجهه يغدو أبلق من تلقى الدخان .
فهو سرعان ما يعلم تأثير الاثم ، فينوح بلهفة قائلا : “ يا الهى ! “ وحينما يلزم الاصرار ويحترف السوء فهو يذرّ الرماد في عين الفكر ، فلا يتفكر في التوبة ، ثم يصبح ذلك الجرم حلوا في مذاق قلبه ، حتى يصير مجردا من الدين ،

3380 وقد زايله ذلك الندم ، ودعاء الله وتراكمت فوق مرآته خمس طبقات من الصدأ ! وبدأ الصدأ يأكل حديدها ، كما أنه أخذ ينتقص من جوهرها ! انك حين تكتب فوق ورقة بيضاء فان هذه الكتابة تقرأ بمجرد النظر إليها .

....
(1) حرفيا : “ لبقى اثره فوقها ، ولو كان مقدار حبة من شعير “ .

فإذا ما كتت فوق كلام مكتوب ، لو يتيسر فهمه ، ووقع الخطأ في قراءته .
ذلك لأن سوادا قد وقع فوق سواد ، فاستغلق كلا الخطين ، ولم يعطيا معنى .

3385 فلو أنت كتبت فوق ذلك اللمرة الثالثة لأصبح السواد مثل روح الكافر .
فأية حيلة تكون بعد ذلك ، سوى اللجوء إلى المعين . ان اليأس نحاس اكسيره نظر (الله) .
فلتضع أمامه نوازع يأسك حتى تنجو من السقم الذي لا دواء له **!** فحينما حدث شعيب الرجل بهذه الحكم ، تفتحت في قلبه الورود بتلك الأنفاس الروحية .
فاستمعت روحه إلى وحى السماء وقال : " ان كان قد عاقبنى ، فأين علامة ذلك ؟ "

3390 فهتف شعيب : " يا رب **!** انه يجادلنى ، ويطلب علامة على مؤاخذتك إياه **!**
" فقال (الحق) : انني ستار ، فلن أذيع من أسراره الا رمزا وأحدا لأبلوه به :
ان هناك علامة واحدة على مؤاخذتى إياه ، هي أنه رجل صاحب طاعات من صوم ودعاء ، وصلاة وزكاة وغير ذلك ، لكنه ليست لديه ذرة واحدة من ذوق الروح **!**

انه يؤدى الطاعات ويقوم بسنىّ الفعال ، لكنه لا يملك ذرة واحدة من الذوق .

3395 ان طاعته نبيلة ولكنها لا تنطوى على معنى نبيل ! فالجوز كثير ولكنه لا يشتمل على لباب ! فلا بد من الذوق حتى تؤتى الطاعات ثمرا ، ولا بد من اللب حتى تنبت البذور شجرا .
فالبذرة التي لا لبّ لها كيف تصير غصنا ؟ والصورة التي لا روح لها ليست سوى خيال .

بقية قصة ذلك الغريب وطعنه في الشيخ

ان ذلك الخبيث كان يتفوه بهراء عن الشيخ ، فأحولُ النظر يكون دائما أحوال العقل ! (قائلا) : “ انني قد رأيته في أحد المجالس ، فإذا هو عار من التقوى ، مفلس منها !

3400 وان كنت لا تصدقني فانهض معي هذه الليلة ، لترى فسق شيخك عيانا !
“ واقتاده في الليل إلى احدى النوافذ ثم قال : “ تأمل هذا الفسق ، وتلك المنادمة ! تأمل ذلك النفاق بالنهار ، وهذا الفسق بالليل ! انه أثناء النهار كالمصطفي ، وفي الليل مثل أبى لهب ! ففي النهار كان اسمه “ عبد الله “ . وفي الليل أعاذنا الله منه ، وهو يحمل كأس الشراب ! “

ورأى (المريد) الكأس ممتلئة في كف الشيخ ، فقال : " واشيخاه ! أأنت أيضا من أصحاب الخداع ؟ "

3405 تو نمى گفتى كه در جام شراب * ديو مى ميزد شتابان ناشتاب " 1 "فقال الشيخ : " انهم ملؤوا كأسي على هذه الصورة ، حتى لا يبقى بها متسع لحبة من بخور " 2 " .
انظر إليها ، هل فيها متسع لذرة ؟ ولقد حمل الغرّ هذا الكلام معنى معوجا ! " فليست هذه كأس الظاهر ولا خمر الظاهر ! فما أبعد هذا عن ذلك الشيخ البصير بالغيب ! ان كأس الشراب هي وجود الشيخ أيها الأحمق ، وهذا لا يتسع لقطرة من خبث الشيطان " 3 " .

3410 انه ممتلئ طافح بنور الحق ! ولقد حطم كأس البدن ، فهو نور مطلق ! ولو أن نور الشمس وقع فوق نفاية قذرة فإنه يبقى نورا ، ولا يتقبل منها الخبث .
قال الشيخ : " ليست هذه بكأس ، وليس ما تحتويه خمرا ، فانزل الينا - أيها المنكر - ثم تأملها ! "

....
(1) أعرضنا هنا عن ترجمة هذا البيت ، حيث وجدناه غير لائق بالترجمة .
وخلاصته أن المريد قال لشيخه : " ألم تكن أنت الذي يشتد في النهى عن الشراب ؟ " .
(2) المراد أن الكأس لم يبق بها متسع لا ضافة شئ مهما صغر .
(3) ترجمنا الشطر الثاني من البيت بشئ من التصرف فعبرنا عن معناه من غير تقيد بألفاظه .

فاقترب منها فرآها عسلا صافيا فعمى (من الخجل) ذلك العدوّ الضال التعس !
حينذاك قال الشيخ لمريده : " اذهب والتمس لي خمرا ، أيها العظيم !

3415 فانى أحس بألم ، وقد أصحبت مضطرا ! لقد تجاوز بي الألم حد المخمصة !
ففي وقت الضرورة تكون كل ميتة نظيفة . فلينزل تراب اللعنة على رأس المنكر !
" فدخل ذلك المريد إلى غرفة الدنان ، وأخذ - من أجل الشيخ - يتذوق من كل دنّ ! فلم
ير في كل غرف الدنان خمرا ، فكل دنان النبيذ كانت قد غدت ممتلئة بالعسل ! فقال :
" أيها السكارى ما هذه الحال ؟ ما هذا الأمر ؟ انني لست أرى عقارا في أي دنّ ! "

3420 فأقبل جميع السكارى نحو ذلك الشيخ ، بعيون باكية وهم يضربون رؤوسهم
بأيديهم ، (قائلين) : " لقد جئت إلى حانتنا ، أيها الشيخ الأجل ، فأصبحت - بقدومك -
جملة خمورنا عسلا ! لقد أبدلت الخمر ، (وطهرتها) من الدنس ! فأبدل نفوسنا أيضا
(وطهرها) من الخبث ! " فلو أن العالم امتلأ بالدماء حتى طفح ، فمتى كان عبد الله
يشرب غير الحلال !

كيف قالت عائشة رضي الله عنها للمصطفي عليه السلام :
انك تؤدي الصلاة في كل مكان بدون مصلى

قالت عائشة ذات يوم للرسول : " يا رسول الله ! انك في العلن والخفاء ،

3425 تصلى في كل مكان تجده ! وقد يتجول في الدار النجس والدنىء ، وذات الحيض والطفل والملوث القذر ، وهؤلاء يلوثون كل مكان يقربونه .
فقال الرسول : " اعلمى أن الله يصنع للكبراء من النجس طهرا .
فلطف الحق - من هذا الوجه - قد طهر لي مكان السجود حتى السماء السابعة !
" فحذار ، حذار لا تضمر حسدا الملوك (الروح) ، والا غدوت شيطانا في هذه الدنيا !

3430 فان (الواحد منهم) لو شرب سما لصار شهدا ، على حين أنك لو شربت شهدا لغدا سما ! انه قيد تبدل حاله وتغير ، فأصبح لطفا ، وصارت جلمة ناره نورا !
فأبابيلُ الطير كانت (تنعم) بقوة من الحق ، والا فكيف يقتل طائر فيلا ؟
ان جماعة من صغار الطير قد هزمت جيشا ، وذلك لكي تعلم أن تلك الصلابة كانت من الحق !

فان اعتراك وسواس من هذا القبيل ، فاذهب ، واقرأ سورة الفيل .

3435 وان أنت سلكت (إزاء العارف) سبيل المراء والمطاولة ، فانسبنى إلى الكفر لو أنك نجوت برأسك من هؤلاء (العارفين) .

كيف سحب الفار مقود الجمل وكيف اعتراه العجب بنفسه

خطف فأر صغير بكفه مقود جمل ثم غدا منطلقا بدافع من المراء ! فانطلق الجمل معه بما لديه من سرعة ، فاغتر بذلك الفأر وظن نفسه من الأبطال ! وسرى شعاع من تفكير الفأر إلى الجمل ، فقال (هامسا) : “ اهنأ الآن بالا ، ولسوف أكشف أمرك “ . (ومضى الفأر) حتى وصل إلى شاطىء نهر عظيم ، يضعف أمامه كل أسد وكل ذئب ،

3440 فتوقف هناك الفأر وجمد ، فقال له الجمل : “ يا رفيق الجبل والصحراء ! ما هذا التوقف ؟ ولماذا أنت حائر ؟ ضع قدمك بشجاعة في النهر ثم تقدم ! انك دليلي ومرشدي ، فلا تتوقف في وسط الطريق وتسكن ! “ فقال (الفأر) : “ ان هذا ماء هائل عميق وأخشى أن أغرق فيه ، أيها الرفيق ! “

فقال الجمل : “ دعني أختبر هذا الماء “ ، ثم سرعان ما وضع في الماء قدمه ،

3445 وأردف قائلا : “ ان الماء يبلغ الركبة ، أيها الفأر الأعمى **!** فلماذا بقيت حيران ، وخرجت عن صوابك ؟ “ فقال (الفأر) : “ انه بالقياس إليك نملة ، وهو بالنسبة اليّ تنين ، فهناك فروق بين ركبة وأخرى .
فما كان بالنسبة لك يبلغ الركبة - أيها المفضال - فهو يعلو مائة ذراع فوق قمة رأسي **!**
“ فقال الجمل : “ فلا تتوقح بعد ذلك مرة أخرى ، حتى لا يحترق جسمك وروحك بهذا الشرر **!** وليكن مراؤك مع أمثالك من الجرذان ، فليس يكون للفأر حديث مع الجمل .

3450 فقال (الفأر) : “ لقد تبت ، فهلا تصدقت على وجزت بي هذا الماء المهلك “ .
فاستشعر الجمل الرحمة بالفأر ، وقال له : “ الآن اقفز واجلس فوق سنامي .
ان العبور أصبح منوطا بي ، وأنا (قدير) على أن أحمل عبر النهر آلافا مثلك **!** “ فما دمت لست برسول فامش على الطريق ، لعلك تنتقل “ 1 “ ذات يوم من بئر (الشهوات) إلى مستقر الجاه **!**

....
(1) حرفيا : “ تصل “ .

وكن من الرعية ، ما دمت لست بسلطان . ولا تقد السفينة بنفسك ما دمت لست القبطان !

3455 وطالما لم تكن مكتملا فلا تنفرد بتجارة “ 1 “ . وكن لينا في الأيدي (كالعجين) لتصبح خيمرا .
وكن صامتا ، وأصغ لما أمر به الخالق من الانصات وما دمت لست لسان الحق ، فكن أذنا ! وإذا تكلمت فليكن كلامك على صورة استفسار . وكن كالمسكين في حديثك مع هؤلاء الملوك “ 2 “ .
ان الشهوة هي بداية الكبر والحقد ، ورسوخ الشهوة ينشأ من الاعتياد عليها .
فإذا رسخت عندك بحكم العادة خليقة سيئة ، ينتابك الغضب على من (يسعى) لا قتلاعها منك !

3460 فما دمت قد غدوت آكلا للطين فكل من سعى لا قتلاعك من الطين صار عدوا لك ! وعباد الصنم ، حين رسِّخوا خلائقهم في تلك العبادة ، أصبحوا أعداء لمن اعترض سبيلهم إلى الصنم ! وإبليس - إذ كان قد اعتاد على التخلق بالرئاسة - نظر إلى آدم بعين الانكار ، قائلا : “ أيوجد رئيس آخر أعظم قدرا منى ، حتى يتسحق أن يسجد له كائن مثلي ؟

....

(1) حرفيا : بدكان .
(2) الملوك هنا هم المرشدون الروحيون .

ان الرئاسة سم الا بالنسبة لتلك الروح التي تكون من البداية مترعة بالترياق !

3465 فلو كان الجبل مليئا بالثعابين فلا تخش شيئا ما دام في الباطن ترياق غزير ! فإذا ما أصبحت الرئاسة نديما لدماغك ، فكل من خالفك صار لك خصما قديما ! ولو أن انسانا تكلم على خلاف طبعك ، لثار في نفسك نحوه كثير من الأحقاد ! (قائلا) : " انه يريد أن يقتلعنى من أخلاقي ! انه يريد أن يجعل منى تلميذا وتابعا له ! " فلو لم يكن الخلق السيّء قد أصبح راسخا ، فيكف كان بيت النار يشتعل من (مجرد) خلاف !

3470 وقد يسعى (هذا) إلى مداراة المخالف ، ويجعل لنفسه مكانة في قلب من خالفه ! ذلك لأن الخلق السيّء قد أصبح متمكنا منه ، وصارت نملة الشهوة - بتحكم العادة - مثل الثعبان ! فاقتل - من البداية - ثعبان الشهودة ، والا فهاك ثعبانك ، وقد أصبح تنينا ! لكن كل انسان يرى ثعبان نفسه نملة ! فالتمس عند صاحب قلب تفسيرا لحال نفسك ! فما لم يصبح النحاس ذهبا فلن يعرف أنه (كان) نحاسا ! وما لم يغد القلب ملكا فلن يعرف أنه (كان) مفلسا !

3475 فاجعل نفسك النحاسية خادمة للاكسير ، واحتمل الجور - أيها القلب - ممن تملك .
فمن مالك القلب ؟ ان أهل القلوب (هم مالكوه) فاعلم ذلك جيدا ، وان هؤلاء ليهربون من الدنيا كالنهار والليل ! ولا يكن منك ذم لمن كان لله عبدا ! ولا تتهم الملك بأنه أحد اللصوص !

كرامات ذلك الدوريش الذي اتهم بالسرقة في أحدى السفن

كان درويش في احدى السفن ، وقد اتخذ لنفسه من بضاعة الرجولة ظهيرا .
وضاعت صرة من الذهب، وكان نائما ، ففتشوا الجميع، وهو أيضا ووجه بذلك “1“ .

3480 (إذ قالوا) : “ فلنفتش أيضا هذا الفقير النائم “ ، فأيقظه صاحب المال (الملتاع) بالحزن .
(قائلا) : “ لقد فقدت في هذه السفينة صرة (من الذهب) وقد فتشنا الجيمع ولا خلاص لك من ذلك ! فاخلع دلقك وتعرّ منه ، حتى تبرأ من ظن السوء بك أوهام الخلق ! فقال (الدرويش) : “ يا رب ، ان هؤلاء الأخساء قد اتهموا غلامك ، فأنفذ ارادتك ! “

....
(1) حرفيا : “ وهو أيضا ظهر له ذلك “ .

وحينما تملك الألم قلب الدرويش من جراء ذلك ، ظهرت برؤوسها - على الفور - في كل ناحية

3485 آلاف الأسماك من البحر الخضم ، وفي فم كل منها درة عظيمة ! فهاتيك الألوف من أسماك البحر العميق ، كانت كل منها تحمل بفمها درة ، وأية درة ! لقد كانت كل درة تعدل خراج مملكة ، وان هذا (العطاء) من الله ، ولا صلة له بسواه ! فنثر في السفينة درّا كثيرا ، ثم قفز واتخذ الهواء كرسيا ، وجلس ! وتربع سعيدا فوقه كأنه ملك فوق عرشه ! لقد كان في أوج رفيع ، والسفينة أمامه !

3490 وقال : “ اذهبوا ، فالسفينة لكم ، والله لي ! فلا ينبغي أن يكون في صحبتكم لص متسول ! (ولننظر) لمن تكون الخسارة في هذا الفرق ! انى سعيد لا تصالى بالحق ، وانفرادى عن الناس ! فهو لن يرميني بتهمة السرقة ، ولا هو يسلم قيادى إلى نمام ! “ فهتف أهل السفينة قائلين : “ أيها الهمام ! كيف أعطيت هذا المقام العالي ؟ “ فقال : “ كان ذلك بسبب القائكم التهمة على الفقير ، واغضابكم الحق من أجل شئ حقير !

3495 حاش لله . بل ذلك كان لتعظيم الملوك (الروحيين) فانى لم أكن سيّء الظن بالفقراء ،

هؤلاء الفقراء ، ذوى اللطف والأنفاس الطيبة الذين نزلت في تعظيمهم (سورة) عبس “ .
ان التصوف ليس من أجل (اجتناب) تعقيد (الحياة) ، بل التصوف لأنه ليس من موجود حق سوى الله ! فكيف أتهم من جلعهم الحق أمناء على خزائن السماء السابعة ؟
ان التهمة توجه إلى النفس لا إلى العقل الشريف ! المتهم هو الحس ، وليس النور اللطيف !

3500 النفس سوفسطائية فاضربها ، فالضرب هو الذي ينفعها ، لا الجدل والحجاج !
فهي ترى معجزة فيشتعل (بها الوجد) حينذاك ، ثم تعود فتقول :
“ ان ذلك لم يكن سوى خيال ! ولو أن هذه الرؤية العجب كانت حقيقة للبثت أمام العين صباح مساء ! “ وهذه تكون مقيمة أمام أعين الطاهرين ، وليست تكون قط قرينة لعين الحيوان “ 1 “ .
فان هذه المعجزة تحتقر هذا الحس وتزدريه . وكيف يكون مقر الطاووس حفرة ضيقة ؟

3505 (وهأنذا أسكت) حتى لا تنعتنى بالاسراف في القول . وأنا لا أقول الا لمحة “ 2 “ (مما ينبغي قوله) ، فكائما هي همسة “ 3 “ !

....

(1) العين الحسية .
(2) حرفيا : “ وانا لا أقول الا واحدا بالمائة . . “ .
(3) حرفيا : “ فكأنما هذه شعرة “ .

كيف ذم الصوفية امام الشيخ ذلك الرفيق الذي كان يكثر من الكلام
[بيان القصة]

ندد بعض الصوفية بواحد من رفقائهم وتوجهوا إلى شيخ الزاوية ، وقالوا للشيخ :
" اطلب الانصاف لأرواحنا من ذلك الصوفي ، أيها المرشد **!** " فقال الشيخ : " وما هي الشكوى ، أيها الصوفية " . فقالوا :
" ان لهذا الصوفي ثلاث صفات ثقال :
انه في الكلام متتابع النطق مثل الجرس ، وفي الأكل يأكل أكثر مما يأكله عشرون رجلا ،

3510 وإذا نام فهو مثل أصحاب الكهف **!** " ، فهكذا احتشد الصوفية عند الشيخ .
فوجه الشيخ وجهه نحو هذا الدرويش ، (وقال) : " خُذ من كل حال وسطه **!** لقد جاء في الخبر أن خير الأمور أوساطها . والأخلاط تكون نافعة باعتدالها .
فلو عرض ما يزيد واحدا من هذه الأخلاط ، ظهر المرض في جسم الانسان .
ولا تزد عن قرينك في احدى صفاتك ، فان هذا يأتي بالفراق يقينا في عاقبة الأمر .

3515 لقد كان نطق موسى متزنا ، لكنه - مع ذلك - جاء أكثر من نطق رفيقه الطيب .

فهذا الاكثار مع الخضر جاء بالشقاق ، فقال (لموسى) : " اذهب فإنك مكثر ! هذا فراق بيني وبينك ! يا موسى ! ان تكثر من الكلام فابتعد عنىّ ! والا فكن معي كمن لا ينطق ولا يرى ! وان أنت لم تذهب بل أقمت على الرغم منى ، فأنت (من جهة) المعنى قد ذهبت ، وانقطعت عنى ! " انك حين تنقض وضوءك في الصلاة تأمرك (الصلاة) بأن تسارع إلى الوضوء .

3520 فان أنت لم تذهب أصبحت متحركا بدون جدوى . لقد ذهبت صلاتك ، فاجلس أيها الغوى ! ولتذهب إلى هؤلاء الذين هم قرناؤك ، فهؤلاء هم المتعشقون لقولك ، الظامئون اليه .
ان الحارس لأكثر فضلا من النيام ، وأسماك (بحر الروح) لا حاجة بها إلى حارس .
والذين يرتدون الثياب يتطلعون إلى الغاسل ، وأما الروح العاري فله رونق بالتجلي .
فابتعد عن جانب هؤلاء العراة ، أو كن مثلهم متحررا من رداء البدن .

3525 وان لم تستطع أن تتعرى على الوجه الأكمل ، فأقلل من الثياب حتى تسلك السبيل الأوسط .

كيف اعتذر الدوريش للشيخ

لقد ذكر هذا الفقير عذره للشيخ ، وجعل هذا العذر قرينا لذلك الملام .
وأجاب على أسئلة الشيخ باجابات لطيفة صائبة كاجابات الخضر ، تلك الإجابات التي رد بها على سؤالات الكليم ، فباح بها لموسى ، وهي من لدن رب عليم .
فحل له مشكلاته ، وأعطاه - فوق ذلك - مفتاحا لحل جميع المشكلات !

3530 ولقد كان لهذا الدرويش أيضا ميراث من الخضر ، فأطلق همته في جواب الشيخ .
وقال : " برغم أن الطريق الأوسط هو الحكمة ، لكن الوسط أيضا أمر نسبىّ .
فماء النهر يكون (عمقه) قليلا بالنسبة للجمل ، لكنه يكون بالقياس إلى الفأر مثل اليم .
وكل من كان له اشتهاء لأربعة أرغفة ، ثم أكل اثنين أو ثلاثة ، فذلك يكون من التوسط .
فان أكل الأربعة كان بعيدا عن حد الوسط ، فهو أسير للحرص مثل البط .

3535 وكل من كان اشتهاؤه لعشرة أرغفة ، ثم أكل ستة فاعلم أنه قد سلك سبيلا وسطا .
وحينما يكون اشتهائي خمسين رغيفا ، واشتهاؤك ستة ، فلسنا متكافئين (في القوة) .

فربما يعييك أنت أداء عشر ركعات ، على حين لا يضنينى أداء خمسمائة ركعة ! وهذا يسير إلى الكعبة حافى القدمين ، على حين أن سواه يعييه الذهاب إلى المسجد ! وهذا يهب الروح بسخاء وسواه كاد الجود برغيف يزهق روحه !

3540 ان الوسط يقترن بكل ما كان متناهيا ، فهذا يكون له أول وآخر .
فالبداية والنهاية ضروريتان حتى يمكن أن يتصور الوسط فيما بينهما .
وغير المتناهى - وهو لا يكون له طرفان - كيف يمكن أن يحدد له وسط ؟
فلا أحد يعرف له بداية أو نهاية ." قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مداداً لكَلمات رَبِّي لَنَفدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلماتُ رَبِّي "" 1 " .
ولو صارت البحار السبعة كلها مدادا ، فليس هناك قط توقع لنفادها !

3545 ولو صارت البساتين والغابات كلها أقلاما (تسجل) فلن تتناقص قط تلك الكلمات ! فالحبر والأقلام مآلها جميعا إلى النفاد ، وتبقى هذه الكلمات التي لا يحصيها عدّ ! ان حالتي قد تشبه النوم ! أحيانا ، لكن الضال يحسبها نوما .
فاعلم أن عيني نائمة وقلبي يقظان ! اعلم أنني دائب العمل وان ظهرت لك (وكأنني) بدون عمل !

....
(1) الكهف ، 18 : 109 .

ولقد قال الرسول : " ان عيني تنامان ولا ينام قلبي " " 1 " .

3550 فعيناك يقظتان ولكن قلبك غارق في النوم . أما أنا فعيناى غافيتان ، وقلبي (مترقب) فتح الباب ! ان قلبي له خمس حواس أخرى ، والعالمان كلاهما مشهد لحواس القلب ! فلا تنظر إلى من خلال ضعفك ، فما كان بالنسبة إليك ليلا فهو ذاته بالنسبة لي مثل الضحى ! انه بالنسبة إليك سجن ، وهذا السجن هو بالنسبة اليّ مثل البستان . ولقد صار انشغالك ذاته عندي فراغا ! وقدماك في الوحل ، أما أنا فقد صار الطين عندي وردا ! وأنت في مأتم ، وأنا في فرحة وطبول !

3555 وأنا أسكن الأرض معك في مكان واحد ، لكنني أنطلق (دونك) إلى السماء السابعة ، مثل زحل .
ولست (في الحقيقة) جليسك ، بل ذلك ظلى ! وان منزلتي لأسمى من أن تبلغها الأفكار ! ذلك لأننى قد تجاوزت الأفكار ، وأصبحت منطلقا خارج نطاقها ! ولقد أصبحت حاكما على الأفكار ، لا محكوما بها ، ذلك لأن الباني يكون هو المتحكم في البناء ! أما جملة الخلق فهم مسخرون للفكر ، ولهذا فإنهم عليلو القلوب محترفون للأحزان .

....
(1) المنهج القوى ، ج 2 ، 652 .

3560 وانى لأسلم نفسي - عن قصد - للأفكار ، لكنني أقفز من بينها ، حينما أريد .
انني طائر القمم ، وليس الفكر الا بعوضة ! فكيف يكون للبعوضة سلطان عليّ ؟
وربما أنزل - عن قصد - من الأوج الرفيع ، حتى يلتف حولى من تحطمت سيقانهم .
وحينما يعتريني الملال من سفلى الصفات ، أحلق كما تفعل الطيور الصافات “ 1 “ !
وان جناحيّ قد نبتا أيضا من ذاتي ، فأنا لا ألصق حولى جناحين بالغراء .

3565 فهكذا كان لجعفر الطيار جناحان محلقان ! أما جعفر العيار فكان له جناحان كاذبان ! فهذا (القول) - عند من لم يتذوقه - ليس الا دعوى ، لكنه - عند سكان السماء - معنى ! ان هذا يكون هراء ودعوى في نظر الغراب ، فالوعاء الخاوي أو الممتلىء يكونان سواء أمام الذباب .
فما دامت اللقم تتحول فيك إلى جوهر ، فلا تنكمش وكل على قدر طاقتك .
ان شيخا أراد ذات يوم أن يدفع سوء الظن ، فتقيأ في وعاء ، فامتلأ الوعاء بالدر .

....

(1) انظر : سورة الملك ، 67 : 19 .

3570 فالشيخ البصير قد جعل الجور المعقول محسوسا لكي (يفهم المعترض) القليل العقل .
وإذا ما أصبح الطعام النقى ملوثا في معدتك فضع قفلا على حلقك ثم خبيء المفتاح .
أما كل من تحولت فيه اللقم إلى نور جليل ، فليأكل ما أراد فهذا له حلال !

بيان تلك الدعوى التي تكون ذاتها دليل صدقها

لئن كنت صفيا لروحى ، فان قولي الحافل بالمعنى ليس من قبيل الدعوى .
فلو قلت لك في منتصف الليل : “ انى أمامك ، فلا تخف من الليل انى قريبك “ .

3575 لكان لكل دعوى من هاتين معنى عندك ، ما دمت تعرف صوت قريبك .
فكل من المواجهة والقربى كانت دعوى ، لكن كلا منهما كان لها معناها في الفهم السحن .
وقرب الصوت يقوم شاهدا على أن هذا الكلام ينطلق من صديق مجاور لك .
ولذة صوت القربى أيضا جاءت شاهداً على صدق ذلك القريب العزيز .

أما الأحمق المجرد من الالهام ، ذلك الذي - من جراء جهله - لا يعرف صوت الغريب من القريب ،

3580 تكون الدعوى عنده مقصورة على قول القائل ، ولهذا فان جهله صار مصدر انكاره .
أما بالنسبة للذكى - الذي أشرقت في باطنه الأنوار - فان هذا الصوت ذاته يكون معنى مستقيماً .
وكذلك لو تكلم بالعربية رجل عربى اللسان ، (قائلا) : “ انني أعرف لغة العرب “ ، فان نطقة العربي ذاته يكون معنى ، مع أن (قوله) انه يعرف العربية يكون (من قبيل) الدعوى .
أو كتب كاتب فوق ورقة : “ انني كاتب ، قارىء ، من أهل الفضل “ ،

3585 فان هذه الكتابة - وان كانت في ذاتها دعوى - تكون أيضاً شاهداً على المعنى .
أو يقول صوفي : “ انك قد رأيت بالأمس رجلا يحمل سجادة فوق كتفه ، ولقد كنت أنا هذا الرجل ، فما حدثتك به في حلمك وأنت نائم ، من شرح للنظر ، أصغ اليه ، واجعله قرطاً في أذنك ، واتخذ كلماتي تلك مرشدا لعقلك “ .
فأنت - حين تستعيد ذكر هذا المنام - يكون هذا الكلام - بالنسبة إليك - معجزة جديدة ، وذهباً قديماً .

3590 ومع أن هذا يبدو وكأنه دعوى (من القائل) ، لكن روح صاحب

الواقعة “ 1 “ تؤكد ثبوتها .
فالحكمة إذ كانت ضالة المؤمن ، فإنه يوقن بها حين يسمعها من أي انسان ! وهو - حينما يجد نفسه وحده في مواجهتها - كيف يتطرق اليه الشك ؟ وكيف يخطئ نفسه ؟ انك حين تقول لظمآن : “ سارع ، فان في القدح ماء ، ولتبادر بأخذه “ ، فهل يمكن أن يقول الك الظمآن : “ هذا (مجرد) دعوى ! فابتعد عنى - أيها المدعى - وفارقني !

3595 أو قدّم لي شاهداً وحجة على أن هذا من جنس الماء ، وأنه من ذلك الماء المعين ! “ وهب أن أماً قالت لطفها الرضيع : “ هلم اليّ ، انني والدتك هيا أيها الولد ! “ ، فهل يقول الطفل : “ أيتها الأم ، قدمي الحجة حتى أطمئن إلى حليبك ؟ “ فكل أُمَّة في قلبها مذاق من الحق ، يكون وجه النبي وصوته هما المعجزة ! فحينما ينادى النبىّ بدعوته في الظاهر ، تسجد أرواح الأمة في الباطن .

3600 ذلك لأن أذن الروح لا تكون قد سمعت جنس قوله من انسان آخر ، في هذه الدنيا .

....
(1) الرجل الذي رأى الحلم .

فهذه الغربية بتذوقها صوت الغريب تسمع من كلام الحق قوله :"فَإِنِّي قَرِيبٌ"" 1 " .

كيف سجد يحيى عليه السلام في بطن أمه
للمسيح عليه السلام

قالت أم يحيى - وهي لا تزال حاملا به - لمريم في الخفاء :
" انى أرى بعين اليقين ملكيا في بطنك ، يكون من أولى العزم ، ورسولا نبيا .
فأنا - حينما أصبحت قريبة منك - سارع الجنين في بطني إلى السجود .

3605 ان هذا الجنين قد سجد لذلك الجنين ، فوقع الألم في جسدي من جراء سجوده !
" فقالت مريم : " انني قد أحسست أيضا بسجود هذا الجنين في بطني " .

إثارة اشكال حول هذه القصة

ان أهل الغفلة يقولون : " هذه خرافة ، فاضرب عنها صفحا ، فإنها كذب وخطأ .
فمريم - أثناء حملها - لم تتصل بانسان قط . وهي لم ترجع قط من خارج المدينة .

....

(1) انظر : سورة البقرة ، 2 : 186 .

فهذه المرأة الحلوة المنطق لم تدخل المدينة قبل أن تضع حملها

3610 فلما ولدته حملته على صدرها وأتت به قومها .
فأين أبصرتها أم يحيى لتتحدث إليها بتلك الكلمات عما جرى ؟ “

جواب الاشكال

فليعلم (المعترض) أن ما هو غائب في الآفاق ، يكون حاضرا لأهل الخاطر ! فأم يحيى تجيء في نظر مريم ، برغم أنها تكون بعيدة عن مرأى بصرها ، فالمرء يستطيع أن يرى الحبيب ، وعيناه مغمضتان ، وذلك إذا ما استطاع أن يكف جسده “ 1 “ عن الحركة .

3615 فإن لم ير الحبيب رؤية الظاهر ولا رؤية الباطن ، فاقتبس من هذه الحكاية معناها ، أيها الضعيف ! (ولا تكن) كمن سمع بعض الأقاصيص ، فتمسك بحرفيتها تمسك “ الشين “ بلفظة “ نقش “ .
(قائلا) : “ كيف تكلِّم كليلة هذا بدون لسان ؟ وكيف استمع إلى كلام من دمنة ، وقد كان ذلك عاجزا عن البيان ؟
وهب أن كلامنهما كان يفهم لحن الآخر ، فيكف استطاع البشر أن يفهموا هذا وهو ليس بنطق ! وكيف استطاع دمنة أن يكون رسولا بين الأسد والثور ، ويسمع كلا منهما بيانه ؟

....
(1) حرفيا : جلده . ومعنى كف الجسد عن الحركة : ان يهدا الانسان ، ويخلد إلى التأمل .

3620 وكيف صار ذلك الثور النبيل وزيرا للأسد ؟ وكيف صار الفيل وجلا من خيال القمر ؟
ان كليلة ودمنة هذا كله افتراء ، والا فكيف وقع الجدال بين الغراب واللقلق ؟
يا أخي ! ان القصة مثل المكيال ، والمعنى فيها مثل الحب في المكيال .
فالرجل العاقل يأخذ حصاد المعنى ، ولا ينظر إلى المكيال ، وان كان (وسيلة) النقل .
فاستمع إلى ما يدور بين البلبل والوردة ، ومع أنه ليس هناك كلام صريح !

قول الكلام بلسان الحال وفهم ذلك الكلام

3625 استمع أيضا لما يدور بين الشمعة والفراشة ، واقتبس “ 1 “ معناه ، أيها المليح .
فمع أنه ليس هناك قول مسموع ، فهناك سر القول ، فتنبه وحلق نحو القمم ، ولا تتهاو كالبومة في طيرانك ! لقد قال لا عب الشطرنج : “ هذا بيت الرخ “ ، فأجابه (المتمسك بالحرفية) : “ ومن أين له هذا البيت ، وكيف امتلكه ؟ “ هل اشترى هذا البيت أم حصل عليه بالإرث ؟ “ فما أسعد ذلك الرجل الذي يسارع إلى المعنى !

....

(1) حرفيا : “ واختر . . . “ .

لقد قال النحوي : " ضرب زيد عمرا " ، فقال (الأحمق) :
" ولماذا أدبه بدون جرم ؟

3630 ماذا كان جرم عمرو ؟ ان زيدا الفظّ قد ضربه - بدون جرم - كما يُضرب الغلام " .
فأجابه (النحوي) : " ان هذا (الكلام) مكيال للمعنى فخذ من المكيال ما به من قمح ، ورد المكيال ! ان زيدا وعمرا (هنا) وسيلة لتعلم الاعراب ، ومهما يكن هذا (القول) كذبا ، فاتخذه وسيلة إلى الاعراب " .
فقال (الأحمق) : " لا ! انني لست أعرف كيف ضرب زيد عمرا بدون ذنب ولا خطأ " فانصرف النحوي إلى اللهو - بعد أن يئس - وقال : " ان عمرا كان قد سرق واوا زائدة ،

3635 وعلم زيد بذلك ، فضرب السارق ، فما دام هذا قد تجاوز الحد ، فقد حق عليه الحد ! "

كيف يلقى كلام الباطل قبولا في قلوب أهل الباطل

فقال (الأحمق) : " هذا هو الصواب ، وقد تقبلته بروحي ! " ان المعوج يظهر مستقيما في نظر المعوجين ! فلو أنك قلت لأحول ان القمر واحد ، لقال لك : " بل هناك قمران ، فالشك يحيط بتفرد القمر ! ولو أراد شخص أن يسخر منه لقال له : ان هناك قمرين ، فيصدقه (الأحمق) ، فهذا لائق بطبيعته الخسيسة !

ان الكذب يتجمع حول أهل الكذب ، وقوله تعالى :" الْخَبيثاتُ للْخَبيثينَ "" 1 " يلقى ضوءا على ذلك .

3640 وأصحاب القلوب الرحبة لهم أياد رحبة " 2 " ، أما من عميت عيونهم فليس لهم الا العثار فوق الصخور .

البحث عن تلك الشجرة التي لا يذوق الموت كل من أكل من ثمارها

[بيان الحكاية]
قال عالم على سبيل الحكاية : " ان في بلاد الهند شجرة ، كل من أكل من ثمارها أو حملها لا يشيخ ولا يتطرق اليه الموت ! " وسمع بهذا أحد الملوك من رجل صادق ، فأصبح عاشقا للشجرة وثمارها ! فأرسل في طلبها رسولا عالما من ديوان الأدب إلى بلاد الهند .

3645 ودار رسول الملك هذا حول بلاد الهند سنين (قضاها) في البحث والطلب . لقد طوف من مدينة لأخرى بحثا من هذا المطلوب ولم يدع جزيرة ولا جبلا ولا صحراء ! وكلما سأل انسانا سخر منه قائلا : " من إذ الذي يبحث عن هذه سوى مجنون مكبل بالقيود ؟ " وكان كثير من الناس يصفعونه ساخرين ! وكثيرون قالوا له : " يا صاحب الفلاح !

....
(1) انظر : سورة النور ، 24 : 26 .
(2) يقصد : " بالأيادي الرحبة " هنا القدرات الواسعة .

أرجل ذكى صافي الفؤاد مثلك يكون بحثه هكذا خاويا (من المعنى) جزافا ؟ "

3650 وهذا (اللون) من المراعاة " 1 " كان صفعا آخر ، بل إنه لأشد من الصفع الصريح ! لقد كانوا يمدحونه - بسخرية - قائلين : أيها العظيم ! في مكان كذا توجد شجرة شامخة غليظة ! بل عينوا غابة ذكروا أن بها شجرة خضراء ، عظيمة الطول والعرض غليظة الأغصان ! ان رسول الملك - الذي كان ينقب بجد بالغ " 2 " - أخذ يستمع من كل شخص إلى لون من الخبر .
ولقد قاضى سنين في السياحة هناك ، وكان الملك يبعث اليه بالأموال .

3655 ولما ازداد عناؤه في تلك الغربة عجز في آخر الأمر عن ادراك الطلب .
فلم يظهر قط أي أثر لمقصوده ! ولم ينكشف من هذا المطلب شئ سوى الخبر !
فانقطع بذلك خيط أمله ، وأصبح ملتَمسُه ولا سيبل إلى التماسه في عاقبة الأمر .
فعزم على العودة إلى الملك ، ومضى ينثر الدموع وهو مندفع على الطريق .

....

(1) الأدب المفتعل .
(2) حرفيا : " ان رسول الملك الذي كان عقد زناره للبحث . . . "

كيف شرح الشيخ سر هذه الشجرة للطالب المقلد

وكان هناك شيخ عالم وقطب كريم ، في ذلك المنزل (من الطريق) حيث يئس نديم الملك .

3660 (فحدث نفسه) قائلا : “ انني يائس فلأذهب اليه ، ثم أنطلق من عتبته إلى الطريق ، حتى يكون دعاؤه رفيقا على الطريق ، ما دمتُ قد أصحبت يائسا من مطلوبى “ .
شو تقدم نحو الشيخ بعين مليئة بالدمع . لقد كان يمطر الدموع كالسحاب .
وقال : “ أيها الشيخ ! هذا وقت الرحمة والرقة ! انني يائس وهذه الساعة هي أوان اللطف ! “ فقال له : “ فخبرني ، من أي أمر قنوطك ؟ وما هو مطلوبك ؟ وإلى أي شئ وجهتك ؟ “

3665 فقال : “ لقد اختارني الملك ، لأبحث عن شجرة وارفة الأفنان .
انها شجرة نادرة في كل الجهات ، فاكهتها هي سر ماء الحياة ! ولقد بحثت عنها سنين فلم أجد لها أثرا ، (ولم أظفر) الا باستهزاء العابثين وسخرهم ! “ فضحك الشيخ وقال : “ يا سليم القلب ! ان هذا هي شجرة العلم (المنطوية) في العليم ! “ انها سامقة عظيمة منبسطة وارفة ! انها ماء الحياة من البحر المحيط !

3670 ولقد قصدت إليها بالصورة ، فضلت السبيل ! انك لم تجدها لأنك تركت المعنى ! وهي حينا تدعى “ شجرة “ ، وحينا “ شمسا “ ، وحينا “ بحرا “ ، وحينا “ سحابا “ ! انها واحدة “ 1 “ انبعثت منها لاف الآثار ! ان أقل آثارها حياة الخلود ! وان لها ألف أثر ، مع أنها واحدة انها واحدة جديرة بما لا يحصى من الأسماء ! فهذا شخص واحد يكون لك أبا ، وهو بالنسبة لشخص آخر يكون ابنا .

3675 وهو - بالقياس إلى شخص ثالث - قاهر وعدو ، وبالقياس إلى سواه لطيف طيب ! فهذا الآدمي الواحد تكون له آلاف الأسماء ، والمدرك لكل أوصافه يكون عاجزا عن وصفه ! فكل من طلب الاسم - وان كان من الثقات - أصبح مثلك يائسا مشتت (الفكر) .
فلماذا تشبثت أنت باسم هذه الشجرة ، حتى بقيت مرّ الأماني ، تعس الطالع ! دعك من الاسم وانظر إلى الصفات ، حتى تهديك الصفات إلى سبيل الذات !

....

(1) شجرة العلم .

3680 ان اختلاف الخلق يقع من جراء الأسماء ، فإذا ما تقدموا نحو المعنى ساد الوئام .

كيف تنازع أربعة اشخاص حول العنب لأن كلا منهم كان يعرفه باسم مختلف عما يعرفه الآخر

[بيان أصل القصة]

أعطى رجل درهما لأربعة أشخاص ، فقال أحدهم (وكان فارسيا) :
" سأشترى بهذا انكور " " 1 " .
فقال ثانيهم ، وكان عربيا : " انى أريد عنبا ، لا أنكور ، أيها الخبيث " .
فقال ثالثهم ، وكان تركيا : " أنا لا أريد عنبا ، بل أريد (اوزوم " " 2 " .
فقال رابعهم وكان روميا : " دعونا من هذا القول ، فنحن نريد (استافيل " 3 ") " .

3685 وأدى التنازع بين هؤلاء إلى العراك ذلك لأنهم كانوا غافلين عن سر الأسماء .
وأخذ هؤلاء من جراء حماقتهم - يتلاكمون ، فقد كانوا مفعمين بالجهل ، خاوين من المعرفة فلو كان هناك رجل متعدد اللغات - من أصحاب السر الأعزاء - لأقر بينهم الصلح !

....

(1) " انكور " كلمة فارسية ، معناها " عنب "
(2) اسم العنب بالتركية .
(3) اسم العنب باليونانية .

ولكان قال لهم : “ سوف أحقق رغائبكم جميعا بهذا الدرهم الواحد ! فإنكم لو أسلمتم إلى قلوبكم ، مجردة من الحقد ، لصنع درهمكم الكثير من أجلكم .

3690 ولأصبح درهمكم الواحد (منفِّذا) لأربع رغاب ! ولصار أربعة أعداء - بالاتحاد - رجلا واحدا ! ان قول كل واحد منكم يجر إلى الخصومة والفراق ! وقولي أنا يقر بينكم الوفاق ! فاسكتوا أنتم وكونوا منصتين ، حتى أكون أنا لسانكم في القول والكلام ! “ فمع أن كلامكم قد يكون وثيق التوافق ، فان أثره يكون جرثومة النزاع والفرقة ! ان الحرارة المستعارة لا تولد أثرا ، أما الحرارة الطبيعية فلها الفضل (الحقيقي) .

3695 فلو أنك أدفأت الخل بالنار ، فأنت حين تشربه تزداد - بدون شك - احساسا ببرودته .
ذلك لأن حرارته تلك ظاهرية (مفتلعلة) ، وطبيعة أصله البرودة والحدة .
ولو كان الدبس مثلجا - يا بنى - فإنك حين تشربه يزيد الحرارة في كبدك .
وعلى هذا ، يكون رياء الشيخ خيرا من اخلاصنا ، لأنه يكون عن بصيرة ، على حين أن اخلاصنا لا بصيرة فيه !

ان حديث الشيخ يؤدى إلى الوفاق ، وحديث أهل الحسد يثير الشقاق .

3700 كمثل سليمان الذي النطلق (برسالته) من جانب الحق - وكان يعرف منطق الطير كافة - ففي زمان عدله أنس الغزال إلى النمر ، وانصرفا عن الصراع وأصبحت الحمامة آمنة من مخالب الباز ! ولم يكن للحمل من الذئب احتراز ! لقد أصبح سليمان وسيطا بين المتعادين ، وساد الوفاق بين الطير كافة .
وهاأنت ذا كالنملة ، تجرى وراء حبة . أفق ، وابحث عن سليمان ! لماذا تبقى غويا ؟

3705 ان طالب الحبة ، تكون الحبة له شركا ، وأما طالب سليمان فيظفر بكليهما (سليمان والحبة) ! وأطيار النفوس - في هذا الزمن الأخير - لا يأمن أي منها سواه لحظة واحدة ! ولزماننا هذا أيضا سليمان ، وهو الذي يقر الوئام ، فلا يبقى لدنيا جور ! فاذكر قوله تعالى :" وَإِنْ منْ أُمَّةٍ إلَّا خَلا فيها نَذيرٌ "" 1 " .
(ومعنى ذلك) أنه قال : " ان أمتي لا تكون خالية من خليفة حق ، وصاحب همة " .

....
(1) فاطر ، 35 : 24 .

3710 فهو الذي يجعل طيور الأرواح ، وكأنها قلب واحد **!** هو الذي يجعلها - بصفائها - متحررة من الغش والأحقاد **!** فتصبح ذات شفقة كأنها والدة **!** ولقد قال (الرسول) :
“ المؤمنون كنفس واحدة “ .
لقد صاروا نفسا واحدة (بفضل) الرسول الحق ، والا ، فان كلا منهم كان عدوا مطلقا لسواه .

ارتفاع الخلاف والعداوة من بين الأنصار ببركات الرسول صلى الله عليه وسلم

القبيلتان اللتان عرفتا باسم الأوس والخزرج ، كانت كل منهما متعطشة لدماء الأخرى .
وبفضل المصطفى تلاشت أحقادهم القدمية في نور الاسلام والصفاء .

3715 ففي البداية أصبح هؤلاء الأعداء اخوانا ، مثل حبات العنب في البستان .
وبنصحه إياهم (بقوله تعالى : “ انما المؤمنون اخوة “ ، تكسرت (هذه الوحدات المنفصلة) فأصبحوا جسدا واحدا .
ان الاخوان شبيهون بصورة حبات العنب ، وهذه حين تعتصر ، تصبح رحيقا واحدا .
وهناك تضاد بين العنب الناضج والعنب الفج ، فإذا ما نضج العنب الفج صار رفيقا طيبا .

أما العنب الذي يبقى صلبا كالحجارة فجا فان الحق هو الذي سما كافرا أصيلا ، منذ الأزل .

3720 فهذا ليس بأخ ، ولا هو ضمن نطاق النفس الواحدة . ان يكون في شقاوته تعسا ملحدا .
فلو أنني تحدثت عما يضمره في الخفاء لثارت في الدنيا فتنة للأفهام .
فمن الأفضل ألا يذكر سر ذلك الكافر الأعمى ! فخير لنا ان يكون دخان الجحيم بعيدا عن ارم “ 1 “ .
ان الأعناب الفجة الطيبة هي تلك التي تكون قابلة (للنضج) ، فهذه هي التي تغدو - في عاقبة الأمر - قلبا واحدا ، بأنفاس أهل القلوب .
انها تندفع مسرعة نحو طبيعة الأعناب الناضجة ، حتى تزول الثنائية والحقد والصراع .

3725 ثم هي في حال النضج تمزق جلودها ، حتى تتحد ، وتصير الوحدة صفة لها .
ان الصديق يصبح عدوا طالما كان ثنائيا . وليس هناك واحد قط يكون في حرب مع ذاته .
فتبارك عشق ذلك الأستاذ الكلى “ 2 “ ، الذي وحد مئات الألوف من الذرات !

....

(1) ارم مدينة عاد ، وكانت ذات فخامة أسطورية . وقد استعيرت هنا رمزا للجنة .
(2) فضلنا رواية “ كلى اوستاد “ على “ كل اوستاد “ .

انها كانت مبعثرة كالتراب فوق الطريق ، فجعلتها يد الخزاف ابريقا واحدا ! (ومع ذلك) فاتحاد الأجسام المفطورة من الماء والطين يكون ناقصا ، فليس اتحاد الأرواح شبيها بذلك .

3730 ولو أنني ذكرت هنا نظائر على سبيل المثال ، لخشيت أن تدفع الفهم إلى الاختلال .
فهنا الآن سليمان ، لكننا نحن في عمى من افراطنا في بعد النظر ! فالنظر إلى البعيد يصيب الانسان بالعمى ، كما يكون النائم في القصر أعمى عن القصر .
اننا مولعون بدقيق الكلام ، متعشقون لحل المشكلات ، إلى حد أننا نعقد الأمور ثم نعمل على حلها ، ونضع الكثير من القواعد للمشكلات وحلها !

3735 كطائر يحل عقد الشباك ، ثم يربطها حينا ليصبح مكتمل البراعة فهذا يكون محروما من الغياض والمروج ، تنقضى حياته في معالجة العقد .
وفي الحق أنه ليس يهن أمامه أي شرك قط ، بل إن جناحيه يتكسران على الدوام .
فأقلل من مصارعة العقد حتى لا تتقطع قوادمك وخوافيك من جراء كرك وفرك .
ان مئات الألوف من الطير قد حطمت أجنحتها ، ومع ذلك فهي لم تغلق كمين العوارض هذا !

3740 فاقرأ عن حالها في القرآن أيها الحريص ! وانظر قوله تعالى :

“ فَنَقَّبُوا في الْبلاد هَلْ منْ مَحيصٍ ““ 1 “ .
ان نزاع التركي والرومي والعربي لم يحل مشكلة “ الأنكور “ “ 2 “ والعنب .
وما لم يتدخل سليمان اللسَن المعنوي فان هذه الثنائية لن تزول ! فيا جماعة الطير المتنازعة ! استعموا كالبزاة لذلك الطبل الذي يقرعه للباز المليك ! فهلموا من كل جانب ، وانطلقوا من خلافاتكم سعداء نحو الاتحاد !

3745 حيثما كنتم فولوا وجهكم * نحوه هذا الذي لم ينهكم “ 3 “اننا طيور عيماء ، وما أبعدنا عن النضج ، ذلك لأننا غفلنا لحظة عن معرفة سليمان ! لقد صرنا كالبوم أعداء للبزاة ، فلا غرو أننا تخلفنا وأصبحنا من سكان الخراب ! واننا من فرط ما نعانى من جهل وعمى نتعمد ايقاع الأذى بأعزاء الله .
فجماعة الطير التي استنارت بنور سليمان ، كيف تقتلع لبرىء قوادمه وخوافيه ؟

3750 انها لتحمل الحبِّ للعاجزين فهذه الطيور الطبية قد برئت من الخلاف والحقد .

....
(1) انظر : سورة ق ، 50 : 36 .
(2) “ انكور “ كلمة فارسية ، معناها “ عنب “ .
(3) هذا البيت عربى في الأصل . وفيه اقتباس من القرآن الكريم . انظر : سورة البقرة ، 2 : 144 ، 150 .

وهدهد هؤلاء - من أجل التقديس - يقتحم طريق مائة مثل بلقيس ! وأما غرابهم فهو - وان كان في صورة الغراب - باز في همته ، وما زاغ " 1 " (عن السبيل) ! ولقلق هؤلاء الذي يصيح " لك ، لك " ينفث في الشك نيران التوحيد ! وحمامتهم لا خوف عندها من جوارح الطير ! ان الباز ليحنى رأسه أمام تلك الحمامة !

3755 وبلبل هؤلاء الذي يثير الشجون ، يضم في باطنه حديقة ورد ! وأما ببغاؤهم فكانت دائما متحررة من السُكرَّ . فقد تجلى لها من باطنها قند الخلود ! وسيقان طواويسهم تبدو للنظر أحلى من أجنحة سائر الطواويس ! ان منطق الطيور الملكية ليس الا صدى . فأين منطق طيور سليمان ؟
فأنى لك أن تعرف منطق الطير ما دمت لم تر سليمان لحظة واحدة ؟

3760 ان ذلك الطائر الذي يطربك نشيده قد تجاوز جناحه المشرق والمغرب ! فكل نداء له يمتد من الكرسي إلى الثرى ، وهو من الثرى حتى العرش في كروفر ! وأما الطائر الذي يمضى في غير سبيل سليمان ، فهو عاشق للظلمة ، مثل الخفاش .

....
(1) انظر : سورة النجم ، 53 : 17 .

فاجعل نفسك أليفا لسليمان ، أيها الخفاش المرتد ، حتى لا تبقى مخلدا في الظلام .
فلو أنت خطوت ذراعا واحدة في تلك السبيل لغدوت كالذراع أساسا للقياس !

3765 وان قفزت نحو ذلك الجانب - وأنت أعرج متعثر الخطى - خلصت من كل عاهاتك وأمر اضك !

قصة افراخ البط التي ربتها الطيور الأليفة

انك سليل البط ، مع أن طائرا أليفا أظلك بجناحه ورباك لقد كانت أمك من بط البحار ، وأما مربيك فكان ترابيا ، يعشق الجفاف .
فذلك الميل للبحار الكامن في قلبك ليس سوى طبيعة لروحك قبستها من أمك .
وأما ميلك للجفاف فهو من مربيك ، فدعك من هذا المربى فإنه سيء الرأي .

3770 دع هذا المربى فوق اليبس ، وتقدم ! وخض مثل البط بحر المعاني ! ومهما حذرتك أمك من الماء فلا تخف ، بل انطلق مسرعا نحو البحر .
انك من جنس البط ، تعيش فوق اليبس ، وفوق الماء ولست كالطائر الأليف مأواك حفرة (في الثرى) .

انك مليك (على مقتضى قوله تعالى) :” كَرَّمْنا بَني آدَمَ ““ 1 “ وانك لتضع قدمك فوق اليابسة وفوق البحر على السواء ! فأنت في روحك (ممن شملهم معنى قوله) :” وَحَمَلْناهُمْ في الْبَرِّ وَالْبَحْر ““ 2 “ . فتقدم إلى الأمام متخليا عن الثرى .

3775 فليس للملائكة سبيل إلى البر ، كما أن جنس الحيوان لا علم له بالبحر .
انك في الجسم حيوان ولكنك بروحك من الملائكة ، وبذلك يستوى عندك السير فوق الأرض وكذلك فوق الفلك .
وهكذا يكون البصير الذي يوحى إلى قلبه - في ظاهره - بشرا مثلكم .
فهيكلة الترابى قد سقط على الأرض ، وأما روحه فدائرة في ذلك الفلك العلوي .
اننا جميعا طيور مائية ، أيها الغلام . وان البحر ليعلم لغتنا حق العلم !

3780 فالبحر جاء (بالنسبة لنا) شبيها بسليمان ، ونحن كالطير . وفي سليمان سيكون مسيرنا حتى الأبد .
فلتخص البحر بقدميك مع سليمان حتى يضع الماء لك مائة درع شبيهة بما صنع داود .
وان سليمان هذا الماثل أمام الجميع ، لكن الغيرة ساحرة تحجب البصر !

....
(1) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : “ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر “ الآية . (سورة الإسراء ، 17 : 70) .
(2) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : “ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر “ الآية . (سورة الإسراء ، 17 : 70) .

انه أمامنا ، ونحن في ملال منه ، وذلك من جراء جهلنا وغفلتنا وفضولنا ! فهزيم الرعد يصيب الظامىء بألم الرأس ما دام لا يعلم أن هذا يجر وراءه سحاب السعد .

3785 فتبقى عينه متطلعة إلى النهر الجاري ، ولا علم له بمذاق ماء السماء .
لقد حث مركب همته نحو الأسباب ، فلا جرم أنه قد بقي محروما من مسبب الأسباب .
وأما ذلك الذي يرى المسبب عيانا فكيف يسلم قلبه إلى الأسباب الدنيوية ؟

كيف عجب الحجاج من كرامات ذلك الزاهد
الذي وجدوه منفردا في البادية

عكف زاهد في وسط البيداء ، وكان مستغرقا في العبادة كأهل عبادان .
ووصل الحجاج من شتى البلاد إلى ذلك المكان ، ووقعت أعينهم على ذلك الزاهد الضامر .

3790 ان مكان الزاهد كان مقفرا من الماء لكن الزاهد كان ندىَّ المزاج ، فوقاه هذا من سموم البادية ! ولقد تحير الحُجاج في أمر وحدته ، وفيما نعم به من سلامة بين الآفات !

لقد كان واقفا يصلى فوق الرمال ، تلك الرمال التي يجيش بحرها ماء الإبريق .
وكأنما كان ثملا وسط الخضرة والورود ، أو كأنه قد امتطى صهوة البراق أو دلدل
“ 1 “ ! وكأنما قدماه كانتا فوق الحرير والحلل ، أو كأن ريح السموم كانت عنده ألطف من ريح الصبا !

3795 فوقف الحجاج ينتظرونه وأما هو فقد بقي واقفا في الصلاة وقد استغرق في فكر طويل ! وحينما عاد هذا الفقير من استغراقه الفكري ، فان واحدا من تلك الجماعة - كان حتى القلب مشرق الضمير - أبصر الماء يقطر من يديه ووجهه ، كما أبصر ثيابه مبللة من آثار الوضوء ! فسأله : “ من أين لك الماء ؟ “ ، فرفع يده مشيرا إلى أنه من السماء .
فقال : “ وهل يجيئك حين تطلبه بدون بئر ولا حبل من مسد ؟

3800 ألا فلتحل مشكلنا يا سلطان الدين ، فلعل حالك يلهمنا اليقين ! واكشف لنا سرا من أسرارك حتى نقطِّع عن أو ساطنا الزنانير “ “ 2 “ .
فتوجه الزاهد ببصره نحو السماء قائلا : “ يا الهى ! أجب دعاء الحجاج !

....
(1) دلدل اسم بغلة كانت للرسول وقيل كانت للامام علي بن أبى طالب
(2) “ تقطيع الزنار “ هنا كناية عن اعتناق الاسلام . ومعنى البيت هو :
ان هؤلاء الحجاج طلبوا من الزاهد أن يكشف لهم سرا من أسراره ليكون هاديا لهم إلى الايمان الحق .

لقد اعتدت أن ألتمس الرزق من السماء . وانك أنت الذي فتحت لي في السماء بابا ! يا من أظهرت المكان من اللامكان ، وجعلتنا نعاين (معنى قولك) :” وَفي السَّماء رِزْقُكُمْ “” 1 “ .

3805 وبينما هو في تلك المناجاة إذا بسحابة لطيفة قد ظهرت مسرعة ، كفيل يحمل ماء ! وأخذت تمطر الماء وكأنما كان ينصب من أفواه القرب ! ثم استقر الماء في الحفر والكهوف ! لقد كانت السحابة تسكب الدموع ، كما تنصب القرب ، وأما الحجاج فإنهم جميعا فتحوا قربهم .
فمن جراء تلك الفعال العجبية أخذ جماعة منهم يمزقون زنانيرهم .
وجماعة أخرى زاد يقينها بتلك العجائب ، والله أعلم بالرشاد .

3810 وجماعة ثالثة لم تتقبل ، فهؤلاء أهل مرارة “ 2 “ وفجاجة ، وهم في نقص سرمدي . وهنا تم الكلام .

تمت ترجمة الكتاب الثاني من المثنوي

....
(1) الذاريات ، 51 : 22 .
(2) حرفيا : “ أهل حموضة . . . “ .

شُروح وَدرَاسَات
[لأبيات الكتاب الثاني]

.

المقدمة :

قدم جلال الدين للكتاب الثاني من المثنوى بمقدمة قصيرة بين فيها السبب في تأخير نظمه بعض الوقت . ومن المعروف أن الكتاب الثاني قد جاء بعد عامين من الكتاب الأول ، وقد حدود الشاعر تاريخ البدء فيه بعام 662 ه كما هو مذكور في المقدمة المنظومة . وذكر الأفلاكى أن جلال الدين قد انقطع عن النظم بعد اكمال الكتاب الأول ، لأن تلميذه حسام الدين كان قد فقد زوجته ، واستلسم إلى الحزن نتيجة لذلك .

وقد اختتم جلال الدين الكتاب الأول بأبيات تشيع فيها سحابة من الحزن ، ولكنه لم يذكر بصراحة مأساة تلميذه ، على النحو الذي بينه الأفلاكى .

وها نحن أولاء نراه في مقدمة الكتاب الثاني يذكر أن الحكمة الإلهية تتكشف للعبد بمقدار ، حتى يتاح له تذوقها وادراكها ، كما يذكر أن الحكمة الإلهية لو كشفت للانسان بصورة متكاملة لحطمت ادراكه ، لأنه يعجز عن تلقيها دفعة واحدة . ولعله يستوحى هذه الفكرة من نزول الرسالات منجمة على الأنبياء . والعارفون - الذين يقولون بتلقى الهام من الخالق لن يكون موقفهم في تلقى هذا الالهام أقوى من موقف الرسل .

فالشاعر يقرر هنا أن اصدار الكتاب الثاني من المثنوى كان لا بد أن تسبقه فترة كافية من التأمل والتفكر .

[شرح من بيت 1 إلى بيت 150]

(1) ذكر الشاعر في البيت الأرض تأخره في نظم الكتاب الثاني من المثنوى ، لكنه يعتذر عن ذلك بأن الحكمة لا بد لها من أن تمكث في فكر الشاعر وقلبه فترة كافية ليستطيع تقديمها سائغة وللعقول والأفهام . ان الدم يحتاج إلى مهلة ليتحول إلى حليب . وكذلك لا بد للحكمة أن تمكث في فكر الشاعر وقلبه فترة كافية قبل ان يستطيع أن يقدم للعقول حكمة روحية لطيفة يستخلصها من تجاربه كما يستخلص الحليب من الدم .
والصورة المادية في البيت تشير إلى اقتباس من آية كريمة . قال تعالى : " وان لكم في الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين " . (النحل ، 16 : 66) .
ويصدق تصور الشاعر هذا على كل ابداع فنىّ . فلا بد لكل عمل فنى أصيل أن ينضج في نفس صاحبه ، قبل أن يتخذ صورته . فالعجلة والتسرع يهبطان بمستوى الأعمال الفنية . وهناك أعمال فنية عظيمة تم انجازها في أسابيع قليلة ، ومن أمثال ذلك السيمفونيات الثلاث الأخيرة لموتزارت (رقم 39 ، 40 ، 41) . ولكن هذا الانجاز السريع لا ينفي أن هذا الفنان قد جاشت في نفسه هذه الأنعام فترة طويلة من الزمن ، ولم يخرجها إلى الوجود الا بعد أن نضجت وتحددت معالمها الفنية المتكاملة .
(2) ما لم ترزق الهاما جديدا ، فإنك لن نستطيع أن تستنبط هذه الحكمة الروحية ، مما يحيط بك من مظاهر العالم المادىّ ، فالالهام الروحي هو مصدر المعرفة عند الصوفية .
(3) يرتبط نظم المثنوى عند الشاعر بتلميذه حسن حسام الدين .
وكانت عودته اليه - بعد انقطاع - أحد العوامل التي حثت الشاعر على اسئناف النظم . وقد عبر عن هذه العودة بأنها كانت عودة من أوج السماء . وليس في هذا البيت إشارة إلى أحزان حسام الدين من جراء

فقد امرأته . واكتفى الشاعر هنا بأن أشار إلى أن حسام الدين كان قد انطلق إلى آفاق التأمل الروحي .
(4) انصراف حسام الدين إلى التأمل ، وانقطاعه عن أستاذه بعض الوقت ، كان في نظر جلال الدين عروجا إلى آفاق الحقائق . ولقد انقطع الشاعر عن نظم المثنوى ابان غيبة تلميذه . وقد شبه تلميذه بالربيع الذي اقترن به تفتح الأزاهير في رياض الشعر ، وفي غيبته لم تكن تتفتح البراعم .
(5) صورة أخرى لسعادة الشاعر بعودة تلميذه . لقد كان مستغرفا في بحر الروح ، وها هوذا يعود إلى الساحل ، إلى عالمنا الدنيوي ، فكانت هذا العودة مصدر بهجة روحية ، تمثلت في انطلاق المثنوى بأنغامة وألحانه .
(6) " يوم الاستفتاح " يقصد به هنا أنه يوم يلتمس فيه انفتاح باب إلى العالم الروحي .
(7) استخدم الشاعر كلمة " التجارة " هنا لتدل على معنى روحي .
وهو استعمال مستوجى من القرآن الكريم .
قال تعالى : " ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور " . (فاطر ، 35 : 29) .
انظر أيضا : (سورة الصف ، 61 : 10) .
وهذا البيت يتضمن أيضا تحديدا صريحا لتاريخ بدء الكتاب الثاني من المثنوى ، وهو عام 662 هـ .
(8) يشير الشاعر بهذا البيت إلى ما مرّ به حسام الدين من تطور روحي . لقد النطلق إلى التأمل الروحي ، وكان بلبلا غريدا ، يتغنى فرجع بعد أن أصبح طائرا قويا كالباز ، قديرا على اصطياد المعاني .
(9) استعار الشاعر هنا صورة الملك الذي يمده ساعده للباز ، طائر الصيد ، فيقبل ذلك الطائر ويقف فوق ساعد الملك . لقد كانت الطيور

الجوارح تدرب على الصيد ، وتستأنس بحيث تلبى دعاء صاحبها ، وتقف فوق ساعده . وكانت هذه الرياضة منتشرة بين ملوك العلام الاسلامي في القرون الوسطى . وقد استخدم جلال الدين الباز هنا رمزا لحسام الدين . أما قوله :
" فليكن ساعد الملك مسكنا لهذا الباز " ، فمعناه : لتكن قوة الله مؤيدة لهذا الباز الروحي حسام الدين ويكثر في شعر جلال الدين استخدام نداء المليك للباز رمزا لنداء الله الروح .
وأما قوله : " وليبق هذا الباب مفتوحا . . . " فالباب هنا يقصد به السبيل إلى عالم الروح . والشاعر يلتمس هنا بقاء ذلك الباب مفتوحا حتى الأبد .
(10) الهوى والشهوة هما اللذان يغلقان السبيل أمام الانسان ، ويحولان بينه وبين التأمل الروحي ، وهما اللذان يحرمان الانسان من تذوق لذات الروح . وقد رمز بالشراب إلى لذات الروح .
(11) انتقل الشاعر هنا إلى تصوير لذات الحس وأثرها على الروح ، فعبر عن ذلك بصور فنية . فالفهم والحلق هما الرباط الذي يحجب العالم الروحي عن العين . وهذا التعبير الموجز ينطوى على مضمون واسع .
فالفم والحلق رمز للتعلق بلذات الحس . والتعلق بتلك الملاذ معناه اغلاق السبيل أمام التأمل الروحي . وغنى عن البيان أن الفم والحلق لا يعنيان مجرد الغذاء الضروري ، وانما المقصود بهما النهم ، ذلك النهم والاسراف في المتع الحسية ، وما ينطوى عليه من تبلد الاحساس الروحي .
(12) تعبيره عن الفم بأنه فوهة النار تشبيه للفم بالجحيم . فالنهم الجشع لا يشبع مهما نال من حظ مادي ، بل يبقى على الدوام في تطلع إلى المزيد . وهكذا جهنم . قال تعالى : " " يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل مزيد " . (ق ، 50 : 30) .
أما قوله بأن الدنيا شبيهة بالبرزخ ، فصورة مستوحاة من البرزخ

الذي يفصل بين الجنة والنار ، يمشى فوقه الناس يوم القيامة ، ومنهم من ينتقل منه إلى الناس ، ومنهم من ينتقل منه إلى الجنة . فالناس مجتمعون في هذه الدنيا ، وقد اختلط الأخيار بالأشرار كاختلاطهم على البرزخ يوم القيامة . وهناك شبه آخر بين الدينا وبين البرزخ . فالدنيا مزرعة الآخرة وعمل الانسان فيها هو الذي يقوده إلى الجنة أو إلى النار . فهي أيضا برزخ إلى الآخرة ، يمر فيها الناس حيث يتحدد مصيرهم بمقتضى ما قدموه من أعمال .
والدنيا تشبه البرزخ من وجه آخر ، لأن الدنيا ليست دار إقامة ، وكذلك البرزخ ، لا إقامة فيه ، وانما هو مكان للعبور إلى الجنة أو إلى النار .
(13) العالم المادي ليس منفصلا عن عالم الروح . بل هناك اتصال وثيق بينهما . فالخير والشر قد اختلطا في هذه الدنيا .
والانسان - وهو أعظم المخلوقات - قد ارتبط الروح فيه بالجسد .
وقد شبه الشاعر هذا التجاوز بين العالم المادي والروحي بما يكون من تجاور بين أوعية الدم وأوعية الحليب داخل الجسد .
(14) إذا جعلت للمطالب المادية سبيلا إلى الروح ، وسلطانا عليها ، تلوثت الروح ، كما يتلوث الحليب حين يختلط بالدماء . فيجب ان تبقى الروح طاهرة نقية من المادة ، برغم ملابستها للجسد . ويجب أن تبقى لها سبيلها المتحررة من المادة ، كما يكون للحليب مجراه الخاص برغم مجاورته لأوعية الدماء .
(15) زلة آدم مثال خالد لتغلب شهوة النفس على الروح . فمخالفته صريح الأمر الإلهي ، بدافع من شهوة النفس ، كانت سببا في خروجه من الجنة . وكل انسان غلبت شهوة الحس روحه فقد أصبح أسير جحيم الشهوات ، وكتب عليه فراق جنة الروح .
(18) آدم الذي علمه الله الأسماء وكشف له أسرار المعرفة " 1 " كان

....
(1) انظر : سورة البقرة ، 2 : 31 - 33 .

وقوعه في الخطيئة أمرا جللا . ومع أن الذنب الذي ارتكبه كان هينا في ظاهره فإنه كان عظيما لأنه وقع من آدم . لقد كان كالشعرة التي نبتت في العين ، ليست في ذاتها شيئا ، لكن وقوعها في العين يجعلها شديدة الايلام .

(19) روى القرآن الكريم طرفا من اعتذار آدم وزوجه . قال تعالى :
“ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لكنونن من الخاسرين “ .
(الأعراف ، 7 : 23) .
ويروى عن وهب بن منبه بأنه قال : “ سجد آدم على جبل الهندي مائة عام حتى جرت دموعه في وادى سرنديب . . . ثم جاءه جبريل فقال له : ارفع رأسك فقد غفر لك فرفع رأسه . . . “ . (المنهج القوى ، ج 2 ، ص 14) .

(20) كان على آدم أن يشاور الملائكة قبل أن يقدم على الأكل من الشجرة المحرمة . فهذه المشاورة كانت بمثابة اقتران للعقل بعقل آخر ، ومثل هذا التعاون العقلي من شأنه أن يمنع سوء القول والفعل .

(21) اتباع الهوى والشهوة ، بمؤازرة الشيطان الذي يحث عليهما ، يمثل اقتران نفس أمارة بالسوء بسواها من النفوس . ومثل هذا الترابط بين النفوس الغوية يحجب العقل الانساني - وهو عقل جزئي - عن ادراك الحقيقة ويجعله عاجزا عن أداء وظيفتة .

(22) اتخذ الشاعر من اقتران العقول ، وما يؤدى اليه من صلاح ، واقتران النفوس وما يقود اليه من فساد ، منطلقا للدعوة إلى أن يتخذ المرء مرشدا عارفا . والتصوف يعتمد على المرشد في التربية ، ويدعو بحرارة إلى طاعته . والطالب يسمى في اصطلاح الصوفية مريدا وأما الأستاذ فهو الشيخ أو المرشد . وعلى هذا الأساس التعليمي نشأت الطرق الصوفية في بداية أمرها .

(24) الخلوة والتأمل وحدهما لا توصلان المريد إلى ما يطلبه من سلوك سبيل التصوف . بل عليه أن يتعلم من أحد المرشدين .

(25) رمز الشاعر بارتداء الفراء إلى الانكماش عن الناس . وقال إن ارتداء الفراء لا يكون الا ابان الشتاء . وقد اتخذ الشاعر من الشتاء رمزا إلى رفيق السوء .
أما الربيع - وهو رمز الرفيق الصالح - فلا يواجه بارتداء الفراء ، بل بالتعرض لأنسامه اللطيفة .
(26 - 27) صحبة العارفين الحكماء هي بمثابة اقتران العقول بعضها ببعض ، وفي هذا ما يزيد كلا منها نورا وادراكا . وأما صحبة الأشرار ، فشبيهة باقتران النفوس الأمارة بالسوء ، وفي هذا ما يزيد كلا منها ظلمة فوق ظلمتها .
(28 - 29) انتقل الشاعر هنا إلى التعبير عما يجب على المريد من احترام لمرشده ، والتزام للأدب في صحبتهفالمرشد هو بمثابة العين للمريد . فيجب على المريد أن يصونه عن الأذى كما يصون عينه . وعليه ألا يسئ اليه بما لا يليق من الكلام .
فالكلام القبيح كالغبار ، يثيره اللسان ، وقد شبهه الشاعر بالمكنسة ، وكلا هذين يوقعان الأذى بالعين (30) إذا بقيت نفس المرشد صافية إزاء مريده ، كان في ارشاده للمريد كالمرآة الصافية : “ فالمؤمن مرآة للمؤمن “ . والمرآة الصافية خير معين للمرء على اكتشاف ما قد يصيب وجهه من تلوث .
(31) الإساءة إلى المرشد بقبيح الكلام شبيهة - في نظر الشاعر - بالتنفس فوق صفحة المرآة . فهذا الكلام يكدر نفس المرشد كما تغشى الأنفاس صفحة المرآة .
(32) على المرآء أن يمتنع عن الكلام الذي قد يكدر نفس المرشد ، والا كان كمن يتنفس فوق صفحة المرآة فيزيل صفاءها ويغشيها .
(33) الشاعر هنا ينكر على بعض الناس قلة احساسهم . فهو يخاطب هذا النمط من الناس قائلا :
“ أأنت أقل احساسا من التربة ؟ ان هذه حين أقبل إليها الربيع ازدانت بالأزهار الجميلة ، وأبدت كل ابتهاج بصحبة هذا الرفيق المجب

إليها . فما بالك أيها الانسان لا تحسن صحبة رفيقك بل تسيء اليه في هذه الصحبة ؟

“ (34 - 35) من أمثلة الاحساس الرقيق الذي يتجلى عند غير العاقل أن الشجرة تبتهج بالربيع كل البهجة ، فترتدان بالأوراق الخضراء ، وتخضل حين مقدم هذا الرفيق الموافق . فإذا ما أقبل الخريف ، ذلك الرفيق المخالف ، غرفت في نوم عميق ، وغطت وجهها ورأسها بلحاف من السكون . وقد يكون المقصود باللحاف هنا ذلك الثلج الذي يكسو الشجرة ابان الشتاء .
(36 - 37) انتقل الشاعر في هذين البيتين إلى الموازنة بين اليقظة والنوم في مفهومه الصوفي . فالنوم عن الشرور خير من اليقظة . لكن النوم عن القيم الروحية غفلة وجهل . وهكذا يكون كل من النوم واليقظة محمودا في بعض الأحوال مذموما في سواها . فنوم أصحاب الكهف كان خيرا من اليقظة في ظل دقيانوس .
ودقيانوس هو الإمبراطور الروماني دقيوسdecius(249 - 249 - 249 - 251) ، وقد عرف باضطهاد النصارى .
(38) قوله : “ فيقظتهم كان مصروفة على دقيانوس “ ينطوى على تصوير رائع للحاكم المستبد الذي يملك على الناس حواسهم ، ويسيطر على قلوبهم بما يبثه فيها من ذعر ، فيصبح همَّ الناس وشغلهم الشاغل فيقظة أصحاب الكهف كانت كلها وقفا على هذا الملك المستبد ، لأنهم كانوا - على الدوام مهددين بفتكه يتملكهم الخوف منه أما نومهم فكان صورة نبيلة لفناء الروح في خالقها وانصرافها عن العالم الحسيّ .
(39) يقظة الحواس لا جدوى منها ، ان لم تقترن بيقظة الروح .
ان يقظة الروح هي اليقظة الحقيقة ، حتى ولو اقترنت بما قد يبدو نوما حسيا . وكذلك لا جدوى من يقظة يقضيها المرء في معاشرة الجهلاء .
(40 - 41) إذا ساد الحس طغى على الروح . ولامكان لأصحاب .

القلوب بين عبيد الحس . فلا بد للروح ، من جوّ يلائمها ، كالبلابل ، لا تنتعش الا في بستان الورد . وفي البيتين تصوير رائع .
فالغربان التي تنتشر في الفضاء ابان الشتاء تبحث عن قوتها تبدو في تجمعها وسواد لونها وكأنما هي خيمة قد ضربت في الجواء .
والغربان رمز إلى أسارى الحس ، لأنها معروفة باقبالها على الجيف وهذا عند الصوفية شبيه بتعلق أهل الحس بحطام الدنيا . أما البلابل فهي - بشدوها الجميل ورقتها - تصلح رمزا لأهل الروح .
(42 - 43) يعقد الشاعر هنا موازنة بين شمس السماء وشمس اليقظة الروحية . ان شمس السماء تضئ الجانب الذي تشرق فيه .
فهي تضئ الأرض نهارا ، ثم تنتقل منها - على ما يقول الشاعر - لتضيء ما تحت الأرض من عوالم . أما شمس الروح فليس لها انتقال ، كما أنها تخص باشراقها الروح والعقل ، وهما أسمى من الحواس .
(44) “ شمس الروح التي تشرق من ذلك الجانب “ يعنى “ شمس الروح التي تشرق من عالم الغيب ، حيث أنوار الوحي ، فهذه دأبها الاشراق الدائم “ .
(45) في البيت إشارة إلى قصة ذي القرنين ، التي وردت في القرآن الكريم .
(سورة الكهف ، 18 : 83 - 89) . وقد ذكر كثير من المفسرين أن ذا القرنين هذا هو الإسكندر المقدوني ، وبهذا دخل في تفسير هذه الآيات بعض ما يروى من الجانب الأسطوري لقصة الإسكندري . ومن المعروف أن أسطورة الإسكندر قد اتخذت صورا متعددة في آداب الأمم المختلفة .
ومن الصور العربية لهذه الأسطورة ما جاء في كتاب قصص الأنبياء للثعلبي (ص 404 - 418) . وينسب إلى الإسكندر أنه وصل إلى مغرب الشمس ثم إلى مطلع الشمس ، وفي القصة وصف تفصيلي لتلك الأماكن ، ومن كان يسكنها من الناس .
“ ومطلع الشمس “ في قول الشاعر يرمز إلى مشرق الحقيقة الروحية

فمن كانت له همة الإسكندر فليقصد إليها ، فان تحقق له ذلك غدا ، ملكا طاهرا .
(46) من وصل في تساميه الروحي إلى مرتبة الانسان الكامل أصبح كالشمس فحيثما توجه يتبعه الاشراق . ويكون اشراقه من لون فريد يفوق اشراق الشمس ، بل إن مغربه يفوق في نوره كل اشراق حسى .
(47) يوازن الشاعر هنا بين نوعين من الحس ، الحس المادىّ والحس الروحي . فأما الحس المادي فهو كالخفاش يتجه نحو الظلام ، وأما الحس الروحي فيتجه نحو النور . والاتجاه نحو الظلام كناية عن الاندفاع نحو المادة ، والعجز عن مواجهة أنوار الروح .
(48) الحس المادي الذي يتمتع به الانسان لا يختلف عن الحس المادي الذي تتمتع به الحمير أو غيرها من الدواب .
(49) الحواس الخمس التي تختلف عن الحواس الجسدية هي حواس القلب . فالصوفية يتحدثون عن ابصار وسمع بالقلب " 1 " ، وعن تذوق شراب روحىّ والتمتع بأريج غير حسى . وكل هذه الأمور تشير إلى ألوان من الادراك الغيبي والذوق الروحي . وهذا الحواس الروحية نيست ذات وجود منفصل أو محدد كالحواس الجسدية ، وانما هي مدارك قلبية ومواهب غيبية .
(50) الحس بضاعة لا تلقى رواجا في عالم الروح . فهذا العالم الروحي لا سبيل لبلوغه الا بالروح النقى الطاهر .
(52) " يا من تسعى إلى أن تتجه إلى الغيب عن طريق الحس ! هل أنت قادر على أن تفعل بالحس الجسدىّ ما فعله موسى حين أدخل يده في جيبه فخرجت بيضاء من غير سوء ؟ " وفي البيت إشارة إلى هذه المعجزة التي أظهرها موسى . انظر الآيات : (20 : 22) ، (27 : 12) ، (28 : 32) .

....

(1) ينسب إلى أبى يزيد البسطامي أنه قال : " انا أكلم الله وأسمع منه منذ ثلاثين سنة ، والناس يظنون أنى أكلمهم " . المنهج القوى ، ج 2 ، ص 26 .

وهذا البيت مرتبط بالبيت رقم 50 الذي يقول فيه الشاعر ان بضاعة الحس لا رواج لها في عالم الروح .

(53 - 55) الشاعر يخاطب الانسان الكامل بهذه الأبيات .
(53) يصف الشاعر الانسان الكامل بأن له صفات شمس المعرفة ، وهذه متعددة الصفات ، على حين أن شمس السماء لا تتصف لا بصفة واحدة هي الإضاءة الحسية .
(54) يعدد في هذا البيت بعض صفات الانسان الكامل : فهو كالشمس في الإضاءة ، وكالبحر في الاتساع والعمق ، وكجبل قاف في الرسوخ والثبات والإحاطة ، وكالعنقاء معروف الاسم خفي الذات . وجبل قاف مكان ورود في الأساطير الإيرانية التي تصوره مرتبطا بسلسلة جبلية تحيط بالأرض . (انظر : كراتشكوفسكى : الأدب الجغرافي العربي ، 1 ، 47) .
ويقول ياقوت : " قاف من قاف أثره قوفا إذا اتبع أثره ، فيكون هذا الجبل يقوف أثر الأرض فيستدير حولها . وقاف مذكور في القرآن (كذا) . ذهب المفسرون إلى أنه الجبل المحيط بالأرض " . (معجم البلدان ، مادة قاف) .
(55) يستدرك الشاعر على البيت السابق فيقول : ان هذه الصفات كلها أمور اعتبارية لتقريب المعاني إلى الأفهام ، فالانسان الكامل يتجاوز حدود الأوهام ، ويستعصى على الوصف .
(56) لا يتقيد الانسان الكامل بصفات ومعالم حسية ، وكذلك الروح لا تتقيد بصورة ولا أشكال . فلا شأن لها باللغات واختلافها ، وانما هي قرينة للعقل ، مدركة لجوهر المعرفة .
(57) يبدو أن الشاعر قد انتقل إلى مخاطبة الله في هذا البيت فهو يصفه بأنه لا صورة له ، وهو مع ذلك يتجلى في متعدد الصور .
وهذا المعنى يتمشى مع الفكر الصوفي القائم على تنزيه الخالق عن الشبيه ، لكنه ينادى في الوقت ذاته بأن الله يتجلى في كل مظهر من مظاهر الكون .

فالصوفية القائلون بوحدة الوجود لا يفصلون بين الخلق والخالق . وليس من موجود حقيقي سوى الخالق ، ولا أحد سواه يتصف بوجود حقيقي ، وكل مظاهر الكون لمع من تجلياته . ولهذا لا يتقبل الصوفية ما يقوله متكلمو المعتزلة وم سار على نهجهم ممن يتحدثون عن التوحيد بأسلوب فلسفي ينزه الله عن أية صورة من الصور ويمضون في توحيدهم الفلسفي إلى حد القول بوحدة الذات والصفات . كما لا يتقبل الصوفية مذاهب المشبهة الذين يتحدثون عن الخالق وكأنه كائن منفصل عن الوجود ، ويشبهونه بخلقه . وقد عبر ابن عربى عن فكرة الصوفية أصحاب وحدة الوجود بقوله:

ولا تنظر إلى الحق * وتعريه عن الخلق
ولا تنظر إلى الخلق * وتكسوه سوى الحق
ونزهه وشبهه * وقم في مقعد الصدق

(فصوص الحكم ، ج 1 ، ص 93).

ويقول أيضا:

فان قلت بالتنزيه كنت مقيدا * وان قلت بالتشبيه كنت محددا
وان قلت بالأمرين كنت مسددا * وكنت اماما في العلوم وسيدا

وجلال الدين لا يتحدث بمثل هذا التأكيد الصريح ، وانما يقول إن الموحد والمشبه (من بين المتكلمين) لم يدركا جوهر الحقيقة.

(58)المتكلمون بالتوحيد حينا يخطئهم التوفيق فيقعون في التشبيه ، والمشبهون قد يقولون شيئا يكون من التوحيد.

(59)العاشق الصوفي من أهل السكر قد يهتف مخاطبا محبوبه الحق بقوله:

يا صغير السن يا رطب البدن.

وهذا من قبيل الشطح.

وقوله هذا شطر من غزل ينسب إلى جلال الدين نفسه ، وقد جاء فيه:

يا غزالا بين غزلان اليمن * أنت عيني أنت روحي في البدن
يا صغير السن يا رطب البدن * يا قريب العهد من شرب اللبن
صح عند الناس أنى عاشق * غير أن لم يعرفوا عشقى لمن
روحه روحي وروحي روحه * من رأى روحين عاشا في البدن
اقطعوا وصلى وان شئتم صلوا * كل شئ منكمو عندي حسنونحن نستعبد نسبة هذا الشعر إلى جلال الدين . وهو نفسه قد نسبه إلى غيره حين قال : “ وحينا يقول لك في سكره أبو الحسن . . . “ .

(60) هذا الصوفي الذي ينطق بكلام يفهم منه التشبيه ، يكون له في الوقت ذاته سعى حثيث إلى التوحيد ، فهو يعمل على افناء ذاته متخذا ذلك سبيلا إلى التنزيه ، حيث لا يكون للعبد وجود منفصل عن الخالق .

(61 - 63) يشير الشاعر هنا إلى مذهب المعتزلة . والظاهر أنه يوجه نقده - بصورة خاصة - إلى ما ذكروه من استحالة رؤية الله بالأبصار “ 1 “ . فالمعتزلة ذهبوا إلى استحالة رؤية الله بالأبصار سواء في الدنيا أو الآخرة ، وحجتهم في ذلك أن العين الحسية المحدودة لا يمكن أن تحيط باللامحدود وهو الخالق . ويستدلون على ذلك بقوله تعالى :

“ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار “ (6 : 103) .

ويأخذ عليهم جلال الدين هذا الاتجاه في التفكير المبنى على التقيد بالحواس . فهم لا يستطيعون تصور أي لون من الابصار الروحي أو القلبي ولا سبيل إلى الابصار - في رأيهم - الا بالعين الحسية . ومن هنا نعتهم بأنهم أسارى الحسن . وينطبق هذا النقد أيضا على مذهبهم في العدل الإلهي ، وهو الذي جعل بعضهم يغالى فيقول : ان الله يجب عليه اجراء العدل ، أو أن الله غير قادر على الظلم . فمثل هذه المفهومات تصدق على الانسان وأفعاله . أما الخالق فلا يجوز التفكير في أعماله على أساس من قياسها على أعمال الناس .

ويخالف جلال الدين المعتزلة أيضا في نظرية الجبر والاختيار .

....

(1) يتضح ذلك في البيت رقم 63 .

فالانسان يكون مختارا حتى يفنى ارادته في إرادة الخالق ، وإذ ذاك يصبح بالضرورة مجبرا ، ليست له إرادة منفصلة عن إرادة خالقه .
وقد شغل المعتزلة أنفسهم بالتفكير في مسائل حسية ، وأدخلوها ضمن نطاق فلسفتهم . من أمثلة ذلك خلافهم حول قدرة الممنوع ، كما ورد في كتاب مقالات الاسلاميين للأشعرى (ج 1 ، ص 282 - 283) .
يقول :
" واختلفت المعتزلة في الممنوع : هل هو قادر أم لا على أربعة أقاويل :
(أ) فقال قائلون : إذا منع الانسان من المشي بالقيد ، ومن الخروج من البيت بغلق الباب ، فهو قادر على ذلك مع المنع بالقيد وغلق الباب ، فالمنع لا يضاد القدرة .
(ب) وقال آخرون : القدرة فيه ، ولكن لا نسميه قادرا على ما منع منه .
(ج) وقال قائلون : بل نقول : انه قادر إذا حلّ وأطلق .
(د) وقال جعفر بن حرب : الممنوع قادر ، وليس يقدر على شئ ، كما أن المنطبق جفنه بصير ولا يبصر " .
فهذا مثال من مئات الأمثلة التي حفلت بها فلسفة المعتزلة .
(64) يؤيد الشاعر مذهب أهل السنة القائلين بامكان رؤية الله بالأبصار ، وهؤلاء يستدلون على ذلك بقوله تعالى : " وجوه يؤمئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة " . (75 : 22 - 23) . يروى الأشعري عن جملة أصحاب الحديث ، وأهل السنة أنهم " يقولون : ان الله - سبحانه - يرى بالأبصار يوم القيامة ، كما يرى القمر ليلة البدر ، يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون ، لأنهم عن الله محجوبون . قال الله عز وجل : " كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون " (83 : 15) .
وان موسى - عليه السلام - سأل الله سبحانه الرؤية في الدنيا ، وان الله - سبحانه - تجلى للجبل فجعله دكا ، فأعلمه بذلك أنه لا يراه في الدنيا بل

يراه في الآخرة " . (مقالات الاسلاميين ، ج 1 ، 321 ، 322) .
ومن قول الأشعري يتضح لنا أن ايمان أهل السنة برؤية الله مقصور على الآخرة ، وأنه غير ممكن في الدنيا . والصوفية لا يستبعدون رؤية الله في الدنيا ، ويروى الأشعري صورا من أقوال الصوفية في زمانه حول رؤية الله في الدنيا ، منكرا عليهم هذه الأقوال . (انظر : حكاية قول قوم من النساك ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 319) .
ومع ذلك فجلال الدين - وهو الصوفي المتزن في عباراته وآرائه - يرى أن مذهب أهل السنة عن رؤية الله يمثل التحرر من النظرة الحسية الضيقة ، التي لا تستطيع تصور ابصار سوى ما يكون لعين الحس . والظاهر أن اتجاه جلال الدين المتحفظ شبيه باتجاه بعض الصوفية القدماء الذين كانوا يقولون عن الرؤية قولا شبيها بما قاله أهل السنة .
يقول الكلاباذي : " وأجمعوا لا يرى في الدنيا بالأبصار ولا بالقلوب الا من جهة الايقان لأنه غاية الكرامة وأفضل النعم ، ولا يجوز أن يكون ذلك الا في أفضل المكان ، ولو أعطوا في الدنيا أفضل النعم لم يكن بين الدنيا الفانية والجنة الباقية فرق ، ولما منع الله سبحانه كليمه موسى عليه السلام ذلك في الدنيا ، وكان من هو دونه أحرى . . . " . (الكلاباذي :
التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص 42 ، 43) .
(65) لو كان الابصار مقصورا على العين الحسية لكان في وسع الحيوان الأعجم أن يرى الله .
(66 - 67) يعود الشاعر هنا إلى الحديث عن " الحس الروحيّ - وهو غير الحس الجسدي الذي يشترك فيه الانسان والحيوان - ويذكر أن هذا " الحس الروحي " هو الذي ميز الانسان وجعله أهلا لتلقى الأسرار الإلهية . وقول الشاعر : " فيكف يكون الانسان مكرما . . . " يشير إلى قوله تعالى : " ولقد كرمنا بني آدم . . . " الآية . (17 : 70) .
(68) الانسان الذي يتخذ من صورته الحسية أساسا لادراك حقيقة الخالق لا بد من وقوعه في الخطأ ، لأنه سلك إلى ذلك العرفان سبيلا

خاطئة . ان على الانسان أن يتحرر من سيطرة الحواس قبل انطلاقه إلى الحديث عن الخالق .
(69) من تحرر من سلطان الحس ، وأدرك حقيقة الانسانية ، لا يبقى أسير الصورة المادية . وإذ ذاك يستطيع معرفة خالقه عن غير تقيد بالصور والأشباه .
(70) ان كنت محروما من البصيرة الروحية ، ولم تتجاوز مرتبة الحيوانية التي تعتمد في ادراكها على الحواس وحدها ، فلست مطالبا بمثل هذا الادراك الروحي ، لأنك لم توهب سبيلا اليه . ويصدق عليك قوله تعالى : " ليس على الأعمى حرج " . (48 : 17) . وأما ان كنت انسانا قادرا على شئ من الابصار الروحي ، فابذل جهدك لعلك تصل ، وكن صابرا في سعيك ، لأن الصبر مفتاح الفرج .
(71) السعي في صبر وأناة هو الذي يرفع الغشاوة عن البصر ، ويشرح الصدر ، ويجعله صالحا لتلقى أسرار الغيب .
(72) الهدف الأسمى لجهاد الحس ، ومغالبة النفس ، هو تحقيق صفاء القلب . فحين بلوغ هذه المرتبة ، تنعكس على مرآة القلب الصافية صور يتلقاها من خارج هذا العالم المادىّ .
(73) قد يبلغ القلب في صفائه درجة تتيح له مشاهدة الخلق والخالق . وتعبر كلمة " الفراش " - في الأصل الفارسي - عن الخالق .
وقد اشتق هذا الوصف للخالق من قوله تعالى : " والأرض فرشنام فنعم الماهدون " . (48 : 51) .
(74) المقصود بخيال الحبيب هنا تجلى الخالق . فقد تجلى للقلب في صورة جميلة تخلب اللب كما يخلب الصنم لبّ عابده ، ولكن هذه الصورة ذاتها هي محطمة الأصنام التي يعبدها الناس ، وتلك التي تتمثل في التلعق بالمادة ، وتعشق لذات الحس ، وغير ذلك . وقد يكون المراد بالحبيب هنا المرشد الكامل .

(75) " عندما شهدت خالقي تجلت إلى حقيقة روحي ، فالروح التي تبصر خالقها لا بد أن تكون روحا نقية طاهرة " . وقد يكون المراد أن المرشد الكامل كشف له حقيقة ذاته على اعتبار أن المؤمن مرآة للمؤمن .
(76) يعبر هذا البيت عن تعظيم المحبوب بأسلوب رمزى . فتراب أعتاب المحبوب فتنة لقلب هذا المحب . ويمثل تراب الأعتاب هذا مرحلة من مراحل القرب .
(77) " لو كانت نفسي جميلة صافية ، لائقة بهذا الوصال ، فانى أستسهل في سبيله كل مشقة . وان لم تكن نفسي كذلك ، بل كانت قبيحة ، فلن أظفر الا بسخرية الحبيب " .
(79) في البيت إشارة إلى حديث يروى عن الرسول أنه قال : " ان الله جميل يحب الجمال " .
(84 - 89) يصور الشاعر هنا ما ينتاب الانسان من حزن وهم مقيم لو أغلق قلبه عن شهود نور الله ، وسلك إلى العرفان سبيل الاستدلال بالمحسوس على غير المحسوس . يخاطب القارئ قائلا : " انك حين تغلق عينيك يتولاك الحزن . وهذا الحزن قد انبثق في نفسك لأنك فرقت بين نور العين ونور النهار . فإذا كان الفراق بين هذين النورين الفانيين يحدث من الحزن ما يدفعك إلى أن تفتح عينيك ، فكيف يكون الحزن الذي يصيبك لو أغلقت عيني قلبك ؟
ان هاتين العينين تنشدان نورا خالدا لا حدود له ، ولا بد أنك تعاني أشد أنواع الحزن لو فرقت بين نور القلب وما ينشده من لقاء النور الخالد " فهنا دعوة إلى أن يوقظ الانسان قلبه ، وينبهه إلى ما وراء الحس من عوالم الروح ، تلك التي لو أتيح له شهود أنوارها لتحققت له السعادة الخالدة .
(86) يتحدث الغزالي عن عين الظاهر وعين الباطن بقوله : " العين عينان : ظاهرة وباطنة ، فالظاهرة من عالم الحس والشهادة ، والباطنة من

عالم آخر ، وهو عالم الملكوت . ولكل عين من العينين شمس ونور عنده تصير كاملة الابصار ، إحداهما ظاهرة ، والأخرى باطنة . والظاهرة من عالم الشهادة وهي الشمس المحسوسة ، والباطنة من عالم الملكوت وهو القرآن ، وكتب الله المنزلة " . (مشكاة الأنوار ، ص 49) .
(90 - 91) على المرء أن يسعى إلى ادراك حقيقة ذاته . فهو إذا تلقى دعوة المرشد الكامل نظر إلى نفسه ليرى أهي جديرة بالارتباط به أم أنها قبيحة ، وليست أهلا لذلك ، ذلك لأن القبيح لا يليق بصحبة الجميل ، والا كان ذلك مثارا للسخرية .
(96) التمس الشاعر مرآة لبيان حقيقة روحه ، فلم تكن هذه المرآة بالنسبة له سوى وجه صديق ينتمى إلى " تلك الديار " ، وهي عالم الروح .
(98) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : " فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني من قبل هذا وكنت نسيا منسيا " . (19 : 23) .
(99) " عندما تفتح قلبي على فيض أنوارك أصبح من بعد غفلته حافلا بالرؤى " .
(104) ان بصيرة الروح لا تخطىء ، ولا يتطرق إليها خيال ولا وهم .
(105) نظرة الانسان المتعلق بلذات الحياة الدنيوية لا تكون مجردة عن الغرض ، بريئة من الهوى ، فهذه النظرة تتلون بالأغراض والرغاب التي تخضع لتأثيراتها النفس الانسانية . ولهذا يجب ألا يُلتمس الحق عند مثل هذا الانسان .
(106) العين الحسية أسيرة لما تبصره في عالم الحس ، مفتونة بما تراه ، يخدعها ظاهر العالم الحسيّ عن ادراك حقيقة ومصيره المحتوم .
(109) ان أدنى تعلق للروح بالأوهام يحجب بصيرة الروح ويجعلها غير قادرة على الابصار الواضح ، فهي ليست أقل احساسا من عين

الحس التي يتأثر ابصارها بشعرة واحدة تعترض سبيلها .

(115) القول الذي يُنسب إلى عمر في هذا البيت ، وهو : “ أنا أقدر منك على رؤية الأفلاك “ يشير إلى معنى صوفي ، وهو أن الرجل القوى الروح أقدر من سواه على ادراك الحقائق “ .
(122) ان توازن كفتى الميزان قد يكون على أساس صحيح ، وقد يكون على أساس خاطىء . فالذهب لو ووزن بالذهب فالقدران متساويان ، أما موازنة الذهب بالشعير فموازنة اعتبارية ، ولا حقيقية .
(124) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : “ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم “ . (48 : 29) .
(127) انك تشعل النار بالبخور لتخلص من الحسد ، وأولى بك أن نشعلها بمصدر ذلك الحسد . ان هؤلاء الحاسدين لشبيهون بالذئاب البشرية التي آذت يوسف ، فهم أعداء الجمال والكمال ، وهم بهذا جديرون بنار غضبك .
(128 - 131) يصور الشاعر هنا الصراع بين الانسان والشيطان بأسلوب لطيف ، وصور بارعة : الشيطان يخاطب الانسان بلطف ، وكأنه أب ناصح : فيقول له : “ يا روح أبيك ! “ ، لكن هذا الأسلوب الرقيق ، كان السبيل إلى خداع آدم . ثم تأتى بعد ذلك صورة الانسان والشيطان وهما متواجهان يلعبان الشطرنج ، ويحذر الشاعر الانسان من الشيطان بقوله : ان الشيطان أمام الشطرنج ملاعب بارع ، سريع كالغراب ، فلا تتعرض لمباراته وأنت مثقل بالكرى . انه يعرف الكثير من الألعاب البارعة ، التي تقف في حلقك ، فلا تستطيع منها خلاصاً “ . ويفسر الشاعر بعد ذلك هذه الحيل التي يستخدمها الشيطان في الخداع ، فإذا هي حب المال والجاه .
وقد وفق الشاعر في الرمز إلى الشيطان بالغراب ، فهذا الطائر بلونه الأسود ، وبما ارتبط به في الأذهان من النحس ، وما عرف عنه من اختطاف

أشياء قد لا تنفعه ، وقبح سيره وسرعة طيرانه ، يوحى للخيال بصفات تعين على تصور الشيطان .
(133) يصف الشاعر محب المال بأنه " عديم الثبات " ، ويقصد بذلك أن محب المال لا تقدر نفسه على الصمود أمام اغرائه .
(139) في البيت اقتباس من قوله تعالى : " وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون " . (2 : 216) .
(141 - 153) : القصة التي رواها الشاعر في هذه الأبيات وردت بصورة أخرى في كتاب " الهى نامه " للعطار . وقد نقل فروزانفر نص أبيات هذه القصة ، كما رواها العطار . (مآخذ قصص وتمثيلات مثنوى ، ص 43 ، 44) .
وتختلف القصة - كما رواها جلال الدين - في حوادثها ومغزاها عن قصة العطار .
فالعطار يروى أن الأبله الذي رافق عيسى طلب منه أن يعلمه اسم الله الأعظم .
فرفض عيسى في أول الأمر قائلا ان هذا لن ينفع والأبله ، لكن الرجل ألحف في الرجاء والقسم فعلمه عيسى هذا الاسم .
وبينما كان هذا الرجل الأبله سائراً في الصحراء رأى عظاما نخرة ، فأحب أن يجرب أثر الاسم عليها ، وبالفعل استطاع أن يبث فيها الحياة ، لكن هذا كان وبالا عليه ، إذ انطلق من تلك العظام أسد مفترس ، سرعان ما ضرب الرجل بمخالبه ، وقصى عليه .
وحين علم عيسى بذلك وقال لأصحابه : " ان هذا الرجل طلب من الحق ما لم تكن نفسه جديرة به ، فلم يسمح الحق بذلك . فالانسان لا يجوز له أن يطلب من الحق كل ما يطيب له ، وليس يجذر به أن يطلب سوى ما يكون على قدر استحقاقه " .
أما قصة جلال الدين فتروى أن عيسى أبى أن يعلم الأبله اسم الله الأعظم ، قائلا : ان هذا لن يجديه نفعا . فمثل هذا الاسم لا ينطق به الا من كانت

أنفاسه أنقى من المطر ، وسلوكه أقوم من سلوك الملائكة . فما كل من أمسك بعصا موسى يستطيع أن يحقق بها ما حققه موسى . وتذكر القصة بعد ذلك تعجب عيسى من هذا الرجل الذي يطلب أن يتعلم احياء الموتى ، لكي يبث الحياة في العظام النخرة ، على حين أنه تخلى عن روحه الميتة ، ولم يفطن إليها . ويكمل جلال الدين القصة بعد أن ينتهى من تفسيراتها وما يدور حولها ، ويستغرق ذلك نحو ثلاثمائة بيت ، فيذكر أن عيسى نادى باسم الحق على العظام ، فانطلق منها أسد أسود ، ضرب هذا الفتى الأبلة بمخالبه " فدمر كيانه الصوري " ثم يمضى بعد ذلك في تفسير معاني القصة . (البيت 457 وما يليه) .

(142) " الاسم السنى " هو " اسم الله الأعظم " ، ويتضح ذلك بصريح العبارة في قصة العطار . ويرد ذكر " اسم الله الأعظم " في تفسير بعض قصص القرآن ، وفي كتابات الصوفية ، وكذلك في كتابات مؤرخي الفرق الاسلامية .

وينسب إلى العارفين بهذا الاسم القدرة على احداث المعجزات .

ولهذا فقد قيل إن الأنبياء كانوا يعرفون هذا الاسم . وكذلك ينسب العلم به إلى بعض الأولياء . فمن نسب إليهم ذلك إبراهيم بن أدهم . (السلمى ، طبقات الصوفية ، ص 30 ، 31 ، 34) .

ونسب بعض غلاة الشيعة إلى قادتهم معرفة " اسم الله الأعظم " .

يقول الأشعري عن فرقة المغيرية ، أصحاب المغيرة سعيد : " يزعمون أنه كان يقول : انه نبي ، وانه كان يعلم اسم الله الأكبر . . . " (مقالات الاسلاميين ، ج 1 ، ص 68) .

ويروى ابن الأثير أن المغيرة قال : " ان الله وتعالى لما أراد أن يخلق الخلق تكلم باسمه الأعظم . . . " (الكامل ، حوادث عام 119 ، ج 4 ، ص 230) .

[شرح من بيت 150 إلى بيت 300]

(150) الأبله في هذه القصة يمثل رجلا ميت الروح طغت عليه

حواسه .
(151) ان هذا الأبله كان يسعى إلى احياء العظام النخرة التي رآها في الجب ، في حين أن روحه كانت ميتة ، فلم يلتفت إليها ، وما كان أحراه بأن يلتمس العون لنفسه من عيسى ، وبذلك يبدأ باصلاح نفسه قبل أن يسعى لاصلاح غيره .
(158) “ فأصبح مع رفقائه مراقباً “ أي دخل معهم حال المراقبة .
والمراقبة ، كما يقول القشيري ، هي “ علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه ، واستدامته لهذا العلم مراقبة لربه ، وهذا أصل كل خير ، ولا يكاد يصل إلى هذا الرتبة الا بعد فراغه من المحاسبة ، فإذا حاسب نفسه على ما سلف ، وأصلح حاله في الوقت ، ولازم طريق الحق ، وأحسن بينه وبين الله تعالى مراعاة القلب ، وحفظ مع الله تعالى الأنفاس ، راقب الله تعالى في عموم أحواله ، فيعلم أنه سبحانه عليه رقيب ، ومن قلبه قريب ، يعلم أحواله ، ويرى أفعاله ، ويسمع أقواله ، ومن تغافل عن هذه الجملة ، فهو بمعزل عن بداية الوصلة ، فكيف عن حقائق القربة “ .
(الرسالة القشيرية ، ص 87) . وانظر أيضا : (السراج : اللمع ، ص 82 ، 83) ، (الأنصاري : مشارق أنوار القلوب ، ص 78 - 79) .
وقوله : “ وان حضور الرفيق لدفتر ، بل أكثر من ذلك “ ، يشير إلى طريقة الصوفية في التعلم من المرشد ، فالتصوف معرفة ، وسلوك يتلقاهما المريد عن المرشد في أول الأمر ، ثم يسلك بعد ذلك سبل التأمل والمجاهدة . فالرابطة بين الصوفية رابطة محكمة ، وهي عندهم أهم في تحصيل العرفان من الكتاب والدفتر .
(159) قلب الصوفي - حين يصبح نقيا من علائق المادة - يغدو كالمرآة ، تتجلى فيه شتى المعارف ، وتشرق عليه الحقائق . ولا حاجة به حينذاك إلى دفتر ولا كتاب .
والدفتر والكتاب يرمزان إلى العلم التقليدى .
(160) العالم الدنيوي يعتمد في تحصيل علومه على آثار القلم ، أما

الصوفي فاعتماده يكون على " آثار القدم " ، أي اقتفاء سبيل المرشد حتى يتحقق له ما تحقق للمرشد . فالسلوك عند الصوفية يجئ قبل القراءة والدرس .
(161) بداية الطريق بالنسبة للمريد أن يدخل في طريق التصوف .
فهو يكون بذلك شبيها بصياد ، سار في طريق ليحقق غاية . فعليه في بداية الأمر أن يتبع آثار القدم ، وهذا المعنى يرمز إلى اقتفاء شيوخ التصوف .
(162) يكون المريد في بداية أمره قليل الخبرة وقد يقتصر سلوكه في تلك المرحلة على تقليد شيخه ، حتى إذا ما أصبح متحققا بالعرفان ، صار جوهرُ السلوك وغايته هدفاً له .
(163) المريد الذي تصدق همته في اقتفاء المرشد ، يقوده اخلاصه هذا إلى غايته ، فيصبح هو أيضا من أهل الحقيقة .
(164) عندما يصبح السالك من أهل التحقيق ، فكل خطوة يخطوها بعد ذلك تكون أعظم من مائة خطوة من خطاه أيام كان من أهل التقليد .
(165) القلب - بالنسبة للعارف الواصل - يصبح مَشرقاً لأنوار المعارف ، وسبيلا للنفوذ إلى عالم الروح ، في حين أنه يكون سدا أمام غير العارف .
(166) يصور الشاعر القلب بالنسبة للعارف ، فيقول انه باب ، ذلك لأنه مفتوح أمام أسرار الغيب ، تتكشف له المعارف اليقينية .
أما من لم يكن من أهل العرفان فقلبه مغلق يفصل بينه وبين عالم الروح ، كأنه حائط .
أما قوله : " وهو عندك كالحجر . . . " فهذا يشير إلى معان عدة . فالقلب بالنسبة للصوفى جوهر نفيس ، ولا يتركه نهبا للعبث أو الأحقاد والضغائن ، بل هو للتأمل والتفكر ، والسعي إلى الكمال . أما الانسان الغارق في ماديته فلا قيمة للقلب عنده ، فالقلب - بالنسبة له - كقطعة من الحجر . ولفظة " الحجر " هنا تفيد انحطاط

القيمة كما تشير إلى ما توصف به القلوب القاسية من غلظ يجعلها شبيهة بالأحجار . قال تعالى : “ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة “ . (2 : 74) .

(167) يعبر هذا البيت بطريقة رمزية عن معنى شبيه بقول القشيري عن الصوفية : “ مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب . . . فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور ، والذي للخلق من المعارف مقصود ، فلهم من الحق سبحانه موجود ، فهم من أهل الوصال ، والناس من أهل الاستدلال ، وهم كما قال القائل :ليلى بوجهك مشرق * وظلامه في الناس سارى

فالناس في سدف الظلا * م ونحن في ضوء النهار(الرسالة ، ص 180) .

(168) ان أرواح العارفين كانت موجودة قبل أن يخلق هذا العالم المادي ، وكانت تنعم في بحر الجود . فهؤلاء قد سلفت لهم الحسنى ، وسبق التقدير بسعادتهم .

(169) قبل أن تحل أرواح هؤلاء العارفين في الأجساد كانت قد أمضت أعمارا طويلة في عالم الروح . وقد ظفرت بنعيم الله وكرمه من قبل أن تعمل عملا تستحق عليه الجزاء . فهذا الكرم والنعيم الذي لقيته قبل حلولها في الأجساد لم يكن جزاء على عمل قامت به .

(170) لقد تكشفت لهذه الأرواح حجب المستقبل ، فعرفت ما يكون قبل أن يصبح كائنا .

(171 - 172) حين أخبر الله الملائكة باعتزامه خلق آدم ، كانت هذه الأرواح مدركة لإرادة الله . وبينما كانت الملائكة تتساءل عن حكمة الله في خلق آدم ، كانت أرواح العارفين تسخر من الملائكة .

ولقد روى القرآن الكريم اعتراض الملائكة على خلق آدم في قوله تعالى : “ وإذ قال ربك للملائكة انى جاعل في الأرض خليفة ، قالوا

أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال إني أعلم ما لا تعلمون “ . (2 : 30) .
(173) لقد كان في وسع هذه الأرواح أن تطلع على صورة ما يكون من الكائنات . فهي قبل أن تعلق بالأبدان كانت نقية من علائق المادة ، بعيدة عما يعكر صفاء رؤيتها . يروى ابن عربى عن أبي يزيد البسطامي قوله : “ لو أن العرش وما حواه مائة ألف ألف مرة في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحس بها “ .
ويزيد ابن عربى على ذلك قوله : “ وهذا وسع أبى يزيد في عالم الأجسام . بل أقول : لو أن ما لا يتناهى وجوده يقدر انتهاء وجوده مع العين الموجدة له في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحس بذلك في علمه “ .
(فصوص الحكم ، ج 1 ، ص 88) .
ويقول الأنصاري : “ والنفوس إذا صفت ورقت ، تشبهت بالملا الأعلى ، وانتقشت فيها أمثلة الكائنات ، واطلعت على المغيبات ، وأثرت في السفليات “ . (مشارق ، 100) .
فإذا كان هذا رأيهم في قلب العارف ومدى احاطته ، فلا عجب اذن أن يكون رأيهم في روح العارف - قبل خلق الجسد - أعظم من ذلك .
(175 - 176) لقد كانت الأفكار تنتقل إلى هذه الأرواح بالهام الهى ، ولم تكن بحاجة إلى وسائل لتلقيها ، كالدماغ والقلب . كما أن هذه الأرواح قد تحقق لها أعظم قدر من الظفر بدون كدح يشبه كفاح الدنيا .
وأرواح العارفين تبصر ما وراء الحس . فكل ما تشهده فهو بالنسبة لها فكرة ، لأنها تنفذ إلى حقيقة جوهره . أما الحسيون فان كل ما يشهدونه لا يتعدى الرؤية الحسية بالنسبة لهم .
(177) ان التفكر في صورته المعروفة للناس يرتبط بالماضي وبالمستقبل . أما هذه الأرواح التي تحررت من سيطرة الزمن فلم يعد

التفكر عندها مقيدا بهذا القيد ، ولهذا فقد حلت - بالنسبة لها - مشكلة المعرفة .
(178 - 179) ان أرواح العارفين - بتحررها من الزمن - قد استطاعت أن ترى كل ممكن الوجود من قبل أن يوجد . فمعرفتها جوهرية كلية ، وليست مرتبطة بالجزئيات التي تتكشف خلال الزمن .
(180) هذا البيت شبيه بقول ابن الفارض :شربنا على ذكر الحبيب مدامة * سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم(181 - 182) هذان البيتان مرتبطان بفكرة الكشف والالهام عند الصوفية ، تلك التي تتيح للعارفين منهم الماما بكليات الحقائق ، فلا يصرفهم جانب منها عن الجانب الآخر ، ولا يحول مظهر للحقيقة أمام أعينهم دون مشاهدة المظاهر الأخرى الكامنة في طي الامكان . وتنطبق هذه القدرة المبصرة على عالمي الغيب والشهادة . يقول ابن عربى :
" ثم لتعلم أن الحق وصف نفسه بأنه ظاهر باطن ، فأوجد العالم عالم غيب وشهادة لندرك الباطن بغيبنا والظاهر بشهادتنا " . (فصوص الحكم ، ج 1 ، ص 54) .
(183) يرتبط معنى البيت بفكرة الانسان الكامل ، وأنه محور الوجود . يقول ابن عربى : " فلا يزال العالم محفوظا ما دام فيه هذا الانسان الكامل ، ألا تراه إذا زال وفك من خزانة الدنيا لم يبق فيها ما اخترنه الحق فيها ، وخرج ما كان فيها ، والتحق بعضه ببعض ، وانتقل الأمر إلى الآخرة ، فكان ختما على خزانة الآخرة ، ختما أبديا . فظهر جميع ما في الصورة الإلهية من الأسماء في هذه النشأة الانسانية ، فحازت رتبة الجمع والإحاطة بهذا الوجود " . (فصوص الحكم ، ج 1 ، ص 50) .
وقد عبر جلال الدين عن هذا المعنى بأسلوب شعري . فبدلا من أن يتبع الطريقة الاصطلاحية في التعبير فيذكر أن كل مظاهر الوجود خلقت من أجل الانسان الكامل ، قال إن السماوات نشوى بشراب العارفين ،

على اعتبار أن الله أنعم عليها بالوجود ، من أجل الانسان الكامل ، وكذلك الشمس يرتبط وجودها بوجوده ، " فهي من جوده ترفل في وشى الذهب " .
وهناك حديث قدسي يذكر في كتب الصوفية ، ويروى عن الله تعالى أنه خاطب الرسول بقوله :
" لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك " .
(184) " إذا رأيت رفيقن من العارفين فأعلم أنهما من حيث وحدة الروح رجل واحد ، أما من حيث القوة والمقدرة فهما يعدلان ألوفا كثيرة " .
(185) ان ظهور العارفين كأشخاص متعدين لا يعنى أنهم متعددو الروح ، فما تعددهم الظاهري الا كتعدت أمواج البحر ، تلك التي تبدو كأنها وحدات متفرقة ، ولا حقيقة لهذه الفرقة ، فكلها من البحر واليه ، وماؤها جميعا ماء واحد ، لكن الريح هي التي تظهرها على هذه الصورة .
والريح هنا رمز للإرادة الإلهية التي تظهر العارفين على هذه الصورة .
(186 - 187) الروح الانساني واحد . وقد أشرق على الأبدان ، فاقتبست منه الحياة . فهو كالشمس تشرق من قرص واحد ، وكل مكان يقتبس النور منها . وهذا تصوير شعري لوحدة روح الانسانية ، وهو مبنى على الذوق الصوفي ، وليس على أساس فلسفي .
ومن الصوفية من أنكر ذلك بشدة . فالسهروردى الاشراقي يقول :
" وجماعة من الناس لما تفطنوا أن هذه (النفس) غير جسمية توهموا أنها الباري تعالى ، وقد ضلوا ضلالا بعيدا ، فان الله واحد ، ولو كانت نفس زيد وعمر واحدة ، لأدرك أحدهما جميع ما أدرك الآخر ، ولو طلع كل الناس على ما اطلع عليه الكل وليس كذلك . ثم كيف تستأمر قوى البدن اله الآلهة ، وتسخره رهين شهوات ، وعرضة بليات ، في خبط عشوات " . (هياكل النور ، 54 ، 55) .

وهذا موقف فلسفي يختلف عن الموقف الذوقى الذي عبر عنه جلال الدين . ومع ذلك نجد السهروردي يعبر عن وحدة النفوس في أصلها وذلك بصدورها جميعا عن العقل الفعال . يقول : " ومن جملة الأنوار القاهرة أبونا ورب طلسم نوعنا ، ومفيض نفوسنا ، ومكملها بالكمالات العلمية والنفسية ، روح القدس ، المسمى عند الحكماء بالعقل الفعال " . (المصدر السابق ، ص 65) .
ويعبر الأنصاري عن اتحاد الأرواح بقوله : " واعلم أنه ليس في العالم شئ الا وله مغناطيس يجذبه ، لطيفا كان أو . كثيفا . ومغناطيس النفوس شعاع نور الجمال ، فلهذا كان تعاشق الأرواح انجذاب بعضها إلى بعض حتى تتحد " . (مشارق ، 97) .
ويقول أيضا : " واتصال النفسين هو اتحاد هما حتى لا يكون بينهما فرق الا بالجسم ، والجسم زائد على ماهية النفس ، والانسانية تُعقل في الذهب دون جسم ، إذ هي معنى كلى يتصور في النفس دون أمر زائد من شكل أو حامل وسائر الأعراض " .
(المصدر السابق ، 99 - 100) .
(188) يميز الشاعر بين الروح الانساني والروح الحيواني . فالروح الانساني هو مصدر الحياة الواعية المدركة التي يعيشها الانسان . أما الروح الحيواني فهو مصدر الحياة في الجسد ، وبه تحبى أجساد البشر والحيوانات على السواء .
ولعل الروح الانساني هو الذي يعبر عنه بالنفس الناطقة في كتابات بعض الصوفية .
يعرف السهروردي النفس الناطقة بقوله : " وهذه النفس الناطقة لها قوى من مدركات ظاهرة ، وهي الحواس الخمس ، وهي اللمس والذوق والشم والسمع والبصر وقوى من مدركات باطنة ، كالحس المشترك وهو الذي يشاهد صور المنام معاينة لا على سبيل التخيل . ومن الحواس الباطنة الخيال . . . والقوة الفكرية . . . والوهم . . . والحافظة " (هياكل النور ، ص 51 - 53) .

أما الروح الحيواين فيتحدث عنه بقوله : “ وللحيوانات قوة شوقية ذات شعبتين : منها شهوانية جعلت لجلب الملائم ، وغضبية خلقت لدفع ما لا يلائم . وقوة محركة تباشر التحريك . وحامل جميع القوى المحركة والمدركة هو الروح الحيواني ، وهو جرم لطيف بخارى مولد من لطائف الأخلاط ، وينبعث من التجويف الأيسر من القلب ، وينبث في البدن بعد أن يكتسب السلطان النوري من النفس الناطقة . ولولا لطفه ما سرى فيما يسرى ، إذا وقعت سدة تمنعه من النفوذ إلى عضو يموت ذلك العضو . وهو مطية تصرفات النفس الناطقة . وتتصرف النفس في البدن ما دام ، وإذا انقطع انقطع تصرفات النفس الناطقة . وتتصرف النفس في النفس الناطقة . وتتصرف النفس فبالنفس الناطقة . وتتصرف النفس فبالبدن . هذا الروح الحيواني غير الروح الإلهي الذي يأتي في كلام النبوات ، فإنه معنى به النفس الناطقة التي هي نور من أنوار الله تعالى ، القائمة لا في أين ، من الله مشرقها ، وإلى الله مغربها “ . (المصدر السابق ، 53 ، 54) .
ولو أردنا أن نلخص آراء السهروردي في كلمتين جامعتين لقلنا انه يعنى بالنفس الناطقة القوى المدركة ، وبالروح الحيواني القوى المحركة من غضب وشهوة وطاقة .
(189) ما دام الروح الانساني جوهرا واحدا فاض عن الخالق ، فليس من الممكن أن يقع انقسام في هذا الجوهر .
(190) الشاعر يدرك أنه أفاض في الحديث عن معان رمزية عميقة الدلالة ، وانصرف عن رواية قصة الصوفي التي بدأها قبل معالجة تلك المعاني . ولهذا فإنه يحث المستمع على الاصغاء اليه ليحدثه بلمحة عما تشهده روحه من جمال التجلي .
(191) ليس البيان بقادر على أن ينقل إلى المستمع لمحة من جمال الشهود . وكيف يتسنى له ذلك ، والعالمان بأسرهما ليسا سوى لمحة من أنوار هذا الجمال .
(192) “ لو أنني تحدثت عن لمحة من لمحات هذا الجمال ، لكاد

كيانى الجسدي يتبدد ، فمثل هذا الحديث الروحي لا تقدر عليه عبارات الحس وأو صافه " .
(193) مثل هذا الكشف الروحي أمانة ينوء بحملها كيان العارف ، ومع ذلك يكون سعيدا بها ، كما تكون النلمة سعيدة في بيدر القمح ، برغم ما يحيط بها من أثقال ينوء بها كيانها .
(194 - 200) يبين الشاعر في هذه الأبيات ، كيف مال مستمعوه إلى سماع صورة الحكاية التي كان يرويها (حكاية الصوفي) ، وكيف صرفه هذا الميل من جانب مستمعيه عن تقرير معنى الحكاية .
(195) هناك فيض غزيز من القول ، يندفع كمد البحر ، ثم يعود إلى الانكماش كالجزر .
(196) ان انصراف خاطر المستمع عن الاصغاء للمعاني الروحية جعل الشاعر يعرض عن الافضاء بها .
(199) الصوفي ليس بصورته الظاهرة وانما هو بجوهره وحقيقته .
والقصة ليست قيمتها بوقائعها السطحية ، بل هي بمغزاها ومعانيها الدقيقة .
والولع بظاهر الحكاية مبعثه لذة سطحية ، كتلك التي تجعل الأطفال مولعين بالجوز والزبيب .
(200) ولع الرجال بلذات الحس شبيه بولع الأطفال بالجوز والزبيب . فاللذات الحسية مذاقها وقتي ، ومن كان رجلا فلذته أسمى من ذلك ، لأنها ذات طبيعة روحية .
(201) ان لم تكن قادرا على أن تتخلى عن لذات الحس ، فالله قادر على أن يجعلك تتنزه عنها ، وترتفع فوق طباق السماء .
(203 - 250) في هذه الأبيات يقص الشاعر قصة الصوفي والخادم والحمار ، وهي القصة التي بدأ في روايتها في البيت رقم 156 ، ثم ما لبث أن انصرف عنها ، مستطردا إلى الحديث عن الصوفية وأحوالهم .
ونلحظ في هذه القصة كغيرها براعة الشاعر القصصية . وقد

تجلت في هذه القصة الخصائص الآتية :
أولا : روح الفكاهة الغالبة على القصة .
ثانيا : براعة الحوار .
ثالثا : مقدرة الشاعر على تصوير هوا جس النفس .
رابعا : براعته في تصوير شخصياته القصصية . ولم تقف هذه البراعة عند حد تصوير الانسان بل تعدته إلى الحيوان . فحمار الصوفي هنا يثير العطف بما يلاقيه من آلام ، وله أيضا هو اجسه وأحلامه ! (251) على الانسان ألا ينخدع بلطيف المقال حتى لا يخدعه هذا عن حقيقة الحال .
(261) في هذا البيت دعوة قوية صريحة إلى الحزم ، والاعتماد على النفس .
(264) عاد الشاعر هنا إلى حديث الروح والجسد . فالجسم الترابى غريب عن جوهر الانسان .
(265) تغذية الجسم ورعايته لن تفيد جوهر الانسان . فالجسم يتضخم من هذا الغذاء ، في حين أن الجوهر يتضاءل .
(266) مهما أحيط الجسم بالرعاية والعناية ، فإنه لا محالة هالك ، والموت يكشف طبيعة الخسيسة ، فمهما أحيط بالمسك ، فلا بد من ظهور رائحته الخبيثة بعد الموت .
(267) المسك الذي يلطخ المرء به جسده لا جدوى منه ، لأن أثره سطحى ، وأولى بالانسان أن يعطر بالايمان قلبه .
(275) ما دمت تنطوى على نفس أمارة بالسوء ، تغلى بهليب الشهوات ، فكن يقظا ، والا قادتك إلى الجحيم .
(277) هذا المعنى شبيه بقول زهير بن أبي سلمى في معلقته :لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم(280 - 282) في هذه الأبيات صورة مشتقة مما يقع تحت أبصار

الناس في حياتهم اليومية . فهناك دكان العطار وقد صُفَّت أمامه أوعية تشبه الطبول ، ووضع في كل وعاء صنف من الأصناف . والعطار قد جعل كل صنف منها على حدة . وإذا وقع اختلاط بين الأصناف فإنه يحرص كل الحرص على الفصل بينها .
وقد اتخذ الشاعر من هذا منطلقا للحديث عن الأنبياء ، وكيف أرسلوا ليفصلوا بين أهل الصلاح وأهل الفساد .
(283 - 284) قبل بعث الرسل ، لم يكن هناك فيصل بين الطيبين .
والخبيثين . فكانت الأرواح الطيبة والخبيثة يختلط بعضها ببعض .
فأرسل الله الرسل ليكونوا فيصل بين الفريقين . قال تعالى : “ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه “ . (2 : 213) .
(293 - 294) قلب العارف يشرق فيه من نور العرفان ما يزرى في اشراقه بنور النهار . أما الأستار التي يسدلها على أسراره فشبيهة بظلمات الليل . وقد يكون المراد بالستر هنا الجسد الذي يحجب حقيقة الوليّ العارف . (انظر البيت رقم 299) .
(295 - 301) تذكر هذه الأبيات تفسيرا صوفيا لقوله تعالى :
“ والضحى والليل إذا سجى ، وما ودعك ربك وما قلى “ . (93 : 1 - 3) .
فالشاعر يذكر أن الله أقسم بالضحى لأنه نور ضمير المصطفى ، أو لأنه فيض من نور الخالق . ولولا ذلك لما جاز القسم بالضحى لأنه فان ، وهو بهذا غير جدير بقسم الخالق . ان الخليل قال : “ لا أحب الآفلين “ ، فيكف يقسم رب العالمين بما هو عرضة للفناء ؟
وبعد هذا ينتقل الشاعر إلى تفسير “ والليل “ ، فيقول انه رمز لستره أي جسده الذي يخفى حقيقة جوهره . وحينما أشرقت شمس الوحي على الرسول ، قالت لجسده : “ ما ودعك ربك “ ، أي أن الله لم يتركك برغم أنه قطع الوحي عنك أياما . أما قوله :
“ ولقد تجلى الوصل

من عين البلاء “ ، فمعناه أن جمال الوصل قد تجلى واضحا بعد الانقطاع ، فالشيء يتضح بضده ، ولهذا فان الله تعالى قال : “ وما قلى “ . فهذا الانقطاع لم يكن منبعثا عن اعراض أو كره من الله .
وهذا تأويل صوفي يحمل الألفاظ أكثر مما تحتمل ، في بعض المواقف . والمعروف عند المفسرين أن هذه الآيات نزلت على الرسول بعد أن تأخر الوحي عنه خمسة عشر يوما ، وقال الكفار : ان محمدا ودعه ربه وقلاه .

[شرح من بيت 301 إلى بيت 450]
(302) ان كل عبارة رمز لحال . فالحال هو الموجه لمعنى العبارة ، وليست العبارة سوى الأداة التي يعبر بها الحال عن حقيقته . ان الحال كاليد والعبارة كالآلة .
(303) لا جدوى من اطلاق العبارات على ما ليست ترمز اليه من الأحوال ، والا كان ذلك كوضع الآلة في يد لا تحسن استخدامها . فلا بد أن تحمل العبارة تعبيرا صادقا عن الحال .
(305) يتضمن هذا البيت مثالا لا ستخدام العبارة في موضعها ، ومثالا لاستخدامها في غير موضعها .
(306) عصا موسى ، في يد موسى ، كانت آلة وضعت في موضعها الصحيح . أما العصا في أيدي السحرة ، فقد ذهبت هباء لان تلك الأيدي لم تكن - في مقام اظهار المعجزة - جديرة بتلقيها .
(310) انتقل الشاعر من الحديث عن اقتران الأحوال ، والعبارات ، واقتران الأيدي ، والآلات ، إلى ذكر الواحد الذي لا قرين له ، ولا آلة .
وبين كيف أن كل عدد يكون عرضة للخطأ ما عدا الواحد فإنه لا شك فيه .
(311 - 312) يقول ابن الفارض في هذا المعنى :وان عبد النار المجوس وما انطفت * كما جاء بالأخبار في ألف حجة
فما قصدوا غيرى وان كان قصدهم * سواي وان لم يظهروا عقدنيةوجلال الدين يقول : ان كل من عبدوا اثنين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك

هم - في الوقت ذاته - قائلون بالواحد ، مؤمنون به . ويروى القرآن الكريم عن مشركي العرب قولهم عن الأصنام : “ ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى “ . (39 : 3) .

فهؤلاء المشركون كانوا مؤمنين بالاله الواحد . ويعزو جلال الدين هذه الألوان المختلفة من الشراك إلى الحَوَل ، وهو مرض يجعل العين تبصر الشئ الواحد متعددا . فإذا شفى هؤلاء المشركون من حولهم العقلي ، فهم لا شك عائدون إلى الايمان بالاله الواحد .

(313) من قال بالوحدانية فقد سلك السبيل الحقّ إلى ربه .

فعليه أن يستسلم لخالقه على أكمل وجه ممكن ، فلا تكون له حركة الا بدافع من الله ، كما تندفع الكرة في الميدان بدفع الصولجان .

(314) كلما ازداد كما الكرة كانت أكثر استجابة لدفع الصولجان ، وكلما ازداد كمال الانسان كان أسرع استجابة لا رادة الله .

(315) على الأحوال الذي أخطأ الرؤية أن يحسن الاستماع بعقلة ، فلعله يستطيع أن يتلقى بسمعه ما يعينه على التخلص من علة ابصاره .

(316) حسن الاستماع ، مع عمق التأمل ، قد يعين القلب على الابصار . أما الاستماع ، بدون تأمل فلا جدوى منه للقلب الأعمى ، لأن نور العرفان لا يستقر فيه ، بل يرجع إلى أصله .

(317) سحر الشيطان يجد له مستقرا ملائما في القلب المنحرف ، كما تستقر القدم العوجاء في الحذاء الأعوج .

(318 - 320) الحكمة لا تتحقق لانسان . ما لم يكن من محبيها المخلصين لها ، الذين يتقبلونها بقلوبهم وأرواحهم . وبدون هذا فلا سبيل لانسان إليها ، فكثرة القراءة والحفظ ، والتشدق بالحكمة ، كلها لا تجدى نفعا ، ما لم تستقر الحكمة في قلب الانسان ويتحقق اخلاصه لها .

(321) الاخلاص قد يعين صاحبه على أن يحصل من الحكمة ما لم يحصله المجتهد الذي تجرد من الاخلاص . وهذا المعنى مرتبط بفكرة

الالهام عند الصوفية ، تلك التي تقول بان القلب النقىّ الذي صفا من الأكدار يتلقى من العرفان ما لا يتحقق لمن أضاع عمره بين الأسفار .
(323 - 335) تروى هذه الأبيات قصة ترمز إلى الروح الذي يفر من كنف خالقه ، ويستسلم للدنيا ولذاتها . فالباز في القصة رمز للروح ، وقد هرب من مليكه إلى عجوز شمطاء (وترمز للدنيا) فساء جزاؤه من جراء ذلك .
وتُروى هذا القصة في مصادر عدة من أهمها أسرار نامه للعطار ، وجوامع الحكايات لعوفى “ 1 “ . والقصة كما رواها العطار لا تنطوى على تلك النظرة العاطفية التي صور بها الملك حبه للباز .
وقد ذكر فروزانفر مواضع أخرى وردت فيها إشارات لهذه القصة ، وهي كشف المحجوب للهجويرى ، وديوان شمس تبريز ل
، وكتاب المقالات المنسوب لشمس الدين التبريزي “ مخطوط مكتبة الفاتح باستنبول ، رقم 2788 “ . (انظر مآخذ قصص ، ص 44 ، 45) .
(335) هذا البيت شبيه بقول أبى نواس :ان كان لا يرجوك الا مؤمن * فبمن يلوذ ويستجير المجرم(336) ان الروح قد تنحرف عن قصد السبيل معتمدة على لطف الله وكرمه .
(337) الانسان يقترف السيئات ، مع أن حسناته لا تكاد ترقى إلى المستوى الذي يجعلها جديرة بقبول الخالق .
(338 - 340) من أسباب خطيئة الانسان أن يعتقد أن عبادته لله أمر مستلزم للقبول الإلهي ، فيركن إلى هذا الاعتقاد ، ويصيب الغرور
(1) انظر تعليقات نيكولسون .

قلبه ، ويظن أنه قد أصبح من خاصة الله . ومثل هذا الغرور يؤدى إلى الضلال .
وقد عقد عبد الرحمن بن الجوزي فصلا حول هذا المعنى بعنوان :
" غرور المتعبدين " .
يقول : " وفي المتزهدين أهل تغفيل ، يكاد أحدهم يوطن نفسه على أنه ولى محبوب ومقبول . . . وربما احتقر غيره ، وظن أن محلته محفوظة به ، تغره ركيعات ينتصب فيها ، أو عبادة ينصب بها " . (صيد الخاطر ، 135 - 136) .
(341) لا يجوز أن يكون احساس المرء بالاقتراب من ربه دافعا إلى إساءة الأدب .
ويروى عن أبي يزيد البسطامي - في هذا المعنى - قوله :
" قعدت ليلة في محرابى ، فمددت رجلي ، فهتف بي هاتف : من يجالس الملوك ينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب " . (السلمى : طبقات الصوفية ، ص 69) .
(343) الباز قد اغتر بنفسه ، فظن أنه قادر على صيد الأسود ، ولم يدر أن الصياد الحقيقي هو المليك ، وليس الباز - في حقيقة الأمر - الا ملتقط الصيد . فهو هنا يعتذر لمليكه عن الخطأ الذي وقع فيه نتيجة لغروره وسوء فهمه . وهذا تعبير رمزى عن الانسان الذي يكرمه ربه فيقدره على فعل الأمور العظام ، فيظن أن ذلك قد تحقق له بقدرته الذاتية ، وينسى فضل الخالق ، فيعتريه الغرور من جراء ذلك .
(344) تكشف للباز - بعد أن ابتعد عن كنف مليكه - أن قدرته كانت مقتبسة من قدرة هذا المليك . وهكذا الانسان ، لا قدرة له لو تخلى عنه الخالق . فالباز يقول :
" مع أن أظافري قد قلمت ، فأنا قادر على اقتلاع الشمس من مدارها ، لو أنك كنت لي " . والانسان - المؤيد بالقدرة الإلهية - لا تكون هناك حدود لطاقاته .
(345) " لعب الفلك " يقصد به هنا ما كان يُعتقد للفلك من تأثير

على الأحداث . ومعنى البيت : " مع أنني قد غدوت مقصوص الجناح فإنك لو تقبلتنى برضاك تضاءلت قوة الفلك أمام قوتى " .
(346) " المئزر " في البيت رمز للتأهب للعمل . والمعنى : " لو دفعتني إلى العمل لهدمت الجبال ، ولو وهبتنى قلما لحطمت به السيوف والرماح .
ويقول جلال الدين أيضا في هذا المعنى : " ان ملك الملوك حين ينزل إلى الميدان ، يصبح كل عجز آلة ووسيلة " . (مثنوى ، 1 : 2696) .
(347) إشارة إلى قصة البعوضة التي أهلكت النمرود بن كنعان .
(انظر : الثعلبي قصص الأنبياء ، ص 97 .
وانظر أيضا : مثنوى جلال الدين ، ج 1 ، ص 497) .
(348 - 349) إشارة إلى قصة الطير التي أهلكت أصحاب الفيل ، وهم في طريقهم إلى مهاجمة الكعبة . ويروى أن هذا الحادث وقع في زمن عبد المطلب جد الرسول .
يقول المسعودي : " فأرسل الله عليهم الطير الأبابيل ، أشباه اليعاسيب ، ترميمهم بحجارة من سجيل ، وهو طين قد خلط بحجارة من البحر ، مع كل طير ثلاثة أحجار ، فأهلكهم الله عز وجل " . (مروج الذهب ، ج 2 ، ص 128) .
(353) إشارة إلى معجزة شق القمر تروى عن الرسول عليه السلام .
(354) " حتى يعلم الجاهل بالسعد والنحس أن الرسول كان أعمق أثرا في توجيه المقادير من القمر ، وسائر الكواكب " . والجاهل بالسعد والنحس هو المنجم ، الذي يربط مصائر الخلق بالنجوم .
(364) هذا البيت عربى في الأصل ، ويشير إلى حديث قدسي يروى

عن الله قوله : " كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لأعرف " .
(369) التخلص من عبادة الأصنام هو بداية الطريق للتخلص من صنم الباطن . وقد وصف جلال الدين النفس بأنها صانعة الأصنام .
وأصنام النفس هي شهواتها المختلفة . فالتخلص من أصنام الباطن يقتضى جهادا روحيا عظيما .
(372) في البيت إشارة إلى بعض الأساطير الفارسية القديمة . زال هو ابن سام بن نريمان الذي كان من أمراء سجستان . أما رستم فهو ابن زال ، وقد اشتهر - في تلك الأساطير - ببطولة خارقة .
(375) مهد الشاعر بهذا البيت لقصة يرويها عن الشيخ أحمد بن خضرويه ، وهو من قدامي الصوفية ، (توفى عام 240 ه) . ذكره السلمى بقوله : " أحمد بن خضرويه البلخي ، وهو من كبار مشايخ خراسان ، صحب أبا تراب النخشبىّ وحاتما الأصم ، ورحل إلى أبى يزيد البسطامي ، وهو من مذكورى مشايخ خراسان بالفتوة . . . " . ونقل السلمى بعض أقواله (طبقات الصوفية ، 103 - 106) .
وقد ذكر السلمى أن أحمد بن خضرويه كان يقترض الأموال لاطعام الفقراء ، وأن دينه قد بلغ مائة ألف درهم . أما القشيري فقد ذكر قصة شبيهة بقصة المثنوى . يقول : " وكان عليه سبعمائة دينار دينا ، وغرماؤه عنده ، فنظر إليهم وقال : اللهم انك قد جعلت الرهون وثيقة لأرباب الأموال ، وأنت تأخذ عنهم وثيقتهم فدعني . قال : فدق داق الباب وقال : أين غرماء أحمد ؟ فقضى عنه ثم خرجت روحه ، ومات رحمه الله سنه 240 " . (الرسالة ، ص 16 ، 17) . وروى العطار هذه القصة ذاتها في " تذكرات الأولياء " ، ونقلها عنه فروزانفر . (مآخذ قصص ، ص 46) .

أما قصة الصبى بائع الحلوى فقد عثر عليها نيكولسون مرتبطة بأبى سعيد بن أبي الخير (انظر شروح نيكولسون ، ص 252) . وذكر فروزانفر نص هذه القصة (مآخذ قصص وتمثيلات ، 46 ، 47) .
وقد ذكر أحمد بن خضرويه في حلية الأولياء للأصفهاني ، وكشف المحجوب للهجويرى ، ونفحات الأنس للجامى ، إلى جانب المراج السالفة الذكر .
(379) في البيت إشارة إلى معجزة تنسب إلى إبراهيم ، عليه السلام ، وتروى بصور مختلفة ، خلاصتها أن إبراهيم أبى أن يدين بألوهية النمرود ، كما كان يفعل أهل زمانه ، فرده النمرود بدون طعام ، فمر على كثيب رمال وملأمنه كيسا يدخل به على أهله ، لكن الله أحال الرمال في الكيس إلى دقيق . (الثعلبي ، قصص الأنبياء ، ص 95 - 96) .
(380 - 381) انظر : مثنوى ، ج 1 ، (2223 -2225 وتعليقنا على الأبيات) ، ص 283 .
(382) " الجود بالروح ، وتقديمها قربانا لخلاق الوجود " ، تعبير عن دعوة الصوفية إلى افناء الذات في الخالق . فكأن الشاعر يقول : ان الصوفية الصادقين أكثر الناس سخاء لأنهم ضحوا بأرواحهم ، وجعلوها قربانا لخالقهم . والبيت شبيه بقول الشاعر .يجود بالنفس إذ ضمنّ الجواد بها * والجود بالنفس أقصى غاية الجود(383) جاء في قصة إبراهيم أنه حين هم بذبح ابنه إسماعيل لم تفعل السكين فعلها في عنقه . يقول الثعلبي : " ثم أنه وضع السكين على حلقه فلم يجزع ولم تعمل السكين شيئا . . . وضرب الله صحيفة من نحاس على حلقه . . ثم إنه وضع السكين على قفاه فانقلبت . . . " .
(قصص الأنبياء ، ص 94) . ويشير الشاعر بذلك إلى أن من ضحى بالذات في سبيل الخالق ، تحقق له البقاء .
(384) الشهداء يموتون في حومة الوغى ، ومع ذلك يوهبون حياة

الخلود ، على مقتضى قوله تعالى : " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون " . (3 : 169) . وكذلك الصوفية - الذين حققوا فناء الذات - ظفروا بالبقاء . وليست العبرة ببقاء الجسد ، كما يتوهم الكفار .
(385) لا يقتصر جزاء الشهداء على خلود الروح ، بل تقترون بذلك البهجة والفرح . ولقد أتبع الله قوله : " ولا تحسبن الذين قتلوا . . . " يقوله : " فرحين بما آتاهم الله . . " الآية . (3 : 170) .
وكذلك الصوفية ، ولا يكون البقاء وحده في هو ما يتحقق لهم ، نتيجة لا فنائهم الذات ، بل إن لهم بالفناء بقاء مقترنا بالبهجة والسرور .
(435) انظر قصة الأصم الذي ذهب ليعود جاره المريض (مثنوى ، ج 1 ، الأبيات 3360 - 3395 ، ص 386 - 389) .
(436 - 437) قصة موسى والعبد الصالح - الذي ذكر المفسرون أنه الخضر - قد رويت في القرآن الكريم (سورة الكهف ، 18 : 65 - 82) .
(438) " يا موسى زماننا " معناها " يا من تنظر إلى الصالحين نظرة موسى إلى الخضر " .
(441 - 443) انظر : مثنوى ، ج 1 ، الأبيات 818 - 822 ، ص 150) .
(444) " إذا أردت أن تظفر بهذا العطاء الإلهي ، فليكن انسان عينك باكيا آسفا على ما يكون من تهاون الجسد " .
(445) انظر الأحاديث النبوية في " فضل الكباء من خشية الله تعالى وشوقا اليه " . (النووي : رياض الصالحين ، ص 208 - 210) .
(449) " المسيح " هنا رمز للروح . فالزاهد يقول : " على الانسان ألا يأسى على عين الحس ، ان كان قوى الروح ، ذلك لأن الروح كالمسيح ، تهب الابصار للأعمى " .

[شرح من بيت 451 إلى بيت 600]

(451) لا تجعل الروح - في كل لحظة - مسخرا لجسم غليظ .

(452) انظر : قصة الأبله الذي رافق عيسى (الأبيات 141 - 155) .

(453) الأبله الذي رافق عيسى طلب منه أن يبث الحياة في عظام نخرة ، ولم يلتمس منه حياة لروحه . ان على الانسان ألا يسخر الروح لرغاب الجسد ، والا كان كمن يلتمس من موسى أن يعمل عمل فرعون .

(454) " لا تثقل فؤادك بهم التفكير في المعاش " : في هذه العبارة دعوة للانسان إلى أن يتجنب اغراق فؤاده في هموم العيش ، حتى لا يكون هذا سببا في انصرافه عن كل تأمل روحيّ (456) طالما كانت الروح في الدنيا فلن تعدم الاستقرار في أحد الأجساد ، ولها حينذاك رعاية من الخالق . انها كالتر كمانى لا بد له من أن يستقر في احدى الخيام طالما كان مقيما في الحيّ .

(461) ان هذا الفتى الأبله كان خاليا من اللب ، ولهذا كان القضاء على جسده قضاء عليه ، لأنه لم يكن ينعم بذلك الروح الذي يعيش بعد فناء الجسد .

(463) الأسد كان قد فارق الدنيا ، وانقطع بذلك رزقه الدنيوي ، فبعثه المؤقت على يد عيسى لم يكن يعنى أنه استأنف حياته الدنيوية .

(انظر البيت 469) .

(464) الأسد الضاري قد قتل الرجل ، ومع ذلك ، لم يستطيع أن ينال منه رزقا ، لأن الرزق مقسوم . وكثير من الرجال يعيشون في هذه الدنيا بقدرة كاملة على الصيد وحظ قليل من الرزق .

(465) يصور الشاعر بهذا البيت الحرص الذي يتملك بعض الرجال للحصول على رزق لا يتحقق ، فهم يقضون حياتهم بين دفع الحرص وامتناع الرزق . وليس معنى هذا أن الشاعر لا يؤمن بالسعي ، ففي المثنوى كثير من المواقف اليت تحت على السعي . لكن الشاعر ينتقد الحرص المرير الذي يكدر الحياة ، ويجعل صاحبه ضحية لسلسلة

لا تنتهى من الرغاب الجامحة ، والفشل المتكرر .

(468) العبرة المقصودة من البيت هي أن المرء - برغم بالغ حرصه - قد يحرم من ثمرة يحققها له هذا الحرص .
(470 - 471) انتقل الشاعر إلى الحديث عن الجزاء الذي لقيه الفتى الأبله . لقد واجه هذا الهلاك ، لأنه - وقد لقى نبعا لحياة الروح هو المسيح - اختار حياة البدن ، فكان كمن يلوث النبع بدلا من أن ينهل من مائه .
(472 - 473) هذا الأبله قد لقى هذا الرسول ، الذي وهبه الله مثل هذا القدرة على بعث الحياة في الأرواح ، فكيف يلتمس منه حياة الجسد ؟
(474) النفس الأمارة بالسوء تسعى وراء اللذات ، كما يسعى الكلب وراء العظام . وحياة النفس الأمارة بالسوء يكون فيها القضاء على حياة الروح . فهناك هذا التضاد في الذات الانسانية بين النفس الأمارة بالسوء وبين الروح .
(475) العظام هنا رمز للذات الحس التي تشتهيها النفس ، كما يشتهى الكلب العظام . وقد تكون رمزا لوجود الانسان المادي ، الذي تتعلق النفس بلذاته . أما قول الشاعر :
" تحول بين الكلب وبين صيد الروح " فمعناه : أن لذات الحس تصرف النفس عن تذوق ما يتيحه لها الروح من لذات .
(476) " ان لم يكن أسير الشهوات كالكلب المولع بالعظام أو كالضبع المولع بالدماء ، فلماذا هو أسير لشهوات الحس ؟ " (477) الانسان المجرد من البصيرة الروحية ، كالعين المجردة من الابصار ، فهذه عند الامتحان لا جدوى منها ، وهكذا يكون مثل هذا الانسان .
(478) المحروم من البصيرة الروحية قد يعتمد على الظن الذي

يخطئ حينا ، ويصيب حينا آخر ، ويكون هذا الظن مبنيا على الاجتهاد العقلي أما الظن الذي لا يبصر فأعتقد أنه كناية تقليد المقلدين الذين حرموا من الالهام الروحي ، كما حرموا من الاجتهاد العقلي . وفي الأبيات التالية يتحدث الشاعر عن التقليد ومساوئه .

(479) يخاطب الشاعر بهذا عين المقلد ، فيقول : “ أيتها العين التي تبكى على سواها ! ان حالك أسوأ من حال سواك ، فليكن بكاؤك على نفسك ، فحالك أولى بالبكاء “ . يقصد الشاعر بذلك أن المقلد يردد نغمات الأسى على سواه وينسى نفسه ، كما يفعل جهال الواعظين .

(480) يذكر الشاعر في مواضع كثيرة أن دموع الندم تجلو القلب ، وتجعل الروح مزدهرا ، فهي كالسحاب الباكي تزدهر به الرياض ، أو كدموع الشمعة تزيدها نورا .

(481 - 483) الانسان الذي يبكى على ما يفنى خير من المقلد الجامد الاحساس . فالباكى على الفاني يكون غافلان عن كنوز الحياة الروحية الخالدة ، لكنه - مع ذلك - خير من المقلد الذي أصاب التقليدُ قلبه بالجمود .

(484) التقليد يكون كالجبل المنيع ، يجعل صاحبه غير قابل للتأثر ، أو يحول بينه وبين ادراك الحقائق الكامنة وراء ظاهر الأشياء . فالتقليد - في ذاته - أسلوب واه كالقشة .

(485) لا قيمة للمقلد مهما كان عظيم الجسم شديد الانفعال . وهذا تصوير لمن يدِّعون العلم مع تجردهم منه ، فمثل هؤلاء الأدعياء قد يعتمدون على المظهر المهيب ، أو اصطناع مظاهر التحمس والانفعال ، ولا يكون وراء ذلك قيمة جوهرية . فمثل هذا المقلد كجاهل أعمى ، تجرد من البصر والبصيرة ، فهو لا يعدو أن يكون كتلة من اللحم .

(486) قد يتحدث المقلد بكلام دقيق ، لكن قلبه لا يدرك حقيقة معناه .

(487) قد تظهر على المقلد نشوة بما ينطق به ، لكنها نشوة مفتعلة ، بعيدة عن صدق الاحساس ، وعمق التأثر .

(488) تشبيه رائع للمقلد ، يصطنع المعرفة ، ويتفوه بالعلم ، من غير أدنى قدر من التذوق ، فهو كالنهر ، يمر الماء بمجراه ، ولا يكون له أي تذوق لهذا الماء . وقد يوجد من المستمعين من هو أكثر من المعلم المقلد فهما لما يقوله هذا المقلد ، وهكذا يكون الشاربون متذوقين لطعم الماء ، في حين أن النهر الذي يحمله إليهم مجرد من الذوق .

(490) المقلد ينطق بأقوال لا يدركها ، كالناى يترنم بألحان الأسى ولا علم له بهذا الاحساس .

(493) عرف داوود بجمال الصوت والعزف - انظر ما جاء عن ذلك في القرآن الكريم (34 : 10) .

والشاعر يشبه قول المحقق بغناء داوود ، أما قول المقلد فهو كرجع الصدى .

(495) المقلد يصطنع الانفعال بدون احساس حقيقي ، أما المحقق فيحمل العبء صامتا . وهكذا يكون شأن العربة والثور ، يحمل الثور العبء الحقيقي ويمضى صامتا عى حين أن العربة هي التي تردد الأنين .

(498) المتسول يهتف باسم الله من أجل الخبز ، والمقلد يهتف بالعرفان طلبا للمنفعة الدنيوية ، ولا يستشعر ذوقا لما يقول ، أما العارف فيهتف باسم الله من أعماق قلبه ، وهذا هو المحقق الذي يتذوق بروحه ما ينطق به .

(499) لو أن المقلد أدرك مضمون قوله لهان في نظره ما يهدف اليه من منفعة دنيوية جعلته يتخذ من ادعاء العلم سبيلا إليها .

(500) المقلد يصطنع العلم من أجل هدف تافه ، هو تحقيق شئ من الربح المادي ، كالحمار يحمل المصحف ليكون جزاؤه على ذلك وجبة من التبن . وفي البيت اقتباس من قوله تعالى : " مثل الذين حملوا التوراة

ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا " . (62 : 5) .
(502) ان اسم الشيطان يستخدم في السحر ليحقق الثراء العريض ، فهل يجوز أن يستخدم اسم الله لتحقيق ربح تافه ؟
(503 - 512) يروى الشاعر هنا حكاية عن التقليد ثم يعود بعدها إلى بيان مثالبه .
(508) إشارة إلى تصدع جبل الطور حين تجلى له الخالق .
قال تعالى : " فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا " . (7 : 143) .
(509) إشارة إلى قوله تعالى : " لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله " . (59 : 21) .
(514) يبدأ الشاعر هنا حكاية أخرى عن آفات التقليد . وأسلوب الشاعر في هذه الحكاية بعيد كل البعد عن الوعظ والتعليم ، فهي تنطوى على صور رائعة لحياة الخانقاه ، وسلوك أدعياء التصوف . والشاعر هنا ، وفي كل موقف مشابه ، يكشف عن قدرته التصويرية الرائعة ، التي تشغل الحواس والخيال بالألوان والظلال والأصوات والروائح في وقت واحد ، وتشتق من الحياة صورا معبرة مؤثرة ترقى إلى أرفع المستويات الفينة . ويقترن هذا كله بأسلوب ساخر ممتع .
(517) يروى عن الرسول أنه قال : " كاد الفقر أن يكون كفرا " .
(533 - 534) يحرص الشاعر على أن يميز بين الصوفية العارفين ، وبين المرتزقة من أدعياء التصوف .
(544) " قول الخادم : " انظر إلى لحيتك " ، تعبير ساخر ، معناه :
" لا تكن أحمق ، وتصرف بحكمة تناسب لحيتك " .
(548) يرى صاحب المنهج القوى أن هذا البيت يشير إلى الحديث الذي يروى عن الرسول قوله : " الآخذ ضامن والزعيم غارم " .
(555) " لو أنك أخبرتني بما جرى لا بتعت الحمار ممن قد اشتراه ،

أو حصلت على ثمنه قبل أن يقتسمه الصوفية " .
(564) إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن إبراهيم : " لا أحب الآفلين " (6 : 76) .
و " الآفلون " في البيت هم المسخرون للنفس الأمارة بالسوء ، وهي آفلة لأنها ليست بذات بقاء .
(567) تقليد المريد للمرشد العارف هو أول مراحل التحقيق .
(572) لو أن المرآة أصيبت بالطمع لما أظهرت حقيقة الحال ، ولصارت منافقة كالناس . وهكذا القلب الانساني ، إذا دخله الطمع ، لم تبق له قدرة على الادراك الصحيح . وينطبق هذا أيضا على العقل الذي يصرفه الحرص عن سلامة التفكير .
(574) حكى القرآن الكريم عن الأنبياء ما يفيد هذا المعنى . انظر (6 : 90) ، (11 : 51) ، (26 : 109 ، 127 ، 145 ، 164 ، 180) ، (42 : 23) .
(576) يروى أن أبا بكر أنفق أربعين ألف درهم على الدعوة المحدية . وقيل إنه أنفق أربعين ألف دينار . (انظر تعليق نيكولسون على هذا البيت) . وقد أورد فروزانفر مصادر متعددة لهذا الخبر منها طبقات ابن سعد ، وقد جاء فيه قوله : " كان أبو بكر معروفا بالتجارة .
لقد بعث النبي وعنده أربعون ألف درهم ، فكان ينفق منها ويقوى المسلمين ، حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم ، ثم كان يفعل فيها ما كان يفعل بمكة " . (انظر : مآخذ قصص ، 52) .
(577) الأخر المادي لا يمكن أن يرقى إلى مستوى الجزاء الروحي ، ولا مجال لأن يقاس هذا بذاك .
(578) الحكاية التي يشير إليها الشاعر هي حكاية " القاضي والمفلس " التي تبدأ روايتها بعد أبيات قليلة . وقد أوردها الشاعر ليبين أن الطمع يحجب الأذن عن استماع الحقائق .
(583) الصوفي الذي فقد حماره كان بعيدا عن نشوة الشهود ،

لتعلقه بلذات الحس ، واندفاعه وراءها . ولولا الحرص الذي أعماه لكان بوسع الخادم أن ينبهه إلى فقد حماره .

(585) ذكر فروزانفر أصلا بسيطا للقصة التي تبدأ روايتها في هذا البيت وقد ورد هذا الأصل في محاضرات الراغب (ج 1 ، ص 297) .

يقول : " وفلس القاضي رجلا فاركبه حمارا فطوف به ، ونودي عليه أن لا يبايع فإنه مفلس ، فلما أنزل قال له صاحب الحمار . هات الكراء فقال له : فيم كنا من أول النهار يا أبله " . كما أورد فروزانفر صورة أخرى لهذه القصة مأخوذة من كتاب " أخبار الظرفاء والمتماجنين " لا بن الجوزي (انظر : مآخذ قصص ، ص 52) .

وهذه الحكاية البسيطة لا تكاد ترتبط بعمل جلال الدين الا ارتباط البذرة الصغيرة بالدوحة الباسقة .

(586) " جبل قاف " - في الأساطير الفارسية - هو أعظم جبال الأرض . انظر تعليقنا على البيت 54 .

(588) كل من جرم من الرضى والقناعة وغنى الروح ، بقي حريصا على متاع الدنيا حرص المتسول ، حتى ولو تحقق له ثراء السلاطين .

(590 - 591) حياة الدنيا لا يمكن أن تخلو من الآفات ، والانسان في كل جانب من جوانبها عرضة للعدوان والأذى .

(592) يروى عن الرسول أنه قال : " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " . فهذا السجن الذي فرض على المؤمن يتقاضاه أجرا ويفرض عليه تكاليف .

(594) بعد أن تحدث الشاعر عن متاعب الدنيا ، انتقل إلى الحديث عن موقف الانسان ازاءها . فهو يقول في هذا البيت ان الانسان يستطيع بجميل الخيال أن يجمل الحياة .

(595) الخيال السيء والأوهام القبيحة تقضى على الانسان .

[شرح من بيت 600 إلى بيت 750]

(600 - 601) في البيتين إشارة إلى حديث يروى عن الرسول قوله : “ الصبر رأس الايمان “ ، وكذلك قوله : “ من لا صبر له فلا ايمان له “ .

(603 - 605) يبين الشاعر هنا أن الهوى يلون الحكم على الأشخاص ، فعين الرضى يخفى عليها عيب الانسان وعين السخط تبدى مساوئه . ويعجب الشاعر من هذا ، فيقول ان مثل هذا الشخص الذي تتناقض حوله الآراء يكون حينا سمكة وحينا شصا ، أو يكون نصفه مؤمنا ونصفه كافرا ، لو كان لنا أن نصدق هذه الآراء المتناقضة .

(606) يبين الشاعر خطأ الناس في أحكامهم المتناقضة على الفرد الواحد ، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى : “ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ، والله بما تعملون بصير “ (64 : 2) . فالمرء لا يكون كافرا ومؤمنا في الوقت ذاته .

(609) من الأمثلة الدالة على خطأ النفس الساخطة في الحكم على الأفراد ما لقيه يوسف من كره اخوته وسوء فعلهم . فسخط نفوسهم عليه جعله يبدو قبيحا في أعينهم .

(610 - 611) ينتهى الشاعر هنا إلى النتيجة التي مهد للوصول إليها ، وهي أن الخيال القبيح يضل عن العقل ، وهذه بدورها تضل عين الحس .

(612 - 613) الانسان - في ظاهره - يبدو حسيا مقيدا بالمكان ، ولكنه بأصله الروحي ينتمى إلى اللامكان . فلو أنه تخلص من سلطان الحس ، فُحتت أمامه عوالم الروح الفساح . ان عليه أن يتخلص من هذا العالم الحسي لأنه يفرض عليه موقعا سيئا ، يجعل الهزيمة حتما عليه .

وقوله : “ العالم ذو الجهات الست “ يقصد به العالم الحسى المقيد بجهات ست هي : اليمين والشمال والأمام والوراء ، والفوقية والتحتية .

ويشبه الشاعر جهات العالم الست بالأقسام الستة فوق لوحة النرد .
(620) في القرآن الكريم آيات كثيرة ورد بها فعل الأمر " كلوا " .
انظر مثلا : (2 : 57 ، 58) ، (5 : 88) . والشاعر يسخر من هذا النهم الأكول الذي أراد أن يصور الشره على أنه طاعة لأمر الهى .
(634) الشيطان يهدد ويغرى ، يهد الناس بالفاقة ، فليتزمون البخل ، ويغريهم بلذات الحياة فيوقعهم في المعاصي .
(635) الايمان في " سجن " الدنيا قليل . ومع قلته فهو مهدد بعدوان الشيطان .
(638 - 639) يروى عن الرسول حديث نصه : " الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم " .
(640) إذا لم يظهر الشيطان في صورة مجسدة ، هي أحد مواقف الاغراء ظهر في الخيال .
(641) لا يقتصر اغراء الشيطان على اللهو ، بل هو يغرى بالربح في التجارة ، واتخاذ العلم سبيلا إلى التظاهر وتحقيق المغانم المادية ، وكذلك بامتلاك الدور والقصور .
(679) ان في الغيب صورا كثيرة لكن عين الحسن لا تبصرها ، وفي الغيب أيضا أصداء كثيرة ، لكن أذن الحس لا تسمعها .
(680) الله وحده هو القادر على أن يفتح العين على ما يشاء من مشاهد الجمال والكمال .
(684) الحديث الذي أشار اليه الشاعر يروى عن الرسول قوله :
" ان الله خلق لكل داء دواء " .
(686) لعل في البيت إشارة إلى الحديث الذي يروى عن الرسول قوله : " ان الروح إذا قبض تبعه البصر " .
(688) يراد بالعدم هنا الوجود غير المادي .
(689) ان العالم الروحي ، (العالم الذي تنعدم فيه المحسوسات) ،

هو المكان الذي يتحقق للانسان فيه الربح الكامل . ذلك لأن حياته فيه أبدية ، وسعادته خالدة ، أما هذا الوجود المادي فهو مكان الانفاق ، ينفق الانسان فيه أيام حياته فيما لا يجدى ، ويضيع فيه ألوانا من السعادة الروحية ، تحول المادة بينه وبين تحقيقها .

(690) " العدم مقر مصنع الحق " يعنى أن الله يخلق كل شئ من العدم .

(692) " فالدعاء منك والاستجابة أيضا منك " ، يعنى " أن الله يلهم الروح الدعاء المستجاب حينما تصبح إرادة الانسان منبثقة من إرادة الخالق " .

(698 - 701) الشاعر يتحدث في هذه الأبيات عن الصوفية العارفين ، الذين تحرروا من سلطان العالم المادي ، ونجوا من مغرياته ، وأصبح الحس بألوانه لا يغريهم ، بل قنعوا بما وراء الحس ، وعاشوا في هذه الدنيا وأعينهم وقلوبهم متعلقة بعالم الروح .

(702 - 703) كل تعشق للصور الحسية يحجب بصيرة الروح ، ويصرف الانسان عن حب ما يبقى إلى حب مظاهر براقة لا بقاء لها .

(704) العشق الجسدي لا بقاء له . ولو كان له بقاء حقيقي فلماذا يتخلى العاشق عن معشوقه إذا فارقته الروح ؟

(705) الجسد يبقى على صورته المحسوسة بعد أن تفارقه الروح .
فلماذا ينصرف محبه عن التعلق به ؟ ان هذا مدعاة لأن يفكر الانسان في المعشوق الحق ، الذي لا يعتريه من التغير ما يصرف عنه القلوب .

(706) لو كان المعشوق هو الجسد المحسوس ، لبقى حس العاشق متعلقا به ، وان فارقت الروح هذا الجسد .

(707) من طبيعة العشق أنه يزيد الوفاء . فأين الوفاء لجسد المحبوب إذا فارقته الروح ؟ ان الوفاء حينذاك يتخذ صورة أخرى .

(708) ان العاشق الصوري ينخدع بالجسد حين يكون حيا بالروح ، ويغفل عن حقيقة حياة الجسد ، وما الجسد الا كجدار أشرق عليه نور الشمس ، فالنور من الشمس لا من الجدار ، والحياة من الروح لا من الجسد .
(709) الافتتان بالجسد الحي كالافتتان بالنور المشرق فوق جدار .
فالجسد سرعان ما تفارقه الروح ، والجدار سرعان ما يزول عنه النور .
فالأولى بالانسان أن يتعلق بمصدر الحياة ، الذي يبث الحياة في جميع الاحياء ، كما تنشر الشمس نورها فوق كل مكان .
(710) المفتون بالعقل الانساني وقدراته ، مضلل كالمفتون بالحس سواء بسواء ذلك لأن قدرة العقل الانساني محدودة .
(711) النور المشرق على الحس قبس مستعار من نور العقل الكلى .
فهذا النور قد استضاءت له الحواس بصورة وقتية ، فأصابت به بعض الادراك ، وما اشراق هذا النور فوق الحواس الا كالتماع قشرة التذهيب فوق النحاس .
(712) وهكذا يكون جمال الجسد بريقا مؤقتا كبريق قشرة التذهيب ، وسرعان ما يزول هذا البريق . وان لم يكن الحال كذلك ، فلماذا تغدو المرأة الفانية قبيحة كالحمار الهرم عندما تبلغ الشيخوخة ؟
(715) الجسم ينحل بطول البقاء ، على حين أن الروح خالدة ، لا تتأثر بالزمان .
فعلى الانسان أن يتعلق بالقلب ، ويتخلى عن التعلق بكيان قوامه العظام البالية .
(717) عندما يتحرر الانسان من ذاته يصبح هو الساقي والشارب والنشوة ، ذلك لأن ذاته - بعد فنائها في الذات الإلهية - لا يبقى لها وجود منفصل ، كانفصال الشارب عن الساقي ، أو انفصال طبيعة الاحساس بالنشوة عن تقديم الشراب أو ارتشافه .
(718) ادراك مثل هذه الوحدة لا يمكن تحقيقه بالجدل والقياس ؛

فلا سبيل اليه الا بالطاعة الكاملة والخضوع المطلق .
(719) ان المتعلقين بالمجادلات والقياسات العقلية يحسبونها جوهر الحقيقة ، وما هذه الا صور ظاهرية براقة . انها كالقافية في الشعر ، تروق يرنينها ، لكنها لا تعبر عن جوهر المعنى .
(720 - 721) المعنى الحقيقي لو تجلى لروح الانسان ، لم تبق له حاجة إلى الصور . والمراد بالصور هنا ألوان المناقشات والمجادلات التي يتعلق بظاهرها الحسيون والعقليون . فهذه المعارف هي التي تجعل الانسان حائرا حيرة الأعمى والأصم ، وتصرفه إلى ظاهر العبارات ، وليست هي جوهر الحقيقة ، فهذه لو تجلت للروح ، زالت حاجة الانسان إلى كل هذه المعارف الحسية والعقلية .
(722) ان الحسى كالأعمى ، يتخبط على غير هدى ، في البحث عن الحقيقة ، وحظه من ادراكها كحظ الأعمى من ادراك المبصرات : كل ما يناله منها هو ما يحمله اليه خياله الضيق . أما صاحب البصيرة الروحية فهو كالعين المبصرة ، تكشفت له حقائق العرفان بعد أن تحرر من سلطان ذاته الحسية .
(723) يدافع الشاعر هنا عن طريقة الصوفية في تفسير القرآن . فهم ينشدون المعنى الباطني للآيات . ويقول الشاعر ان الجاهل هو الذي يقف به الفهم عند حروف القرآن ، ويحسب أنها جوهر الكتاب الكريم . ومثل هذا شبيه بمن أخطأ رؤية حماره ، وأخذ يسوق سرجه .
(724 - 725) من أحاط بالجوهر ظفر بالعرض أيضا . أما من ركز اهتمامه في للأعراض . فلا سبيل له إلى الجوهر .
(726) الحمار في البيت رمز للجوهر ، والسرج رمز للأعراض . فظهر الحمار هو الذي يجلب الربح ، وليس السرج الذي يوضع فوق ظهر الحمار . والروح هي التي تمثل القيمة الحقيقة للانسان ، وليس الجسد الذي يكبلها بالقيود ، كما يثقل السرج ظهر الحمار .

(727 - 728) لا يزال الشاعر يستخدم " الحمار " هنا بصورة رمزية ، وهي أنه جوهر بالقياس إلى السرج . وقوله ان الرسول امتطى حمارا عارى الظهر ، كناية عن سلوكه سبيل الروح وابتعاده عما يكلبها من علائق المادة . وقوله " انه أيضا قد سافر ماشيا " كناية عن تجرد روحه من سلطان الجسد بصورة كاملة ، فكأنما كان روحا يسعى بين الناس .

(729) ترك الشاعر هنا استخدام " الحمار " في المعنى الرمزى الذي أشرنا اليه من قبل (727 - 728) ، ونظر اليه من زاوية أخرى ، وهي أنه ذلك الحيوان الذي يسعى وراء حاجات الجسد ، فشبه به النفس الأمارة بالسوء في تمسكها بالحس ولذاته .

(730) على النفس أن تحمل أعباه الصبر والشكر ، مهما طال بها الزمن ، لعلها تتخلص من قيود الحس ونزعاته .

(731) كل نفس مسؤولة عن حمل أعبائها ، فلن تحملها عنها سواها .
وكل نفس سوف تلقى من الجزاء ما يكافىء جهدها ، فلا سبيل إلى الحصاد الا الزراعة .

(732 - 734) في هذه الأبيات دعوة صريحة إلى العمل والجد وبذل الجهد ، ولا تقصر هذه الدعوة على الجهاد الروحي ، بل تمتد إلى الجهاد العملي في هذه الحياة الدنيا . فالأبيات تنتقد التواكل ، والركون إلى الحظ ، وتنادى بوجوب الكسب ما دام الجسم قادرا ، وتدعو إلى العمل وتصفه بأنه هو السبيل إلى الكنز الذي يحلم المتواكلون بالعثور عليه .
وهذا المعنى العملي ينطبق أيضا على جهاد الروح . فلا سبيل إلى المعرفة بدون الصبر والشكر ومجاهدة النفس ، فهي الكنز الذي يظفر به الصوفي لقاء سعيه المتواصل .

(737) يذكر شراح المثنوى في تفسير هذا البيت حديثا يروى عن الرسول قوله : “ إياكم وكلمة (لو) فإنها من كلام المنافقين “ .
(738) في هذا البيت إشارة إلى قوله تعالى : “ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكون من الصالحين “ . (سورة المنافقون ، 63 : 10) .
(739 - 743) إن كلمة “ لو “ شبيهة بالمنزل الخراب . فهذه الكلمة لا تصلح لأن تكون محورا للفكر المستقيم ، كما أن المنزل الخراب لا يصلح للسكنى . والحياة الدنيا شبيهة بالمنزل الخراب ، والناس يبحثون فيها عن السعادة فلا يجدونها ، فتواجههم دائما كلمة “ لو “ .
ولو عرفوا السعادة الحقيقة ، لأدركوا أن ما يشقون من أجله في الدنيا ليس هو السعادة الحق ، ولكان بوسعهم أن يميزوا بين الأصيل والزائف ، وإذا ذاك لا يشقون بامتناع السعادة ، لا متناع أسبابها .
(744) الناس جميعا يبحثون عن السعادة بدون أن يدركوا حقيقة جوهرها .
(745) لقد اختلطت القيم أمام الناس وظهرت كلها براقة أمام أعينهم . ومن هذه ما هو صحيح ومنها ما هو زائف . والانسان في حاجة إلى محك صادق للتميز بينها ، كما يُميز الذهب الخالص من الزائف .
(746) إذا كان الانسان قد تحققت له القدرة الذاتية على التمييز ، فليمض في اختياره ، والا فان عليه أن يلتمس مرشدا يهديه .
(747) المحك الصادق هو الذي ينبثق من الادراك الروحي . فمن لم يكن لديه مثل هذا المحك فلا بد له من مرشد صادق ، يقيه أخطار الطريق .
(748) “ الغيلان “ هنا رمز للمغريات والشهوات . وصوتها يكون “ مألوفا “ لأنه ينبثق من الكيان الحسى للانسان . وهذه الألفة ذاتها هي التي تقود الانسان إلى الدمار .

(749) ان الشهوات الدنيوية تنادى الانسان بصوتها المغرى ليتبع سبيلها المهلك ، كما تفعل الغول حين تدعو المسافرين في الصحراء إلى اتباع سبيل الضلال والهلاك .

[شرح من بيت 750 إلى بيت 900]

(750) قول الشاعر : " ان الغول ينادى كل شخص باسمه " ، يعنى :
أن كل انسان يتلقى النداء الذي يؤثر فيه ، فمحب المال يُغرى بالمال ومحب الجاه يغرى به وهكذا .

(751) في البيت صورة فنية رائعة ، تمثل نتيجة الاستجابة الداعي الهوى والشهوة . ان ذئاب الشهوات وأسودها تحيط به ، ويكون قد ابتعد عن طريق النجاة ، ولم يبق من العمر ما يتسع لا يجاد مخرج أو خلاص .

(752) كشف الشاعر في هذا البيت عما كان يرمز اليه بصوت الغول ، فذكر أنه نداء الحرص على المال والجاه والرونق .

(755) " لتكن قادرا على تمييز الحقيقة من الأوهام ، فسعادة الدنيا شبيهة بالفجر الكاذب ، أما سعادة الروح فهي الفجر الصادق " .

(756) الصبر والمثابرة على التأمل الروحي ، والاخلاص القلبي في التعبد وجهاد النفس قد تتيح للعينين بصرا روحيا ، يختلف عن ابصارهما الحسى . ووصفه العينين بأنهما " تبصران الألوان السبعة " كناية عن تعلقهما بشتى ألوان العالم المادي التي يشبهها الشاعر بألوان الطيف .

(757) الابصار الروحي يختلف عن الابصار الحسى ، فابصار الروح يقع على الحقائق الجوهرية ، على حين أن ابصار الحس يقف عند المظاهر الصورية .

(759) ان العدم (عالم الفناء المطلق) هو مصنع الحق ، ولا سبيل للانسان إلى رؤية الحق الا إذا دخل في هذا العالم . ويتحقق له هذا بنفي الذات الانسانية .

(760) هذه المخلوقات المتعددة ، والمظاهر المتنوعة ، تحجب العيون

عن مشاهدة الصانع ، أي أنها تشغل العيون بتعددها وتنوعها ، فتقف حجابا بينها وبين شهود خالقها . ولهذا فالعدم (عالم النفي) هو وحده مكان شهود الخالق .
(762 - 763) عالم الامكان هو الذي يظهر قدرة الخالق وروعة صنعة بأجلى صورة ، فهو دائم الخلق ، يصنع من العدم وجودا ، فمن دخل في " العدم " شهد روعة الصنع .
(764) " فرعون " رمز للانسان الحسى ، الذي لا يؤمن بقدرة وراء عالم الحس . لقد كن مغرورا بملكه وقوته ، وغفل عن قدرة الله الخالقة ، فأمر بقتل الذكور من بني إسرائيل ، حتى لا يظهر من بينهم من يقوى على أن يزيل ملكه .
(770) لو كان فرعون مدركا لقدرة الله التي لا نهاية لا مكاناتها ، لجمدت يداه وساقاه عن ارتكاب مظالم ما كانت لتجديه نفعا .
(774) الانسان الحسىّ يتصور أن له عدوا خارج كيانه ، فيجهد نفسه في البحث عنه ، مع أن ألد أعدائه نفسه التي بين جنبيه . وهكذا كان فرعون يبحث عن عدوه في كل مكان ، على حين أن العدو الحقيقي " موسى " كان ينعم بالسلامة في منزل فرعون .
(776 - 785) يروى الشاعر حكاية رجل قتل أمه لأنها قد ارتكبت الزنى فلما عوتب لا رتكابه تلك الفعلة ، وذكر بأنه كان أولى به أن يقتل شريكها في الزنى قال : " كان على اذن أن أقتل كل يوم رجلا ! " وهذه القصة قد رويت لتصوير النفس الحسية ، وما ينبثق عنها من شرور . فهي تدفع الانسان إلى العدوان ، الجرم ، ولا سبيل إلى التخلص من شرها الا بقتلها ، وإذ ذاك يتحقق للانسان الأمن والسلام والسكينة ، ويسود بين الناس الوئام .
(786 - 801) يجيب الشاعر في هذه الأبيات عن شبهة قد تثور في نفس القارئ حول الأنبياء والأولياء ، وطبيعة صلتهم بالناس .

فألانبياء والأولياء قد قتلوا نفوسهم الحسية ، فلماذا لم يتحقق السلام بينهم وبين الناس . ويجيب الشاعر على هذه الشبهة بأن هؤلاء الناس الذين عادوا الأنبياء ، كانوا في حقيقة الأمر أعداء لا نفسهم .
فالخفاش الذي يكره الشمس ليس عدوا لها ، لكنه غير قادر على ابصار نورها ، على حين أن الشمس ذاتها لا تتحمل منه عناء . وجميع الكافرين حجبوا أنفسهم عن الشعاع الذي فاض من جوهر الأنبياء .
فالكفار الذين عادوا الأنبياء مثلهم كمثل المرضى يعادون الطبيب ، أو الصبيان يعادون المعلم .
(790) لم يكن كفر الكافرين مضرا بالأنبياء ، لكنّ ضرر ذلك وقع على الكفار أنفسهم .
(802) " ان كنت قد خلقت قبيحا فلا تزدد قبحا بحسدك سواك " .
وقد بدأ الشاعر هنا ينتقل إلى الحديث عن الحسد ، وهو خليقة مرتبطة بحقد الكفار على الأنبياء .
(803) هذا البيت قد فسر تفسيرات غربية لا أرى داعيا لها .
(أنظر أمثلة منها في تعليقات نيكولسون) . وأعتقد أن الشاعر يريد بهذا البيت أن الانسان إذا كان محروما من احدى النعم ، فعليه ألا يضيف إلى الحرمان ما هو أقسى منه ، ألا وهو الاحساس بالحسد . وإذا كان الانسان موزع الخاطر بين أمرين ، فعليه ألا يزيد الأمر سوءا ، ويصبح مشنتتا بين أربعة أمور متعاكسة .
(804 - 805) انتقل الشاعر من الرمز للحسد إلى الحديث عنه بصريح العبارة ، وذكر أنه أسوأ من جميع النقائص . فالحاسد الذي يستشعر التخلف عن سواه ، يوقعه الحسد في شر النقائص .
(811 - 813) ان بعث الرسل يكشف عما كمن في نفوس الناس من الحسد . فالناس لا يستنكرون الخضوع للخالق ، وليس منهم من هو

حاسد لله ، لكنهم يحسدون الرسول إذ يحسبونه بشرا شبيها بهم .
(815) ليس يخلو أي زمن من ولى قائم ، ويكون ظهورة امتحانا للخلق ، يكشف عن كامل الحسد في نفوسهم .
(817) الإمام الحق وهو الولي . ولا عبرة بالنسب في استحقاق مثل هذه الإمامة ، ذلك لأنها مبنية على صفاء الروح والتقوى .
(818) مثل هذا الامام هو المهدى والهادي ، وقد يكون بين الناس ، أو بالقرب منهم ، ومع ذلك تخفى عليهم حقيقته . وهذا وصف القطب الأكبر ، الذي اعتقد الصوفية أنه امام الزمان .
(819) هذا القطب الأكبر يستمد من الله نور العرفان .
أما الولي الذي هو أدنى درجة فيستمد النور من عقل القطب ، فالقطب يحمل العرفان إلى تابعه المباشر ، كما حمل جبريل رسالة السماء إلى الرسل . والأولياء الذين يجيئون في المرتبة بعد القطب الأكبر هم الأبدال . ويقال إن عدد هؤلاء سبعة .
(820) هناك بعد الأبدال أولياء آخرون هم أقل مرتبة من الأبدال ، ودرجتهم في النور أقل من درجة هؤلاء ، فنورهم كالمشكاة ، ونور الأبدال كالقنديل .
(821 - 826) يروى عن الرسول أنه قال : “ ان الله سبعمائة حجاب من نور وظلمة “ . فكأنما كل وليّ - على مقتضى درجته - ينتمى إلى طبقة من طباق هذا النور .
وقد أورد الغزالي هذا الحديث في “ مشكاة الأنوار “ على النحو التالي : “ ان الله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره “ . يقول : وفي بعض الروايات سبعمائة ، وفي بعضها سبعين ألفا . (ص 84) . وقد شرح الغزالي معنى هذا الحديث في الفصل الثالث من “ المشكاة “ ، وعنده أن الأعداد “ سبعمائة “ أو “ سبعين ألفا “ وردت على سبيل التكثير لا على سبيل الحصر . وقد

حاول أن يذكر أصناف المحجوبين على سبيل المثال لا الحصر وانتهى إلى قوله :
" فإنهم انما يحجبون بصفاتهم البشرية ، أو بالحس ، أو بالخيال ، أو بمقايسة العقل ، أو بالنور المحض " . (ص 93) .
وذكر عبد الرحمن الأنصاري هذا الحديث ، ثم علق عليه بقوله :
" أما الحجب فقد ثبت بالبراهين أن الحق تعالى لا يسره حجاب ، وانما الذي حجبه عن خلقه شدة ظهوره ، وعجز الخلق عن رؤيته لقوة نوره " .
(مشارق أنوار القلوب ص 125) .
(852) النور الذي يطيقه القطب وينعم به ، لا يكون في وسع صاحب الحس الأحول أن يقترب منه .
(826) " إذا تجاوز المرء الأستار السبعمائة فنى في بحر الوحدة " .
(827 - 839) كل انسان يأخذ من النور على قدر طاقته الروحية .
وفي هذه الأبيات أمثلة متعددة يصور الشاعر بها هذا المعنى . فالحديد يحتاج في صياغته إلى لهب قوىّ ، على حين أن التفاح أو السفرجل يطبخ بلهب لطيف ، وهكذا .
(829) " التنين " رمز للنار القوية المستعرة .
(836) القطب الأكبر بمثابة القلب ، والعالم بمثابة الجسد ، وتدبير العالم بحكمة منوط بالقطب ، كما أن تدبير الجسد منوط بالقلب .
(839) قلب العارف هو المعدن الصافي ، وأما قلوب العامة فكدرة شبيهة بالأجساد .
(841) " قد يسئ العوام فهم ما نقول ، فتصبح محاسننا مثالب في نظر هؤلاء ، برغم أن كل قولنا صادر عن تجرد من الهوى " .
(842) من كان معرضا عن الذوق الصوفي فخير له ألا يدعى إلى ذلك ، فتلك دعوة لا تلائمه ، ومن الأفضل أن يبقى خارج نطاقها . فهو

في معرفة الروح فقير متسول ، ولامكان له في محفل أصحاب القلوب .
(848) قد يُعثر في الخرائب على كنز ويكون إلى جانبه ثعبان . وقد استعار الشاعر هذه الصورة للانسان الذي يكون قوى الروح نقى الفؤاد ، ومع ذلك لا يخلو من بعض نزعات الحس . فالكنز هو العرفان الروحي ، والثعبان هو نزعات الحس .
(853) عندما يصبح نور القرآن هو نور البصيرة الانسانية ، يكون لدى الانسان الجواب عن كل ما يثور في نفسه من شبهات .
(854) إذا لم يتحقق للعين سداد النظر نور القرآن الكريم ، فهي عين حولاء ، ثنائية الشهود ، أسيرة الشبهات .
(856) " الفكر شعاع ذلك الجوهر " يعنى أن الفكر شعاع من نور القرآن الكريم .
(857) بعد دعوة الفكر إلى التأمل والمشاهدة ، يسفه الشاعر هنا المعارف النقلية التي يُعتمد في تلقيها على السماع .
(858) " ليست المعرفة الروحية المبنية على العيان والمشاهدة كالمعرفة النقلية ، فهذه تبدو سوقية ، إذا قوربت بعرفان أهل الوصال " .
(859) المعرفة النقلية محدودة الأثر . انها قد تؤدى إلى تبديل في صفات متلقيها ، أما تبديل الذات من حال إلى حال ، فلا سبيل اليه الا بالشهود والعيان .
(862) الأذن حين تحسن الاستماع يمكن أن تصبح سبيلا إلى العلم اليقيني . فالمريد يتلقى من المرشد - عن طريق السمع - ما يمهد له السبيل إلى التأمل الروحي .
(883) السمنى هو عابد الصنم . ويشبه الشاعر من يركز نظره على سواه ، ويغفل عن ذاته بعابد الصنم الذي يلهيه الصنم عن ادراك حقيقة روحه وجوهر كيانه .

(884) من عرف نفسه فقد عرف خالقه . فادراك الانسان لحقيقة ذاته يجعله أكثر استنارة من سواه من مخلوقات الله ، وهو ان فنى عن ذاته بالشهود ، بقي له هذا الشهود ، إذ أنه يغدو مبصرا بعين الله .
(886) معرفة الذات ليست مما يمكن ادراكه بالحس . فالانسان لا يرى بالحس سوى الصورة الظاهرية .
(892) من لم يكن مدركا قدرة الله الخالقة لم يَجْد بالروح .
(893) الانسان الذي يكون بصيرا بقدرة الله الخالقةُ لا يضن بحياته على الله ، لأنه يعلم أن الجود بها سوف يجعله مستحقا - من جزاء الله - ما يعوضه عنها بحياة خالدة لا زوال لها .
(897) ان الجود بالروح مبعثه رؤية الجزاء . فمن أدرك حقيقة ذلك الجزاء الإلهي ، هان عليه البذل والعطاء .
(898) البخل - في نظر الشاعر - عجز عن ابصار الجزاء . فمن هذا الوجه يكون البخل جحودا وانكارا لما وعد به الله من حسن المثوبة .
(899) لا وجود اذن للبخل في العالم ، وانما مرد ذلك إلى الجحود .
فمن لا يعتقد بالجزاء ، لا يتقبل بالرضى مبدأ الجود .

[شرح من بيت 900 إلى بيت 1050]
(900) رؤية الجزاء الأوفى هي التي تدفع إلى السخاء . ولهذا فان البصيرة هي الدافع إلى السخاء . والمشاهدة الروحية هي وحدها سبيل النجاة .
(909) ترجمة البيت على هذا النحو هي السبيل الوحيد لتفسيره .
فكلمة " بركرفت " يجب أن تفهم على أساس " الامساك " فالله خلق النور الصافي ، وأمسك عنه حرارة النار . أما أن يفهم من البيت أن الله خلق النور الصافي من النار ، فهذا ما لا يمكن تأويله ، فسواء أكان المقصود بالنور الصافي نور محمد ، أو كان هذا النور هو النور الابداعي الأول ، الذي يتحدث عنه الاشراقيون ، فهو لم يخلق من النار .

يقول السهروردي عن النور الأول : “ فأول ما يجب بالأول واحد لا كثرة فيه ، وليس بجسم فتختلف فيه هيئات مختلفة كالشكل ، ولا هيئة فيحتاج إلى محل ، ولا نفس فيحتاج إلى بدن ، بل هو قائم مدرك لنفسه ولبارئه . وهو النور الابداعي الأول ، لا يمكن أشرف منه ، وهو منتهى الممكنات ، وهذا الجوهر ممكن في نفسه ، واجب بالأول “ . (هياكل النور ، ص 62 ، 63) .
وهذا النور الابداعي الأول ، هو الذي يقول عنه الصوفية انه النور المحمدي .
(انظر : الجيلى : الانسان الكامل ، الباب الثامن والخمسون : “ في الصورة المحمدية ، وأنها النور الذي خلق الله منه الجنة والجحيم ، والمحتد الذي وجد منه العذاب والنعيم “ ، ج 2 ، ص 31) .

(910) “ لقد اقتبس آدم العرفان من النور المحمدي “ .
يقول ابن الفارض في التائية الكبرى :وانى وان كنت ابن آدم صورة * فلى فيه معنى ناطق بأبوتى(912) “ الجوهرة “ التي كان نوح جديرا بها هي الخلافة في الأرض .
أما قول الشاعر : “ فكم كان يمطر الدر في جواء بحر الروح “ ، فيشبر لاي خرافة قديمة ، تحكى أن اللالىء تتكون من قطرات المطر المتساقط في أجواء البحار “ .
(913) إشارة إلى قصة القاء إبراهيم في النار بأمر النمرود ، وخروجه منها سالما (انظر : مثنوى ، 1 ، 547 في الترجمة والتعليقات) ، وانظر القصة في القرآن الكريم (21 : 68 - 69) .
(914) إشارة إلى قصة إسماعيل واستسلامه لنصل أبيه إبراهيم ، تصديقا للرؤيا التي كان إبراهيم قد رآها . وقد ذكرت هذه القصة في القرآن الكريم (37 : 101 - 107) . واسم إسماعيل لم يرد بصريح

القول في هذه الآيات ، لكن بعصض المفسرين ، وكذلك الثعلبي صاحب قصص الأنبياء يذكر أن الغلام المقصود بقوله تعالى : " فبشرناه بغلام حليم " ، هو إسماعيل ، وأنه هو الذي استسلم للقتل تصديقا لرؤيا أبيه ، ففداه الله بذبح عظيم .

(915) عرف داوود ببراعته في صنع الدروع . وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله : " وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون " . (21 : 80) .

(916) ذكر القرآن الكريم في أكثر من موضع أن الجن سُخِّرت لسليمان . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : " فسخَّرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين في الأصفاد " . (38 : 36 - 38) .

(917) كان يعقوب قد فقد بصره من كثرة بكائه على ابنه يوسف .
لكن بصره عاد اليه حينما ألقى على وجهه قميص يوسف . (سورة يوسف ، 12 : 84 ، 96) .

(918) انظر ما رواه القرآن الكريم عن تأويل يوسف للأحلام .
(12 : 43 - 49) .

(919) ان موسى أظهر بعصاه معجزة قضت على ملك فرعون .
قال تعالى عن موسى وسحرة فرعون : " فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون " . (26 : 45) . ولم يقتصر أثر هذه المعجزة على السحرة وحدهم ، بل كان من آثارها القضاء على ملك فرعون .

(920) يقول الثعلبي في قصة عيسى بن مريم : " رفعه الله وكساه الريش وألبسه النور وقطع منه شهوة المطعم والمشرب ، فهو يطير مع الملأئكة حول العرش ، فكان انسيا ملكيا ، أرضيا سماويا " . (قصص الأنبياء ، ص 454) .

(921) إشارة إلى معجزة شق القمر التي ظهرت على يد الرسول ،

وترى في تفسير قوله تعالى : “ اقتربت الساعة وانشق القمر “ . (54 : 1) . فالذين فسروا الآية على هذا الوجه ذكروا أن المشركين سألوا رسول الله آية ، فأشار إلى القمر فانشق .
(926 - 930) ذكر الشاعر في هذه الأبيات بعض المشهورين من الصوفية .
وهؤلاء هم الجنيد ، وأبو يزيد البسطامي ، ومعروف الكرخي ، وإبراهيم بن أدهم ، وشقيق البلخي - ولهؤلاء تراجم كثيرة في كتب التصوف . انظر : أبو نعيم الاصفهالنى : حلية الأولياء ، السلمى : طبقات الصوفية ، الشعراني : لواقح الأنوار ، اليافعي : مرآة الجنان ، العطار :
تذكرة الأولياء ، القشيري : الرسالة . وانظر كذلك كتب التراجم العامة كوفيات الأعيان لابن خلكان ، وشذرات الذهب لا بن العماد الحنبلي .
(926) الجنيد البغدادي ، من مشهوري الصوفية . توفي عام 297 هـ .
(927) المقصود هنا الصوفي المهشور أبو يزيد البسطامي ، المتوفى عام 260 هـ ، ويقال عام 261 هـ .
(928) الكرخي هو أبو محفوظ معروف بن فيروز أو ابن الفيروزان .
وهو من صوفية بعذاد المعروفين . توفي عام 200 ه ، وقبره ببغداد . وقد ولد لأبوين نصرانيين ، واعتنق الاسلام - كما يروى - على يد عليّ بن موسى الرضى ، امام الشيعة .
(929) إبراهيم بن أدهم ، ويذكر السلمى في ترجمته أنه “ من أهل بلخ ، كان من أبناء الملوك والمياسير . خرج متصيدا ، فهتف به هاتف أيقظه من غفلته . فترك طريقته في التزين بالدنيا ، ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع . وخرج إلى مكة ، وصحب بها سفيان الثوري ، والفضيل بن عياض ، ودخل الشام ، فكان يعمل فيه ، ويأكل من عمل يده “ .

(طبقات الصوفية ، ص 27) . توفي بالشام عام 160 هـ .
(930) شقيق البلخي هو المقصود بهذا البيت . يقول السلمى :
“ شقيق بن إبراهيم ، أبو عليّ الأزدي . من أهل بلخ . حسن الجرى

على سبيل التوكل ، وحسن الكلام فيه . وهو من مشاهير مشايخ خراسان . وأظنه أول من تلكم في علوم الأحوال بكور خراسان . كان أستاذ حاتم الأصم ؛ صحب إبراهيم بن أدهم ، وأخذ عنه الطريقة " .
(طبقات الصوفية ، ص 61) . توفى عام 194 هـ .
(931) يروى عن الرسول حديث قدسي نصه : " أوليائي تحت قبابى لا يعرفهم غيرى " . ويستشهد السلمى " 1 " على وجود أولياء مجهولين بقوله تعالى في سورة الفتح : " ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء " . (48 : 25) .
وهذه الآية تذكر أن من أسباب كف أيدي المؤمنين عن الكفار يوم فتح مكة أنه كان بين الكفار مؤمنون ومؤمنات لا يعرفهم المؤمنون الفاتحون . وعند الصوفية أن الله " لم يخل وقتا من الأوقات من داع اليه بحق ، أو دال عليه ببيان وبرهان " .
(المصدر السابق) .
(939) " ماذا حصلت أنت من العرفان ، وأية درة ظفرت بها من بحر الروح ؟
" (943) " ما دامت هذه الحياة المادية لا تبقى فمن الواجب على المرء أن ينشد حياة الروح الخالدة " .
(944 - 957) في هذه الأبيات يعالج الشاعر موضوع الأعمال وهل قيمة الفعل الحسن في الفعل ذاته ، أم في نتيجة ذلك الفعل . والشاعر قد جعل الملك يشرح لغلامه أن العبرة ليست بالفعل بل بنتيجته . فقوله تعالى : " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها " ، لا يقصد به أن الثواب نتيجة للفعل ذاته - وهو عرض - بل هو نتيجة لتقديم الفعل إلى الله وهذا هو جوهر الفعل . وكأنما يريد الشاعر باجراء هذا الرأي على لسان الملك ، أن يقول : ان الله لا يكافىء على الفعل ذاته بل على النية الدافعة

....
(1) طبقات الصوفية ، ص 1 .

اليه والنتيجة المترتبة عليه بالنسبة لفاعله فتسبيح المرائي لا قيمة له ، وصلاة المنافق لا جدوى منها . والهدف من الأعمال الحسنة ليس الفعل ذاته ، بل نتيجة الفعل وهي تنقية النفس وتطهيرها ، والتقدم بها إلى الله نقية بريئة من السيئات . وهذا البحث في قيمة الفعل مرتبط بالأخلاق ارتباطا وثيقا ، وهو يختلف عن أبحاث الفعل التي قام بها المتكلمون ، والمعتزلة منهم بوجه خاص ، وكانت أبحاثهم مرتبطة بأسباب الحسن والقبح وهل هي عقلية أو شرعية ، ومتعلقة بالاستطاعة ، وهل هي من الله أو من الانسان .
لكنهم لم يتناولوا هذا الجانب الأخلاقي الدقيق ، الذي يتناول علاقة الفعل بالفاعل من حيث النية والأثر .
(947 - 948) الأفعال الحسنة في ذاتها أعراض تفنى بانتهاء وقتها .
لكن هذه الأعراض تفنى جوهر الروح من الأمراض . فمثل هذه الأعمال لا تنفع الخالق ، بل تنفع صاحبها إذ تنقى روحه ، وتسمو بنفسه .
(949) " العرض يغدو بالجهد جوهرا " ، فالأفعال الحسنة التي هي أعراض تغدو جوهرا حين تنقى الروح الانساني وتبلغ به درجة الكمال .
ذلك لأن الفعل في ذاته لا بقاء له ، لكن نتيجته تبقى ببقاء الجوهر الذي أثرت فيه ، وهو الروح الانساني .

(958 - 963) يعرض الشاعر وجهة نظر أخرى عن الأعمال على لسان الغلام . فالخادم - الذي هو أدنى مقاما من الملك - هو في أسلوب الرمز أدنى عرفانا من الملك . فهو هنا يمثل الاتجاه العامي في تقويم الأفعال ، وأنها - ليست كما يقول الملك - أعراضا لا توجد في زمانين ، بل تفنى بفناء وقتها ، وانما هي - في رأى الخادم - تعود ، وتحشر مع الانسان ، وتكون لها صورتها الخاصة بها يوم الحشر . ولو كان مآل الأفعال الحسنة إلى النفاء ، لكان ذلك مدعاة لقنوط فاعليها .

(964 - 982) يقدم الخادم أمثلة كثيرة للأعراض التي أصبحت جواهر ، فيذكر أمثلة لكثير من الأمور العرضية التي تنبثق عنها جواهر

مكتملة . فالديار والقصور الجميلة ، أولم تكن أفكارا عارضة في ضمير المهندس ؟
وكل عمل فنى متكامل ، أولم يكن في أول الأمر خيالا عارضا ؟
فما كان في أول الأمر فكرا مجردا ، أصبح عملا . والزارع حين يزرع يكون دافعه إلى ذلك ما يجنيه من ثمار ، وهذه لا تظهر الا في النهاية . والعالم كله كان عرضا في عالم الامكان ، وفأصبح جوهرا في عالم الوجود .
وكل هذه الأمثلة التي ذكرها الغلام تشير إلى امكان حشر الاعمال ، برغم أنها من الأعراض .
ولقد أبدع الشاعر في عرض وجهتي النظر ، ودافع عن كل منهما بأسلوب بارع .
ومع أنه قد رجح في النهاية رأى الملك ، فهو قد أتاح لكل رأى عرضا جميلا ، ودفاعا حارا .

(974) كان ظهور محمد - وهو الانسان الكامل - غاية لخلق هذا الكون كله .
ويروى الصوفية حديثا قدسيا نصه : “ لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك “ ، وعندهم أن هذا الحديث يعنى أن محمدا هو الغاية من خلق العالم .
(975) هذا البحث والحديث المتبادل بين الملك والغلام كان عرضا يهدف إلى ادراك الحقيقة . وهكذا أيضا قصة الأسد وابن آوى (من قصص كليلة ودمنة) ، ان هي الا صورة ، تستخلص منها الحقيقة .

(976) هذا البيت يقبل تفسيرين : أولهما أن البشر قبل أن يخلقوا ، كانوا أعراضا لا وجود لها الا في عالم الامكان . لقد كانوا عدما ، ولم يكن يربطهم بهذا الوجود سوى امكان خلقهم .
أما التفسير الثاني فهو أن جميع الناس يخلقون من نطفة لا صورة لها ، ثم يتخذون بعد أن يخلقوا تلك الصورة التي يكونون عليها . وقد يؤيد هذا الشرح أن الشاعر يستشهد هنا بسورة الانسان ، والآية الثانية منها تتحدث عن خلق الانسان من نطفة . قال تعالى : “ هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا

بصيرا " . (76 : 1 - 2) .
وبرغم ذلك أعتقد أن التفسير الأول الذي ذكرناه أقرب إلى السياق .
ذلك لأن الشاعر يتحدث في الأبيات التالية عن العقل الكلي ، ومعنى الأبيات يشير إلى أن الشاعر كان يتحدث عن نظرية الخلق ، بلغة القائلين بوحدة الوجود .
(983) الملك يخاطب خادمه قائلا : " لو سلمنا جدلا برأيك ، وهو أن الأعراض تنجب الجواهر ، فلماذا لم يتحقق ذلك بالنسبة لك ، وبقيت على ظاهرك ، ولم تغير من هذا الظاهر حقيقة باطنك ؟ " .
(984) أجاب الخادم الملك بقوله : " ان العقل الكلى حجب صورة الباطن عن الناس في هذه الدنيا . فالدنيا عالم امتزج فيه الخير بالشر ، والإرادة الإلهية قد قضت بألا تتبين فيها حقيقة الضائر والأرواح " .
(985) " لو كانت خلجات النفوس وخبايا الضمائر تُرى في هذه الدنيا ، لا ختفى منها الخبث ، وتساوى الناس في نقاء القلب " . وشرح نيكولسون لهذا البيت بعيد كل البعد عن معناه .

(986 - 987) " لو كان الكفر بقبحه يرتسم على الجبين ، والايمان يتجلى على الوجوده بجماله ورونقه ، فهل كان يبقى كافر واحد في هذه الدنيا ؟ وهل كان انسان يجترىء على الجحود ؟ " (988) لو أن الخير والشر ظهرا على حقيقتهما للناس لكانت هذه الدنيا كالعالم الآخر ، ولما كان هناك مقترف للآثام .

(992) الملك يقول لخادمه : " اذكر لي علامة واحدة تشير إلى عرفانك الصوفي ، ولسوف أعلم منها كل شئ وأدارك أسرار عرفانك مهما أحاطت به الحجب " .

(993 - 994) يقول الخادم للملك : " ما دمت قادرا على كشف المحجوب فما حاجتك إلى قولي ؟ " فيجيبه الملك بقوله : " ان الخق ذاته أراد العيان لعمله ، فخلق الدنيا " .

(995) طبيعة العيان تختلف عن طبيعة العلم . فالخالق لم يلق على الخلق أعباء الأمانة والمسؤولية الا بعد أن جاء بهم إلى عالم الوجود . وهذا الوجود الدنيوي قد فرض على الخلق ألم المخاض في سعيهم للتحرر مما يفرضه عليهم من أثقال ، سعيا إلى حياة أسمى ، ووجود أبقى .
(996) من طبيعة الوجود الدنيوي أن الانسان يكون فيه عرضة للدوافع المختلفة . فهذه الدوافع تحركه نحو الخير أو الشر .
(997) من شأن الدوافع التي تحرك الانسان أن تؤدى إلى كشف سره وبيان طبيعته .
(998) طالما أن الضمير يتحرك ، ويثير الدوافع ، فلا سكون للجسد .
(999) دفع الضمير للانسان يجعله يعاني من القلق المستمر . وهذا الاحساس ذاته هو الذي يجعل خلو الانسان من العمل أمرا شديد الايلام ، كأنه نزع الروح .
(1000) في هذا العالم ، وكذلك في العالم الآخر ، تولد الأسباب على الدوام ، وهذه الأسباب تترتب عليها الآثار . فحركة العالمين مبنية على الأسباب ، وما تولده من آثار . ووراء ذلك كله مسبب الأسباب .
(1001) كل أثر ترتب على سبب يصبح بدوره سببا تترتب عليه آثار ، فالبذرة سبب في نمو الشجرة . فالشجرة اذن أثر للبذرة . لكنها من جهة أخرى سبب للثمار . والثمار أثر للشجرة ، ولكنها من جهة أخرى سبب للغذاء ، وهكذا .
(1003) استطاع الملك - بحديثه مع الغلام - أن يرى علامة خفية دلته على ما أن عليه هذا الغلام من العرفان .
(1023 - 1024) كل الأجساد تنطوى على أرواح ، ولكن هذه الأرواح ليست جميعا صافية طاهرة نبيلة .
(1026 - 1045) عالج جلال الدين في هذه الأبيات الصورة والمعنى ،

أي الجسد والفكر . وبين أن العبرة ليست بالضخامة ، فالجبال الضخمة أقل قيمة من اليواقيت الصغيرة . والجسد العظيم يسيره فكر خفى .
وقدم صورا فنية كثيرة لا يضاح هذه المعاني . فالملك وهو فرد واحد ، يتبعه الآلاف من الناس . وهذا الملك ذاته يخضع لسلطان الفكر . والعين وهي صغيرة الحجم أكثر ادراكا من الأيدي والأرجل والشعر ، مع أن هذه تفوق حجم العين مئات المرات . والخلق كلهم يتحركون مندفعين بسيل الفكر . وهذا العالم الواسع الأرجاء ، بأرضه وشمسه ونجومه وأفلاكه ، يتحكم فيه سلطان الفكر . ويوم تقوم الساعة فان سلطان الفكر هذا يجعل كل هذه الظواهر - التي تروعنا برونقها وجلالها - حطاما وعهنا مفنوشا وهباء . فعلى الانسان أن يدرك أين تكمن القوة في الانسان ، فلا يعد الجسد سلطانا في قوة سليمان ، في حين أنه يحسب الفكر نملة .
فالفكر أساس كل الحرف . والفكر هو الذي عمر الأرض بالديار والقصور والمدائن .
(1049) أياز كان غلاما تركيا جميلا ، من عبيد السلطان محمود الغزنوي (389 - 389421 - 389421 - 421 ه) . وكان محمود شديد التعلق بأياز ، وقد اشتهر ذلك الحب في تاريخ محمود . (انظر : نظامى عروضى : جهار مقالة ، ص 39 ، طبعة لندن) .

[شرح من بيت 1050 إلى بيت 1200]

(1050) الأولياء كانوا ذوى أرواح حية مدركة قبل أن يخلق هذا العالم . لقد سبق لجلال الدين ذكر ذلك (انظر الأبيات 168 - 175) .
فالشاعر يعزو هذه الألفة بين الملك وغلامه ، إلى سابق محبة كانت بين روحيهما قبل خلق هذا العالم .
(1051) حياة الجسد لا اعتبار لها إذا قورنت بحياة الروح قبل الجسد ، ويصدق ذلك - بوجه خاص - على الأولياء ، الذين نعموا

بحياتهم الروحية قبل خلق الأجساد .
(1052) العارف ذو النظر السديد لا يخطئ الرؤية ، ويبصر الأشياء على حقيقتها ، فيدرك بذلك جوهرها الأصيل ، غير حافل بما آل اليه ظاهر حالها .
(1053) العارف يبصر الحقيقة في جوهرها ، سواء نظر إليها في النهار المضئ أو الليل المظلم .
(1054) ما سبق تقديره فلا سبيل إلى الفرار منه . ومهما احتال المرء للخلاص من قدر الهى سابق ، فان حيلته لا بد أن تذهب هباء .
(انظر : المثنوي ، ج 1 ، الأبيات 950 - 970) .

(1055) في هذا البيت اقتباس معنوي من قوله تعالى : " ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين " . (3 : 54) .

(1058) مهما احتال الانسان ليغير الأقدار ، فلا سبيل له إلى ذلك .
فالقضاء راسخ لأنه ارداة الله ، وإرادة الانسان - أمام الإرادة الإلهية - واهية عاجزة .
(1062) ليكن سعيك وجهدك كله من أجل الله ، ان كنت بحق تستشعر المحبة الإلهية .

(1064 - 1065) يصور الشاعر النفس الأمارة بالسوء بلص يختلس المتع ، تحجب حقيقته هذه الحياةُ الدنيا ، فإذا تجلى صبح البعث وتكشفت السرائر ، كان في ذلك افتضاح النفس السارقة . وكل ما سرقته يبقى عالقابها ، لأنها تبعث على ما كانت عليه في حياتها الدنيا ، ويتكشف ما كان خافيا من نقائصها ، فكأنها لص ضبط متلبسا بالسرقة .

(1068 - 1070) بعد أن بين الشاعر أن الانسان في هذا الوجود أسير القضاء ، تصور أن سائلا يسأله : " ما فائدة الوجود اذن ، وما جدوى خلق الانسان ؟ " ويجيب الشاعر على ذلك بأن مجرد السؤال عن

فائدة الوجود ، هو في ذاته فائدة محققة . فمثل هذا السؤال رمز للتفكر والتأمل .
(1071) لئن كانت الحياة الدنيا - من جهة لذاتها ومتعها ، وصرفها الناس عن خالقهم - تبدو عديمة الفائدة ، فهي من جهة أخرى حافلة بالفوائد : انها مجال لتجلى القدرة الإلهية ، وهي ميدان لتأمل هذه القدرة ، ثم هي السبيل الذي يسلكه الخلق إلى الآخرة .
(1072) إذا كانت الحياة الدنيا تبدو غير مفيدة للعارفين ، فليس معنى ذلك أنها غير مفيدة لسواهم . فمن الممكن أن تصير هذه الحياة - بالنسبة للمحرومين - سبيلا إلى العرفان ، ووسيلة للتحقق به .
(1075) انظر البيت رقم 694 .
(1076) إشارة إلى قوله تعالى : " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون " . (3 : 169) .
(1079) النفس المتعلقة بلذات الدنيا تكون متعلقة بقوت عارض .
فهذه الحياة المادية صورة مؤقتة للانسانية ، ترجع منها إلى أصلها الروحي .
ولهذا فان النصح والتهذيب يردان النفس عن هذه الطبيعة المنحرفة .

(1084) القلب العليل أصابه ما أصاب النفس الحسية ، فتعلق أيضا بلذات الحس (الماء والطين) .

(1085) لقد خارت قوى القلب من جراء التلعق بالماء والطين ، " فأصبح شاحب الوجه ، واهى الساقين ، خفيف اللب . وما ذاك لا لا نصرافه عن غذاء السماء .

(1068) الغذاء الروحي لا يقتضى تناوله حلقا ولا أداة طعام .

(1102) دأب جلال الدين على ذكر الأفلاك التسعة في المثنوى ، بالرغم من أن المعروف أن السماوات سبع . وقد ذكر بعض شراح المثنوى أن الفلك التاسع هو " العرش الأعظم " (المنهج القوى ، 2 : 267) .

انظر أيضا : (تعليقات نيكولسون على هذا البيت) . ورأيي أن جلال الدين يقصد بالفلك التاسع السماء السابعة . والسماء السابعة هي الفلك التاسع ، إذا أخذنا في اعتبارنا أن بعض الصوفية يضيفون إلى أفلاك السماوات السبع فلكين آخرين يحيطان بالأرض هما فلك الهواء أو “ كرة الهواء وفلك النار أي “ كرة النار “ . (انظر : الجيلى : الانسان الكامل ، 2 ، 66) . فمعنى البيت أن هذه المعاني التي لا تبدو في الدنيا ذات مجد ووراء ، تنتمى إلى أعالي السماء ، ولها مجد ورواء مستمد من تلك الأعالي .

(1106) أعتقد أن المتحدث هنا هو الولىّ إلى ينكر على الناس اندفاعهم وراء مجد زائف ، على حين أنه ينعم في عزة ، تغمرها شمس الحقيقة .

(1107) قول الشاعر : “ ومشرق الشمس برج أسود اللون “ يحتمل أحد تفسيرين . أولهما أن الناس يترقبون اشراق الشمس من سماء مظلمة . وثانيهما أن الشمس التي تغرب في عين حمئة مظلمة ، (انظر سورة الكهف ، 18 : 86) ، تعود إلى الشروق من حيث غربت . أما “ الشمس التي هي فوق المشارق “ ، فالمقصود بها شمس الحقيقة ، واشراق التجلي الذي لا يحده مكان ولا زمان .

(1108) ليس معنى شروق شمس التجلي أنها قابلة للمغيب ، فهي في تجل دائم . فالحديث عن شروقها لا يكون الا باعتبار الذرات العالقة بها ، فهي التي ينقلها تعلقها بالشمس إلى حال الشروق .

(1109) “ مع أنني لست من الأولياء المقربين - وهؤلاء هم الذرات العالقة بشمس التجلي - فان النور الذي يغشانى بتجليه يجعلني شمسا لا تغشاها الظلال “ .

(1110) المحبة تنبعث من المحبوب ، ولا فضل للمحب في ايجادها .
(1111) في العلاقة بين المحب والمحبوب يكون الجمال والجلال

من بين الأسباب التي تجذب المحب إلى المحبوب ، هذا من وجهة نظر المحب . أما المحبوب فليس الجمال والجلال عنده أسبابا ، وانما هما من صفات الذات . فالعبد قد ينظر إلى بعض الأمور على أساس أنها أسباب ، والخالق يكون مدركا لهذه الأسباب ، لكنه لا يتأثر بها .

(1114) الخالق صانع كل شئ . وهذه حقيقة لا تقبل استثناء فاليأس الذي قد يصيب النفس هو أيضا من خلق الله .

(1115) النفس التي صنعها الخالق تبقى مرتبطة بخالقها حتى في حالة اليأس ، لأن الصنع لا ينفصل في وجوده عن ذات الصانع .

(1116) البراق والخيل العراب والحمير كلها رموز للناس ، على تفاوتهم في قواهم الروحية ، أو تعلقهم بغرائزهم الحسية . وجميع الموجودات مهما كانت طبيعتها تقتبس وجودها من الوجود المطلق .

(1117) من غفل عن حقيقة الصانع ، توجه إلى سواه ، ظانا أنه صاحب القدرة . ويظل يتخبط في هذا الجهل فيقع في كل يوم فريسة لوهم جديد .

(1118) قول الشاعر : " فهو قد شرب من البحر العذب ماء ملحا " ، يعنى أن هذا الغافل الذي يسعى إلى خالقه لم يسلك في سعيه السبيل القويم ، ولهذا فان هذا السعي قاده إلى الضلال والتيه ، بدلا من أن يقوده إلى أمن اليقين .

(1119) " الشرب باليد اليمنى من البحر " رمز للسلوك القويم الذي يحقق الغاية المنشودة .

(1122) الشاعر يقول إن عشق شمس الدين قد شغله عن كل ما سواه ، فلم يكن لديه مجال للعناية بمن عميت بصيرتهم الروحية . وشمس الدين المقصود هنا هو شمس الدين التبريزي . ولعل الشاعر أشار بذلك إلى ما كان يعانيه حينذاك من أحزان لفقد أستاذه الروحي .

(1123) يدعو الشاعر تلميذه حسام الدين إلى أن يقوم عنه بمداواة من كلت بصائر أرواحهم .

(1125) قدرة الله وحدها هي التي تستطيع أن تكشف عن النفس والروح ما تراكم فيهما من ظلمات الجهل .
(1126) الحسد يحجب صاحبه عن تلقى نور الهداية ، ويمثل عقبة يصعب على الروح تخطيها . أما الجهلاء الذين خلت نفوسهم من السحد فهم قابلون لتلقى نور العرفان .

(1128 - 1130) السحد احدى الرذائل التي أكثر الشاعر من بيان أخطارها . فالحسد هو الذي دفع بعض مريدى جلال الدين إلى القضاء على شمس الدين . وكان الحسد دائما مصدر حقد على الأولياء . وهو علة لا دواء لها ، لأنه - كما يقول الشاعر - يجعل المرء يسعى إلى اطفاء نور لا يخبو ، وشمس لا تغيب .

(1131) روح العارف تهتدى إلى خالقها ، كما يهتدى الباز إلى الملك فيعود اليه . أما الروح التي تضل سبيلها فشبيهة بالباز الأعمى .

(1132) “ الهبوط في احدى الخرائب “ كناية عن الركون إلى عالم الدنيا ، هذا الذي حق عليه الخراب ، والفرار من عالم الروح . أما “ اليوم “ فرمز لعشاق الدنيا الدين يتعلقون بها ، كما تتعلق البوم بالأرض الخراب .

(1146 - 1147) البوم تكذب الباز حين يذكر لها صلته بالملك . وكذلك الكفار والمنافقون يكذبون النبي حين يذكر لهم صلته بالخالق .

(1154 - 1155) بالرغم من أن الشاعر قد استخدم الباز رمزا للولي أو النبي ، وذلك على اعتبار أن رجل الله يرتبط بالله ارتباط الباز بمليكه ، فقد استخدمه في هذين البيتين رمزا لمعنى حسى هو القوة والسطوة . فالبوم لا تقدر على ايذاء باز المليك ، بل إن البيران الجارحة - وهي هنا رمز لأهل السطوة من الكافرين - تعجز عن أن تمس بالسوء

باز المليك . ولا مناسبة بين باز الملك وبين البيزان الجارحة ، فالأول وفيّ لمليكه ، مطيع لندائه ، وأما البيزان الأخرى فمتوحشة تحكمها قوة حسية عارمة .

(1157) الباز يباهى بأن خياله مقيم في قلب السلطان ، وأن قلب السلطان يغدو سقيما لو غاب عنه هذا الخيال . وفي هذا تعبير رمزى عن محبة الخالق للانسان الكامل ، تلك المحبة التي جعلته - في رأى كثير من الصوفية - يخلق الأكوان من أجله .

(1162) يمكن تفسير هذا البيت على أساس أن الانسان الكامل يشفع للخلق عند الخالق . كما يمكن النظر اليه من زاوية العقيدة الصوفية ، فيكون معناه أن الله قد حرر - على يد الانسان الكامل - كثيرا من الخلق ، كانوا يرسفون في أغلال سجن المادة .

(1163) لقد حل الانسان الكامل بين الكفار - أشباه البوم - برهة من الزمان ، فصاروا بفضله ذوى قوة روحية ، وحلقوا في السماء كالبيزان .

(1167) المحب الصادق مهما قاسى من الآلام فإنه يكون سعيدا في آلامه ، بما أوتيه من سعادة الروح .

(1169) ان المحب الصادق يلبى نداء خالقه : " يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية " . (89 : 27 - 28) . فهذا النداء بالنسبة للمؤمن كالطبل بالنسبة للباز .

(1170) يبين الشاعر هنا أن الانسان الكامل مختلف عن خالقه ، وهو ليس سوى عبد لملك الملوك .

(1171 - 1173) ليس معنى فناء العبد في الخالق أن هناك تشابها بين ذات العبد وذات الخالق . فالتجانس لا يحتم التشابه بين المتجانسين .
فالماء يتجانس مع التراب في النبات . والخمر تتجانس مع الطبع الانساني .
والفناء في الخالق لا يقتضى تشابها في الذات بين العبد وخالقه .

(1174) صورة فنية للأرواح التي تفنى في حب خالقها ، فلا يبقى لها وجود منفصل ، بل تصبح في حضرته هباء ، ويبقى الخالق وحده ، لا شريك له .

(1175) في هذا البيت صورة فنية أخرى لفناء الروح في الخالق .
" فالروح تغدو ترابا " وهذا رمز إلى فنائها " وتبقى أقدامه منطبعة فوق ترابها " وهذا رمز إلى بقائها ، فهي بالفناء تحقق لها البقاء .

(1176) الفناء في ذات الخالق يحقق لصاحبه أنبل مجد ، وأخلد بقاء .

(1177) هذا البيت يجرى على لسان الوليّ الذي يخاطب سواه بقوله : " لا تنخدع بظاهرى ، وتحسبنى مجرد انسان مادي ، بل تذوق ما أقدمه لك من غذاء روحي ، قبل انتقالى من هذه الحياة " .

(1178) كم من أناس خدعوا بظاهر الصورة ، فحسبوا رجل الله أو النبي انسانا عاديا ، وغرهم ما شاهدوه من ظواهر انسانيته ، فتهجموا عليه ، فكان تهجمهم على الله .

(1179) الصلة بين الله وبين نبيه أو وليه قائمة ، ولا ينفيها ما يكون من بعد الشبه بين ذات الله وذات عبده . ويستدل الشاعر - في هذا البيت وفي الأبيات التالية - على امكان قيام هذه الصلة ، وذلك بما يكون من صلة بين الروح والجسد ، أو بين العين المكونة من شحم وماء وبين البصر ، وهكذا فمثل هذه الصلات بين المعنى والمادة صور تبين امكان قيام الصلة الوثيقة بين الانسان والخالق .

(1183 - 1188) أوَّل الشراح هذه الأبيات تأويلات مختلفة لا تستند إلى النص .
ورأيي أن هذه الأبيات تتضمن أفكارا عن خلق العالم مستوحاة من مذاهب الاشراقيين . ولسنا نستطيع أن نجزم بأن الروح الكلى هنا يشير إلى الخالق ، أو إلى الحقيقة المحمدية . ثم هناك في البيت رقم 1186 عبارة " روح الروح " ، ويتضمن معنى لا يمكن تحديده

على وجه اليقين . والشاعر يستخدم هذه المصطلحات كلها في سياق شعري ، يعبر به عن صدور العالم عن الخالق ، وفق نظرية الاشراقيين .
ولكننا لا نستطيع أن نجزم بتفسير يحدد معنى كل مصطلح من المصطلحات ، كما أننا لا نستطيع أن نقطع بمرحلة الخلق التي بدأت بالحديث عنها هذه الأبيات ، وهل هي الفيض الأول الذي صدر عن واجب الوجود ، أم أنها مرحلة تالية لذلك . وخلاصة مضمون هذه الأبيات هي أن هذا العالم المتعدد المظاهر والأشكال قد صدر عن الواحد ، " روح الروح " ، الذي أبدع الروح الكليّ ، ففاض منه هذا العالم ، وأن هناك في كل وقت فيضا جديدا ، وأن هذا العالم سوف يلد العالم الآخر ، وإذ ذاك تتضح للخلق حقيقة الحشر .

(1184) لقد كان ميلاد هذا العالم المادي من أصل روحي ، كما كان ميلاد المسيح بصورة حسية صادرا عن أصل روحي .

(1185) ومع أن هذا المسيح قد ظهر للناس وخالطهم ، وأظهر من المعجزات ما بهرهم (ومنها المشي على الماء) ، فحقيقته أسمى مما شهده الناس منه وعرفوه ، لأنه روح تسامى فوق حدود المكان .

(1186) العالم فيض من الروح الكلى ، والروح الكلى فيض من الخالق .

(1187) عالم الدنيا يلد بدوره عالم الآخرة ، وإذ ذاك تتجلى للخلق حقيقة الحشر .

(1189) يقول الشاعر ان كل هذه الأقوال التي قدمها ليست في جوهرها سوى دعاء الله ، انطلقت كلماته من شفاه طيبة ، ملتمسة من الخالق جواب الدعاء .

(1192) يبدأ الشاعر هنا قصة رمزية جديدة ، تصور البدن بصورة جدار عال يقف في سبيل الروح ويعوقها عن الانطلاق إلى عالمها ، وأن الروح تتمنى لو حطمت هذا السجن ، وتحررت منه .

(1194) كان صوت الماء في أذنه كخطاب فرج همه ، وبشِّره بالخلاص .

[شرح من بيت 1200 إلى بيت 1350]

(1203) إشارة إلى حديث يروى عن الرسول قوله : “ انى لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن “ .

(1207) كل غريزة من غرائز الجسد - أمكن التغلب عليها واقتلاعها من النفس - كان في التغلب عليها اقلان من سلطان الجسم على الروح (1208) الاقلال من سلطان الجسد هو السبيل إلى خلاص الروح ، فهو الذي يقف حائلا بينها وبين اللحاق بعالمها .

(1209) أعمال العبادة تؤدى إلى التخفيف عن سلطان الجسد ، وتتيح للروح بعض الانطلاق . وقد رمز لهذه الأعمال في القصة بمتابعة هدم الجدار الذي يقف حائلا بين الرجل وبين الماء .

(1210) لا يتسنى يخفض الرأس إذا كان العنق شامخا ، وكذلك لا يمكن الاخلاص في العبادة ، إذا كان الجسد مسيطرا على الروح .

(1212) كل من كانت روحه أكثر اخلاصا وشوقا ، كان أكثر اجتهادا في التخلص من سلطان الحواس ونزعاتها .

(1213) بقدر ما يكون الاخلاص الروحي تكون القدرة على اخضاع الجسد .

(1214) كل اتصال بعالم الروح (كما يكون في التعبد مثلا) يغمر الصوفي بالنشوة ، على حين أن الحسى لا يتجاوز ذلك عنده حد أداء العبادات في صورها الحسية .
(1216 - 1225) صور الشاعر الشباب والشيخوخة ، فرسم لنا بأسلوبه البارع صورا فنية رائعة .
(1227 - 1240) ذكر الشاعر في هذه الأبيات قصة رجل زرع الشوك ، فلما نُهى عن ذلك وعد باقتلاعه ، ودأب على اخلاف وعده حتى قويت شجرة الشوك ورسخت ، وأما هو فضعفت قوته ازاءها . بهذه

الصورة أراد الشاعر أن يقدم مثالا لمن يترك الأخلاق السيئة تستقر في نفسه ، ولا يسعى إلى اقتلاعها حتى تتأصل وترسخ ، ولا تبقى لديه قوة على مقاومتها .

(1241) ان صاحب الخلق السيّء - الذي تأصل عنده هذا الخلق - يسئ إلى نفسه من غير أن يشعر بذلك .

(1244) الرجل المكتمل الرجولة يكون قادرا على أن يقتلع ما رسخ في نفسه من خلق سيء ، كما اقتلع عليّ باب خيبر ، فكان ذلك تحطيما لما كان يمثله هذا الباب ، وهو تحصن الكفر وراء الأسوار المنيعة .
وقد فتح المسلمون خيبر عام 7 ه / 628 م .

(1245) “ ان لم تستطع الخلاص من الخلق السيء فاتخذ لك رفيقا من رجال الله ، حتى يكون شوكك هذا مقترنا بشجرة ورد ، ونارك مقترنة بالنور الصافي “ .

(1246) لعل النور الصافي (ويمثله رجل الله) يخلصك مما يضطرم بنفسك من النار ، وتغدو أشواكك بفضل صحبته ورودا .

(1247) ذو الخلق السيء شبيه بنيران الجحيم ، أما المرشد فهو مؤمن والمؤمن لا يخشى النار .

(1248 - 1249) انظر : مثنوي ، ج 1 ، 3700 .

(1253) يروى عن الرسول أنه قال : “ الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه “ . فلعل هذا الاحسان هو المقصود من قول الشاعر :
“ روح المحسن الطاهر “ .

(1258 - 1259) كما كانت النار بردا وسلاما على إبراهيم ، كذلك يكون جحيم النفس بردا وسلاما على المؤمن ، فلا يحرق بستان صفائه واطمئنانه ، ولا يضرم النار في عدله واحسانه .
(1260) “ النمام “ نبت شبيه بالريحان عطريّ قوى الرائحة ، وسمى بذلك لسطوع رائحته .

(1261) " لقد انصرفنا عن موضوعنا الأصلي إلى سواه ، وأطلنا البحث في ذلك ، فلنعد إلى موضوعنا الأصلي " .

(1262) يعود الشاعر هنا إلى الحديث عن الخلق السيء ، وكيف يصعب اقتلاعه إذا رسخ في النفوس . وهو يربط قوله هنا بما كان قد انتهى اليه في البيت 1225 .

(1264) " ان الفساد قد تأصل في النفس ، فلم يبق لها سبيل إلى الشفاء الا بالفناء " .

(1266) " ابذل قصارى جهدك وأنت بعد في عنفوان قدرتك ، فهذه القدرة لا تدوم طويلا " .
(1267) الانسان الذي يحسن استثمار أيام الحياة - على قلتها - يستطيع أن يحقق لفنسيه عمرا روحيا مديدا .

(1268) " السراج اللألاء " في الانسان هو قلبه أو روحه ، لأن القلب ينير للانسان سبيل الحياة . فعليه أن يعنى بهذا القلب ، ويحافظ عليه وينقيه ، حتى لا تخبو أنواره ، وتتلاشى في ظلمات الحياة الجسدية .

(1271) يدعو الشاعر هنا إلى الاقلال من الكلام ، مع الاكثار من صالح الأعمال . ويحث على التخلي عما اقترن بالجسد من البخل ، ويدعو إلى الاقبال على ما ارتبط بالروح من السخاء والجود .

(1274) ورد ذكر " العروة الوثقى " في موضعين من القرآن الكريم . قال تعالى : " فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى " . (2 : 256) .
وقال : " ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى " . (31 : 22) .

(1276) " يوسف الحسن " رمز للروح للطاهر . والبئر رمز للدنيا ؛ فكما ألقى يوسف الصديق في البئر ، كذلك دُفع الروح الطاهر إلى هذه الدنيا ، وهي بئر الشهوات .
(1284 - 1293) يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن نور الحس ،

ونور القلب أو الروح ، وهو النور الذي يفيضه الله على قلوب أهل الصفاء ، فيجعل لنور الحس ادراكا أوسع ، وشهودا لا يقتصرا على الواقع المحسوس ، وانما يتعداه إلى الغيب المحجب . وقد بحث الغزالي هذا الموضوع في مشكاته . قال : " اعلم أن نور بصر العين موسوم بأنواع النقصان فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه ، ولا يبصر ما بعد عنه ، ولا يبصر ما هو وراء حجاب . ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها . ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها . ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية له . ويغلط كثيرا في ابصاره : فيرى الكبير صغيرا والبعيد قريبا والساكن متحركا والمتحرك ساكنا . فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة . فإن كان في الأعين عين منزهة عن هذه النقائص كلها فليت شعري هل هي أولى باسم النور أم لا ؟

واعلم أن في قلب الانسان عينا هذه صفة كمالها ، وهي التي يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس الانساني . . . " ويمضى الغزالي بعد ذلك بعد في بيان تنزه نور ، القلب عن هذه النقائص التي يعاني منها ابصار العين . (مشكاة الأنوار ، 43 - 49) .

وأسلوب جلال الدين في الموازنة بين النورين قائم على التصوير الفنى ويكثر فيه استخدام الرمز .

والصبر على أمر الله هو سبيل الخلاص . لقد صبر يوسف ، فأرسل الله اليه من خلصه من البئر . والروح الصابر أيضا يمد الله له أسباب النجاة .

(1279) " عالم الروح الجديد " يعنى " العالم الحافل بالرؤى ، المتجدد على الدوام " .

(1280 - 1283) يشبه الشاعر في هذه الأبيات عالم الحس وعالم الغيب بالتراب والهواء .

فالتراب ينتشر في الفضاء ، ويبدو كأنه موجود متحرك ، أما الهواء

فيكون خفيا ، مع أنه هو الذي ينشر الغبار ويحركه . فهذا التراب ليس الا ألعوبة في أيدي الهواء .

(1284) " من كانت العين الحسية سبيله الوحيد إلى الابصار فسوف يعجز عن مشاهدة الهواء ، ورؤيته تكون مقصورة على مشاهدة التراب " .

(1285) العين الترابية (الحسية) يقتصر ادراكها على ما يكون في مستواها وهو التراب . وشبيه بذلك معرفة الحيوان لأبناء جنسه ، فالحصان يعرف الحصان ، وهكذا . أما الابصار الروحي فمن طراز آخر . انه شبيه بمعرفة الفارس لنظيره .

(1286) عين الحس - بدون نور الله - تبقى بعيدة عن الابصار الصحيح ، كالحصان يبقى - بدون الفارس - قاصرا عن ادراك السبيل .
فنور الله يوجه عن الحس ويرشدها ، كالفارس يوجه حصانه ويحسن قيادته .

(1287) إذا لم يهذب الحصان ، فإنه لا يكون لائقا بالميلك ، وكذلك العين الحسية لا تكون جديرة بنور الله ما لم تسلك السبيل إلى ذلك بالتزام الغفة والتهذب ، والاعراض عن الطمع ، والطموح إلى لذات الحس .

(1288) بدون نور الله يسوء حال العين الحسية ، وتضطرب رؤاها فهي كالحصان يتخبط في سيره ، إذا لم يكن له فارس يهديه .

(1289) إذا لم يهتد الابصار الحسيّ بنور الله ، فأي مطمع يكون له سوى لذات الحس ؟ كالحصان إذا ترك وشأنه فلا مطمع له إذ ذاك سوى المرعى . أما النفع الذي يحققه الحصان فلا يكون الا بهداية الفارس .

(1290) حين يسيطر نور الله على نور الحس ، يكون هذا السبيل اهتداء الروح ، وباعث شوقها إلى عالمها .

(1291) الطريق الملكي هو الطريق إلى الله . والفارس الملك هو

الرجل الكامل .
(1293) يشير الشاعر هنا إلى قوله تعالى : " نور على نور يهدى الله النورة من يشاء " . (24 : 35) . وهذه الآية - في نظر الشاعر - دليل واضح على افتقار الحس إلى الهداية ، بدون نور الله .
والهداية هنا روحية ، والله يهب لمن يشاء مثل هذه الهداية . وللنور أهمية كبرى في فلسفة الصوفية . وعليه تقوم عقائدهم الاشراقية . انظر :
(الغزالي : مشكاة الأنوار) ، (السهروردي : حكمة الاشراق ، وهياكل النور) .

(1296) الحس الباطني الذي يوجه الحس الظاهري لا يظهر الا في جميل الأثر ، وطيب الكلم .

(1297) نور الحس الذي هو - بالقياس إلى نور الروح - غليظ كثيف يكون محتجبا في سواد العين . وكان الأقدمون يعتقدون أن الابصار أشعة تنطلق من العين إلى المرئيات ، وهذه الأشعة لا ترى لأن النور محتجب في سواد العين .

(1298 - 1299) من بين ما ذكره الغزالي عن نقائص نور العين أنه " يبصر غيره ولا يبصر نفسه " . (المشكاة ، 43) . وما دامت العين تعجز عن مشاهدة نوها المحسوس فيكف تستطيع أن تشاهد النور الروحي ، وهو أكثر من النور الحسى لطفا وخفاء ؟ وهذا البيت أيضا مرتبط بفهم الأقدمين لطبيعة الابصار ، وهو أنه أشعة تنطلق من العين إلى المرئيات .

(1304) قول الشاعر : " وتأمل كيف أن الأرواح ظاهرة " يعنى أنها ظاهرة الفعل والأثر .

(1305) قول الشاعر : " ولا تحطم السهم " يعنى : " ولا تغالب القضاء الإلهي " ، أما قوله : " فإنه سهم المليك " فيعنى أنه نافذ لا محالة .

(1306) انظر المثنوي ، ج 1 ، 614 ، 615 .

(1307) الغضب مما تأتى به الأقدار يعمى الانسان عن إرادة الله في ذلك . فالانسان يحارب القضاء ، مع أنه وقع بمشيئة الله ، وينظر إلى الأقدار ، بسخط مع أنها فعل الله .

(1313) المخلص لا يكون في مأمن من شباك الأقدار الا إذا خلص من ذاتيته . فالفناء عن الذاتية يجعل الانسان في رحاب الله ، وبذلك يستعصى على ضربات القدر .

(1315 - 1316) في هذين البيتين يوازن الشاعر بين الاخلاص والخلاص . فالاخلاص مرحلة أولى في سبيل الخلاص . فلو وقف المرء عند هذه المرحلة الأولى ، فهو رجل مخلص فحسب ، لكنه لم يظفر بعد بمراده ، وهو تحقيق النجاة الكاملة ، فهذه النجاة لا تتحقق الا بتنقية القلب حتى يصبح مرآة صافية . وبدون ذلك فليست هناك نجاة ، بل سعى إلى النجاة . والساعي إلى النجاة كالصياد الذي يبحث عن صيد ، أما مدركها فهو كصياد ظفر بصيده . والفائز بالنجاة يبلغ مقام الأمن الذي لا يشوبه خوف .

(1317 - 1318) الواصل الذي بلغ مقام الأمن لا يبقى بعد ذلك عرضة للتغير . فالمرآة التي بلغت درجة الصقل لا تعود حديدا خشنا ، والخبز لا يرتد قمحا ، والعنب الناضج لا يرجع إلى الفجاجة ، وهكذا .

(1319) يذكر الشاعر أستاذه برهان الدين محقق بوصفه مثالا لبلوغ النضج ، الذي يجعل الانسان في مأمن من التغير . وقد ذكر الجامي برهان الدين محقق بقوله :
" السيد برهان الدين محقق رحمه الله هو شريف حسنى ترمذى ، وكان من مريدى مولانا بهاء الدين ولد ، وممن ربوا على يديه . واشتهر في خراسان وترمذ بالسيد المطلع على الأسرار ، وذلك بسبب اشرافه على الخواطر . وفي اليوم الذي مات فيه مولانا بهاء الذين وَلَد كان جالسا مع الجماعة في ترمذ ، فقال : وأسفاه ! لقد

مات أستاذي وشيخى . وبعد أيام سافر إلى قونية لتربية مولانا جلال الدين " . ويذكر الجامي بعد ذلك أن جلال الدين تتملذ تسع سنوات على برهان الدين محقق ، وأن برهان الدين قد ذاع صيته في أرض الروم ، وأن السهروردي " 1 " قد ذهب لزيارته ووصفه بأنه بحر مواج من درر المعاني . (نفحات الأنس ، ص 298 ، طبع الهند ، 1893) .

(1321 - 1323) يذكر نيكولسون أن هذه الأبيات لم ترد في أقدم مخطوطات المثنوى ، وأنها ظهرت لأول مرة في مخطوط يرجع إلى منصف القرن الرابع عشر . كما يذكر أن هذه الأبيات وردت في حاشية احدى النسخ تحت عنوان " ولدى " . وقد استنتج نيكولسون من ذلك أن هذه الأبيات ربما كانت من نظم سلطان وَلَد ، الذي كان متزوجا من ابنة صلاح الدين زركوب ، وأراد أن يذكر صهره في المثنوى إلى جانب شمس الدين التبريزي ، وبرهان الدين محقق ، وحسن حسام الدين .
(انظر تعليقات نيكولسون) . ومهما يكن من أمر فان صلاح الدين زركوب كان من تلاميذ جلال الدين المقربين . وقد ذكره جلال الدين في كثير من غزليات الديوان .
وكان صلاح الدين فريدون زركوب (الصائغ) من مريدى برهان الدين محقق .
ويُروى أن برهان الدين قال :
" وهبت حالي الصلاح الدين ، ومقالى لجلال الدين " .) (نفحات الأنس ، 299) .
ويذكر الجامي أن صلاح الدين تخلى عن دكان الصياغة الذي كان يملكه ولزم جلال الدين . وانتهى الأمر إلى ارتباطهما بالمصاهرة ، حيث تزوج سلطان ولد بابنة صلاح الدين زركوب ، وكان جلبي عارف من أبنائهما . ويذكر الجامي أن جلال الدين قال في صلاح الدين :

....

(1) المقصود هو أبو حفص عمر بن محمد المتوفى 633 ، وصاحب كتاب عوارف المعارف . أما السهروردي الاشراقي فقد مات قبل ذلك بكثير (عام 588) .

يكى كنجى بديد آمد درين دكان زركوبى * زهى صورت زهى معنى زهى خوبى زهى خوبى" لقد ظهر كنز في دكان الصياغة هذا ، فما أجمل الصورة ، وما أجمل المعنى ، وما أروع هذا الحسن والبهاء " . (انظر : نفحات الأنس ، 304 ، 305) .

(1323) للشيخ سلطان على القلوب مقتبس من قدرة الله . وهذا السلطان يجعله ذا أثر على القلوب بدون آلة يستعين بها في تحقيق ذلك .

(1325) أثر الشيخ المرشد على القلوب شبيه بأثر الخاتم على الشمع ، ولكن من إذا الذي صنع في الأصل نقش الخاتم ؟

(1326) صانع هذا النقش هو الصائغ ، وهو هنا رمز للخالق .
فهناك سلسلة مترابطة الحلقات ، تربط المسببات بأسبابها حتى تصلها بالخالق .

(1327) من القلوب ما يتردد في جوانبه صوت رسالات السماء ، ومنها ما يكون خاليا من هذا الصوت .

(1329) تختلف الجبال في مقدار الصدى الذي تردد به ما تتلقاه من أصوات ، فمنها ما يكون رجع الصدى فيه محدودا ، ومنها ما يكون رجع الصدى فيه عظيما مدويا .
وهكذا شأن القلوب بالنسبة لصوت السماء ، فمنها ما يستجيب له بقدر محدود ، ومنها ما يكون عظيم الاستجابة .

(1330) ان مئات الألوف من ينابيع الحكمة والمعرفة تتفجر من استجابة العارفين والمؤمنين لدعوة السماء .

(1331) إذا ما فارق القلوب صوت السماء صارت المعارف التي تصدر عنها غير سائغة المذاق . ومع أن الأصل في طبيعة القلوب أن تكون لطيفة ، لا يصدر عنها الا ما هو لطيف ، فإنها بالخبث والجحود تفارق

طبيعتها فلا يصدر عنها غير ما يؤذى ويضر .
(1332) " المليك الأكبر " هنا هو موسى ، عليه السلام ، فقد صعد فوق جبل الطور ، وناجى ربه ، فتجلى له الله . ولقد بورك الجبل بهذا التجلي الإلهي . ولعل الشاعر يستخدم الرمز هنا أيضا ، فيكون مرور موسى فوق جبل الطور رمزا لاشراق نور الرسالات السماوية على قلوب العارفين ، وليس سوى هذا ما يسمو بها ، ويعلى قيمة جوهرها .

(1333) " ان الجبل قد أصبح ذا روح وادراك حين تجلى له الخالق ، فكان أن دُكّ ساعة التجلي . فما هو هذا الجمود الذي أصاب بنى الانسان إزاء رسالات السماء ؟ فهل يكون الناس أقل ادراكا من الحجر ؟ " . (انظر : مثنوى ، ج 1 ، 25 - 26) .

(1334 - 1335) ينتقد الشاعر في هذين البيتين ما يعانيه الناس من جمود روحىّ وجسدي .

(1336) " أين الحمية التي تجعلهم يعملون على افناء هذا الكيان الذاتي الراسخ الذي يقف كالجبل حائلا بينهم وبين تلقى نور الرسالات " .

(1337) لعل فناء النفس الحسية - التي تقف حائلا دون التأمل الروحي - يتيح للقلب أن يتلقى لمحة من أشعة التجلي ، فيستضىء بنورها الكيان الانساني .

(1338 - 1339) يوازن الشاعر هنا بين القيامة الكبرى التي تعنى نهاية العالم ، وفيها يصيب العالم الدمار " وتصير الجبال كالعهن المنفوش " ، وهذه القيامة لا يهون أمرها على الانسان ، فهي موقف فيه هول ورعب ، على حين أن تلك " القيامة الروحية " تحقق الراحة والأمن والسلام . فالقيامة الروحية هي بعث الروح الذي أزهقته الشهوات ، وخنقته الأطماع . ان خلاص الروح من الشهوات والأطماع يمثل لونا من البعث ، يتيح للانسان حياة جديدة .) (انظر ما كتبه الجيلى عن " الساعة الكبرى " ، و " الساعة الصغرى " . الانسان الكامل ، 2 : 52 - 57) .

(1340) كل من استطاع أن يبلغ هذه اليقظة الروحية ، فقد تحقق له الأمن في موقف البعث الرهيب . وهذه اليقظة ذاتها هي السبيل لمحو ما سبقها من سيئات .

(1345 - 1347) يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن الصوفية الذين يسعون إلى افناء ذواتهم في ذات الله ، ويستشعرون التحقق بالفناء ، فيدفعهم هذا إلى التعبير عن هذا الاحساس بعبارات تعرف عادة بالشطح .
وهناك عبارات كثيرة تروى عن أهل السكر من الصوفية . ومن أمثله ذلك قول أبى يزيد البسطامي : " سبحانى ، ما أعظم شأني " ، وقول الحسين بن منصور الحلاج : " ما في الجبة غير الله " .

(1348) من الصور التي يتخذها جلال الدين رمزا للفناء الصوفي تلاشى لون الحديد في لون النار . وقد سبق أن قدم صورا مماثلة لهذه الصورة . (انظر : مثنوى ، ج 1 ، 1531 - 1535) .

[شرح من بيت 1350 إلى بيت 1500]

(1353) الانسان الذي أصبح - بفنائه في الذات الإلهية - مغمورا بنور الله ، يكون جديرا بأن تسجد له الملائكة ، كما سجدت لآدم .

(1354) كل انسان خلصت روحه من الشك والطغيان ، يصير كالملائكة ، وإذ ذاك ، يخلص في متابعة هذا الانسان الكامل ، لأن الله هو الذي اجتباه .

(1355) خشي الشاعر من تلعق المستمع بالتمثيلات ، وانصرافه عن جوهر المعنى فقال : " وأي قيمة للنار والحديد في هذا البحث . انهما ليسا سوى مثالين ، فلا تقع أسير التشبيه ، في حين أنك تسخر من التشبيه " .

(1356) " ما دمت قد تعلقت باللفظ وانصرفت عن الجوهر ، (وقد تجلى هذا في تعلقك بظاهر المثال ، وانصرافاك عن جوهره) ، ما دمت كذلك فلا تتقدم نحو بحر الوحدة ، وأقلل من حديثك عنه . والزم الصمت والحيرة إزاء هذه الأسرار ، ولا تخض في الحديث عنها " .

(1357) البحر رمز للخالق الذي يستوعب في وجوده كل الموجودات .
والشاعر يقول إنه برغم ضعفه البالغ أمام مثل هذا البحر فهو حريص على خوضه ، لا يطيق ابتعادا عن الفناء في لجّه . والمقصود بخوض اللج السعي إلى افناء الذات الانسانية .

(1358) قول الشاعر : " هذا البحر هو الذي أدى دية العقل والروح " ، يعنى أن الخالق يمنح البقاء جزاء لمن أفنى ذاته في السعي اليه .

(1359) " سوف أسعى إلى البحر ما دامت إلى إرادة . فإذا ما بلغته - بافناء ارداتى - بقيت ملازما له ، لا أحيد عنه " .

(1360) من تحقق له هذا الوصول - مهما كان مشوبا بشئ من النقص - خير ممن تخلى عن السعي اليه . فالحلقة فوق الباب تكون نافعة حتى ولو كانت معوجة .
" والحلقة " هي الأدادة التي يقرع بها الباب ، وربما قصد الشاعر أن يجعل منها رمزا للسعى .

(1361) " الحوض " هنا رمز للقلب . فالشاعر يدعو المتعلقين بالحس - ممن تلوثت أجسادهم - إلى أن يكون تعلقهم بالقلب ، لا بالجسد ؛ فالقلب هو الحوض الذي ينضح بماء الطهر ، ولا سبيل إلى الطهر بدونه .

(1362) من كان طاهر الجسد لا يكون طاهر الذات ، إذا تخلى عن حياة القلب .

(1363) طهارة القلب لا حدود لها ، أما طهارة الجسد فهيّنة الأمر ، طفيفة القيمة .

(1364) القلب هو الحوض الذي يفيض منه الطهر ، ذلك لأن له اتصالا خفيا ببحر الطهر ذاته .

(1365) هذا الطهارة التي تتحقق بالتقوى تحتاج إلى مدد دائم من القلب ، والا تناقصت على مرّ الزمن ، إذ أن العبادات تصبح مجرد عادات ما لم تستند إلى الايمان القلبي المتجدد . فبدون هذا الايمان تخلو العبادات - بمرور الزمن - من روحها .

ونور القلب أو الروح ، وهو النور الذي يفيضه الله على قلوب أهل الصفاء ، فيجعل لنور الحس ادراكا أوسع ، وشهودا لا يقتصرا على الواقع المحسوس ، وانما يتعداه إلى الغيب المحجب . وقد بحث الغزالي هذا الموضوع في مشكاته . قال : “ اعلم أن نور بصر العين موسوم بأنواع النقصان فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه ، ولا يبصر ما بعد عنه ، ولا يبصر ما هو وراء حجاب . ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها . ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها . ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية له . ويغلط كثيرا في ابصاره : فيرى الكبير صغيرا والبعيد قريبا والساكن متحركا والمتحرك ساكنا . فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة . فإن كان في الأعين عين منزهة عن هذه النقائص كلها فليت شعري هل هي أولى باسم النور أم لا ؟
واعلم أن في قلب الانسان عينا هذه صفة كمالها ، وهي التي يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس الانساني . . . “ ويمضى الغزالي بعد ذلك بعد في بيان تنزه نور ، القلب عن هذه النقائص التي يعاني منها ابصار العين . (مشكاة الأنوار ، 43 - 49) .
وأسلوب جلال الدين في الموازنة بين النورين قائم على التصوير الفنى ويكثر فيه استخدام الرمز .
والصبر على أمر الله هو سبيل الخلاص . لقد صبر يوسف ، فأرسل الله اليه من خلصه من البئر . والروح الصابر أيضا يمد الله له أسباب النجاة .

(1279) “ عالم الروح الجديد “ يعنى “ العالم الحافل بالرؤى ، المتجدد على الدوام “ .

(1280 - 1283) يشبه الشاعر في هذه الأبيات عالم الحس وعالم الغيب بالتراب والهواء .
فالتراب ينتشر في الفضاء ، ويبدو كأنه موجود متحرك ، أما الهواء

(1391) " ليس في الامكان وقف اندفاع الصوفي ، مهما ضاق العوام بما قد يظهر عليه من أحوال ، لا يروقهم ظاهرها .

(1392) قول الشاعر : " والملوك ليست لهم علامة ظاهرة " ، يعنى أن العارفين لا يظهر عليهم ما يميزهم في نظر العوام .

(1393) " إذا كان الحكم في يد أسارى الحس الجهلاء ، فلا غرابة إذا أصبح السجن مصير العارفين " .

(1394) ان الصوفي مَلك بقوته الروحية وبعرفانه . لكن قوة الروح والعرفان لا يظهر انه في أبهة الملك التي يعرفها العوام . فكأنه ملك يمشى وحيدا (مجردا من أبهة الملك) ، فيعبث به الصبية . و " الصبية " هنا رمز لجلاء الناس وعوامهم . وهم في سوء تقديرهم للعارف الكامل كالأطفال إذ يعبثون بالدرة اليتيمة ، ولا يعرفون شيئا عن قيمتها .

(1395 - 1397) سبق للشاعر أن وازن بين ظاهر الولي وبين حقيقة حاله ، وضرب مثالا لذلك بالنبي صالح الذي كان فردا واحدا فانتصر - بقدرة الله - على قبيلة بأسرها . والأبيات هنا قريبة المعنى من أبيات جاءت قبل ذلك في المثنوى (ج 1 ، 2502 - 2508) .

(1396) قد يبدو الولي في بداية الأمر بسيط المظهر ، لكن حقيقته - المحتجبة وراء مثل هذا المظهر - تنكشف بعد ذلك رويدا رويدا .

(1397) " إذ تجلى الانسان الكامل تلاشت في ضيائه الكائنات جميعا ، وسكوت بكماله ، ثم صحت على وجود أسمى " . (انظر :
الجيلى : الانسان الكامل ، ج 2 ، الباب 60 ، ص 47 وما يليها) .
ومن أمثلة ما قاله عن الانسان الكامل : " وقد جرت سنته صلى الله عليه وسلم أنه لا يزال يتصور في كل زمان بصورة أكملهم ، ليعلى شأنهم ويقيم ميلانهم " . (ص 50) . وكذلك قوله : " والانسان ! الكامل أيضا مرآة الحق ، فان الحق تعالى أوجب على نفسه ألا ترى أسماؤه وصفاته لا في الانسان الكامل " . (ص 52) .

(1401) كيف يلتمس المسيحي الأمان من السيد الذي صلب . وما دام هذا السيد ذاته قد تعرض للصلب ، فكيف يستطيع أن يدفع عن غيره السوء . ويعتقد المسلمون أن السيد المصلوب ليس المسيح عيسى بن مريم .

(1402) “ ان كان المسيح قد صلب على أيدي اليهود ، وفقا لاعتقاد ذلك المسيحي ، فكيف يستطيع أن يمده بالعون ؟ “ (1403) مهما كانت محبة ذلك الرسول الكريم (عيسى) لقومه ، وحرصه عليهم ، فلا سبيل اليه أن يتحقق لهم بعد الرتفاعه ما كان يتحقق لهم من الأمان ابان وجوده بينهم . ويستند هذا المعنى على آية كريمة خوطب بها الرسول في سورة الأنفال . قال تعالى : “ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون “ . (8 : 33) .

(1404) انتقل الشاعر هنا إلى تصوير حياة الولي بين قومه . وقد قدم لها بالحديث عن حياة الأنبياء بين أقوامهم . فالرجل الكامل يكون دائما عرضة لزيف المزيفين ، وتزوير أهل الخيانة ، كما يكون الذهب وصائغه هدفا للمزيفين والمزورين .

(1405) الحسد هو القوة التي تدفع الناس إلى محاربة أهل الكمال .
وهو قوة مدمرة ، تجعلهم يعيشون في لهيب مستعر ، وتدفعهم إلى الايذاء دفعا . ومن هنا كان ميل أهل الكمال إلى اخفاء حقيقتهم وانصرافهم عن الظهار مزاياهم .

(1406) الجبّ الذي ألقى به يوسف كان نتيجة لحسد اخوته .
فالحسد هو الجبّ الحقيقي . وأهل الكمال هدف وضحية لهذا الجب الذي يكمن في طريقهم ، وهو الحسد . فالحاسدون يسعون إلى اهلاك كل من تفوق عليهم .

(1407) الذئب الذي تحدث عنه اخوة يوسف وذكروا لأبيهم أنه أكل أخاهم ، لم يكن سوى ذئب الحسد الذي كمن له في الخفاء ، ذلك

لأنه لم يكن هناك ذئب حقيقي . وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى ، حكاية عن اخوة يوسف : “ قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب “ . (12 : 17) .

(1408) حينما طلب اخوة يوسف من أبيهم أن يرسله معهم يرتع ويلعب عبر لهم يعقوب عن خوفه من أن يأكله الذئب وهم عنه غافلون قال تعالى حكاية عن يعقوب : “ قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون “ . (12 : 13) . فالذئب الذي خاف منه يعقوب هو في رأى الشاعر ذئب الحسد الذي كان يغلى في نفوسهم ، وكان من الممكن أن يدفعهم إلى ايذائه وهم في غفلة عما بينه وبينهم من إخاء . وفي آيات القرآن الكريم ما يوضح خوف يعقوب على يوسف من حسد اخوته له . قال تعالى : “ قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا “ . (12 : 5) .

(1411) آلاف الذئاب لا يكون لها من المكر ما يكون لذئب الحسد .
ذلك لأن ذئب الحسد يدبر كيده في الخفاء . لكنّ أمره لا بد أن يفتضح في النهاية .

(1412 - 1415) ذكر الشاعر الصور التي يحشر عليها الحاسدون والحريصون والزناة وشاربو الخمر . أما أصحاب القلوب النتنة ، الذين لا يظهر في الدنيا نتن قلوبهم ، فسوف يصبح تنها - في الآخرة - ظاهرا محسوسا .

(1416 - 1417) في البيتين تصوير رائع للوجود الآدمي . فقد شبهه الشاعر بغابة كثيفة الأشجار ، لا يعرف أحد ما يجوس خلالها من الوحوش الضوارى . فالانسان لا ينبئ بظاهره عن حقيقة باطنه .

(1420) الكيان البشرى قابل لا كتساب الصفات الجميلة والقبيحة .
فقد تنفذ اليه صفة غادرة شبيهة بصفات الذئب ، وقد تنفذ اليه صفة جميلة ، كأنها يوسف في جمال محياه .

(1422) لا يقتصر اكتساب الصفات على الانسان وحده ، بل ربما اكتسبها الحيوان من الانسان .

(1427) الصدور يرتبط بعضها ببعض خلال طريق خفي يدركه العارفون .
فالصدور تمد شباكها لتتصيد المعارف والخصال من سواها .
وقد رمز الشاعر إلى العارفين بالأسود . ولا داعى للأخذ بالتفسيرات القديمة (انظر المنهج القوى ، 2 ، ص 332) ، كما أنه لا ضرورة لتفسير " الأجمة العجيبة " في هذا البيت بأنها " أجمة الذات الإلهية المشتملة على كل إيوان الوجود والعقل الإلهي المتضمن لجميع الأفكار " . فالشاعر هنا يتحدث في موضوع تعليمي ، هو امكان اكتساب المعارف من العارفين .
وفي البيت التالي لهذا يحث المريدين على سرقة جواهر المعرفة من صدور العارفين . " فالأجمة العجيبة " هنا ليست سوى صدر الانسان بما ينطوى عليه من عجائب .

(1428) قول الشاعر : " يا من أنت أقل من كلب " توبيخ للمريد الذي لم يستطع أن يقتبس المعرفة من الشيخ العارف ، وبهذا لم يبلغ ما بلغه كلب أصحاب الكهف ، حين اكتسب الصلاح من أصحابه .

(1429) في البيت إشارة إلى مثل عربى نصفه : " إذا سرقت فاسرق الدرة " .
فالشاعر يخاطب المريد قائلا : " ان كان لا بد لك أن تسرق ، فدرة العرفان هي أثمن شئ يسرق . وفي هذا المعنى دعوة إلى تحويل الرذائل الحسية إلى فصائل روحية .

(1434) " العقلاء " هنا هم العقلاء الدنيويون .

(1436 - 1441) تشير هذه الأبيات إلى قصة وردت في تفسير آيات من سورة البقرة . يقول الزمخشري : " كان في بني إسرائيل شيخ موسر ، فقتل ابنه بنو أخيه ليرثوه ، وطرحوه على باب مدينة ، ثم جاءوا يطالبون بديته . فأمرهم الله أن يدبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله . . .

وروى أنهم لما ضربوه قام بإذن الله وأو داجه تشخب دما ، وقال :
قتلني فلان وفلان لا بنى عمه ، ثم سقط ميتا ، فأخذا وقتلا " . (الكشاف ج 1 ، ص 148 ، 153) . وقد وردت هذا القصة في تفسير الآيات 67 ، 72 ، 73 من سورة البقرة . قال تعالى : " وإذ قتلتهم نفسا فادَّار أتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون " . (2 : 72 - 73) .

(1442) هذا البيت يتضمن التفسير الصوفي للقصة السابقة . فحينما تقتل شهوات الجسد الغليظ ويقضى على تسلطه ، يبعث الروح حيا .
والبقرة في القصة السابقة رمز للكيان الجسدي الغليظ .

(1443) حينما قتلت البقرة - رمز الكيان الجسدىّ الغليظ - تكشفت الأسرار ، وظهر ما كان خافيا . وهكذا الحال عندما يقُضى على الجسد ، فالروح يتحرر حينذاك ، ويطلع على عالم الغيب ، وخفىّ الأسرار .

(1444) حينذاك يصبح الروح قادرا على كشف حقيقة الشياطين المستترين ، ولا يكون للخداع والمكر سبيل للايقاع به . وربما كانت " الشياطين المستترة " هنا رمزا لشهوات الحس التي تزين اللذات للناس ، كما يفعل الشيطان . ووصف الشياطين بأنها " دائبة على سفلك الدماء " رمز إلى أنها مثابرة على قتل الأرواح .

(1445) " قتل البقرة " ، يعنى قتل رغبات الحس ، وشهوات الجسد .

(1464) رُوى عن مجاهد أنه قال : " كان لقمان عبدا أسود ، عظيم الشفتين مشقق القدمين " . (الثعلبي : قصص الأنبياء ، ص 391) .

(1465) يبدأ الشاعر هنا رواية حكاية عن مَلك وصوفي . وتتضمن هذه الحكاية حكمة في الزهد نسبت إلى مصادر متعددة . ومن أقدم من نسبت إليهم ديوجانس الكلبي . يذكر الشهرستاني أن ديوجانس سئل :

كم عبد لك ؟
قال : أربابكم ، يعنى الغضب والشهوة . (الملل والنحل ، 2 ، 150) .
وقد بين نيكولسون ورود قصة الملك والصوفي في كشف المحجوب للهجويرى ، كما تتبع فروزانفر هذه القصة في مختلف مصادرها (مآخذ قصص ، 53 - 55) .
وتروى القصة أن ملكا التقى بأحد الدراويش . فخاطب الملك الدرويش قائلا : “ سلني حاجة “ . فقال الدرويش : “ لست أريد شيئا ممن هو عبد العبيدي “ . فقال الملك : “ وكيف كان ذلك ؟ “ فقال الدرويش : “ ان لي عبدين كلاهما سيد لك ، أحدهما هو الحرص وأما ثانيهما فهو طول الأمل “ .

(1469) الملك الحق هو الذي لا يكون للمُلك سلطان على نفسه ، فلا يتسرب إليها - من جرائه - الغرور والحرص .

(1470) الكنز الحقيقي هو الروح اليقظ . وصاحب هذا الروح هو مالك الكنز ، لأنه ظفر بالوجود الحق . أما المعتد بوجوده الحسى فلا سبيل له إلى الوجود الحق .

(1472) قول الشاعر : “ فالجوهر أدنى في نظرهم من القش “ ، يعنى أن الناس يقبلون على الزائف ويقدرونه ، على حين أنهم يعرضون على الجوهر الأصيل ، ولا يدركون قيمته .

(1478 - 1479) جاء في رسالة القشيري (ص 107) رواية عن أحمد بن عاصم الأنطاكى : “ إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق ، فإنهم جواسيس القلوب ، يدخلون في قلوبكم ويخرجون منها من حيث لا تحسون “ .
ويتصل هذا المعنى بملكة الفراسة التي تنسب إلى العارفين . ويبنى القول بها على حديث يروى عن الرسول قوله : “ اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله “ . يقول القشيري (ص 105) : “ وهي (الفراسة) على

حسب قوة الايمان ، فكل من كان أقوى ايمانا كان أحد فراسة " . وقد فُسِّر قوله تعالى : " ان في ذلك لآيات للمتوسمين " (15 : 75) ، بأن " المتوسمين " هم أهل الفراسة ، العارفون بالسمات .
ونقل القشيري عن الواسطي قوله : " ان الفراسة سواطع أنوار لمعت في القلوب ، وتمكين معرفة حملت السرائر في الغيوب ، من غيب إلى غيب ، حتى يشهد الأشياء من حيث أشهده الله الحق سبحانه إياها ، فيتكلم على ضمير الخلق " . (الرسالة ، 105) .

(1483) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : " ولقد آتينا داوود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنَّا له الحديد " . (34 : 10) .
فمن لان في كفه الحديد فما أهون الشمع في كفيه ، ومن كان عالما بأسرار الوحدانية فما أهون أسرار الخلق عليه .

(1495) السيادة في الدنيا ليست دليلا على السيادة في الآخرة ، ولا ضعة الشأن مقدمة لحدوث ذلك في الآخرة ، بل كثيرا ما يكون الوضيع في الدنيا سيدا في الآخرة ، والسيد في هذا العالم وضيع المقام خاوى الوفاض في العالم الآخر .

[شرح من بيت 1500 إلى بيت 1650]

(1500) ليس كتمان السر عن الأشرار فعلا عظيما يستدعى الاعجاب ، فهذا من الأمور التي لا يقتصر ادراكها على خاصة العارفين . ان الفعل العجب يتجلى في مقدرة المرء على كتمان سره عن نفسه . و " كتمان السرّ عن النفس " ، يعنى الامتناع عن الاحساس بالذات ، لأن ذلك يبعث الغرور في النفس . وتهذيب النفس على هذا النحو يعُتبر - عند الصوفية .
- نهجا رفيعا من الاخلاص . روى عن أبي على الدقاق أنه قال :
" الاخلاص هو التوقي عن ملاحظة الخلق وصدق التنقى من مطالعة النفس .
فالمخلص لا رياء له ، والصادق لا اعجاب له " . (رسالة القشيري ، 95) .

(1502) " اسلام النفس إلى شباك المثوبة " ، كناية عن تقديمها إلى الله . وحنيما يتحقق هذا الموقف لا يبقى للمرء حرص ذاتي ، ويستطيع

- في غمرة هذا الاخلاص - أن يقتلع الأنانية من ذاته .

(1503) انتزاع الأنانية من النفس الحسية يهون ، حين يسلم المرء قلبه إلى الخالق . فمثل هذا التوجه يخرج النفس الحسية عن وعيها ، فيسهل حينذاك اقتلاع الشرور منها ، كما يسهل بالتخدير اقتلاع رأس الحربة من الجريح .

(1505) إذا ركز فؤاد المرء في احدى الأفكار سُلب منه ما سواها فلو كان اهتمامه الكلى بمتاع الدنيا ، سُلبت منه معارف الروح .

(1506) مهما يكن لك عن عرفان تعتقد أنه يقيك ، أو علم تركن اليه ، فان الشيطان يستطيع أن ينفذ إلى قلبك ساعة اشتغالك بما سواهما .

(1507) لو اشتغل الانسان بما هو أهم - وهو العرفان الروحي - سُلب منه ما هو أدنى ، وهو التلعق بالمادة ، والحرص على مطالب الحس .

(1508 - 1509) إذا كانت بعض الخواطر لا بد أن تضيع من المرء ، فخواطر الشر هي الأحرى بالضياع . فالتاجر حين تسقط بضائعه في الماء يسارع إلى استنقاذ أثمنها .

(1510 - 1528) القصة التي يرويها الشاعر عن لقمان في هذه الأبيات وردت في مصادر متعددة ، لكن بطلها - طبقا لهذه المصادر - لم يكن لقمان . ولعل الشاعر قد وجد فيها من الحكمة ما يشبه حكمة لقمان فنسبها اليه . وقد بين فروزانفر بعض المصادر التي وردت بها هذه القصة ، وهي الامتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدي ، وكذلك منطق الطير للعطار ، وجوامع الحكايات لمحمد عوفي ، وأسرار التوحيد .
(مآخذ قصص وتمثيلات ، 55 - 56) .
وفيما يلي ترجمة لأبيات العطار ، التي روى فيها هذه القصة " يحكى أن ملكا طيب السيرة أعطى ذات يوم فاكهة لأحد غلمانه .
فأكل الغلام هذه الفاكهة ملتذا ، وكأنه لم يذق طعاما مثلها !

فكان التذاد الغلام بالفاكهة ، على هذه الصورة ، مما أثار رغبة السيد في تذوقها .
فقال : " هب لي نصفها أيها الغلام ، فإنك تبدى غاية التلذذ بهذا الطعام الطيب " .
فناوله الغلام نصفها فلما تذوقه المليك ، وجده مرّا ، فقطب حاجبيه .
وقال : " ما أكل أحد مثل هذا قط أيها الغلام . ومن ذا الذي يجد الحلاوة في مثل هذه المرارة ؟ " فقال هذا السالك للملك : " أيها المليك . ما دمت قد تناولت من يدك ألوفان من التحف ، فلست أسيع رد حبة من الفاكهة المرة ، أقلتت ذات مرة من يدك .
فما دام لي في كل لحظة كنز من يدك ، فكيف تزعجنب حبة واحدة من الفاكهة المرة ؟

(1526) قول الشاعر : " وما دمت غريق حَبِّك وشبابك " يعنى :
" وما دمت غريق فضلك أسير انعامك " .

(1527) قول الشاعر : " فليُحث فوق كل أعضائي تراب مائة طريق " : حثو التراب على رأس انسان يُعد صورة بالغة من صور الإهانة والتحقير . وكثيرا ما يرد هذا التعبير في المثنوى وغيره . وقد بالغ الشاعر هنا في هذه الصورة ، فجعل لقمان يرجو الله أن يُحثى فوق كل أعضائه تراب مائة طريق له أنه تنكر لسيده ، من جراء هفوة واحدة .

(1532) العرفان يجعل من تحقق به محبا صادق الحب . ولا سبيل إلى الوصول إلى مقام المحبة ما لم يتحقق المرء بكامل العرفان .

(1533) ان من نقص العرفان أن يتعلق الانسان بالجماد أو بالمادة .
ولو تحقق لانسان كامل العرفان ما ارتضى أن يشغل قلبه بشئ يصرفه عن

الخالق . ذكر القشيري قولا منسوبا إلى يوسف بن علىّ جاء فيه : “ لا يكون العارف عارفا حقا حتى لو أعطى مثل ملك سليمان لم يشغله عن الله عز وجل طرفة عين “ . (الرسالة ، 142) .

(1537) روى في الجامع الصغير عن ابن مسعود أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : “ ذهاب إلى البصر مغفرة للذنوب ، وذهاب السمع مغفرة للذنوب ، وما نقص من الجسد فعلى قدر ذلك “ . (المنهج القوى ، ج 2 ، 352) .

(1542) بدون صفاء الرؤية لا يستطيع الانسان أن يميز بين النور الآفل وبين النور الخالد ؛ يبهره البرق الخلب ، فيتصور دوامه ، فلا يلبث البرق أن يختفى ويتركه للظلام . والعرفان الروحي هو النور الخالد ، أما المعارف الدنيوية فهي البرق الخلب .

(1544) ان أنوار الفلك كسيحة مقطعة الأرجل ، تشرق وتغيب ، ومن الممكن حجبها . فأين هي من نور الله الخالد ، والذي لا يؤثر فيه شروق ولا غروب .

(1549) “ المشترى “ كوكب سعد ، وأما زحل فهو كوكب نحس .
يقول البحتري ، في قصيدته عن إيوان كسرى .
عكست حظه الليالي وبابت المشرتى فيه وهو كوكب نحس .

(1550) “ تأمل بنظرك العقلىّ هذا النحس الذي وقعت فيه ، لعلك بذلك تدرك حقيقة النفس الأمارة بالسوء ، وكيف أنها جرت عليك كل هذا النحس “ . هذا هو المعنى الواضح للبيت . وتفسير نيكولسون له فيه كثير من التكلف والتأويل البعيد عن النص .

(1551) النظر المدرك الذي يشهد ما يصيب الانسان من جزر ومدّ ، قد استطاع أن يشق له سبيلا إلى السعد برغم ما يحيط به من حجب النحس .

(1552) الله قادر على أن يحول الانسان من حال إلى حال . وهو

يقوده إلى هذا التحول بما وهبه من ملكات ، منها ادراك الضد بضده فالموازنة والمقارنة المبنية على الادارك السليم تنقل الانسان من النحس إلى السعد ، أي من الحسية المظلمة ، إلى مشرق الروح .

(1553) " عندما يظهر لك الله الشر وأخطاره ، في مواجهة الخير ، يتولد الخوف في قلبك من أن تذهب ضحية الشر ، وتصبح من أصحاب الشمال . ويأتي حينذاك الأمل في لذة أصحاب اليمين ، وهم هنا العارفون الروحيون . ومثل هذا الأمل لا يطمح اليه سوى الرجال ، الذين صدقت رجولتهم بالاستقامة والايمان .
ووصف الشاعر للأشرار بأنهم " أصحاب الشمال " وكذلك وصفه للأخيار بأنهم " أصحاب اليمين " مقتبسان من القرآن الكريم . (56 : 27 ، 41) .

(1554) " الجناحان " في البيت رمز للخوف والرجاء . فلا بد للانسان من هذين الدافعين ، يحركانه بصورة متوازنة . فالخوف بدون رجاء ، قنوط لا يرجى معه عمل . والرجاء بدون الخوف سذاجة وطمع لا يستندان إلى أساس . فالخوف والرجاء ضروريان لاتزان السلوك الانساني ضرورة الجناحين للطائر . يروى السلمى عن أبي عثمان المغربي أنه قال : " من حمل نفسه على الرجاء تعطل ، ومن حمل نفسه على الخوف قنط ، ولكن من هذه مردة ومن هذه مرة " . (القشيري : الرسالة ، 63) .

(1557) حكمة الله في أعماله لا يدركها حق ادراكها سوى الأنبياء والصديقين . وأصعب ما يكون ادراك الحكمة حينما تقترن ببلاء يقع فيه الانسان . ولا بد من روح شبيه بروح إبراهيم ليقدر على اختراق حجب البلاء ، ويبصر الحكمة الكامنة وراءها . فهذا الرسول - وهو في صميم النار - أبصرت روحه الفردوس .

(1558) لا بد من الروح المبصر لكي يرقى الانسان في درجات الكمال

والاشراق إلى القمر ثم إلى الشمس ، ولا يبقى أسير هذا الوجود المادىّ كما تبقى الحلقة أسيرة الباب . والمعروف عند الفلكيين العرب أن القمر أقرب الكواكب إلى الأرض ، وان الشمس في السماء الرابعة .

(1559) ان الروح المكتملة بالعرفان لتتجاوز في تساميها السماء السابعة ، ولا يكون نور الأفلاك الآفلة شيئا بالقياس إلى ما تراه من النور الخالد . وهذا ما كان من إبراهيم ، ذلك الرسول الكريم ، الذي قال عنه الخالق : " وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين " . (6 : 75) . فقد ظلمت روح تنشد النور الخالد وتعرض عن النور الآفل ، وانتهى بها البحث والطلب إلى الاهتداء اليه .

(1561 - 1562) رجع الشاعر هنا إلى قصة كان قد بدأ روايتها في البيت رقم 1047 ، ثم استطرد منها إلى سواها بعد أبيات قليلة .

(1563) بستانىّ الملك هو العارف الكامل ، وهو الذي رمز الشاعر اليه بالملك في هذه القصة . والاستفهام هنا انكارىّ . فالمراد تأكيد عرفانه وقدرته على التمييز .

(1574) قول الشاعر : " كان يصفق بيديه ساخرا من هؤلاء الخزافين " ، يعنى أن الملك كان يسخر من هؤلاء القوم الذين لم تكن لهم عناية الا بأبدانهم ، وهي الهياكل الترابية ، فكأنهم خزّافون لا هم لهم الا تشكيل الطين وصقله .

(1577) " لقد كانوا يحيكون شبكة للمليك ، لكنهم عرفوا في النهاية كيف أن الملك كان أحكم منهم تدبيرا " . ذلك كان على مقتضى قوله تعالى : " ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين " . (3 : 54) .

(1580 - 1581) ان عين الشيخ العارف تنفذ خلال الحجب ، وتطلع على ما يكتم التلميذ المريد في قلبه ، في حين أن التلميذ يسعى إلى أن يحجب حقيقته عن أستاذه بستار بال ، هو قلبه المهلهل .

(1583) يخاطب الأستاذ تلميذه الخالي من الوفاء بقوله : " يا أخس

من كلب " ، على أساس أنه لا يملك الوفاء ، مع أن الوفاء من صفات الكلب .

(1585) قول الأستاذ لتلميذه : " وبدونى ما كان ينساب من أجلك ماء " ، يعنى " بدون ارشادي ما كنت بمستطيع أن تتلقى أوى قبس من العرفان الروحي " .

(1587) يقول الأستاذ لتلميذه : " أنت تقول : لقد كنت أقدح النار في الخفاء " ، فالأستاذ هنا يوبخ تلميذه على اعتقاده بأن الظن الفاسد لم يتجاوز عنده الخفاء إلى العلن . ويؤكد له الأستاذ - بعد ذلك - أن القلب الصافي يطلع على خبايا القلوب .

(1593) دخول الشمس في برج الحمل يكون من نتائجه قدوم الربيع . (أنظر : نلينو : علم الفلك ، ص 127) .

(1596) " إذ رأيت الذبول يشيع في بستان روحك ، فاعلم أن ذلك قد أصابك لأن الشيخ غاضب عليك " .

(1597) لا معنى لتفسير " برج العتاب " هنا بأنه " برج الجدى " كما فعل ويلسون . وقد تبعه في ذلك نيكولسون . (انظر تعليقه على البيت) . ان التعبير هنا مجازىّ والمراد به أن الشيخ - الذي شبهه الشاعر بالشمس - لو دخل برج العتاب ، لا سودّ بذلك وجه المريد .
فالبروح التي يمكن أن يدخل بها الشيخ هي برج الرضا ، وبرج العتاب ، وبرج الغضب ، وما إلى ذلك . فحالاته النفسية ومشاعره نحو مريده يكون لكل منها أثر مختلف على المريد ، كما تختلف آثار الشمس بين برج وآخر .

(1598) الشاعر هنا يشبه الشيخ بعطارد ، كاتب السماء . فالشيخ يخط في قلوب مريديه ما يشاء من قبض وبسط ، فيكون ما يتركه عيلها من سواد وبياض ميزان ترددها بين هاتين الحالتين .

(1599) " الأحمر والأخضر " هنا كناية عن الربيع . فمعنى البيت

أن الشيخ يعود فينشر في القلوب ربيعا من البهجة والبشر ، يخلصها من الكآبة والعجز .

(1600) بين الشاعر في هذا البيت ما قصد اليه من الرمز باللون الأحمر والأخضر ، وهو الربيع . ثم قال إن الربيع يبدو - عند التأمل - شبيها بقوس قزح ، يعنى أن من يحسن تأمل الريع يجد أن ألونه لا تقتصر على الأحمر والأخضر ، بل هي متنوعة تنوع ألوان الطيف . والتعبير بالألوان المتعددة هنا يشير إلى تنوع احساسات البهجة والتفاؤل التي ينشرها الولي في نفوس مريديه .

(1601) يبدأ الشاعر هنا رواية قصة بلقيس ملكة سبأ مع النبيّ سليمان . ويبدو من السياق أن تفسيره الصوفي لهذه القصة هو أن بلقيس تمثل المريد الطيع ، إذ سرعان ما أدركت أسرار دعوة سليمان من كلمات قليلة نقلها إليها الهدهد .

(1602) ذكر القرآن الكريم نص كتاب سليمان على لسان مكلة سبأ قال تعالى :
“ قالت يا أيها الملا انى ألقى إلى كتاب كريم . انه من سليمان وانه باسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتوني مسلمين “ .
(27 : 29 - 31) .

(1604) يشير الشاعر بهذا إلى أن المظهر المتواضع قد يحجب حقيقة عظيمة . وكثيرا ما أكد الشاعر هذا المعنى ، حين حديثه من الأنبياء الذين حسبهم الناس أفرادا عاديين ، ولم يفطنوا لما كان يدعمهم من تأييد الهى .

(1605) ان العقل يكون دائما على خلاف مع الحس في مواجهة هذه الطلسمات ذات اللونين ، أي التي تفهم من جانبين ، جانبها الحسى ، وجانبها المعنوي . فالعقل ينفذ وراء الظاهر ، والحواس تقف عند ظاهر الحس ، فينشأ خلاف في الادراك . والشاعر قد ذكر الرسول بوصفه أسمى من تحقق له الادراك الروحي ، وأبا جهل بوصفه صورة للغفلة الناجمة من

الخضوع الكامل لسلطان الحس .

(1608) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : " لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها " . (7 : 179) .

(1610) " سيد الغد والحال " هو الخالق . أما قول الشاعر عن العين الحسية انها " لا ترى من الكنز مثقال شعيرتين " فمعناه : أن هذه العين لا تبصر من كنز العرفان الا أقل القليل .

(1615) انشقاق السماء يكون يوم البعث . فلعل الشاعر يتحدث هنا عن بعث الروح الغافل ، وأن هذا البعث أيضا يجعل السماء تنشق فيرى الروح ما كمن وراءها من عالم الغيب . ويؤيد ذلك قوله عن الانسان في البيت التالي (1616) : " تأمل ذلك التراب الذي جاوز العرش مسرعا " .

(1616) التراب - بطبيعته - يرسب في الماء ، ولكن الله صاغ من التراب كائنا تسامى إلى العرش . هذا المخلوق هو الانسان الكامل .
وشبيه بهذا المعنى (تسامى التراب) قول الشاعر : " ان العشق جعل الجسد الترابى يعلو على الأفلاك " (مثنوى ، 1 ، 25) .

(1624) قول الشاعر : " وأنت يا إبليس ، أيها النارى ! اهبط إلى حضيض الثرى " ، يمكن أن يفهم على ضوء قول الجيلى :
" وأما الطبقة السابعة من الأرض فإنها تسمى أرض الشقاوة . وهي سطح جهنم ، خلقت من سفليات الطبيعة ، يسكنها الحيات والعقارب وبعض زبانية جهنم . . .
وحياتها وعقاربها كأمثال الجبال ، . . . وهي محلقة بجهنم . . . أسكن الله هذه الأشياء في هذه الأرض لتكون أنموذجا لما في جهنم من عذابه " . (الانسان الكامل ، 2 ، 75) .

(1625) يسخر الشاعر من الفلاسفة الذين ينسبون التحول في الأشياء إلى الطبائع الأربع ، الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة .
(انظر تعريف كل من هذه الطبائع عند ابن سينا : تسع رسائل في الحكمة الطبيعة ، الرسالة الرابعة " في الحدود " ، 95 - 96) .

ويذكر الجيلى أن الطبيعيين عبدوا الطبائع الأربع مدعين أنها أصل الوجود ، إذ العالم مركب من حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة . (الانسان الكامل ، 2 : 81) .
ويسخر الشاعر هنا أيضا من بعض المتفلسفين الذين وصفوا الخالق بأنه " العلة الأولى " . ويعرف الشهرستاني العلة بقوله .
" المبدأ والعلة يقال لكل ما يكون قد استتم له وجوده في نفسه ، ثم حصل منه وجود شئ آخر ، وتقوم به " . (الملل والنحل ، 2 : 186) .

(1626) قول الشاعر : " وليس بذى علة " فيه تورية . فقد يعنى وصف فعل الخالق بأنه لا سبيل إلى أن ينسب اليه اعتلال ، وقد يعنى أن فعل الخالق ليس مبنيا على علل وأسباب ، إذ أنه يفعل ما يشاء . ويصدق هذا التفسير أيضا على قوله : " وتقديرى لا علة فيه " .

(1630) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : " وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر " . (75 : 8 - 9) .
(1631) قول الشاعر ان الخالق يجعل بالقدرة " عين الدم مسكا " يعنى أن الخالق يستطيع أن يجعل عين الشمس الملتهبة الحمراء مظلمة سوداء كالمسك . ومع أن الشاعر يعبر هنا عن المعنى تعبيرا لونيا ، فليس هناك ما ينفى الإشارة إلى الحقيقة المعروفة ، وهي أن المسك يستنبط من دم ، هو دم الغزال ؛ فتحول الدم إلى مسك هو في ذاته صورة من صور القدرة الإلهية المشهودة .

(1632) الشمس والقمر - عند قيام الساعة - يشرقان من المغرب ، فيصيران مظلمين ، ويمضيان على هذا النحو مسخرين ، كأنهما ثوران أثقل عنقاهما بالأعباء . (انظر : الجيلى : الانسان الكامل ، 2 ، 57) .

(1633 - 1640) يروى الشاعر في هذه الأبيات قصة وردت في تفسير قوله تعالى : " قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين " . (67 : 30) .

يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية : “ وعن بعض الشطار أنها تليت عنده فقال : تجيء به الفؤوس والمعاول . فذهب ماء عينيه “ .
(تفسير الكشاف ، 4 ، 583) .
وأورد فروزانفر صورا أخرى لهذه القصة من مصادر متعددة .
(مآخذ قصص وتمثيلات ، 56 - 58) .

(1646) شعيب هو النبي الذي أرسل إلى أهل مدين . يقول صاحب المنهج القوى : “ روى من معجزات سيدنا شعيب أن المحل الذي يسكنه كان جبلا محجرا لا يقبل الزراعة ، فدعا الله تعالى أن يبدله بأرض ذات تراب تقبل الزارعة ، ففعل “ .
(المنهج القوى ، 2 ، 378) . ولم أعثر على أصل ذلك فيما قرأت من سيرة شعيب .
وليس في القرآن الكريم نص على معجزة شعيب ، بل فيه إشارة إليها . قال تعالى : “ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم “ . (7 : 85) . يقول الزمخشري : “ فان قلت ما معجزته ؟
قلت : قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله : (قد جاءتكم بينة من ربكم) . . . غير أن معجزته لم تذكر في القرآن ، كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم فيه “ . ويستطرد الزمخشري - بعد ذلك - بذكر معجزات رويت عن شعيب ، ليس من بينها ما أشار اليه الشاعر . (الكشاف ، 2 ، 127) .
والشاعر يستاءل في هذا البيت عن وليّ يكون له من الكرامة عند الله ما كان لشعيب ، فيجعل من الجدب خصبا .

(1647) “ الأمر الصعب المستحيل “ الذي يشير اليه الشاعر هو خوض النيران من غير احتراق بها ، وهو ما حدث للخيل ، حين ألقى في النار ، فكانت عيه بردا وسلاما .

(1648) أورد فروزانفر ما يمكن أن يكون أصلا لهذه القصة ، وذلك في نص نقله عن معجم البلدان لياقوت الحموي ، جاء به قوله :

" سال المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار ، فتعجب عمرو من ذلك ، وقال : أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين ، فكتب بذلك إلى عمر ، فكتب اليه أن سله لم أعطاك به ما أعطاك ، وهي أرض لا تزرع ، ولا يستنبط فيها ماء ، ولا ينتفع بها ، فقال : انا نجد صفتها في الكتب وأنها غراس الجنة ، فكتب إلى عمر بذلك فكتب اليه عمر : انا لا نجد غراس الجنة الا للمؤمنين " . (مآخذ قصص وتمثيلات ، 59) .

[شرح من بيت 1650 إلى بيت 1800]

(1651 - 1652) ليست التوبة مجرد إرادة ينويها المرء ، فيقترف الذنوب ، معتمدا على أنه سوف يتوب يوما إلى الله ، فتُمحى ذنوبه .
ان التوبة هبة الهية . والقرآن ملىء بالآيات التي تذكر أن الله يتوب على الناس ، وتصفه بأنه هو التواب الرحيم . قال تعالى : " فتلقي آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم " . (2 : 37) . وقال :
" ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات " . (33 : 37) . وغير ذلك كثير . وهذه الهبة مقترنة بصدق اخلاص المرء في طلبها .

(1653) قول الشاعر : " لا بد للتوبة من لهيب وماء " يعنى أنه لا بد للتوبة من حرقة القلب ودموع العينين .

(1654) لا بد من الدمع ولهيب القلب لكي تحقق الحياة الروحية ثمارها . فثمار الحياة الروحية شبيهة بثمار البستان في حاجتها إلى الحرارة والماء .

(1655 - 1664) انتقل الشاعر من حديثه من الحرارة والماء ، وضرورتهما لنضج الثمار ، إلى التوسع في بيان ما لهما من أثر على الحياة . وقد اتخذ الشاعر من الحرارة والماء رمزا لحرارة القلب المخلص ، ودموع الخوف والرجاء . وبيّن ما يكون لهذين من الأثر على بستان الروح ، ثم صور هذا البستان حافلا بالورد والأزهار والأشجار ، مفعم الجنبات بشدو البلابل ، وهتاف الحمام .

(1662) " اللقلق طائر أعجمي طويل العنق ، وكنية - عند أهل

العراق - أبو خديج . . وصوته اللقلقة . . ويوصف بالفطنة والذكاء “ .
(انظر : الدميري : حياة الحيوان ، ج 2 ، ص 319) .

(1665) هذه الهبات الروحية التي يتلقاها العارف أدلة يهتدى بها ، وعلامات يقتفيها ، في سلوك السبيل إلى خالقه .

(1666) من كان عارفا بالخالق سعد بتلك الآثار الروحية التي يتلقاها . أما من حُرم هذا العرفان فان هذه الآثار تحدث له فلا يفطن إليها ولا يدرك معناها .

(1667 - 1668) ساعة “ ألست “ إشارة إلى قوله تعالى : “ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى “ . (7 : 172) . فالعارفون - قبل خلق العالم - تذوقوا خمر المحبة ، ولهذا فإنهم يعرفون هذه الخمر في الدنيا ، أما سواهم فلم تتحقق لهم مثل هذه النشوة من قبل ، فهم في هذه الدنيا غافلون عنها .

(1669) في البيت إشارة إلى الحديث المشهور : “ الحكمة ضالة المؤمن “ . وقد أورده الترمذي بسند ينتهى إلى أبي هريرة .
ان الحكمة - بالنسبة للمؤمن - كالناقة الضالة ، يبحث عنها ويطلبها ، فإذا ما لقيها عرفها ، لأن روحه كانت قد تذوقتها قبل هذه الحياة . فالحكمة - التي هي ضالة المؤمن - تكون دلالة له على أصله الروحي . وينسب إلى الامام على أنه قال : “ الحكمة دلالة المؤمن “ .
أما الملوك - المذكورون في هذا البيت - فيقصد بهم الصوفية العارفون .

(1670 - 1671) قد يُوحى للعارف بالبشائر الإلهية ابان النوم .

(1673) قول الشاعر : “ ومن علاماته أنه سوف يطوى أمامك ساعديه “ ، يعنى أن “ من علاماته أن يقف أمامك مبديا احترامه لك ، وطاعته لأمرك “ .

(1675) هذه الآيات التي يبديها الحق للعارفين شبيهة بالآية التي أبداها الحق لنبيه زكريا .

(1676 - 1677) النهى - في هذين البيتين - تفسير للنهي عن الكلام الذي وجهه الله إلى زكريا .

(1678) عاد الشاعر هنا إلى الحديث عن العارف الذي يتلقى في منامه حلما ينبئه بآيات وعلامات لتحقق مراده .

(1680 - 1686) يصور الشاعر في هذه الأبيات حال المحب الذي يطلب الحق باخلاص ، وما يقدم من تضحيات ، وما يصيبه من آلام في سبيل ذلك . فهو يبكى ويتضرع خلال الليالي والأسحار . وهو يشعر بالتعاسة أثناء النهار ، ويغدو عنقه - من كثرة المجاهدة - نحيفا كالمغزل .
وهو يجود بكل شئ ، ويتخلى عن كل ما يملك . ويخاطر في كل سبيل ، غير مبال بالأخطار .

(1687) يصور الشاعر هذا المحب - الذي ضحى وبذل كل هذا الجهد - وقد استيقظ ذات صباح ، بعد ليل من الأنس ، تلقِّى فيه أثناء النوم بشرى بتحقيق مراده .

(1688 - 1896) في الأبيات صور متعددة لهذا الحالم الذي تلقى البشرى ، فهو في الغداة يتلفت في كل اتجاه ، وينظر في كل جانب ، لعله يصادف تلك الآيات التي تبشره بتحقيق مراده .

(1690) في البيت تعبير رمزى يشير إلى أن الحكمة ضالة تدفع العارف للبحث عنها ، كما تدفع الممتلكات الدنيوية الناس للبحث عنها ، والجد في طلبها .

(1691) في البيت تعبير عن دهشة العوام لسعى العارف وراء شئ غير محسوس ولا ملموس .

(1694) في البيت إشارة إلى تهمة الجنون التي كثيرا ما كان يُرمى بها من غلب عليه الوجد الصوفي .

(1696) قوله : " أيها الراكب " يعنى : " يا من أنت مستريح ناعم مغتر بأبهتك . . . " .

(1699) قول الشاعر : " فيقول من لا خبر عنده : ان هذا لخداع

ونفاق " ، يعنى أن أحوال الصوفية لا يمكن أن يعرفها سواهم ، لأن هؤلاء لم يجربوها .

(1700) المنكرون على الصوفية ظاهر حالهم لا يعلمون حقيقة الحال التي يكون عليها هؤلاء . وهكذا من حُرم من الآيات والعلامات الروحية ، لا يستطيع ان يفطن لما يفطن اليه من وهب هذه الآيات .
والأرواح منذ وقفت أمام خالقها ، قبل خلق الدنيا ، كان منها ما انتشى بهذا الموقف ، وكان منها اكتفي باظهار الطاعة .

(1704) روح العارف سرعان ما تصدق الأنبياء ، لأنها تكون مدركة لما يظهرونه من آيات .

(1706) " وكيف يستطيع انسان أن يحصى ما لا يحصى من آيات الله . . " .

(1719) لو كان تنزيه الخالق يستند إلى وصفه بأنه ليس بحائك أو ماشابه ذلك من الصفات الجسدية ، فليس هذا بتنزيه . ولا يصدر مثل هذا القول الا عن جاهل .

(1720 - 1760) يروى الشاعر في هذه الأبيات قصة عن موسى - عليه السلام - وأحد الرعاة ، توضح التباين في تصور الله بين الراعي ، وبين ذلك النبي المرسل . ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك عن مدى مسؤولية الجاهل عن هذا التصور الخاطىء .
وقد وردت في العقد الفريد صورة بسيطة لهذه القصة ، لم يذكر فيها موسى ، ولكن جوهرها مشابه لجوهر قصة موسى والراعي ، كما رواها الشاعر . وفيما يلي نص قصة العقد الفريد .
" قال الأصمعي : كان الشعبي يحدث أنه كان في بني إسرائيل عابد جاهل قد ترهب في صومعته ، وله حمار يرعى حول الصومعة ، فاطلع عليه من الصومعة فرآه يرعى ، فرفع يديه إلى السماء ، فقال : لو كان لك حمار كنت أرعيه مع حماري ، وما كان يشق عليّ . فهم به نبيّ كان فيهم في ذلك الزمان ، فأوحى الله اليه . دعه ، فإنما أثيب كل انسان على

قدر عقله " . (العقد الفريد ، 6 ، 164) .
وذكر فروزانفر صورا متعددة لهذه القصة من مصادر مختلفة .
(مآخذ قصص وتمثيلات ، 59 - 61) .
وقد تناول جلال الدين هذه القصة بأسلوبه الفنى ، فصاغ لها حوارا رائعا ، وأغناها بكثير من الصور .

(1737 - 1739) يصف الشاعر في هذه الأبيات الانسان الكامل .
ويقول على لسان موسى : ان مثل هذه الأوصاف الجسدية التي تحدَّث بها الراعي عن الخالق لا تجوز في حق الانسان الكامل ، فهي - من باب أولى - غير جائزة في حق الله ، جل وعلا .

(1737) " العبد الذي قال عنه الحق : انه ذاتي وأنا ذاته " هو العبد الذي أفنى ذاته في ذات الحق ، فصدق عليه قوله تعالى : " وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى " .
(8 : 17) .

(1738) يتضمن هذا البيت إشارة إلى حديث رواه أبو هريرة عن الرسول . قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان الله عز وجل يقول يوم القيامة ، يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ! قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لو جدتنى عنده ؟ يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى ! قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟
قال : أما علمت أنه استطمعك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لو جدت ذلك عندي ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني ! قال :
يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه . أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي ؟ " . رواه مسلم .
(النوري : رياض الصالحين ، 369 - 370) .

(1739) " بعد ان غدوت له سمعا وبصرا " : هذه العبارة تتضمن إشارة إلى الحديث القدسي الذي رواه الرسول بقوله : " يقول الله

تعالى : ما زال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها ، وسمعه الذي يسمع به ، ويده التي يبطش بها “ .
(السراج : اللمع ، 463) .

(1746) “ هذا الجانب من النهر “ ، كناية عن عالم الدنيا .

(1752) في البيت اقتباس من حديث يَروى عن الرسول قوله :
“ ما خلق الله مباحا أحب اليه من العتاق ، وما خلق الله مباحا أبغض اليه من الطلاق “ . (المنهج القوى ، 2 : 396) .

(1753 - 1754) كل مؤمن يعبد ربه ، ولكن درجة الادراك لمعنى العبادة ، وأسلوب التعبير عنها ، يختلف من شخص إلى آخر . فتعبد الرجل الساذج لا يمكن أن يكون شبيها بتعبد النبىّ أو العارف .

(1755 - 1756) ذات الخالق منزهة عن كل طهر وتلوث ، فمقاييس الانسان في هذين الأمرين لا تصدق عليها ، كما أن الخالق غنى عن العالمين ، لا حاجة به إلى عبادة الناس . وقد فرض عليهم التكاليف لا لربح ينشده منها ، وانما لتكون سبيل الناس للسمو بأنفسهم ، والوصول إلى درجة الكمال الروحي ، وهذان هما السبيل إلى رضى الله ، وتحقيق السعادة الأبدية .

(1760) في هذا البيت يبدو أنت الشاعر يدافع عن أهل الشطح من الصوفية ، الذين قد ترد على ألسنتهم عبارات منافية لمألوف القول ومعقولة ، ومع ذلك لا يعوز قلوبهم الاخلاص والايمان والخشوع .

(1765) يدافع الشاعر هنا عن أهل الشطح من الصوفية . فعنده أن هؤلاء من العشاق الذين تحترق قلوبهم في كل لحظة . فليس يفترض فيهم ما يفترض في أهل الصحو من مراعاة للآداب ، فالعاشق صار - من جراء احتراقه - مثل القرية الخربة ، وهذه لا يفرض عليها خراج ولا عشور .

(1768) الصلاة في كل اتجاه جائزة في الكعبة . والتوجه إلى الله ممكن

في كل أنجاه ، لأن الله منزه عن المكانية . وكما لا يكون الغواص ، بحاجة إلى ارتداء ما يقيه من الغوص ، فكذلك طالب الوصال لا يتوسل إلى ذلك بما هو من معوّقات الوصال .

(1769) سكارى المحبة لا يكون سلوكهم من ذلك اللون التقليدى المعروف ، فهؤلاء لا تلتمس عندهم الهداية التي ينشدها العوام . ومن يَفترض فهيم الاقلاع عن سلوكهم فهو شبيه بمن يطلب إلى من تهلهلت ثيابه أن يقوم برفوها .

(1771) افتقار العارف المحب إلى الصور الظاهرية لا ينتقص منه ، كما لا ينتقص من الياقوتة أن تكون مجردة من نقش الخاتم . وإذا كان العاشق غريق بحار الأسى ، فلا ضير عليه من آلام العشق .

(1788) “ سدرة المنتهى “ هي نهاية المكانة التي يبلغها الانسان ، في سيره إلى الله تعالى . (انظر : مثنوى ، 1 ، شرح 1066) .

(1790) يعتبر الحلاج من أقدم من تحدث عن الناسوت واللاهوت في الاسلام .
قال :سبحان من أظهر ناسوتُه * سرّ سنا لا هوته الثاقبوقال : “ اللهم انك المتجلى من كل جهة ، المتخلي عن كل جهة ، بحق قيامك بحقي ، وبحق قيامي بحقك ، وقيامي بحقك يخالف قيامك بحقي ، فان قيامي بحقك ناسوتية ، وقيامك بحقي لا هوتية ، وكما أن ناسوتيتى مستهلكة في لا هو تيتك ، فلا هو ، تيتك مسؤولة عن ناسوتيتى ، غير مماسة لها “ .
وقول جلال الدين - على لسان الراعي - لا يتعدى دعاء الله أن يجعل كيانه الانساني جديرا بأن يكون نجى سرّ الخالق .

(1792 - 1795) انتهى حديث الراعي إلى موسى في البيت 1791 .
وعاد الشاعر من جديد إلى سرد آرائه . وقد وقعت شبهات حول تفسير البيتين

(1792 - 1793) إذ اعتبرهما بعض الشراح من كلام

الراعي لموسى . والواقع أنهما حديث مباشر من الشاعر ، وهما مرتبطان بالبيتين التاليين لهما . فالشاعر يحذر المتعبدين من الاغترار بما يوجهونه إلى الخالق من مدح وثناء ظانين أنهم بذلك قوة وفوه حقه . فالثناء مهما علا لن يتجاوز ما يفهمه قائله من معنى الكمال . ولهذا فان الانسان يستمد تصورة المثالي من صورة نفسه ، ظانا أن هذا التصوره شئ خارج عن ذاته ، وليس الأمر كذلك . فهو كمن نظر إلى المرآة فرأى صورته ، فحسبها شيئا مختلفا عن ذاته ، أو كمن نفخ في النار ، وحسب الأنغام أمرا منفصلا عن أنفاسه .

(1797) المستحاضة ، هي الحائض التي لا ينقطع عنها الدم بعد انقضاء فترة الحيض .
(1799 - 1800) من اليسير التطهر من النجس الذي يصيب ظاهر الانسان ، أما النجس الذي يصيب باطنه فيصعب التطهر منه .

[شرح من بيت 1801 إلى بيت 1950]

(1808) عبر الشاعر عن اغترار الكافر بحياته الدنيوية ، وحرصه عليها ، بأنه اختار الخروج عن ترابيته ، ثم يقول : انه لو بقي ترابا ، لاستطاع أن يكون كالتراب ، يتلقى الحبة وينمينها . فالخروج عن الترابية يرمز إلى غرور الكافر - في تناسيه أصله - وكذلك يرمز إلى عقمه ، وعجزه عن الأثمار .

(1809) ان رحلة الكافر في الحياة الدنيا لم تكن رحلة مثمرة ، ولهذا فقد عاد منها بدون أن يحصل شيئا .

(1811) الاعراض عن طريق اليقظة الروحية مبعثه الحرص والطمع ، وأما الانطلاق في هذا السبيل فدافعه الصدق والاخلاص .

(1817) " اعتراض الملائكة " ، هو القول الذي روى القرآن الكريم أنهم خاطبوا به ربهم حين أخبرهم بخلق آدم . قال تعالى : " قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . . " . (2 : 30) .

(1821) يريد موسى أن يطمئن بالشهود والعيان ، كما فعل إبراهيم .
قال تعالى : " وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيى الموتى ، قال

أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي " . (2 : 260) .

(1823) " لقد كشفت للملائكة سر خلق آدم ، وأظهرت لهم أن مثل هذا المخلوق كان جديرا بأن يُخلق برغم أنه كان عرضة لا رتكاب المعاصي ، فهو قد تحقق بصفات كمالية تفوق ما كان يتوقع أن يقترف من مخالفات " . وقد رمز الشاعر للروح الآدمي بالشهد ، وأما الجسد فقد رمز له بالابر .

(1824) حين عرض الخالق نور آدم على الملائكة تبين لهم ما لم يكونوا يعلمون ، وأدركوا حكمة الله في خلق الانسان .

(1825) كل ما بدا للادراك الآدمي سرا غامضا ، يكشفه الله في نهاية الأمر . فهو الذي كشف للملائكة سر خلق آدم . وهو الذي يكشف بالحشر سر الموت ، كما يكشف الثمار عن سر الأوراق .

(1826) الموجودات تبدأ بداية متواضعة ، ثم تتجلى بعد ذلك امكاناتها . فالدم والنطفة هما بداية الوجود الانساني . ومن هذه البداية يتشكل الجمال الانساني بصورته ، ثم بمعناه .

(1827 - 1828) العلم هو أحد الأمور التي تكون ذات بداية متواضعة . فالعالم يكون - في أول أمره - طفلا يغسل اللوح ليكتب فوقه . وكذلك القلب الانساني ، هو - في بداية أمره - دم ودموع (أي مجرد حياة حسية عاطفية) ، ثم ينتهى به الأمر إلى أن يكون موضعا لتجلى الأسرار الإلهية .

(1829) لكي يحقق كل عمل امكاناته الكاملة يجب أن يتضح هدفه منذ البداية . فالطفل الذي يغسل اللوح يجب أن يعلم أن ذلك للتعلم ، وليس للعب .

(1830) من الواجب أن يبدأ العمل على أساس سليم . فعند الشروع في بناء منزل ، يجب أن يزال من موقعه الأساس القديم ، قبل وضع الأساس الجديد .

(1831) للوصول إلى النتيجة المثمرة لا بد من التعب والعناء . لا بد من الحفر ، ورع الطين ، من أجل الوصول إلى الماء .

(1832 - 1833) عناء الكد والسعي يكون بغيضا إلى الجهلاء ، الذين لا يدركون عاقبة الأمور . أما العارفون المدركون لتلك العاقبة فالعناء محبب إلى نفوسهم . ان الجلاء شبيهون بالأطفال الذين لا يدركون من إبرة الحجام سوى وخزها . أما العارفون فهم شبيهون بالرجال المدركين لجدوى إبرة الحجام ، ولهذا فإنهم يقبلون عليها راغبين ، ويبذلون في سبيلها المال .

(1834 - 1835) كل من أدرك نتيجة الجهد سارع إلى بذله . فهو كالحمال الذي يسابق الآخرين إلى حمل الأثقال ، لأنه يعلم ما يعود عليه من ربح لقاء ذلك . وهكذا البصير بالعواقب . يبذل جهده في هذه الحياة ، لأنه يعلم نتيجة ذلك .

(1842 - 1844) من صفت نفسه ، وأصبح ذا بصيرة روحية فهو قادر على ادراك الحقائق من غير حاجة إلى أسباب ومبررات . أما من يعتمد في معارفه على الحواص فهو أسير الأسباب والعلل . وليست تتحقق منزلة الكشف الا لمن تحررت روحه من سلطان المادة . فمثل هذا يكون قادرا على ادراك معجزات الأنبياء ، على أساس حقيقتها الروحية المستمدة من عالم الغيب ، ولا يقف ازاءها موقف أسير الحس ، الذي ينظر إليها نظرة سطحية ، لا تخرج عن نطاق العالم المادي .

(1845) " الأسباب " قادرة على أن تبين أمورا حسية محدودة ، كما يكون من شفاء المريض بمعالجة الطبيب ، أو إضاءة السراج باشعال الفتيل .

(1846) " ابذل جهدك لتصحيح هذه الأسباب التي تستند إليها في تحصيل المعارف . وكن على يقين أن هناك عرفانا أسمى من كل ذلك ، يشبه نور الشمس ، على حين أن معارف الحس شبيهة بنور السراج " .

(1847) الطين الذي يتكون منه سقف الدار رمز للأسباب التي تُستمد منها معارف الحس . أما سقف السماء فهو رمز لعرفان الروح .
وهذا العرفان منزه عن الأسباب .

(1848) " لقد انقضت خلوة التجلي بما شاع فيها من أنس ، وبزغ صبح الوعي الحسيّ " .

(1849) لا بد للقلب أن يلقى العناء حتى يتحقق له مثل هذا التجلي .
فالبدر لا يتجلى الا في الظلام .

(1850) " نبي الله عيسى وقد امتطى الحمار " رمز للروح وهي مرتبطة بالجسد .
فمن عُنى بجسده وغفل عن روحه شبيه بمن يرعى الحمار ويعرض عن عيسى . فلا جرم أن من يفعل هذا يكون خارج نطاق العرفان .

(1852) " أنين الحمار " رمز لنداء البدن وهو يلتمس الشهوات .
فمن استجاب لهذا النداء شبيه بمن وقع تحت سيطرة حمار ، لأن البدن في حسيته وتعلقه باللذات شبيه بالحمار .

(1853) " كن رحيما بالروح ، ولا تكن رحيما بالجسد . ولا تتح لغرائزك سبيل التحكم في عقلك " .
(1856) في البيت إشارة إلى حديث يَروى عن الرسول قوله :
" أخروهن من حيث أخرهن الله " . ويقال إن المقصود من هذه الحديث تأخير النساء عن الرجال في صلاة الجماعة ، أي جعلهن في الصفوف الخلفية . وقد فسر الشاعر هذا الحديث تفسيرا رمزيا ، فاعتبر المرأة رمزيا ، للنفس الأمارة بالسوء ، وهذه يجب أن تتنحى جانبا لكي يتقدم عليها العقل .

(1857) العقل الوضيع ينحط في تفكيره ، ولا يبقى له نشاط خارج نطاق الحس .
وإذ ذاك يصبح شريكا للجسد ، لا هم له الا تحصيل اللذات .

(1858 - 1859) لقد تغلبت روح عيسى على جسده وأخضعته ،

فالروح القوية يتضاءل أمامها الجسد .
(1860) الجسد الضعيف يقوى ويتسلط ، حينما يقترن بعقل ضعيف .

(1861) " فلو أن المرشد الروحي قسا عليك وآلمك ، فلا تعرض عنه ، فان هذا الألم هو السبيل الذي تكسب منه روحك قوة ومناعة " .

(1862) ان المرشد العارف يلقى جحودا وحسدا من الناس ، برغم أنه كنز روحي أتيح لهم . فهذه الآلام التي يعانيها العارف شبيهة بالثعبان الذي يحرس الكنز . فهناك خرافة شعبية تؤمن بأن كل كنز لا بد له من ثعبان يحرسه . فكأنما يريد الشاعر أن يقول إن كل مرشد عارف لا بد له أن يقابل بحسد الحاسدين وكيدهم .

(1863) المرشد العارف يلقى من الحاقدين والحاسدين ما لقيه عيسى من اليهود ، وما لقيه يوسف من اخوته الحاسدين .

(1865) لا فضل عند الحاقدين ذوى الوجوه الصفراء . انهم شبيهون بمرض الصفراء ، لا فضل له سوى ما يحدثه من صداع . وفي الشطر الثاني من البيت تأكيد للذم بما يشبه المدح .

(1866) ورد الشطر الثاني من البيت : " ما نفاق . . . " بدلا من " بانفاق . . . " ، في بعض الروايات . فيكون معنى البيت :
" فلتفعل أنت (أيها المرشد) ما تفعله شمس المشرق . وأما نحن (أهل الدنيا) ففعلُنا نفاق واحتيال وسرقة وخداع " .

(1867) " أنت - أيها المرشد - في تساميك ، واستقامتك في الدين والدنيا ، شبيه بالعسل ، ونحن في سوء أخلاقنا شبيهون بالخلّ .
ولا علاج لعلتنا باقتباسنا من أخلاقك " .

(1868) " لتزدد - أيها المرشد - فضلا كلما ازددنا نحن سوء خلق ! ذلك لأن سوء خلقنا ناشيء من اعتلالنا ، فنحن في حاجة إلى مزيد من عنايتك وكرمك " .

(1869) " لئن ساءت أفعالنا فهذا مدى قدرتنا . فالنفس السيئة لا يصدر عنها سوى السوء . وكل ما يصدر عنها من سوء يزيدها خبثا ، كالرمل في العين يزيدها عمى " .

(1870) أفعال المرشد الخيرة جديرة بنفسه الخيرة . انه كالكحل ينير لضعاف النظر أبصارهم . وهو لا يبخل بعونه على أحد ، مهما بلغ هو ان أمره .

(1871) الانسان الكامل يكتوى بنار الظالمين ، ومع ذلك لا يحقد عليهم ، بل إنه لا يضن عليهم بالحب والحنان . وهذا ما أثر عن الرسول عندما أصيب في غزوة أحد ، فدعا ربه قائلا : " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون " .

(1872 - 1875) في هذه الأبيات يصف الشاعر الانسان الكامل .

(1872) " منجم العود " : العود بطبيعة الحال نبات . فكلمة " منجم " هنا استعملت استعمالا مجازيا . وقد ترجمنا بها كلمة " كان " الفارسية . ويقصد بمنجم العود منبته أو مصدره .

(1877) لم يقف الشاعر عند مفهوم هذا الحديث ، وهو أن عداوة العاقل خير من صداقة الجاهل ، بل تعدى ذلك إلى بيان النفع الذي يتحقق من عداوة العاقل ، والضرر الذي يحدث من صداقة الجاهل ، فساق قصتين لبيان ذلك : أو لا هما قصة " الأمير والرجل الذي دخلت في بطنه حية " . (الأبيات 1878 - 1930) ، والثانية قصة " الرجل الذي صاحب الدب " (البيت 1932 وما يليه) .

(1878) الفارس العاقل في هذه القصة رمز للمرشد الروحي ، أما الرجل النائم فهو رمز للجاهل الغافل .

(1911 - 1913) لعل الحديث المشار اليه بهذه الأبيات هو ذلك الذي ذكره صاحب المنهج القوى (مرويا عن أبي الدرداء ، باخراج الطبراني

والحاكم) ، ونصفه : " لو تعلمون ما أعلم ، لبكيتم كثيرا ، ولضحكتم قليلا ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى ، لا تدرون تنجون أو لا تنجون " . (المنهج القوى ، 2 ، 426) .
وعن أنس بن مالك أن الرسول عليه السلام خطب فقال : " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا " . (النووي : رياض الصالحين ، ص 209) .

(1914 - 1920) مضى الشاعر في شرح الحديث ، وتصوير معناه .
وقد أجرى هذا الشرح على لسان الرسول ، لتقريب المعنى إلى أفهام سامعيه .

(1916) مما يكثر ذكره في كتب الصوفية أن الرسول عرف الأولياء الذين جاءوا بعده ، وأنه كان يظهر لهم ويخاطبهم . وهم كثيرا ما ينسبون إلى الرسول أقوالا ، يذكرون أنه حدث بها هؤلاء الأولياء . ولهذا لا يستغرب أن ينسب اليه معرفة أبى بكر الربابى ، وما اشتهر به من طول الصمت .
أما قوله : " وهأنذا أضرب الحديد بيدي مثل داوود " ، فمعناه :
" وهأنذا ألين تلك القلوب القاسية ، وأسعى إلى تغييرها ، كما كان داوود يصنع بالحديد " .

(1920) معجزة شق القمر أظهرت - فوق السماء - ما كان ليد الرسول من المقدرة .

(1921) قول الشاعر : " وهذه الصفة أيضا هي من جراء ضعف العقول " ، يمكن أن يفهم على وجهين ، حسب تفسيرنا لما أراده الشاعر بكلمة " الصفة " . فربما كان المقصود بهذه الصفة لزوم الصمت حتى لا يخطئ ضعاف العقول فهم المعاني . وربما كان المقصود بها الحديث عن قدرة الله بأسلوب تمثيلى ، ينسب إلى الله اليد ، وغيرها من الأعضاء .

(1926) انظر التعليق على البيت 1871 .

(1932) يبدأ الشاعر هنا حكاية معروفة هي حكاية الدب الذي قتل صاحبه .
(انظر : تعليقات نيكولسون ، وانظر أيضا : فروزانفر :
مآخذ قصص ، 62) .

(1938) الرجل الشجاع لا يهدف إلى نفع من وراء أعماله الخيرة ، وليس له من دافع ولا هدف سوى المحبة . انه كالدوا ، لا غاية له سوى إزالة المرض .

(1943) " هتاف الأفلاك " : كان المعتقد في زمن الشاعر أن للأفلاك أنغاما وألحانا . والنص التالي - وهو من رسائل اخوان الصفاء - يوضح لنا هذا المفهوم :
" ولما كانت الأفلاك دائرات ، والكواكب والنجوم متحركات ، وجب أن يكون لها أصوات ونغمات . ولما كانت مستوية في نظامها ، محفوظة عليها صورة تمامها وكمالها ، وجب أن تكون حركاتها منفصلة ، وأصواتها متصلة ، وأقسامها معتدلة ، ونغماتها لذيذة ، وألحانها بديعة ، ومقالتها تسبيحا وتقديسا وتكبيرا ، وتهليلا تفرح له نفوس المستعمين لها ، والحافين بها من الملائكة والنفوس التي تقدم عليها ، وتصعد إليها . وتلك الحركات والأصوات هي مكيال الدهور والأزمان التي بها يحكم على عالمها بالبقاء من حيث هي . . . وقد استمعتها النفوس وهي في عالم الكون والفساد ، فتذكرت بها عالم الأفلاك ولذات النفوس التي هناك ، من فسحة الجنان ، وروضة الريحان ، وعلمت أنها في أحسن الأحوال ، وأطيب اللذات ، وأتم الأشكال وأدوم السرور . . " . (رسائل اخوان الصفاء : 3 ، 90 - 91) .

(1944) " نزه بصرك وبصيرتك عن الحسية ، والتعلق بالمادة ، وإذ ذاك تستطيع شهود حديقة الغيب " .

(1946) " خلِّص كيانك من علل الحس وأمراضه ، لأن هذه الأمراض تعوقك عن تذوق حلاوة العرفان الروحي " .

(1947) " الرجولة " هنا رمز لقوة الروح وانطلاقها ، و " العنة " رمز لضعفها وتراخيها . والشاعر يدعو إلى تقوية الروح حتى تصبح بقوتها وتحررها مجلى للشهود ، وما يكشفه من ألوان الحسن والجمال .

(1949) " الفلك العتيق " ، هو عالم الحس الذي يؤول إلى بلى وفناء .

[شرح من بيت 1950 إلى بيت 2100]

(1951) قول الشاعر : " فالنواح والبكاء ذخيرة عظيمة " ، يعنى أن دموع الندم والخوف هما من أسباب رحمة الله وغفرانه .

(1956) " ان لكم في السماء أرزاقا روحية عظيمة ، فلماذا تشبثتم بعالم الحس الوضيع ؟ " .

(1957) " صوت الغول " رمز للضلال . فالخوف واليأس يبعدان المرء عن سلوك سبيل اليقظة الروحية ، ويقودانه إلى الهلاك ، كما تفعل الغول بالمسافرين في البيداء .

(1959) " صوت الذئب " هو نداء الحرص والشهوات الحسية .

(1980 - 1982) السامري : (انظر : مثنوى ، ج 1 ، البيت 2258 ، وشرحه) .

(1987) قول الشاعر : " انه أنت فابحث عن ذاتك فيه " ، يعنى :
أن المرشد بمثاليته وتساميه يمثل حقيقة جوهرك ، فاطلب عنده تلك الحقيقة .

(1988) " فان أعرضت عن المرشدين العارفين ، فأنت أسير الحرص والطمع ، ومآلك إلى هلاك محقق ، كما كان مآل ذلك الدب بين فكى التنين " .

(1993) بدأ الشاعر في هذه البيت قصة قصيرة ، هي حكاية السائل الأعمى . وقد وردت هذه القصة في محاضرات الراغب الأصفهاني على الوجه التالي :
" كان أعمى يقول : ارحموا ذا الزمانتين ، فقيل : ما هما ؟

قال العمى ، وقبح الصوت . أما سمعتم :فبى عيبان ان عدا * فخير منهما الموت فقير ما له قدر * وأعمى ما له صوتكما وردت بصورة مشابهة لهذه في شرح نهج البلاغة ، نقلا عن الجاحظ . (انظر : فروزانفر : مآخذ قصص وتمثيلات ، 65) .

(2006) “ قبيح الصوت الذي يكون ثملا بدم الخلق “ هو من يجيز لنفسه قذف الأعراض ، ويتناول بالسوء سيرة الخلق .

(2009) الجرح القديم لا سبيل إلى مداواته الا بالكى . والنفس الموغلة في الآثام والخطايا هي في أمس الحاجة إلى مثل هذا العلاج القاسى .

(2010) في الأبيات التالية يصور الشاعر ذلك الرجل الذي أنقذ الدب وكأنه شخص عنيد أبله . ولا تناقض بين هذه الصورة ، وبين ما سبق وصفه به من الشجاعة والنجدة . فهذا الرجل الشجاع ، كانت تنقصه اليقظة الروحية ، وسلامة الادراك ، ولهذا فان شجاعته لم تنقذه من المصير الذي ينتظر أمثاله .

(2023) قول الشاعر : “ انني مؤمن وقد أصبحت ناظرا بنور الله “ ، يتضمن اقتباسا من حديث يروى عن الرسول قوله : “ اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله “ . (انظر : المثنوى ، 1 ، البيت 1331 وشرحه) . أما قوله : “ اهرب من بيت النار هذا “ ، فمعناه : “ دع عنك محبة الدب - (وهي هنا رمز لصداقة الأبله) - لأنها شبيهة بعبادة النار “ .

(2040) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : “ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون “ . (2 : 50) .

(2041) في البيت إشارة لبعض معجزات موسى التي ورد ذكرها في القرآن الكريم . قال تعالى : “ وأنزلنا عليكم المن والسلوى “ .
(2 : 57) . وقال : “ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك

الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم “ .
(2 : 60) .

(2044) في هذا البيت يعاتب موسى عابد العجل ذلك الذي شك فيما أظهره موسى من معجزات عظيمة ، على حين أنه خر ساجدا عندما سمع صوت العجل . فكأن صوت العجل طوفان جرف إلى نفسه الأوهام ، وكل ما ثار عنده من شكوك حول الدين والايمان ، وكأنما عقل هذا الكافر المخالف قد غلبه نوم الغفلة ، فلم تبق له أية مقدرة على التفكير .
(2047) السامرىّ : (انظر : المثنوى ، 1 ، البيت 2258 وشرحه) .

(2068 - 2075) في هذه الأبيات تعبير عن قصة معروفة ، رويت على أنها سبب لنزول سورة “ عبس “ ، وأوردها صاحب الكشاف على الوجه التالي :
“ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم (الأعمى) . .
وكان عنده صناديد قريش : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، يدعوهم إلى الاسلام ، رجاء أن يسلم باسلامهم غيرهم . فقال :
يا رسول الله ، اقرئنى وعلمني مما علمك الله ، وكرر ذلك ، وهو لا يعلم تشاغله بالقوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه ، فنزلت “ عبس وتولى “ . فكان رسول الله يكرمه ويقول إذا رآه : مرحبا بمن عاتبني فيه ربى . ويقول : هل لك من حاجة “ .
(الزمخشري : تفسير الكشاف : 4 ، 700 - 701) .

(2071) الحبش : من الواضح أن المقصود بهذه الكلمة تلك الجماعة التي كانت تعرف “ بأحابيش قريش “ . وهناك خلاف حول تفسير كلمة أحابيش ، فقد فهمها البعض على أنها تعنى عبيدا من الحبشة ، ولكن نصوصا تاريخية متعددة بينت أنهم كانوا جماعات تنتمى إلى بعض

القبائل العربية ، وكانت قريش تستخدم هذه الجماعات في حراسة قوافلها التجارية ، فكأنهم كانوا لها بمثابة الحلفاء . (انظر : عبد الحميد العبادي : أحابيش قريش ، هل كانوا عربا أو حبشا ؟ بحث في مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ، مايو 1932) .

(2072) “ بصره “ تمثل في هذا البيت مشكلة تاريخية . فإن كان المقصود بها مدينة البصرة العراقية ، فإنها لم تنشأ الا بعد وفاة الرسول ببضع سنوات . واجتماع الرسول بصناديد قريش كان قبل الهجرة ، فمعنى ذلك أن هذه المدينة قد ذكرت في قصة جرت وقائعها قبل بناء هذه المدينة بنحو خمسة عشر عاما . فهل هذا خطأ تاريخي وقع فيه الشاعر ؟ أم أن المقصود مدينة بُصرى ، “ من أعمال دمشق ، وهي قصبة حوران “ 1 “ والتي يصفها ياقوت بأنها “ مشهورة عند العرب قديما وحديثا “ ، وقد فتحها العرب عام 13 ه . ومما يساعد على مثل هذا التفسير أنها اقترنت في ذكرها هنا بتبوك “ وهي أيضا من أرض الشام “ توجه إليها النبي عليه السلام في عام تسمع للهجرة - وهي آخر غزواته - ولما وصلها وجد أن من تجمع فيها من الروم وبعض القبائل العربية قد تفرقوا “ 2 “ .
وربما كان ذكر الشاعر للبصرة هنا مبنيا على استبعاد عنصر الزمن في مثل هذا المقام . فالأبيات تعبر عن تفسير عتاب الخالق لرسوله ، كما ورد في سورة “ عبس “ . ويكون المراد بذكر البصرة هنا الموقع الذي قامت عليه هذه المدينة . . بعد فتح العراق .
ومما روى عن علي بن أبي طالب أن الرسول ذكر البصرة ، وتنبأ بحدوث موقعة الجمل . قال : “ سمعت رسول الله يقول : تفتح أرض

....

(1) ياقوت : معجم البلدان ، مادة بصرى .
(2) المصدر السابق : مادة تبوك .

يقال لها البصرة “ 1 “ . . الخ “ . وهذا الخبر - برغم ما يمكن أن يوجه اليه من النقد - يشيع أن الرسول ذكر البصرة ، وتنبأ بما يحدث فيها .
ومما له مغزاه أن هذا الخبر مذكور في معجم البلدان لياقوت . وهذا المؤلف - مثل جلال الدين - من رجال القرآن السابع ، كما أنه جمع الكثير من معلوماته في ذات المنطقة التي عاش بها جلال الدين .

(2077) روى أبو هريرة عن الرسول أنه قال : “ الناس معادن كمعادن الذهب والقضة “ . (المنهج القوى : 2 ، 452) .

(2086) “ الجعل “ حشرة صغيرة تقبل على الروائح الكريهة ، وتنفر من الروائح الطيبة .

(2090) “ انني أمير بين أهل الصورة وبين أهل المعنى “ .

(2095 - 2102) رويت هذه القصة في مصادر أخرى بشئ من الاختلاف عن رواية جلال الدين . فقد ذكرها ابن حزم في طوق الحمامة ، وهي في روايته تدور حول أبقراط . وذكرها صاحب قابوس نامه ، وروايته أشبه برواية جلال الدين ، الا أن بطلها هو محمد بن زكريا الرازي ، وليس جالينوس . (انظر : تعليقات نيكولسون ، وانظر أيضا :
فروزانفر : مآخذ قصص ، 66) .

[شرح من بيت 2100 إلى بيت 2250]

(2103 - 2105) تناول الغزالي المعنى الذي عبرت عنه هذه الأبيات على الوجه التالي : “ وكان مالك بن دينار يقول : لا يتفق اثنان في عشرة الا في أحدهما وصف من الآخر ، وأن أجناس الناس كأجناس الطير ، ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران الا وبينهما مناسبة . قال :
فرأى يوما غرابا مع حمامة ، فعجب من ذلك فقال : اتفقا وليسا من شكل واحد ، ثم طارا ، فإذا هما أعرجان “ . (انظر : فروزانفر ، مآخذ قصص ، 66) .\

....
(1) المصدر السابق : 1 ، 436 .

(2107) سجِّين : هذه الكملة تعنى هنا الجحيم . (انظر : المثنوى : 1 ، 640) .

(2118) " الورد " في الأبيات السابقة رمز لأهل الكمال .
والشاعر - في هذا البيت - يقول : " لقد خلصت من الحسية خلاصا كاملا ، وكانت بي آثار منها . فالله - الذي طهرني منها - لن يرجعها اليّ " .

(2135 - 2136) عبر الشاعر عن مثاليته الخلقية بقوله : ان من لا يتقيد بعهده ، فإنه لا يتقيد بقسمه . ويمضى في تحليل هذه الفكرة على أساس نفسي فيقول : ان القسم يكون بمثابة قيد فرض عليه ، وهذا القيد يجعل نفسه الحسية أكثر ميلا إلى الثورة على العهد ، والتخلي عنه .

(2137 - 2138) " الأسير " في هذين البيتين رمز للعقل ، و " الحاكم " رمز للنفس الحسية . فالانسان المتعلق بشهوات الحس ولذاته تحكمة نفسه الحسية . فإذا حاول عقله أن يقيد هذه النفس بقسم أو عهد كان بمثابة أسير وضع قيدا على حاكمه . والحاكم لا يبقى في القيد بل ينطلق منه ، ثم يحطم عبده الذي قيده . وهكذا النفس الطاغية ، ما لم تهذب فان العقل لا يستطيع السيطرة عليها بأية صورة ، ولئن حاول أن يحد من طغيانها عن طريق الزامها بالعهود ، كان ذلك مدعاة لازدياد ثورتها واندفاعها .

(2140) قول الشاعر : " يجعل من جسده خيطا ، ويلتف حول صاحب عهده " ، يعنى أنه يرهق جسده في الوفاء بالعهد لمن عاهده ، ولا يحيد قط عن دائرة الوفاء له .

(2141) بدأ الشاعر في هذا البيت رواية قصة وردت في أحد الأحاديث النبوية . وقد أطال الشاعر الوقوف عند مختلف دقائق هذه القصة ، واستطرد استطرادات كثيرة . والحديث المشار اليه روى على الوجه التالي :

“ عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلا من المسلمين قد خفّ فصار مثل الفرخ . فقال له رسول الله : هل كنت تدعو بشئ أو تسأله إياه . قال : نعم . كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبى به في الآخرة فعجله في الدنيا . فقال رسول الله : سبحان الله . لا تطيقه (أو لا تستطيعه) ، أفلا قلت : اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . قال : فدعا الله له فشفاه “ .
وقد ورد هذا الحديث في صحيح مسلم ، وغيره من المصادر (انظر : تعليقات نيكولسون . وانظر أيضا : فروزانفر : مآخذ قصص ، 66) .

(2143) تروى أحاديث متعددة في الحث على عيادة المريض ، وبيان ثوابها .
(انظر : النووي : رياض الصالحين ، 368 - 373) .

(2150) قول الشاعر “ وكصانع الأصنام ، انحت لك من الحجر صديقا “ ، تعبير رائع عن الدعوة إلى اكتساب الأصدقاء . فالحجر الصلد أبعد الأشياء عن الاستجابة ، وهو هنا رمز للانسان العنيد ، الذي يغلق قلبه دون الناس . ومثل هذا - في رأى الشاعر - يجب ألا يستعصى على المرء اكتساب وده . وكأنما المرء في اكتساب هذا النوع من الأصدقاء صانع أصنام ، ينحت من الحجر تماثيل يتعلق بها قلبه .

(2154) “ ما دمت - أيها المريد - عاجزا عن معرفه الأولياء الصادقين ، فاقصد كل درويش ، والتمس حقيقة حاله ، فلعلك بيحثك تهتدى إلى العارف الكامل ، وشأنك في ذلك شأن الباحث عن الكنز ، ينقب عنه في كل خربة حتى يهتدى اليه “ .

(2156 - 2161) في هذه الأبيات إشارة إلى حديث سبقت الإشارة اليه . (انظر البيت 1738 وشرحه) . ولم يتضمن هذا الحديث ذكر موسى .

(2156) قول الشاعر : “ يا من شهدت طلوع البدر من جيبك “ يشير إلى معجزة موسى إذ أدخل يده في جيبه ، فخرجت بيضاء من غير

سوء . انظر الآيات الكريمة : (7 : 108) ، (26 : 33) ، (27 : 12) .
(2167) يبدأ الشاعر في هذا البيت رواية قصة وردت في كتاب " جوامع الحكايات " لمحمد عوفي . والقصة - كما رواها عوفي - تذكر أن البستاني وجد في بستانه أربعة أشخاص ، أحدهما فقيه والثاني شريف والثالث جندي والرابع بائع " جوّال " .
والقصة في رواية عوفي تخلو من كثير من التفصيلات التي جاءت في رواية المثنوى . لقد أضاف إليها جلال الدين من التفصيلات ما جعلها تبدو أكثر واقعية ، كما صورها بأسلوب ساخر يختلف كثيرا عن أسلوب عوفي . وقد رأيت أن أورد هنا ترجمة عربية للقصة ، كما وردت في كتاب عوفي .
قال : " حكى أن أربعة أشخاص من أصناف البشر دخلوا بستانا ، وشغلوا بأكل الفاكهة . وكان واحد من هؤلاء فقيها وثانيهم علويا ، وثالثهم جنديا ورابعهم سوقيا .
ودخل صاحب البستان فرآهم وقد أتلفوا كثيرا من الفاكهة .
وكان رجلا ذكيا فتفكر قائلا : انهم أربعة أشخاص ، ولن أقدر على الأربعة مجتمعين .
فتوجَّه إليهم ثم قال للعالم (الفقيه) : انك رجل عالم ، وأنت لنا قدوة ومرشد .
وقد ارتبطت مصالح ديننا وأخرانا ببركة أقدام العلماء وحركة أقلامهم . وأما ثانيكم فهو سيد كبير من أسرة النبي ، ونحن جميعا موالى أسرته ، ذلك لأن محبتها واجب أمرنا به الله حين قال : " قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى " .
وأما ثالثكم فجندى من أرباب السيف ، وان عمران ديارنا وأرواحنا منوط بسيف هؤلاء . فلو أنكم دخلتم بستاني ، وأكلتم كل فاكهتى بدون حق ما ضننت بها عليكم ، ولكن من ذا يكون هذا الرجل السوقي ؟ وبأية وسيلة دخل في بستاني ؟
وما فضيلته التي تتيح له أكل فاكهتى ؟ ثم مد يده وأمسك بجيب السوقي ، وحمل عليه حملة قوية حتى طرحه أرضا ، ووضع القيد في يديه ورجليه . ثم توجه إلى الجندي وقال : انني عبد للعلماء ولأنباء النبي . وأما أنت ، أفلم تعلم

أنني دفعت للسلطان خراج هذا المال ، وأنه لم يبق له قبلي شئ أكثر مما دفعت ؟ فلو أن الأئمة والأشراف تقاضونى روحي (لبذلتها) وعددت نفسي مقصرا ! أما أنت فلم تقل لي من أنت ، ولا بأي حق عدوت على مالي ! وأمسكه هو أيضا ، وأدبه تأديبا كاملا ، وأحكم قيد يديه ورجليه . وبعد ذلك توجه إلى العالم وقال : ان الناس جميعا عبيد لآل بيت الرسول ، وحرمة نسبت هؤلاء ظاهرة للجميع . أما أنت ، يا من تدعى العلم ، أما حصلت من العلم ذلك القدر الذي تعرف به أنه لا يجوز دخول بستان سواك بغير اذن ؟ فأي قدر من العلم بقي لك ؟ انى ومالي وروحي فداء لآل الرسول . أما كل جاهل يدعى العلم ، ويستحل أموال المسلمين ، فإنه يكون جديرا بالتأديب ، مستحقا للتعذيب . ولقد أدبه أيضا ، أدبا بالغا ثم قيده ، وإذ ذاك ، بقي العلوي وحيدا ، فتوجه اليه وقال : أيها المدعى الخسيس ، يا صاحب الشعر الكثيف والجهل الوافر ! انك لم تقل لي بأي سبب أجزت التطاول عى بستاني ، وأضعت على مالي ؟ وهل قال الرسول عليه السلام أن مالي حلال للعلويين ؟ ثم إنه قيد ذلك الرجل أيضا ، وبهذه الطريقة استطاع أن يقيد الرجال الأربعة ، ثم استوفى منهم ثمن كرومه " . وقد نقل فروزانفر النص الفارسي لهذه القصة (مآخذ ، 67 - 69) ، أما نيكولسون فترجمها إلى الا نجليزية في تعليقاته .

(2183) الجنيد البغدادي ، وأبو يزيد البسطامي امامان من أكبر أئمة الصوفية . توفى أبو يزيد عام 260 ه ، وتوفى الجنيد عام 297 ه .

(2196 - 2197) يدافع الشاعر في هذه الأبيات عن الأشراف المنتمين إلى بيت الرسول ، إزاء ما اتهمهم به البستاني من الزيف والانتساب الكاذب . وخلاصة دفاعه أن المرء إذا ساءت أحواله وأفعاله ساءت ظنونه بسواه . فما قاله البستاني عن الأشراف ، لم يكن الا صدى لخبث نفسه ، وسوء ظنه . وهذا شبيه بقول الشاعر العربي :

إذ ساء فعل المرء ساءت ظنونه * وصدق ما يعتاده من توهم(2204) شمر ، هو شمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين يوم كربلاء ، في العاشر من محرم عام 61 ه . وكان قتله للحسين مثالا للخسة والجبن ، لأنه لم ينازله منازلة الرجال ، بل تحين الفرصة حين تكاثر الرجال على الحسين ، فركب صدره واحتز رأسه . أما يزيد فهو يزيد بن معاوية ثاني الخلفاء الأمويين ، وهو الذي حدثت في عهده مأساة الحسين .

(2218) يبدأ الشاعر بهذا البيت رواية قصة تحكى عن أبي يزيد البسطامي . (انظر أصول هذه القصة في " مآخذ قصص " لفروزانفر وكذلك في تعليقات نيكولسون " .

(2221) أورد الشراح تفسيرات متعددة لهذا البيت ، وهي جميعا تدخل في باب التأويل البعيد . (انظر - على سبيل المثال - شرح صاحب المنهج القوى . ج 2 ، ص 473) . ولقد نشأت هذه الصعوبة من تفسير كلمة " حق " في البيت على أنها تعنى الله . فالقرآن الكريم لا توجد به آية تعبر عن المعنى الذي أشار اليه البيت . وكل ما ذكره الشراح من الآيات لا تعبر عن هذا المعنى الا بكثير من التأويل .
ولعل خير وسيلة لفهم هذا البيت هي أن تفسر كلمة " حق " هنا بمعناها الحرفي .
فتكون ترجمة البيت : " ان القول الحق في السفر هو أنك حيثما توجهت يجب عليك أن تلتمس رجلا " . وبذلك يكون معنى البيت مطابقا للقول العربي : " خذ الرفيق قبل الطريق " .

(2222 - 2224) " عليك أن تطلب الجوهر الحقيقي قبل كل شئ ، وإذا ما تحقق لك الجوهر ، تحققت لك معه أعراض كثيرة ، تابعة له . أما من ركز همه في الأعراض فلن يتحقق له الجوهر قط . ومثال ذلك من يزرع القمح ، فهو بالضرورة يحصل على التبن ، إلى جانب

القمح ، أما من يزرع التبن ، فلن يحصل قط على القمح . ومن طلب الله بالخلاص قلبي ، وصل إلى الله ، وتحقق له بهذا الوصول كل ما تصبو اليه النفوس من آمال .

(2225) من قصد الكعبة للحج ، فسوف يرى مكة - إلى جانب قيامه بالحج . فالحج إلى الكعبة هو القصد الجوهري ، ورؤية مكة عرض جانبي تحقق بدون قصد خاص .
(2231) “ خضر زمانه “ . (انظر : المثنوى ، ج 1 ، الأبيات 224 ، 2969 ، 2971 وشروحها) .

(2233) “ الفيل الذي يرى في منامه بلاد الهند “ ، رمز للصوفى العارف الذي يشهد في تأمله عالم الروح ، وطنه الحبيب الذي يحلم به ، فكأنما هو فيل مغترب رأى في منامه بلاد الهند .

(2234 - 2235) النوم يمثل انطلاق الروح من عقال الجسد .
(انظر : المثنوى ، 1 ، 387 - 389) . ولهذا فان الانسان يرى في النوم ما لا يراه في اليقظة .

(2236) العارف - وهو من استطاع تخليص روحه من سلطان الجسد - يتحقق له في يقظته شهود روحي .

(2244) يتفق معنى هذا البيت مع ما يقوله الصوفية عن “ الانسان الكامل “ ، وهو أنه أفضل مخلوقات الله .

(2245) في هذا البيت تعبير عن معنى حديث قدسي ، نصه :
ما وسعني أرضى ولا سمائي ، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن التقى النقى الورع .

(2247 - 2249) في هذين البيتين تعبير عن الفناء في الله والاتحاد به ، وهما من النظريات المشهورة عند الصوفية ، والقول بهما مبنى على التجربة الروحية ، التي يتحدث بها العارفون من أهل التصوف .

[شرح من بيت 2250 إلى بيت 2400]
(2252) يعود الشاعر هنا إلى رواية “ قصة الصحابي المريض “

انتى بدأها في البيت 2141 ، ثم استطرد منها إلى سواها من الموضوعات .

(2257 - 2265) في هذه الأبيات يعبر الصحابي عن الألم ، وأثره في تنبيه الروح ، وايقاظ القلب والضمير . وقد سبق له أن عبر عن مثل هذا المعنى في حديثه عن الخزن . (انظر المثنوى ، ج 1 ، الأبيات 817 - 822 وشرحها) .

(2270 - 2271) " لو أن المستشار كان امرأة أو طفلا (وكلاهما مجرد من الحكمة) ، فان مشاورتهما تجوز ، شريطة أن يعمل المرء بخلاف ما أشارا به " . وفي هذا البيت تعبير عن معنى الحديث الذي يروى عن الرسول قوله : " شاوروهن وخالفوهن " .

(2278) " النفس قادرة على الخداع ، تقدم الوعود البراقة ، وتخلفها ، ومع لا تفقد مقدرتها على الخداع " .

(2281) يذكر هذا البيت خرافة عن أثر السحر على رجولة الرجال ، وهي من الخرافات التي لا تزال شائعة بين السذج والجلاء . وقد اتخذ الشاعر من حالة العجز - التي يقال إنها تصيب الرجل من جراء " الربط " - رمزا إلى حالة العجز الروحي الذي يقعد الرجل عن التحرر من سلطان المادة . والنفس هي مسببة هذا العجز الروحي ، بما تزينه للمرء من لذات الحس وشهواته .

(2282) حسام الدين مثال للعارف الكامل . ولا سبيل إلى خلاص أسارى الحس من غفلتهم الا بمعونة العارفين أصحاب الكمال .

(2283) لقد ألقى الله حجابا على قلوب الخلق من جراء ما ارتكبوه من مظالم . وهذا القضاء ينزل بالناس لو توجه بالضراعة إلى الله قلب جريح .

(2285) النفس الحسية تكون في بداية أمرها صغيرة كالدودة ثم تكبر فتصبح كالثعبان ، ثم يتعاظم أمرها فتصبح تنينا .

(2286 - 2287) هذه النفس الثائرة العصية تغدو طيعة بفضل

تعليم العارف وارشاده ، وقوته الروحية ، فكأنما هي الحية ، وقد أصبحت عصا طيعة في كف موسى . قال تعالى : " فألقاها فإذا هي حية تسعى ، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى " . (20 : 20 - 21) .

(2288) لا يزال الشاعر يشبه حسام الدين بموسى . ويشير إلى معجزة أخرى من معجزات موسى ، ذكرت في قوله تعالى : " واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى " . فهو يطلب من حسام الدين (مثال الرجل الكامل) يدا بيضاء (أي مكرمة جديدة) ، وهي أن يكشف بعرفانه دياجير الظلمة التي غمرت الناس .

(2290) للنفس مكر يخدع الناس ، فهي تظهر لهم في صورة تبديها أهون من حقيقتها ، فيستهينون بأمرها ، على حين أنها تقودهم إلى الهلاك وهم لا يشعرون .

(2291) ظهور النفس قليلة الخطر أمام العارف ، لا يخدعه من حقيقتها ، كما هو الحال بالنسبة لعامة الناس ، بل يقويه ، ويزيد من قدرته على مقاومتها . وهذا شبيه بما حدث للرسول في وقعة بدر ، حينما ظهرت جيوش المشركين قليلة في عينيه ، فزاده ذلك استهانة بأمرها ، واقداما على القتال . (انظر : سورة الأنفال ، 8 : 43 - 44) .

(2292 - 2297) هذه الأبيات تتحدث عن غزوة بدر ، وما حققه الرسول من نصر فيها ، بعون الله وتأييده . وقد وصف القرآن الكريم هذه الغزوة في سورة الأنفال . وأبيات الشاعر هنا تعبر عن معنى الآيات الكريمة ، التي سبقت الإشارة إليها في التعليق على البيت 2291 .

(2296) التأييد الإلهي للرسول أظهر الكفار قلة في عينيه ، فيسَّر له ذلك ما كان ميسورا ، وجعله يقبل على الأمر العسير ، بدون خشية ولا وجل . قال تعالى : " إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر " . الآية . (8 : 43) .

(2298) من لم يظفر بمثل هذا التأييد الإلهي الذي ظفر به الرسول ، يكون من خذلان الله له أن يظهر لعينيه الأمر العسير يسيرا ، فهذا المخذول شبيه بمن أبصر الأسد هرة ، أو رأى المائة مقاتل شخصا واحدا ، فدفعه الغرور وسوء التقدير إلى القتال .

(2300 - 2301) من خذلان الكافرين أن سيف الرسول ظهر لهم وكأنه حربة واهية ، وأن هذا الرسول القوى المؤيد بالله بدا لهم ضعيفا ، فتجاسروا على قتاله ، فحاقت بهم الهزيمة .

(2302) ظهور الرسول ضعيفا للكفار كان استدراجا إليها ، أدى إلى هزيمتهم ، وقادهم إلى جزائهم في النار .

(2303 - 2304) النبي يظهر لخصومه ضعيفا ، فهو في بداية أمره يكون قليل الأنصار ، فيظنون أنهم قادرون على القضاء عليه بأقل جهد .
وهم لا يدركون أن وراء هذا المظهر قوة لا قبل لهم بها ، هي قوة الله .
فظاهر النبي أنه - بالقياس إلى خصومه - ضعيف كالقشة ، وحقيقته أنه أكثر ثباتا من الجبال ، يزول معاندوه ، ويحيق بهم قهر الله ، وتبقى دعوة النبي بين الناس ، ضاحكة من خصومها .

(2305) عوج بن عنق : من الشخصيات الأسطورية التي عرفها المسلمون عن أساطير بني إسرائيل شخصية عوج بن عنق . وعنق اسم أمه التي قيل إنها احدى بنات آدم من صلبه . وقد جاء وصف عوج بن عنق في قصص الأنبياء على الوجه التالي :
“ قال ابن عمر : كان طول عوج ثلاثة وعشرين ألف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا بالذراع الأول . وكان عوج يحتجز السحاب ويشرب منه الماء ، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس ، يرفعه إليها ، ويأكله .
ويروى أنه أنى نوحا أيام الطوفان فقال له : احملنى معك في سفينتك ، فقال له : اذهب يا عدو الله ، فانى لم أومر بك . فطبق الماء

الأرض من سهل ومن جبل ، وما جاوز ركبتيه . وعاش ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يد موسى . وكان لموسى عسكر فرسخ في فرسخ ، فجاء عوج ونظر إليهم ثم جاء إلى الجبل وقدّ منه صخرة على قدر العسكر ، ثم حملها ليطبقها عليهم ، فبعث الله عليه الهدهد ومعه الطيور ، فجعلت تنقر بمناقيرها حتى قورت الصخرة ، وانثقبت فوقعت في عنق عوج بن عنق ، فطوقته وصرعته ، فأقبل موسى وطوله عشرة أذرع ، وطول عصاه عشرة أذرع وقفز إلى فوق عشرة أذرع فما أصاب منه الا كعبه وهو مصروع في الأرض ، فقتله . قالوا فأقبل جماعة كثيرة ومعهم الخناجر فجهدوا حتى حزوا رأسه ، فلما قتل ، وقع على نيل مصر ، فحسره سنة " . (الثعلبي : قصص الأنبياء ، ص 265) .
وقد استخدم الشاعر شخصية عوج في تصوير استدراج الله للكفار ، إذ يظهر لهم الماء ضحلا لا يتجاوز عمقه كعب الرجل ، في حين أن الماء يكون عميقا بحيث يغرق مائة من أمثال عوج بن عنق . وفي البيت إشارة إلى أن قوة الحس ، مهما عظمت ، فهي ضعيفة أمام قوة الروح .

(2307 - 2308) في البيتين إشارة إلى قصة هلاك فرعون . (انظر : سورة البقرة ، 2 : 50) .

(2318) الدهري هو المادي الذي يؤمن بقدم العالم وأزليته .
وكان في بلاد العرب قبل الاسلام جماعة آمنوا بذلك . وقد أشار إليهم القرآن الكريم بقوله تعالى : " وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر " . (45 : 24) .

(2319) " لولا الأنبياء ما استطاع الناس ادراك أسرار الفلك وأنه مثلهم مخلوق محدث " .

(2320) " النبي المطلع على أسرار خلق السماوات والأرض هو الذي يخبر عن حدوث الأفلاك . ولا سبيل للانسان إلى ادراك ذلك بتجربته الذاتية ، لقصر عمره . فالانسان بالقياس إلى الأفلاك ،

كالعنكبوت بالقياس إلى الدار . فبينما صاحب الدار يدرك سر بنائها ، فان العنكبوت ينسج خيوطه في جوانبها ، من غير أن يدرك من سرها شيئا .

(2321 - 2322) في البيتين صورتان بيانيتان ، تعبران عن المعنى الذي ورد في البيت السابق ، وهو أن الكائنات الحسية لا تستطيع أن تتجاوز الحس ، إلى مدركات سبقت وجودها الحسى . وحياة الحس أيضا قصيرة المدى ، وهذا مما يزيدها عجزا فوق عجزها . فالبعوضة لا تستطيع أن تعرف أصل البستان . ودودة الخشب لا علم لها بأصل الخشب .

(2323 - 2325) الادراك الحق يكون للعقل وحده . وليس المقصود بالعقل هنا ذلك العقل الجزئي الذي يعتد بقدرته الانسان .
فهذا - في نظر جلال الدين وغيره من الصوفية - محدود المعرفة .
فالعقل المقصود هنا هو العقل الكلى الذي يظهر ذاته في كثير من الصور ، فكأنما هو جنى يتجلى في مختلف الصور ، بل اين منه الجنى ، وهو أسمى من الملك . ولولا عجز المستمع عن ادراك عيمق المعاني ، لما جاز تشبيه العقل الكلى بالجن في قدرته على الظهور بمختلف الصور .

(2328) " الجنون " هنا معناه الخروج على ما تعارفت عليه عقول أهل التقليد . فالعقل المقلد والعلم التقليدى يتنافيان مع العرفان الصوفي .

(2333 - 2337) في هذه الأبيات حكاية قصيرة ساقها الشاعر لا يضاح معنى البيت 2332 ، وفيه يسخر الشاعر من العقل (المقلِّد) ، ويفضل عليه عرفان الروح (وهو ما قد يصفه بعض المقلدين بأنه جنون) . فهذه الحكاية ترمز إلى أن عشقا روحيا ظاهره الجنون وباطنه العقل خير من عقل مقلد ، ظاهره العلم ، وهو في حقيقة أمره أسير الجهل .

(2338) بدأ الشاعر هنا قصة رجل عاقل كان يتظاهر بالحمق ،

فيركب قصبة كالأطفال ، ويمضى بها في الطريق . والظاهر أن هذه القصة - كما يقول نيكولسون - كانت شائعة قبل زمن الشاعر . وقد ذكر نيكولسون صورا متعددة لهذه القصة نقلها عن بستان العارفين ، لأبى اليث السمرقندي ، وكذلك عن جوامع الحكايات لمحمد عوفي .

(انظر تعليقات نيكولسون) . كما أورد فروزانفر صورا أخرى لهذه القصة عن العقد الفريد لا بن عبد ربه ، وربيع الأبرار للزمخشري ، واسكندرنامه (المنثور) . (مآخذ قصص ، 70 - 72) .

ويعزى تظاهر الرجل بالجنون في هذه القصص ، إلى أسباب مختلفة . فمنها ما ينسب اليه أنه أراد بذلك الفرار من منصب حكومي كان يراد اسناده اليه . ومنها ما ذكر أنه انما فعل ذلك ليستطيع الأمر بالمعروف والنهى على المنكر من غير أن يقع تحت طائلة العقاب . وقد وجدتُ في العقد الفريد صورة أخرى لهذه القصة ، مرويَّة عن العتبىّ ، وهي كما يلي :

" سمعت أبا عبد الرحمن بشرا يقول : كان في زمن المهدىّ صوفي ، وكان عاقلا عالما ورعا ، فتحمق ليجد السبيل إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان يركب قصبة في كل جمعة يومين : الاثنين والخميس ، فإذا ركب في هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حكم ولا طاعة .

فيخرج ، ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان ، فيصعد تلا وينادى بأعلى صوته : ما فعل النبيون والمرسلون ؟ أليسوا في أعلى عليين ؟

فيقولون نعم : فيقول : هاتوا أبا بكر الصديق . فأخذ غلام فأجلس بين يديه ، فيقول : جزاك الله خيرا أبا بكر عن الرعية . فقد عدلت ، وقمت بالقسط ، وخلقت محمدا عليه الصلاة والسلام فأحسنت الخلافة . . . " .

وهكذا يذكر الخلفاء الواحد بعد الآخر ويبين ما لهم وما عليهم ، حتى بلغ دولة بنى العباس ، فسكت . فقيل له : " هذا أبو العباس أمير المؤمنين . قال : بلغ أمرنا إلى بني هاشم . ارفعوا حساب

هؤلاء جملة واقذفوا بهم في النار جميعا " . (العقد الفريد ، 6 ، 152 - 154) .

(2343) السامرىّ . (انظر : المثنوى ، 1 ، البيت 2258 وشرحه) .
والشاعر هنا يحذر من اعتبار الجنون علامة من علامات الولاية . وهذه الخرافة كانت منتشرة بين السذج حتى وقت قريب ، فكثيرا ما ظنوا البله أولياء .

(2347) " لو أبصرت بعين اليقين لرأيت تحت كل مظهر متواضع جنديا من جنود الله ، كما قد يجد المرء كنزا كان مختفيا تحت قطعة من الحجر .

(2348) العين القادرة على ابصار اليقين لا يحجبها عن ادراك جوهر العارف بساطة مظهره . انها ترى - في رادء كل صوفي - رجلا يناجى ربه ويسمع منه ، شبيها بموسى الكليم .

(2351 - 2353) " العَمى " في هذه الأبيات مستخدم بطريقة رمزية . وهو يعنى هنا العجز عن معرفة الأولياء والمرشدين . فمن سلبت المادية والحسية بصيرته ، وصرفته عن جوهر الروح ، لا يستطيع أن يكتشف هذه العلة في نفسه ، لأنه ذو بصيرة مظلمة ، فهو كالأعمى الذي لا يعرف سارقه ، حتى ولو الصطدم به ذلك السارق ، على الطريق .

(2354) يبدأ الشاعر هنا حكاية تمثيلية صغيرة عن الأعمى الحكيم ، والكلب العقور . وقد استخدم " العمَى " هنا في معناه الحسى . فالعمى الحسىّ لا يقف حائلا دون الحكمة ، ولا يعوق صاحبه عن تحصيل العرفان . وليس افتقاد البصر مؤديا - بالضرورة - إلى الجهل ، لأن بصيرة الروح أقوى وأعمق من ابصار العينين .
والكلب العقورفي هذه الحكاية رمز للطاغية الظالم الذي يؤذى الدراويش الصالحين .
" والعمى الحسىّ " هنا يشير إلى انصراف العارفين عما حولهم من المظاهر التي تأسر الحس ، من غير أن يكون لذلك أثر على حكمتهم وعرفانهم ، بدليل

أن الدرويش الأعمى ، قد استطاع أن يخلص نفسه من الكلب الضاري .

(2362 - 2363) “ الكلب العالم “ رمز للمتعلق بالحس الذي حصَّل شيئا من العلم . فمثل هذا يميز بين الكسب الحلال ، والكسب الحرام .

(2364) قول الشاعر : “ والكلب حين صار عالما أصبح سريع الوثبات “ ، يعنى أن المتعلق بالحس ، حينما حصَّل العلم ، تحقق له بعض التحرر من سلطان الحس . وهو حين صار عارفا غدا من أصحاب الكهف . والإشارة هنا إلى كلب أصحاب الكهف الذي يشار اليه كثيرا على أنه قد تحققت له مرتبة البشرية المكرمة ، وذلك بملازمة لأصحاب الكهف . قال سعدى :
“ ان ابن نوح عاشر الأشرار ، فضاع بذلك بيت نبوته . وكلب أصحاب الكهف اقتفى أثر الصالحين بضعة أيام ، فصار كالبشر “ .
(الكلستان ، الحكاية الرابعة) .
وانظر أيضا : المثنوى ، 1 ، 1022 وشرحه .

(2365) “ لقد غدا كلب (أصحاب الكهف) عارفا بخالقه ، فيا الهى ، ما أعجب نور العرفان ، وما أقواه على كشف الحقائق ! “ (2366) بيِّن الشاعر هنا أن افتقاد بصر العينين لا يعنى فقدان البصيرة .

(2368) قارون : (انظر : المثنوى ، 1 ، 864 وشرحه) .

(2369) قول الشاعر : “ ولقد رجفت لاهلاك كل دعيّ “ يشير إلى قوله تعالى في قصة صالح : “ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين “ . (7 : 78) . انظر : المثنوى ، 1 : 2509 - 2569 ، وشرح هذه الأبيات .
أما قول الشاعر : “ وفهمت من الحق قوله : يا أرض ابلعي ماءك “ ، فيشير إلى قصة نوح والطوفان ، وكيف أطاعت الأرض أمر

ربها بعد الطوفان حين أمرها أن تبلع ماءها .

(2370 - 2371) قد يعرف بعض الجماد عن الله أكثر مما يعرف بعض عقلاء البشر . يستشهد الشاعر على ذلك بطاعة السماوات والأرض لأمر الله . (انظر أيضا : المثنوى ، 1 ، 512 - 513) .

(2372) هذا البيت يشير إلى قوله تعالى : " انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلموما جهولا " . (33 : 72) . انظر : المثنوى ، 1 ، 1958 وشرحه .

(2373) يفسر الشاعر اعراض السماوات والأرض والجبال عن حمل الأمانة بأنه نفور من تلك الحياة التي يصبح فيها المخلوق شديد السعي إلى الخلق والبعد عن الحق .

(2374) ان الانقطاع عن الخلق يجعل المرء يتيما منفردا . لكن مجرد الانقطاع عن الخلق لا يعنى الأنس بالله ، بل لا بد لذلك من قلب سليم . والقلب السليم قد ذكر في القرآن الكريم مرتبطا بإبراهيم الخليل . انظر الآيات : (26 : 89) ، (37 : 84) .

(2375 - 2378) " اللص " هنا رمز للشيطان ، أو للنفس الحسية وشهواتها .
والأعمى هو الانسان الذي لم يرزق الكشف الروحي .
ومعنى " الامساك باللص " مراقبة الشيطان ، أو النفس ، حتى يستطيع المرء أن يتخلص من سلطان الشر .

(2379) " الجهاد الأكبر " هو جهاد النفس الأمارة بالسوء . فعلى المرء أن يقوى في مراقبتها ومحاسبتها حتى يتخلص من آثارها السيئة .

(2380) النفس الحسية تغشى بصيرة الروح . وأولى مراحل الابصار الروحي تكون بعد اخضاع تلك النفس .
(2381) " أصحاب القلوب " هم المرشدون العارفون .

(2383) " الجهاد " هنا رمز لمن تجرد من الحياة الروحية . وهو

المقابل المضاد لأصحاب القلوب .

(2384) عاد الشاعر هنا إلى قصة " الحكيم الذي كان يتظاهر بالحق " . وهي التي بدأها بالبيت 2338 .
(2385) قوله : " تخل عن حلقة الباب " يعنى لا تطرق الباب .
وهذا القول - على لسان الحكيم - يعنى أنه ليس على استعداد للتباحث مع المستفسر ، فالباب لن يفتح ، لأن ذلك اليوم لم يكن يوم الأسرار . وهذا المعنى يتضح في البيت التالي . فالعارف لا يقبل على التعليم من أجل الكسب والزهو ، كما يفعل العلماء المقلِّدون ، فقد يمر بحالات تجعله راغبا في العزلة والتأمل .

(2386) " لو كانت من علماء الحس المقلدين ، لكان سبيلي أن أجلس فوق دكان وأمارس التلعيم " .

(2387) " المحتسب " هو الموظف الادارى الذي كان يناط به الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومراقبة الأسواق والآداب العامة .
وقد خصص فصل لبيان واجبات المحتسب في كتاب الأحكام السلطانية ، للماوردي ، وكذلك وصلت الينا بعض كتب الحسبة ، ومن أهم مؤلفيها الشيزرى صاحب " نهاية الرتبة في طلب الحسبة " ، ومحمد القرشي صاحب " معالم القربة في أحكام الحسبة " . وتضم الموسوعات العربية القديمة فصولا عن الحسبة ، ومن أهمها ما ورد في " نهاية الأرب " للنويرى .

(2392) طلب المحتسبُ إلى السكران أن يقول (آه) ، حتى يشم أنفاسه ، لكن السكران لم يستجب له ، وأخذ يهتف " هو ، هو " ، وهو هتاف الصوفية عندما تنتابهم سكرة الوجد .

[شرح من بيت 2400 إلى بيت 2550]

(2400) عاد الشاعر إلى قصة الحكيم الذي كان يتلكف الحمق .

(2412) جاء في نص عربى لهذه القصة رواه صاحب العقد الفريد :
" البكر لك ، والثيِّب عليك ، وذات الولد لا تقربها " .

(2425) يقول الحكيم ان هذا الجنون الذي تظاهر به ، برغم اكتمال عقله ، يشبه أرضا خرابا تخفى في باطنها كنزا . فظاهرها يدعو إلى الزهد فيها ، لكن باطنها عامر بالكنز النفيس .

(2426) “ العسس “ رمز للحكام الدنيويين الظالمين ، الذين يهرب منهم الصوفية ، ذلك لأن الصوفية لا يقبلون التورط فيما يرتكبه مثل هؤلاء الحكام من المظالم .

(2427) يقول هذا الحكيم انه لا يبيع علمه من أجل أغراض دينوية عارضة ، فعلمه جوهر خالد ، وليس عرضا فانيا .

(2428) يعبر الحكيم في هذا البيت عن تساميه على الأغراض المادية . فقلبه الصافي يتلقى العرفان من الخالق ، وهو سعيد بهذا العرفان الذي يتكشف له .

(2436) “ علم الكلام يتوقف ازدهاره على مقدار ما يلاقيه من اقبال المستمعين . فهو علم يستمد وجوده من غرور أصحابه ، وحبهم للظهور ، : وليست له حياة ذاتية “ .

(2439) انظر : المثنوى ، 1 ، 1750 وشرحه .

(2440) أي عطاء يقدر عليه أهل الدنيا ؟ وماذا يكون عطاؤهم إذا قيس بعطاء الخالق الوهاب ؟

(2441) “ أكل الطين “ رمز للاسراف في التعلق بالمادية . ومن أصيب بمثل هذا الاسراف اعتل كيانه .

(2442) “ غذاء الروح “ هو الذي يجعل الانسان دائم الشباب .
والروح ذاتها لا تشيخ ، أما الجسد فيشيخ ويفنى . وقول الشاعر :
“ اغتذ بقلبك “ يعنى : اجعل غذاء الروح قوام وجودك .
(2448) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : “ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد “ .
(50 : 16) .

(2449) الدعاء والصلوات - التي يرفعها البشر إلى خالقهم - مستمدة من الخالقذاته ، فهو الذي علمهم إياها ، فتساموا بها ، والا فان الوجود الانساني الذي غلب عليه الحس لا تنبثق منه هذه الصلوات . ان هذه الأفعال الروحية الصادرة عن البشر ، شبيهة بورود نبتت في رماد الموقد .

(2450) كرم الله أيضا هو الذي بث الفهم والادارك في اللحم والدم ، وجعل المعاني الفكرية المجردة متعلقة بكيان حسىّ .

(2451) الابصار - كما يقول الشاعر - نور يفيض من العينين فتلاطم أمواجه السماء . وفي هذا تعبير عن اتساع البصر لكل هذه المشاهد المتجلية في السماوات والأرض .

(2455) جنة الروح هي أصل السعادة ونبعها ومجلاها .

(2456) يعود الشاعر هنا إلى قصة الرسول والصحابي المريض ، وهي القصة التي بدأت في البيت 2141 .

(2457 - 2458) انظر شرح البيت 2141 .
ويشير هذان البيتان إلى نوع من صحابة الرسول تلقوا تعاليمه بتزمت . وهؤلاء هم الأصل في ظهور فرقة الخوارج التي بنيت تعاليمها على هذا التزمت في التفسير . وقد أشار الشاعر إلى هؤلاء من قبل . (انظر : المثنوى ، 1 ، 366 - 370) .

(2468 - 2470) انظر قصة هاروت وماروت . (المثنوى ، 1 ، شرح الأبيات 3321 - 3354) .
وفي هذه الأبيات تفسير جديد للقصة ، هو أن هاروت وماروت آثرا أن يلقيا - في الدنيا - نصيبهما من العذاب ، لقاء ما اقترفا من الاثم والخطيئة ، بدلا من معاناة ذلك في الآخرة .

(2471) “ ألم الدخان “ رمز لعذاب الدنيا ، فهو بالقياس إلى

عذاب الآخرة شبيه بالدخان ، إذا قيس بالنار .
(2481) انظر حديث الرسول في شرح البيت 2141 .

(2484) كان موسى يريد أن يسير ببنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة ، بعد أن خرجوا من مصر ولكنهم خافوا دخولها على من كان بها من الحكام والأقوام ، وجبنوا عن القتال . قال تعالى : “ قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون “ (5 : 24) . فحزن موسى لذلك وشكاهم إلى الله ، فكان عقابهم أن الله أوقعهم في التيه ، وحرم علهيم دخول الأرض المقدسة أربعين سنة .
قال تعالى : “ قال رب انى لا أملك الا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين “ . (5 : 25 - 26) .
يقول الزمخشري عن التيه : “ التيه المفازة التي يتاه فيها . روى أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ ، يسيرون كل يوم جادين ، حتى إذا سئموا وأمسوا إذا هم بحيث ارتحلوا عنه . . . . فان قلت : هل كان معهم في التيه موسى وهارون عليهما السلام ؟ قلت : اختلف في ذلك ، فقيل لم يكونا معهم ، لأن كان عقابا . وقد طلب موسى إلى ربه أن يفرق بينهما وبينهم . وقيل : كانا معهم الا أنه كان ذلك روحا لهما وسلامة ، لا عقوبة ، كالنار لإبراهيم “ . (تفسير الكشاف ، 1 ، 622 - 623) .
ويمكن أن يفسر البيت تفسيرا رمزيا على أساس أن التيه رمز للعالم المادي الذي تاهت الأرواح فيه عن أصلها . وأن الرسول يرشد الأرواح في هذا التيه . وأن الاثم (وهو التعلق بلذات الدنيا ومتاعها) هو الذي يبقى الأرواح في التيه رهن البلاء .

(2485) مضمون هذا البيت شبيه بما أصاب قوم موسى حين

وقعوا في التيه ، فقد لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ (انظر شرح البيت السابق) .

(2486) استخدم موسى في هذا البيت رمزا لمحمد صلى الله عليه وسلم . وفي البيتين 2493 - 2494 تعليل لهذا الرمز .
(2487) “ الموائد “ التي كانت تنزل على بنى اسرئيل هي المن والسلوى . قال تعالى : “ وظلمنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى “ . (2 : 57) .

(2488) في البيت إشارة إلى معجزة لموسى ذكرت في القرآن الكريم . قال تعالى : “ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا “ . (2 : 60) .
(2489) إذا غضب الرسول على قومه أصابهم العذاب . ولا يقتصر هذا على ما يصيبهم في الآخرة ، بل إن بعضه قد يصيبهم في الدنيا .

(2490) “ القلبان “ هما الرضى والسخط . والرسول يرضى عن قومه إذا أحسنوا ، ويغضب عليهم ان أساؤوا . وكل انسان عرضة لحالى الرضى والسخط ، على مقتضى أفعاله .

(2493 - 2494) في هذين البيتين يعتذر الصحابي عن اتخاذ موسى رمزا للرسول في أعماله - وهو خاتم النبيين وسيد المرسلين - فيقول انه فعل ذلك لأن مدح الحاضر مدعاة للحرج . فهذا الصحابي كان يدلى بهذه الأقوال في حضرة الرسول ، فلجأ إلى الرمز ، والا فان موسى ذاته ما كان ليجيز أن يُذكر اسمه على أنه مثال للتعبير عن كمال محمد .

(2496) انتهى الكلام الموجهُ إلى الرسول في هذا البيت .

(2497) بدأ الشاعر هنا مجموعة من الأبيات ، في مناجاة الله .
فالصفات التي تضمنتها هذه الأبيات لا تصدق الا على الخالق . وليس من المستطاع أن نعرف ما إذا كان الشاعر يتحدث بهذه المناجاة حديثا

مباشرا ، أم أنه يجريها على لسان الصحابي الذي كان يكلم الرسول .
وهذا الأمر - على أية حال - لا يخلق صعوبة في فهم الأبيات .
(2507) إشارة إلى قوله تعالى : " فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم " . (2 : 37) .

(2508) يصور جلال الدين الشيطان ملاعبا لآدم على رقعة الشطرنج . وقد سبق له التعبير عن هذا المعنى بصورة لطيفة . (انظر الأبيات 129 - 131) .

(2514) انظر الآيات الكريمة : (35 : 43) ، (4 : 79) ، (41 : 46) .

(2516 - 2517) أول العلاج معرفة الداء . والشيطان وأمثاله قد أعماهم الغرور ، فأصبحوا غافلين عن حقيقة أنفسهم . ولو أنهم فطنوا لقبحها ، لكان ذلك بداية لسعيهم إلى الصلاحها .

(2518 - 2520) حين يتألم المرء لسوء حاله يكون ذلك بشيرا بمولد روحي جديد . فالأم تشعر بالألم قبل ولادة طفلها . والمريد يشعر بالألم لما فرط منه قبل انبثاق وعيه الروحي . لكنه بحاجة إلى المرشد ، ليعاونه على استنباط ذلك الوعي الروحي ، كما تحتاج الأم إلى القابلة في ولادة طفلها . وكل انسان قد انطوى قلبه على " الأمانة " ، وهي القدرة على الايمان والعلم والمحبة . لكن النفس الحسية - بامعانها في الشهوات واللذات - تحجب عن الانسان الوعي بهذه الأمانة . فالألم من سوء حال النفس هو البداية لذلك الوعي . ونصائح المرشد ضرورية لمعاونة المريد .

(2521) من لم يحس بالألم كان طاغيا وتأله ، كما فعل فرعون وأمثاله من الطغاة . وهو أيضا قاطع طريق لأنه يؤذى الأنبياء ، ويقطع على الناس سبيل الاهتداء بهديهم .

(2524) إذا كان الاعتماد في معرفة المواقيت على أصوات الطير ،

فوجب قطع رأس الطائر الذي يصيح قبل وقته ، حتى يكون هناك تحقق من صدق الاعلام . والطائر الذي يصيح قبل وقته رمز للنفس الحسية التي تدفع صاحبها إلى الغرور والاعتداد بذاته ، فيؤكد لها وجودا منفصلا عن خالقه .

(2526 - 2527) قتل النفس الحسية في الانسان شبيه باقتلاع الإبرة من العقرب ، أو الأنياب من الحية . فقتل النفس الأمارة بالسوء يهيىء للمرء النجاة بروحه . واقتلاع الإبرة أو الأنياب يبعد خطر الموت عن العقرب والحية ، وبذلك تتحقق لهما النجاة من القتل .

(2530) كل ما يتجلى في الروح فهو من الهام الخالق .

(2534) سبق للشاعر أن قدم تأويلا صوفيا لبعض آيات هذه السورة (انظر الأبيات 295 - 301) .
ويفهم من هذا البيت - على ضوء الأبيات السابقة عليه - أن الله لا يتخلى عن عبده المؤمن النقى القلب ، مهما طال بالعبد انتظارُ الهام الخالق .

(2535 - 2543) يقدم الشاعر تفسيرا لخلق الشر في هذه الأبيات فهو يقول إن خلق الله للشر دليل على كمال قدرته . فكأنه بذلك يقول إن الله هو الفنان الأعظم ، الذي يخلق الجميل ، ولا يعجز عن خلق القبيح .

(2537 - 2541) أراد جلال الدين أن يقرب إلى الأذهان معنى تجلى القدرة الكاملة في خلق الخير والشر ، فمثل لذلك بالفنان الذي يصور الجمال والقبح على السواء .
ويكون تصويره لهذا وذاك دليلا على كمال فنه . فكأن جلال الدين بذلك قد ذهب إلى أن الفن ليس مقصورا على صنع الجمال ، بل هو أيضا في القدرة على تصوير القبح .
فالفن اذن هو الخلق ، وليس مقصورا على صنع الجمال . وشاعرنا - بهذا الرأي - قد سبق شاعر الألمان جوته بمئات السنين . . فهذا

الأخير قد قال : الفن قوة مشكِّلِة قبل أن يكون جميلا . . . وحين يكون كذلك ، يكون فنا صحيحا عظيما ، أصح وأعظم من الفن الجميل .
نفسه “ . (انظر : كاسيرر : مدخل إلى فلسفه الحضارة الانسانية .
الترجمة العربية لاحسان عباس ، ومحمد يوسف نجم ، ص 246) .

(2543) انظر : المثنوى ، 1 ، 2446) .

(2544 - 2545) كل من المؤمن والكافر يكون خاضعا لله ، لكن المؤمن يخضع عن طواعية ورضى ، وأما الكافر فيخضع مكرها . قال تعالى : “ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها “ .
(13 : 15) .

(2546) الكافر قد يعمر الأرض ، ويبذل في ذلك جهده ، ولكن عمله هذا لا يكون في سبيل الله ، بل من أجل نفسه ، وغروره الذاتي .
فهو يدعى الامارة على ما هو ملك الخالق .
(2547) يظن الكافر الباغي أنه قد تملك الأرض بطغيانه . ولكن كل شئ يؤول إلى الخالق ، في نهاية الأمر . قال تعالى : “ انا نحن نرث الأرض ومن عليها والينا يرجعون “ . (19 : 40) .

(2549) الكافر القبيح الأفعال يتخذ من الجبر حجة يبرر بها سوء عمله . فهو يعزو ذلك إلى إرادة الله ، الذي لو شاء لخلقه من الأخيار الصالحين .

[شرح من بيت 2550 إلى بيت 2700]
(2550) الصالح الخير ينسب حسن فعله إلى الله ، ويشكره على ما وهبه من هداية لتجنب الأخطاء .

(2551) استأنف الشاعر من جديد قصة الرسول والصحابي المريض .

(2552) يتضمن هذا البيت نظما لآية كريمة . كان الرسول قد علم صاحبه المريض أن يدعو بها ربه ، هي قوله تعالى : “ ربنا آتنا في الدنيا

حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار " . (2 : 201) .
انظر نص الحديث في شرحنا للبيت 2141 .

(2553) " ما دمت أنت مقصدنا - أيها الخالق الكريم - فهون علينا أهوال الطريق ، واجعل طريقنا إليك لطيفا كالبستان " .

(2554 - 2555) قول الشاعر : " ألم تكن النار طريقا مشتركا " .
يشير إلى قوله تعالى : " وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا " . (19 : 71) .

(2569) في البيت اقتباس من قوله تعالى : " هل جزاء الاحسان الا الاحسان " . (55 : 60) .

(2574 - 2575) ان المحبين يحترقون بنار المحبة ، يجذبهم إليها نور وجه الحبيب ، فيندفعون نحوها كما يندفع الفراش نحو الشموع .
(2576) بدأ الشاعر هنا يوجه الخطاب إلى المريد ، ويبين فضل المرشد على المريد . فالمرشد نور يغمر المريد ، وهو مجن يقيه محنة العالم الحسى وبلاءه .

(2578) شبِّه الشاعرُ المرشد بالأفق السماوي ، والمريد بالكوكب الذي يتعلق بهذا الأفق .
(2579) عطارد كاتب الفلك ، فهو الذي يفتح دفتر الفلك ويسجل به الأحداث ، والمرشدون يفتحون لك دفتر القلب ليكشفوا لك خفى الأسرار .

(2580) دعك من الحيرة ، والتحق بذوي قرباك من أهل القلوب .
وان كنت قطعة من النور ، فالتحق بالكل الذي أنت منه .

(2581) " لماذا يكون اجتنابك للمرشدين العارفين ؟ وما هذا التخلي عنهم والا متزاج بالمخالفين ؟ "
(2582) يعبر هذا البيت عن نظرية الفيض المستمدة من الأ فلا طونية المحدثة .
يقول اخوان الصفاء : " ان الأشياء كلها بأجمعها صور وأعيان

غيريات أفاضها الباري تعالى على العقل الفعال . . . ومن العقل على النفس الكلية الفلكية التي هي نفس العالم بأسره . . . . ومن النفس الكلية .
فاضت على الهيولى الأولى . . . . ومن الهيولى على النفس الجزئية .
البشرية . . . . فمن أراد أن يعرف صور الأشياء في النفس الكلية قبل فيضها على الهيولى ، فليعتبر صور مصنوعات البشر ، كيف تكونها في نفوسهم قبل اظهارهم لها في الهيولات الموضوعة لهم في صناعتهم . . . .
ومن أراد أيضا أن يعرف كيف كانت صور الأشياء في العقل الفعال قبل فيضه على النفس الكلية ، وكيف كان قبولها تلك الرسوم والصور ، فليعتبر حال رسوم المعلومات التي في أنفس العلماء . . . . ومن أراد أيضا أن يعرف حال المعلومات في علم الباري عز وجل ، قبل فيضه على العقل ، فليعتبر حال العدد كيف كان في الواحد الذي قبل الاثنين “ . (رسائل اخوان الصفاء ، 1 ، 398 - 399) .
لقد انتقد الشاعر - في البيت السابق - اجتناب الجزء لكله ، واندفاعه إلى ما يصرفه عن هذا الكل . ثم بين في هذا البيت الصلة بين الواحد وبين الكثرة ، وكيف يتوالى الفيض حتى تتحول الأجناس إلى أنواع ، وتصير المغيبات الروحية أعيانا حسية ملموسة .

(2583) من خدعه ظاهر الحس ومغرياته عن حقيقة جوهره ، كان كالنساء يخدعهن معسول القول ، وكاذب الثناء .

(2584) هذا المغتر بالكذب والخداع ، يحرص عليهما حرصه على الذهب .

(2585) ان ما قد يلقاه المريد من تعنيف المرشد وقسوته خير له من كذب المدح وزائف الثناء .

(2596) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : “ وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون “ .
(29 : 64) .

(2604) يبدأ الشاعر هنا قصة عن معاوية وإبليس ، خلاصتها أن إبليس أيقظ معاوية في وقت الصلاة ، فشك معاوية في اخلاصه ، وظل يحاوره حتى كشف خبث سريرته ، وأنه ما قصد من ذلك إلى خير .
وقد أبدى نيكولسون شيئا من العجب إزاء اختيار الشاعر لشخصية معاوية في هذا القصة ، برغم ما عرف عن الأمويين من اقبال على الدنيا وبعد عن الزهد ، ثم التمس للشاعر عذار في ذلك ، هو أن معاوية كان من صحابة الرسول ، كما أن الرسول أيضا تزويج أخت معاوية .
ورأيي أن اختيار معاوية هنا لم يكن لمكانته في الاسلام فحسب ، وانما لما كان يعرف به معاوية من دهاء وسعة حيلة . فلقد وضع الشاعر - في القصة - داهية لا يسهل خداعه ، في مواجهة الشيطان ، فطال بذلك الحوار بين هذين المتصارعين ، واستطاع الشاعر أن يملأه بكثير من الصور الفنية الرائعة ، والمعاني التي تكشف عن قدرته في تصوير الصراع ، والتعبير عن وجهات النظر المتعارضة ، حتى ولو كان الشيطان - عدو الانسانية الأكبر - يمثل أحد الجانبين المتصارعين .
وقد أورد فروزانفر نصوصا تعبر عن الفكرة الأساسية لهذه الحكاية ، بايجاز ، وبدون أي تصوير فنى ، مما يجعل عمل جلال الدين ابداعا مستقلا لا يكاد يدين بشئ لمثل هذه النصوص . وفيما يلي مثال للصور التي وردت بها هذه القصة :
" يروى أن رجلا كان يعلن إبليس كل يوم ألف مرة . فبينما هو ذات يوم نائم إذ أتاه شخص فأيقظه وقال ، قم فان الجدار ها هو يسقط . فقال له : من أنت الذي أشفقت علىّ هذه الشفقة . فقال له :
أنا إبليس . فقال : كيف هذا وأنا ألعنك كل يوم ألف مرة . فقال : هذا لما علمت من محل الشهداء عند الله ، فخشيت أن تكون منهم فتنال معهم

ما ينالون “ . (عن قصص الأنبياء للثعلى ، ص 36 . انظر أيضا : فروزانفر : مآخذ قصص ، 72 - 73) .

(2620) “ ختن) بضم أوله وفتح ثانيه ، وآخره نون) : بلد وولاية دون كاشغر ، ووراء ، يوزكند ، وهي معدودة من بلاد تركستان .
وهي في واد بين جبال في وسط بلاد الترك ، وبعض يقول بتشديد التاء “ . (ياقوت : معجم البلدان ، مادة ختن) .

(2635 - 2637) هذه الأبيات تعبر عن معنى حديث قدسي ينقل عن الرسول أنه روى عن الله قوله : “ انما خلقت الخلق ليربحوا علىّ ، ولم أخلقهم لأربح عليهم “ .

(2640) يجادل إبليس قائلا : “ انه لا ينظر إلى سبب ضلاله ، وهو عصيان الخالق بالامتناع عن السجود لآدم ، والا إلى الجزاء الذي وقع من جراء هذا العصيان ، وهو غضب الخالق .

(2641) الخالق لطيف رحيم ، سبقت رحمته على غضبه . وإبليس ينظر إلى ذلك اللطف الأزلي ، ولا يصرفه عن ذلك ما أصابه من غضب الله نتيجة لعصيانه . ان العصيان حادث ولا اعتبار للحادث إذا قيس بالأزلىّ .

(2642 - 2644) ساق الشاعر على لسان إبليس حجة أخرى يعتذر بها عن عصيانه ، خلاصتها أن هذا العصيان جاء نتيجة لحبه للخالق ، وحرصه على أن يكون التقديس له وحده ، وغيرته من أن يظفر آدم بمنزلة تفوق ما كان لا بليس من منزلة عند الخالق .

(2645) يقول إبليس : “ ان الخالق قد قدر على العصيان منذ الأزل ، ولهذا لهم يكن في وسعى أن أفعل سوى ذلك “ . (انظر : المثنوى ، 1 ، 1488) .

(2647) يدعى إبليس أنه - برغم ما يقاسيه من قهر وخذلان - ينعم بالمحبة الإلهية .

(2648) " الجهات الست " رمز للحواس الخمس . والحس المشترك ، (وهو الحس الذي تُدرك به الصورة) . والمراد أن التخلص من سلطان الحواس الست أمر بالغ العسر . وقد شُبهت الحواس الست بالأقسام الستة في لوحة النرد ، فالوقوع تحت سلطان الحواس يحدث الهزيمة ، وكذلك احتباس أحجاز لا عب النرد في " الخانات " الست يؤدى إلى هزيمته .
وحاصل المعنى أن المراء لا يستطيع أن يجرى في ستة اتجاهات في وقت واحد .
وحديث إبليس هنا يبدو وكأنه صادر عن انسان ذي حواس . ولا غرابة في ذلك ، فأسير الحواس عند الصوفية صنو إبليس .

(2649) أعتقد أن المقصود " بجزء الستة " هنا هو الحس المشترك (الذي تُدرك به الصور) . فمثل هذا الحس لا يصلح سبيلا إلى معرفة روحية ، ما دام يستمد كل مدركاته من الحواس . فلا قدرة لهذا الحس المشترك على التخلص من سلطان العالم الحسى .

(2650) كل من كان واقعا تحت السلطان الحواس فهو في جحيم لا يخلصه منه سوى الخالق القدير .

(2658) شبه معارف إبليس بالصفير الذي يحدثه الصياد ليوقع الطيور . فالناس ينخدعون بحديث إبليس ، كما تنخدع الطيور بصفير الصياد .

(2661) ان سيطرة الشيطان على قوم نوح جعلت هؤلاء يعصون نبيهم هذا ، فحل بهم غضب الله وأغرقهم الطوفان .

(2662) انظر : المثنوى ، 1 ، 854 - 855 وشرحهما .

(2663) في البيت إشارة إلى قصة قوم لوط ، وكيف هلكوا من جراء ما كانوا يتعلقون به من الآثام . قال تعالى : " وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل " . (15 : 74) . وقال أيضا : " وأمطرنا عليهم مطرا فساء

مطر المنذرين " . (26 : 173) . ولقد كان هلاك قوم لوط بحجارة أمطرتها عليهم السماء . أما وصف الشاعر لقوم لوط بأنهم " غرقوا في المياه السوادء " ، فلعل ذلك إشارة إلى ما أصابهم من عمى ، جاء ذكره في قوله تعالى : " ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم " . (54 : 37) .

(2664) انظر المثنوى ، 1 ، 1189 وشرحه .

(2665) فرعون ، الملك الذكي القادر ، صار عديم الفهم من جراء مكر الشيطان ، فلم يستمع إلى رسالة السماء .

(2666) أبو لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب ، عم الرسول .
كان من أشد أقرباء الرسول عداوة له . يقول البلاذري : " لما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم : " وأنذر عشيرتك الأقربين " (26 : 214) ، اشتد ذلك عليه ، وضاق به ذرعا ، فمكث شهرا أو نحوه جالسا في بيته ، حتى ظن عماتُه أنه شاك ، فدخلن عليه عائدات . فقال : ما اشتكيت شيئا ، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، فأردت جمع بنى عبد المطلب لأدعوهم إلى الله . قلن فادعوهم ، ولا تجعل عبد العزى فهيم - يعنين أبا لهب - فإنه غير مجيبك إلى ما تدعوه اليه " . وتاريخ أبى لهب وامرأته ابان الدعوة حافل بالكيد والعداء المرير لرسول الله .
وقد نزلت في ذمهما سورة من القرآن الكريم ، وهي سورة المسد ، (111) أما أبو جهل ، فهو أبو الحكم عمرو بن هشام ، وكان من أشد الكفار عداء للرسول .)
(انظر : المثنوى ، 1 ، 2154 - 2160 ، والشرح)

(2670) في البيت إشارة إلى قوله تعالى (حكاية عن ابن نوح) :
" قال سآوى إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم " . (11 : 43) . العصمة وحدها هي التي تنجى الانسان من مكر الشيطان ، كما كانت رحمة الله هي المنقذ الوحيد يوم طوفان نوح .

(2672) يدعى إبليس أنه محك لتمييز الخير من الشر . وهو بهذا يجعل نفسه على مستوى الأنبياء . (انظر المثنوى ، 2 ، 284 - 287) .
وإبليس - من هذه الناحية - محك سلبىّ فهو يدعو إلى الشر ، وبهذا يتبين الشرير من الخير ، على العكس من الأنبياء ، فهم يدعون إلى الخير ، فيتميز الخير من الشرير .

(2674) " ليس الشر من صنعي ، بل هو كامن في النفوس التي تستجيب لي . وقيمة هذه النفوس تظهر على حقيقتها باستجابتها لي ، فكأنما أنا صير في حدد قيمتها . "
(2675) الشيطان يظهر السبيل للطيبين ، فهو يجعلهم شهودا لما حاق بالعصاة الهالكين من سوء المصير . وهو الذي يقود العصاة إلى نهايتهم .

(2676) " ألوان العلف " ، هي ألوان المعزيات التي يظهرها إبليس للناس .

(2682) الأبتر هو من لا يكون له أثر من نسل ولا ذكر حسن .
والمقصود هنا أن من عاش حياة حسية ، فلن يكون لحياته أثر ، فكل ما هو حسى فمآله إلى الفناء .

(2684) ان الخير والشر - برغم اختلافهما - يقومان بعمل واحد ، هو التمييز بين الأخيار والأشرار . فكما يُظهر الأنبياء الأخيار من الأشرار ، كذلك يظهر الشيطان الأشرار وهم الذين يلبون نداءه ، والأخيار وهم الذين لا يستجيبون لاغرائه .

(2686 - 2687) في هذين البيتين يتضح الفرق بين فكرة الشيطان في الاسلام وسائر الأديان السماوية من جهة ، وبين تلك الفكرة في الأديان الثنوية من جهة أخرى . فبينما تؤمن الأديان الثنوية بقدرة الشيطان على الخلق ، ومقاومته لإرادة الله ، تنفى الأديان السماوية عن الشيطان القدرة على الخلق ، وتنفى عنه أية قدرة على مشاركة الله في ملكه .

(2688) إشارة إلى حكاية صغيرة وردت بصور متعددة في مصادر أخرى . (انظر : فروزانفر : مآخذ قصص وتمثيلات ، ص 74) . وتعبر احدى الروايات العربية عن هذه القصة كما يلي : " ومر أعرابي بمرآة ملقاة في مزبلة ، فنظر وجهه فيها ، فإذا هو سمج بغيض ، فرمى بها ، وقال : ما طرحك أهلك من خير " .

(2690) هنا يعود إبليس إلى ادعاء صفات لنفسه شبيهة بصفات الأنبياء . فالنبي هو الشاهد على الخلق ، وليس إبليس .

(2692) يدعى إبليس أنه يقتلع الفساد من الأرض حتى يسودها الصلاح !

(2693 - 2696) الشجرة الذابلة هنا رمز لا ستقامة الظاهر وفساد الباطن . فهذه الشجرة تقف مستقيمة كغيرها من الأشجار لكنها في الحقيقة ذابلة جافة . واستقامتها الظاهرية لا تشفع لها في البقاء ، بل إن البستاني يستأصلها . وهكذا حال من استقام ظاهرهم ، وفسد باطنهم .

[شرح من بيت 2700 إلى بيت 2850]

(2702 - 2703) ان إبليس يدور حول الانسان ، متظاهرا بأنه يريد مؤازرته ، على حين أنه لا يريد له الا الهلاك . فهو مثل قاطع الطريق ، يسلب ، ولا يشترى . وان تظاهر بالشراء كان ذلك كيدا وخداعا .

(2706) " ان لم تأخذ بيدي غدوتُ مجللا بسواد الاثم والخطيئة " .

(2708) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : " وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة " . (2 : 31) .
فآدم - وهو الذي تعلم من الحق - وقع ضحية لخداع إبليس .

(2710) في البيت إشارة إلى قصة سقوط آدم وندمه . قال تعالى حكاية عن آدم وزوجه : " قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين " . (7 : 23 " .

(2718 - 2720) يقول إبليس : " ان النفس الأمارة بالسوء تقود

الانسان إلى ارتكاب الخطايا ، حتى يسوء من جراء ذلك حاله . وهو يلعن إبليس ويعزو اليه ما أصابه ، والواقع أن نفسه هي التي جلبت عليه الوبال ، وهو غافل عن خداعها .

(2722) يشير البيت إلى معنى المثل القائل : " ألية في برية ما هي الا لبلية " " 1 " . فأذناب الخراف كانت توضع في أشراك لاصطياد الوحوش الكاسرة .

(2724) في الشطر الأول من هذا البيت نظم لمثل عربى معروف نصه : " حبك الشئ يعمى ويصم " " 2 " .
(2726) " انى منتظر أن يكشف الله عنى ما غشينى من ليل الاثم والخطيئة " .

[شرح من بيت 2850 إلى بيت 3000]

(2758) يقول معاوية لا بليس : " هأنذا قد كشفت زيفك وألزمتك الحجة ، فلتقل الصدق . . . " .

(2765) قول الشاعر : " فنطق إبليس من تحت أسنانه " ، يعنى أن إبليس أرغم على البوح بسره .

(2770) " ان احساس العبد بالحسرة على فرض فاته أداؤه ، وأساه المنبثق من اخلاص روحه ، ربما كانا معا يعدل عند الله مائة صلاة " .
هذا هو المعنى الذي عبر عنه البيت . وهو مرتبط بنصوص صوفية سابقة . ومن أمثلة ذلك ما نقله أبو نعيم الاصفهاني . قال : " ان الشيطان يزين للعبد الذنب حتى يكسبه ، فإذا كسبه تبرأ منه ، ولا يزال العبد يبكى منه ويتضرع إلى ربه ، ويستكين ، حتى يغفر له ذلك الذنب وما قلبه ، فيندم الشيطان على ذلك الذنب ، حين أكسبه إياه ، فغفر له الذنب وما قلبه " . (حلية الأولياء ، 3 ، 335) . وقال أيضا : " ان

....
(1) الميداني : مجمع الأمثال ، ج 1 ، ص 122 .
(2) المصدر السابق ، ج 1 ، ص 273 .

العبد ليعمل الذنب ، فإذا ذكره أحزنه ، فإذا نظر الله عز وجل اليه قد أحزنه ، غفر له ما صنع ، قبل أن يأخذ في كفارته ، بلا صلاة ولا صيام " .
ومما يجب الاتنباه اليه هنا أن التقصرى الذي يُقابل بمثل هذا الغفران هو تقصير غير مقصود ، كالنوم حتى يفوت موعد الصلاة ، كما هو واضح من قصة إبليس ومعاوية ، في رواية الشاعر ، وكما يتضح أيضا من القصة التي يرويها الشاعر في الأبيات التالية (2771 - 2779) .

(2788) " انني روح مأمنة ، لا يتملكنى سوى الحق ، فأنا كالباز الأبيض ، لا يصيدنى الا المليك ، وليس لصياد الذباب قدرة على اصطيادى " . وصياد الذباب هنا رمز للشيطان ، كما أن تشبيه ضعاف النفوس المتهالكين بالذباب يصور هؤلاء تصويرا رائعا ، يعبر عن ضعفهم وتراميمهم ، تهالكهم على اللذات المهلكة ، وسرعة هلاكهم ، ثم زوالهم الكامل .

(2793 - 2807) ساق الشاعر في هذه الأبيات قصة يمثل بها لخداع الشيطان الذي يصرف الانسان من الحقيقة إلى الوهم . ففي القصة نرى رجال يطارد لصا حتى يوشك على الامساك به ، فيناديه لص آخر بطريقة مثيرة ، فيتراخى في القبض على اللص ، ويتجه نحو المنادى ، وهناك يخبره اللص الآخر بأنه يريد أن يريه آثار قدمي اللص الهارب .
وقد استطرد الشاعر من هذه القصة إلى الحديث عن " العلم اليقيني " وهو - في نظره - العرفان الصوفي ، و " العلم الوهمي " ، ويقصد به علم الكلام وما شاكله .

(2811) العلم الدنيوي مرتبط بالحس ، أما العلم اليقيني فقد تحرر من الحس .

(2812) يشير الشاعر في هذا البيت إلى درجات ثلاث من المعرفة .
أولاها ادراك الصنع ، وهذا ما نتيجة للانسان معارف الحس . والثانية

معرفة الصفات الإلهية ، وتلك هي ألأسباب الكامنة وراء الصنع ، فمثل هذه المعرفة تشغل المتكلمين ، الذين يقفون عند حد الأسباب والعلل .
وأما الثالثة فهي معرفة الذات ، وهي التي ينشدها الصوفية العارفون .
وقد يفهم البيت على أساس ترجمة أخرى يسمح بها النص وهي : " ان المحجوب (عن الذات) يرى أن الصنع (ينبثق) من الصفات ، فمن أضاع الذات ، يتلعق بالصفات " . (فالمعنى - على أساس هذه الترجمة - يشير إلى أن هناك نوعين من المعرفة ، أحدهما هو الفكر العقلي القائم على الأسباب والعلل ، وثانيهما هو العرفان الروحي ، المستند إلى الذات الإلهية وحدها .

(2813) " الواصلوان الغارفون في الذات " هم الصوفية . وهؤلاء قد ركزوا نظرهم في الذات ، فصرفهم ذلك عن الصفات . فعندهم أن من عرف مسبب الأسباب ، هانت عليه معرفة الأسباب .

(2814) من غاص إلى أعمق أعماق العرفان لم تعد تهمه القشور ، فهو كمن غاص إلى قاع البحر ، فلم يعد بصره متعلقا بلون الماء .

(2815) من أدرك العلم اليقيني ، ثم عاد منه إلى بحث الأسباب والعلل ، فهو شبيه بمن أخذ ثوبا خشنا لقاء فراء .

(2816) كل انسان تكون عبادته على قدر عرفانه وادراكه . فطاعة العوام - التي تقتصر على أداء الفروض من غير ادراك لجوهرها ومعناها - تُعد اثما في نظر الخواص . وما يحسبه العوام كشفا إليها ، وشهودا روحيا ، فهو عند العارفين حجاب .

(2817) ان من وصل إلى مقام القرب ، ثم هبط إلى منزلة أدنى من ذلك ، يشبه من كان وزيرا ثم جعله الملك محتسبا .

(2818) يُذكر في تفسير هذا البيت قوله تعالى : " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " . (13 : 11) .

(2821 - 2824) في هذه الأبيات تعبير عن قدرة الانسان على

تحديد مصيره بعمله . فيجب على المرء ألا يعزو ما يحيق به من سوء المصير إلى ما يسمى عادة " بالقسمة " أو " النصيب " بل عليه أن ينظر إلى عمله ، ويلتمس فيه تفسيرا لمصيره .
ويؤيد معنى هذه الأبيات قوله تعالى : " ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك يبدأ من سيئة فمن نفسك " . (4 : 79) .

(2825) يبدأ الشاعر هنا قصة " مسجد الضرار " . وقد أشار إليها القرآن الكريم ، في قوله تعالى : " والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون . لا تقُم فيه أبدا المسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطِّهرين " . (9 : 107 - 108) .
وقصة مسجد الضرار مشهورة . وقد وردت في كافة كتب التفسير بصور متقاربة .
وننقل فيما يلي نصا لهذه القصة عن ابن فضل الله العمرى في كتابه مسالك الأبصار (ج 1 ، ص 129 - 130) .
" روى أن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء - وكان يأتيهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويصلى فيه - حسدهم اخوتهم بنو غنم بن عوف . وقالوا : نبنى مسجدا ونرسل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصلى فيه ، ويصلى فيه أبو عامر الراهب ، إذا قدم من الشام ، ليثبت لهم الفضل والزيادة على اخواتهم . زعموا .
وأبو عامر هو الذي سما النبي (صلى الله عليه وسلم) الفاسق . وقال لرسول الله : لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم . فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين .
فلما انهزمت هوازن خرج هاربا إلى الشام . وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، فانى ذاهب إلى قيصر ، وآت بجنود ، ومخرج محمدا وأصحابه من المدينة " .
أما القسم الذي صوره جلال الدين من هذه القصة فهو ما يلي :

" فبنوا مسجد الضرار إلى جانب مسجده قباء ، وقالوا للنبي :
بنينا مسجدا الذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية . ونحن نجب .
أن تصلى لنا فيه ، وتدعوا لنا بالبركة " . فقال (صلى الله عليه وسلم) :
" انى على جناح سفر وحال شغل . وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه " .
فلما قفل من غزوة تبوك ، سألوه اتيان المسجد ، فنزل قوله (تعالى) :
" والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا " إلى قوله : " لا تقم فيه أبدا " . فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشى قاتل حمزة ، فقال لهم : " انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدموه واحرقوه " . ففعلوا . وأمر أن يُجعل مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة " .

(2829) قول الشاعر : " وزينوا أرضه وسقفه وقبته . . . " ، يجب ألا يؤخذ على معناه الحرفي ، ففن انشاء القباب لم يكن قد انتقل إلى الحجاز في عهد الرسول .

(2831 - 2833) جاء في قصة " مسجد الضرار " أن المنافقين خاطبوا الرسول قائلين : " بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة ، والليلة المطيرة والشاتية ، ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعوا لنا بالبركة " .
(انظر القصة في شرح البيت 2825 من هذا الكتاب) " .

(2835) قول الشاعر : " وان صحبة الاخوان لتجعل المر حلوا " ، قد بدا لبعض الشراح محتاجا إلى التأويل ، لأنهم فهموا من قوله " تجعل المرا حلوا " أن الجماعة تخفف مرارة العبادة . والواقع أنه لا داعى لهذا التأويل ، وينبغي أن يفهم هذا القول على معناه الحرفي بدون تأويل ، فتزول بذلك الصعوبة في فهمه . وما دامت صحبة الاخوان تجعل المر حلوا ، فمن الطبيعي أنها تزيد الحلو حلاوة . فالعبادة تزداد بالجماعة حلاوة وتأثيرا في النفس .

(2840 - 2843) من الصور الرائعة في هذه الأبيات تشبيه اللطف الذي ينطق به اللسان - بدون اخلاص من القلب - بالخضرة فوق رماد المواقد ، وكذلك تصوير اللطف الزائف بأنه جسر مهدم ، لا يمكن الركون اليه .

(2854 - 2856) تعبر هذه الأبيات عن معنى الحديث الذي يروى عن الرسول قوله : “ انما مثلي ومثل أمتي كرجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش تفعن فيها وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون “ .
(انظر : المنهج القوى ، 2 ، 557) .

(2860) قول الشاعر : “ لقد بنوا مسجدا على جسر النار “ ، مقتبس بمعناه من قوله تعالى : “ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين “ . (9 : 109) .

(2861) جاء في مسالك الأبصار للعمرى (ص 130) نص يروى عن عطاء قوله : “ لما فتح الله الأمصار على عمر أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأن لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضارّ أحدهما صاحبه “ .

(2862) المقصود باليهودي في هذا البيت هو أبو عامر الراهب .
(انظر قصة مسجد الضرار ، شرح البيت 2825 من هذا الكتاب) .

(2863 - 2864) انظر من قول الرسول في قصة مسجد الضرار .
شرح البيت 2825 .

(2872) قال تعالى : “ اتخذوا أيمانهم جنة “ . (58 : 16) ، (63 : 2) . والجُنَّة هي الوقاية . فهؤلاء المنافقون قد احتموا بالأيمان الكاذبة ، واستتروا وراءها .

(2883 - 2884) إشارة إلى قوله تعالى : “ فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى انى أنا الله رب العالمين “ . (28 : 30) .

(2903) يشير الشاعر هنا إلى " القليس " وهي كنيسة بناها أبرهة ، القائد الحبشي الذي فتح اليمن ، قبل ظهور الاسلام بفترة وجيزة .
يقول ياقوت : " وكان أبرهة قد استذل أهل اليمن في بنيان هذه الكنيسة ، وجشمهم فيها أنواعا من السخرة ، وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس ، صاحبة سليمان ، عليه السلام ، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ . . . . ونصب فيها صلبانا من الذهب والفضة ونابر من العاج والأنبوس . . . ولما استتم أبرهة بنيان القليس كتب إلى النجاشي : انى قد بيت لك - أيها الملك - كنيسة لم يُبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب " . (معجم البلدان ، 4 ، 394 - 395) .
ويقال إن رجلا من العرب غضب - حين سمع بذلك - وتوجه إلى الكنيسة ، ودخلها ولوثها . فلما علم بذلك أبرهة ، جهز جيشا وسار لهدم الكعبة ، فكانت قصة الفيل التي رواها القرآن الكريم . (انظر : المصدر السابق) .

(2911) الجمل الضال في القصة رمز للحكمة الروحية التي ينشدها المريد ، فالحكمة ضالة المؤمن .

(2915 - 2922) ان ملتمس الحكمة عند علماء الدنيا شبيه بمن أضاع جملا ، ثم أخذ يسأل عنه العوام ، فكان كل منهم يدله عليه ، بأسلوب يخالف أسلوب الآخرين ، طمعا في مكافأته . فهذا التناقض في الارشاد إلى الجمل الضائع ، شبيه بتناقض الباحثين في الارشاد إلى الحقيقة ، وبخاصة حين يكون هؤلاء من علماء الحس . ويتبين مغزى هذه الصورة في أبيات تالية . (2923 - 2926) .

(2926) " كل منهم يشير إلى الحقيقة بأقوال توهم أنه عارف بها ، عليهم بجوانبها " .

(2927) هؤلاء الباحثون الضالون يطلبون الحق ، فيهتدون إلى باطل يحسبونه حقا .

(2928) لا أحد يطلب الباطل لذاته . فالذين يقبلون النقد الزائف يكون قبولهم له على أساس أنه نقد صحيح .

(2931) المستقيم السوىّ يسوغ للأعوج وجوده . فالجاهل يتقبل الأعوج ، على أنه مستقيم ، والجهل هو الذي يجعل الأعوج مستقيما في نظره . ان الأمل في الصالح يسوغ قبول الطالح ، كما يجعل السكرُ السم سائغا لمن يجعل حقيقته .

(2935) لقد احتجبت الحقيقة بين الأباطيل ، كما احتجبت ليلة القدر بين الليالي . واحتجاب الحقيقة بين الأباطيل يلقى على الروح مسؤولية اكتشافها ، وكذلك الحال بالنسبة لليلة القدر . فمن المعروف أنها احدى الليالي العشر الأخيرة من شهر رمضان . فالروح التي تطمع إلى اكتشافها قمينة بأن تسهر الليالي لعلها تصادفها . وقد ذكرت ليلة القدر في القرآن الكريم على أنها الليلة التي بدأ فيها نزول القرآن الكريم . قال تعالى : " انا أنزلناه في ليلة القدر " .
(97 : 1) .

(2937) بين المتظاهرين بالزهد يكون هناك زاهد صادق . والبحث الدائب هو الذي يهدى إلى حقيقة مثل هذا الزاهد .

(2939) من مزايا وجود الباطل أنه محك لقدرة الروح على اكتشاف الحق . فلو لم توجد في هذه الدنيا سلع معيبة لكان من الميسور لجميع البله أن يصبحوا تجارا .

(2943) تجارة الأنبياء ذات طبيعة روحية ، وهي تحقق ربحا جوهريا . أما تجارة الحس فلا تجيء بربح حقيقي . وقول الشاعر :
" تجار الألوان والروائح " يرمز للمتعلقين بالمادة ، المنصرفين إلى لذات الحس .

(2946 - 2947) بدأ الشاعر هنا يتحدث عن وجوب امتحان كل شئ حتى يظهر ما فيه من خير ومن شر . فما دامت الحقيقة قد اختلطت بالباطل ، فهذا البحث واجب على كل روح يطمع إلى اليقين .
وقد ضرب - في هذين البيتين - مثلا بالسموات التي يتجلى فيها كمال خلق الله ، وبرغم ذلك ، أمرنا الخالق أن نظر إليها فاحصين .
قال تعالى : “ الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير “ . (67 : 3 - 4) .
فهذه الدعوة إلى النظر والتأمل في السماوات لا دراك ما فيها من احكام الخلق ، تبين لنا مدى ما نحتاج اليه من نظر ثاقب لا جتلاء حقيقة ما نلاقيه في هذا العالم الحسى .

(2951 - 2964) اتخذ الشاعر من الأرض ، وما تُمتحن به من عوارض ، مثلا للانسان . فالأرض تنطوى على كثير من ألوان الجمال :
انها تبدو في ظاهرها ترابية كالحة ، لكن معدنها ينبت الأزهار والرياحين وطيب الثمار . ولا بد من الربيع والخريف ، والحرّ والبرد ، والبرق والرعد ، لكي يُستخلص من هذه الأرض الترابية ما تنطوى عليه من أنوان الجمال . وهكذا الحال بالنسبة للانسان . فهو يتعرض لألوان متعددة من البلاء تظهر حقيقة جوهره ، وتبين ما كمن في ذاته من صفات الكمال .

(2957) “ مخاطبة الأرض بقول لطيف كالسكر “ كناية عن الربيع ، والاعتدال ، أما “ تعليقها في الهواء “ فكناية عن الرياح التي تعصف بها ، فتثير غبارها ، وتجلعه معلقا بالهواء .

(2963 - 2964) يعبر الشاعر هنا عن معنى قوله تعالى :
“ ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين “ . (2 : 155) .

(2965) أطلق الله الوحد والوعيد ليفصل بين الخير والشر اللذين امتزجا باذنه .

(2969 - 2972) صور الشاعر المحك الصادق لاختبار ، الحقائق - وهو العرفان الحق - فاتخذ من قصة موسى في طفولته مثالا لذلك .
فموسى كان قد عرف حليب أمه ، فلم يتقبل سواه . وكل من شربت روحه من حليب اليقين يوم حشد الله الأرواح قبل خلق هذا العالم بقي لها مذاق اليقين ، ورزقت القدرة على ادراكه . فمن كان حريصا على سلامة ادراكه فليغذ قلبه باليقين ليعرف مذاقه ، كما غذت أم موسى طفلها موسى بالحليب ، فعرفها ، ورفض سواها من المراضع .

(2969) من تلقى العرفان الحقيقي من مرشد صادق ، خاض غمار هذه الحياة ، بدون أن يتعرض لمخاطرها ، كما كان من أمر موسى حين ألقى في اليم وهو طفل ، ومع ذلك سلم من أخطاره .

(2970) من أتيح له أن يتذوق العرفان الحق - يوم أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم - قبل خلق هذا العالم ، فهو يستطيع تمييز العرفان الصادق ابان وجوده في هذه الحياة ، لأنه يُذكرِّه بما سبق أن تذوقته روحه قبل خلق العالم .

(2972) من تلقى الارشاد من مرشد عارف ، أدرك منذ البداية مذاق العرفان الصادق ، ولم يكن عرضة لا لتماس معارف الحس ، عند أصحابها من علماء الحس المغرورين الجهلاء .

(2973) عاد الشاعر هنا إلى مثال الرجل الذي أضاع جملا . (انظر الأبيات 2915 - 2922 ، وشرحها) .

(2975) عالم الحس يمارى ويجادل ، ويتظاهر بالبحث عن الحقيقة ، في حين أنه لا يبحث عن شئ .

(2976) أسلوب هذا العالم الحسيّ هو التقليد . فهو يردد ما يقوله العارفون المخلصون من طلاب الحقيقة .

(2982) قول الشاعر : “ يغدو جسدك نفسا ، ونفسك روحا “ ، يعنى أن من تلقى الالهام الروحي تسمو حواسه من مستواها المادي إلى مستوى معنوي هو مستوى النفس ، كما تسمو نفسه من مستواها الانفعالي إلى مستوى الروح في تساميها وتجردها .

(2983) “ الأمين “ هو العارف الذي يكشف الحقيقة لطالب العرفان .

(2985 - 2986) طالب العرفان لا يطول به الوقت حتى يكشف صدق المرشد ، واحاطته بجوهر الحقيقة وسرعان ما يقتفى أثره ، ملتمسا تحقيق العرفان لروحه ، بمعونة هذا المرشد العارف .

(2987 - 2998) قد يتحقق للمقلد وصول إلى جوهر الحقيقة ، إذا اقتفى أثر المحققين ، واستعار قبسا من حرارة صدقهم . فهو من بداية أمره يدعى أنه مثلهم طالب للحقيقة ، لكنه سرعان ما يدرك اخلاصهم في الطلب ، وإذ ذاك يفطن إلى أنه أيضا يبحث مثلهم عن ضالة ، هي الحكمة الحقيقة . وبجده واخلاصه يصل هو أيضا إلى الحقيقة ، فيلتقى حينذاك مع العارفين .

(2988) المقلِّد لا يفيد من تقليد المحقق الا بمقدار ما يعتقده من صدق هذا المحقق .

(2989) اخلاص المحقق ، وحرارة يقينه ، ينبهان المقلد ، فيفطن إلى طريق الحقيقة .

(2990) الفطنة إلى طريق الحقيقة - التي يقتبسها المقلد من العارف - تنبهه أيضا إلى أن له ضالة ينشدها ، شبيهة بما ينشده هذا العارف .

(2991) “ الطمع في جمل الغير “ رمز إلى الطمع في الوصول إلى الحقيقة من غير طريقها . فالمقلد يظن أنه قادر على كشف الحقيقة عن طريق التقليد .

(2992) قد يؤدى تقليد المقلد للمحقق إلى أن يصبح هذا شريكا لذاك في عناء الطلب والبحث والتحري .

(2993) اقتفاء المقلد للمحقق قد ينتهي بالمقلد إلى أن يصبح هو أيضا من أهل التحقيق . وتلك حال شبيهة بحال الكاذب الذي يصحب صادقا ، ويقتنفى أثره ، فيصبح كذبه - من جراء ذلك - صدقا .

(2994) عثر المقلِّد - بعد أن جعله الاجتهاد من أهل التحقيق - على الحقيقة ، وسط متاهات الخيال والأوهام .

(2995) حينما اهتدى هذا المقلد إلى الحقيقة ، بعد ان سلك سبيل أهل التحقيق ، أدرك أنها هي الهدف الذي كان يسعى لادراكه ، واطمأنت روحه إليها ، وبرئت من المراء والجدال والطمع .

(2996) كانت المجاهذة سبيل شهود الحقيقة . وبشهودها أصبح المقلد محقِّقا .
(2997) شهود الحقيقة جعل السالك المقلِّد طالبا لها .

(2998) شهود الحقيقة فتح عين السالك المقلد على نور جديد ، ترك كل ما عداه ، وتوجه نحوه .

(2999) يستاءل المحقق في هذا البيت عما دعا السالك المقلِّد إلى تركه ، وكان من قبل يقتفى أثره .

[شرح من بيت 3000 إلى بيت 3150]

(3000) يكشف المقلِّد عن الدافع الذي دفعه إلى اقتفاء أثر المحقق .
ولم يكن هذا سوى الطمع ، إذ لم يكن في بداية أمره قد عرف الاخلاص في الطلب ، والصدق في المجاهدة .
(3001) وحدة السلوك الروحي توحد بين السالكين وان تفرقت الأجساد ، وذلك على العكس من التفاء الناس بأجسادهم ، فمثل هذا اللقاء لا يترتب عليه وحدة هدف ولا غاية .
(3002) يذكر المقلد أن معرفته التقليدية كانت أوهاما مستقاة من عرفان الغير ، أما شهود الحقيقة فقد ملأ عليه نفسه .
(3004) تبين للسالك المقلد أن هذا العرفان الذي تكشف له ، أسمى وأنبل بكثير مما كان يطلب . انه شئ لم يكن يخطر له على بال . كان

طلبه على مستوى نفسه ذات المعدن الخسيس ، لكن هذه النفس قد أصبح معدنها كالذهب بفضل إكسير العرفان .

(3006 - 3007) " المجاهدة والسعي توصل المقلد إلى الصدق واليقين اللذين يتحلى بهما المحقق . لكن الطلب لا ينتهى عند بلوغ مرتبة التحقيق . فاليقين موقف يقتضى دوام الطلب ، طلب الروح لخالقها ، وسعيها اليه " .
في رأيي أنه يجب المتييز بين طلب السالك المقلد ، ليصل إلى منزلة التحقيق ، وبين طلب المحقق ، الذي أشرقت روحه باليقين .
وقد نقل نيكولسون عن الهجويرى نصا يفهم منه أن الصدق والطلب مقترنان ، فلا صدق الا ويقترن بطلب ، ولا طلب الا ويقترن بالصدق . وأعتقد أن هذا النص يتعلق بالعارف المحقِّق وحده ، وليس بالسالك الساعي إلى التحقيق .

(3008 - 3009) يشبه السالك مجاهدة النفس ، وما لاقاه فيها من عناء ، بشق الأرض وزراعتها . وكان - لشدة عنائه - يظن ذلك العمل من قبيل السخرة التي لن يؤجر عليها ، فإذا به يحقق له أعظم الكسب ، وإذا بكل حبة قد أنبتت مائة حبة .

(3010) " اللص " رمز للمقلد الذي كان يسرق لغة العارفين . وهو الذي اقتفى أثر العارفين ، فأصبح عارفا . فكان اليقين الذي اطمأنت اليه نفسه - على غير توقع منها لذلك - شبيها بمنزل تسلل اليه أحد اللصوص ، ثم تبين له أن المنزل منزله .

(3011) في هذا البيت دعوة للمقلد إلى أن يستشعر حرارة اليقين ، فلعلها تخلصه من برودة تقليده ، وإلى أن يصير على عناء السعي والمجاهدة ، فلعل ذلك العناء ينتهى به إلى راحة اليقين .

(3012) الحقيقة واحدة ، وان اختلفت سبل السالكين ، الساعين إليها .

(3013) إشارة إلى حديث يروى عن الرسول قوله : " من عرف الله كلّ لسانه " .

(3014) ان الحديث عن المعاني الروحية لا يعبر الا عن لمحات قليلة من حقيقتها ، فهو كالاصطرلاب فيما ينبئ به من معلومات عن الفلك والشمس .

(3015) سبر أغوار هذا الفلك وشمسه لا يعد شيئا بالقياس إلى سبر أغوار فلك الروح وشمسها . فهذا الفلك - بالقياس إلى فلك الروح - كالفراشة ، وشمسه - بالقياس إلى شمس الروح - كأنها ذرة .

(3017) مما روى من أخبار مسجد الضرار أن الرسول أمر بأن يهدم ، ويجعل مكانه كناسة تُلقى فيها الجيف والقمامة . (انظر القصة في تعليقنا على البيت 2825) .

(3018) المقصود " بصاحب المسجد " أبو عامر الراهب . (انظر شرح البيتين 2825 ، 2826) .

(3022) لكل شئ ظاهر وحقيقة . والأصل في تقدير الأشياء حقيقتها . وفي عالم الحقائق توجد فروق وفصول شبيهة بما يكون في عالم الظاهر من فروق وفصول ، لكن الفروق في عالم الحقائق تكون أصدق ، وأكثر اقترانا بالصواب . وينطبق هذا على حقائق الناس التي قد لا تكون مقفقة مع ظواهرهم .

(3025) " بناء مسجد الضرار " رمز للنفاق .

(3035) الانسان مزيج من الحس والروح ، والحس ينتمى لعالم العيب والخطايا ، وأما الروح فتنتمى لعالم الغيب .

(3039) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : " ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون " . (41 : 30) .
فما دام المؤمنون من أهل الاستقامة بحاجة إلى أن يطمئنهم الملائكة ،

فيجب ألا يغتر الانسان بعمله ، ويحسب أنه قد خلا من العيوب ، وتحقق له حسن الجزاء . سئل الجنيد عن الخوف فقال : " هو توقع العقوبة على مجارى الأنفاس " .

(3042) على الانسان ألا يصاب بالغرور لقيامه بعمل صالح ، يرجو من ورائه الشهرة والتظاهر ، بل إن عليه أن يكون خائفا حذرا من ارتكاب الاثم .

(3046) الأتراك الغز شعب من شعب آسيا الوسطى ، بدؤوا غاراتهم على خراسان منذ أوائل القرن الخامس الهجري . وقد اشتهرت من بينهم قبيلة قوية هي قبيلة السلاجقة التي استطاعت أن تقيم في القرآن الخامس الهجريّ دولة السلامية عظيمة سيطرت على غرب آسيا .

(3055 - 3058) عالج الشاعر هذه الفكرة من قبل في قصة " الأسد والذئب والثعلب " . (انظر : مثنوى ، 1 ، 3117 - 3123) .

(3077) يشير الشاعر إلى تساؤل إبراهيم عن الخالق ، واهتدائه اليه . (انظر : سورة الأنعام ، 6 : 76 - 79) .
(3078 - 3080) المؤمن الحق لا يستطيع أن يستمتع بشئ من لذات الحياة ، من غير أن يقترن ذلك بتأمل صنع الخالق ، وذكر فضله .

(3082) من كان من أهل الضلال المخادعين ، فلا بد أن يتضح أمره ، مهما حاول أن يخفيه وراء ستار كثيف من الدهاء والمكر . فأعماله تنبىء عن خبث سريرته ، كما تنبى ، الرائحة النتنة عن قذارة صاحبها .

(3803) قول الشاعر : " ولقد عاش برهة قصيرة ثم انقضى يومه " ، يعنى أن المنافق المنصرف إلى لذات الحس يستمتع بأيام قليلة تنفضى بانقضاء هذه الحياة الدنيا ، وبعد ذلك يلاقى سوء المصير .

(3086) النفس اللئيمة تخدع صاحبها المنافق ، فتسهل له ارتكاب الآثام ، على أساس أن الله غفور رحيم .

(3087) لو كان المنافق مؤمنا بالله حقا ، معتقدا برحمته وغفرانه ،

فلماذا يقتله الغم لو خلت يداه من الخبز ، ولماذا يرهقه الخوف ما دام الله غفورا رحيما .

(3088 - 3101) في هذه الأبيات حكاية صغيرة تصور الشيخوخة الحسية ، بما تجلبه من ضعف وآلام ، وتبين كيف أن الأخلاق تتأثر أيضا بعوارض الوهن ، لكن الشاعر يعقب على القصة بقوله ، ان الشيخ الذي هو ثمل بالحق يكون في الظاهر شيخا ، لكنه في الباطن فتيّ . ومعنى ذلك أن حياة الروح هي الحياة الخالدة التي لا تتأثر بشيخوخة الجسد ، ولا يذهب بنضرتها كرّ الأعوام .

(3102) لو لم تكن حقيقة الأنبياء والأولياء وفضائلهم معروفة للأخيار والأشرار على السواء . فعلى أي شئ يحسدهم الأشرار ؟

(3103) ان كان الأشرار يعرفون الأنبياء معرفة يقينية ، ويدركون حقيقتهم ، فلماذا اذن يناصبونهم العداء على تلك الصور المريرة .

(3104) يعجب الشاعر من الأشرار ، يعرفون البعث والقيامة ، ومع ذلك يحاربون الأنبياء والأولياء ؟ فكيف يُعرّضون أنفسهم لانتقام يوم الحساب .
وقد رمز الشاعر إلى عقاب الآخرة " بالسيف الحاد " .

(3105) ان ظاهر النبي أو الولي يخدع الناس عن حقيقته . فهو في ظاهره وديع رقيق ، يبدو لهم ضعيفا ، على حين أنه يمتلك من القوة ما يقيم مائة قيامة ، لأنه يكون مؤيدا بالله .

(3106) يتضمن هذا البيت لمحة من فكرة " الانسان الكامل " عند الصوفية .
يقول الجيلى : " واعلم أن الانسان الكامل مقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه ، فيقابل الحقائق العلوية بلطافته ، ويقابل الحقائق السفلية بكثافته . . . " . (انظر ، الانسان الكامل ، ج 2 ، 50 - 52) .

(3108) كيف يتهجم السفهاء على الأنبياء والأولياء ، وهم يعلمون

أن قوتهم مستمدة من قوة الله وتأييده ؟
(3109) يسخر الشاعر من أدعياء الايمان الذين يتقربون إلى الله بتعظيم المسجد ، في حين أنهم يوقعون الأذى بقلوب العارفين من رجال الله .

(3110) المسجد بيت الله ، على سبيل المجاز ، وأما قلب العارف فهو - على التحقيق - بيت الله .

(3116 - 3127) حكى الشاعر في هذه الأبيات قصة عن جحى .
وهذه القصة ذات أصل عربى ، رويت في مصادر متعددة ، لكنها لا تدور حول جحى . فمن صورها العربية تلك التي وردت في كتاب الأغانى ، على النحو التالي :
“ قال إن دراج الطفيلى : مرت بي جنازة ومعي ابن ومع الجنازة امرأة تبكى وتقول : بك يذهبون إلى بيت لا فراش فيه ولا وطاء ولا ضيافة ولا غطاء ، ولا خبز ولا ماء . فقال لي ابني : يا أبت إلى بيتنا والله يذهبون بهذه الجنازة . فقلت : كيف ويلك . قال : لأن هذه صفة بيتنا “ .
انظر : (فروزانفر : مآخذ قصص وتمثيلات ، 77 - 78) ، (تعليقات نيكولسون) .

(3128) الطغاة لا يستطيعون أن يروا من الأمور سوى ظاهرها .
فابصار هؤلاء شبيه بابصار الطفل ، في القصة السابقة .

(3129 - 3131) القلب الذي لم يتلق نور الهداية ، ولا شعاع الالهام ، يكون مظلما ، لا قدرة له على الادراك السليم .

(3132) من كان قلبه مظلما فهو دفين ظلمة الجهل . وبعض الموتى أحسن حالا من الأحياء الذين يعيشون في ظلام الجهل . أما قول الشاعر :
“ فلتنهض الآن من ضريح قلبك “ فمعناه : “ حطم سجن الجهالة الذي يغشاك بظلمة شبيهة بظلام القبر ، وانطلق إلى بعث روحي جديد مشرق بنور العرفان “ .

(3133) من كان سبيل آدم - الذي علمه الله الأسماء كلها - كيف يستريح إلى الجهل ، ولا تضيق به أنفاسه ؟

(3134) الروح الانساني الذي أحاطت به الظلمة شبيه بيوسف في قرارة الجب ، أو بشمس السماء وسط الظلمات . والجب لا يليق بيوسف ، وكذلك الظلمات لا تناسب الشمس .

(3135) يشير هذا البيت إلى قصة يونس حين ابتلعه الحوت ، ثم انقذه الله .
لقد ذكر القرآن الكريم قصة يونس في قوله تعالى : " وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين . فاستجبنا ليه ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين " . (21 : 87 - 88) .
وقد وردت قصة يونس في تفسير هذه الآيات . وخلاصة القصة أن يونس كان رجلا صالحا يتعبد في جبل . وكان من أهل نينوى فبعثه الله إليهم ليدعوهم إلى الايمان بالله ، وترك عبادة الأصنام . وكان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم ، فتعجل الأمر وخرج مغاضبا ، وأتى البحر . قال الثعلبي : " فلما أتى يونس البحر إذا قوم يركبون سفينة فحملوه بغير أجرة ، فلما دخلها احتبست السفينة ووقفت ، والسفن تسير يمينا وشمالا فقال الملاحون : ان فيها عبدا آبقا من سيده ، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر . فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس . فقال أنا الآبق .
فقالوا تُلقى في الماء . فاقترعوا ثانيا وثالثا فخرجت القرعة على يونس ، فزج نفسه في الماء ، فذلك قوله تعالى : " فساهم فكان من المدحضين " (37 : 141) . فلما وقع في الماء وكل الله به حوتا فابتلعه ، وأوحى الله تعالى إلى الحوث انى لم أجعله لك رزقا بل جعلناك له حرزا ومسكنا ، فخذه ولا تسكر له عظما ولا تخدش له لحما " . (قصص الأنبياء 462 - 463) .

وبينما يونس في جوف الحوت تاب إلى ربه وسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحة . وشفعت له الملائكة فأمر الله الحوت فقذفه إلى ساحل نينوى . وكان ضعيفا من جراء ما مر به فأنبت الله عليه شجرة من يقطين .
وقد ذكر القرآن الكريم قصة ابتلاع الحوت ليونس ونجاته منه بقوله تعالى : " وان يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون .
فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلو لا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم .
وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين " . (37 : 139 - 148) .
(3136) يشير هذا البيت إلى قوله تعالى : " فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثنون " . (37 : 143 - 144) .

(3137) قول الشاعر : " فماذا يكون التسبيح ؟ انه آية يوم (ألست) " يعنى أن التسبيح الحق هو ذلك المنبثق من ايمان الروح بالخالق ، من قبل أن يخلق العالم .
ويوم " ألست " يُقصد به ما جاء في قوله تعالى : " وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى " . (7 : 172) .

(3138) " ان كانت روحك قد نسيت تسبيحها الذي عرفته قبل خلق هذا العالم ، فاستمع إلى تسبيح أهل الكمال ، فإنه يذكرك بما كانت روحك قد عرفته " . والحيتان هنا رمز للعارفين ، وكثيرا ما يشبههم جلال الدين بالحيتان ، كما يشبه عالم الروح بالبحر .

(3139) قول الشاعر : " وكل من شهد هذا البحر فهو ذلك الحوت " ، يعنى كل من شهد بحر الروح فهو صوفي عارف .

(3140) بدأ الشاعر هنا يستخدم البحر والحوت للتصوير البياني ، وليس للرمز ، كما فعل في البيتين السابقين .

(3141) الروح قد انطوى في الجسد ، كما انطوى يونس في جوف الحوت . ولولا تسبيح الروح لقضى عليه الجسد ، ومحا وجوده ، فالتسبيح هو الذي يمكن الروح من أن يطرح عنه أغلال الجسد ، كما استطاع يونس بالتسبيح أن يخلص نفسه من جوف الحوت . (انظر :
سورة الصافات ، 37 : 143 - 144) .

(3142) هذه الدنيا لا تخلو من صوفية عارفين ، ولكن أهل الحس ، الغارقين في اللذات ، لا ينتبهون إلى هؤلاء .

(3143) ليس احتجاب العارفين عن أهل الحس ناشئا من حرص هؤلاء على الابتعاد عنهم ، بل الحقيقة أن العارفين كثيرا ما يسعون إلى ارشاد أهل الحس ، لكن هؤلاء لا يفطنون إلى هذا السعي الكريم .

(3144) ان كنت قد اخفقت في ملاقاة الرجال العارفين ، فلا بد أن أذنك قد استعمت إلى تسبيحهم .

(3145) يكثر الصوفية من الثناء على الصبر . ويروون في الصبر أقوالا كثيرة ، منها قول علي بن أبي طالب : “ الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد “ .
والصبر - عند الصوفية - محمود في كل المواقف ، الا الصبر عن الله ، ومن ذلك قول الشاعر :الصبر يجمل في المواقف كلها * الا عليك فإنه لا يجمل(انظر : رسالة القشيري ، باب الصبر ، 84 - 87) .

(3147) “ الصبر “ هو الطريق الموصل إلى السعادة . انه كالصراط الذي يعبره المؤمن إلى الجنة .

(3149) جكلcheyelبلدة وراء نهر سيحون من بلاد تركستان (ياقوت : معجم البلدان) . وقد اشتهرت هذا البلدة بجمال نسائها . وقد ذكر جلال الدين هذا المعنى مرارا في شعره . قال في ديوان شمس تبريز .

گفت له این خانه دل برهمه نقشست جرا * کفتم کین عکس تواست ای رخ توشمع جگَل(قال : لماذا قد حفل منزل القلب هذا بالصور قلت إن هذه خيالات محياك يا من وجهك شمع جگَل) .
والمراد بالصبر هنا الصبر عن الجمال الأسمى ، وهو ما لا تكون للمحب العارف طاقة به .

[شرح من بيت 3150 إلى بيت 3300]

(3150) عاد الشاعر هنا إلى استخدام الصبر بمعنى القوة على مقاومة البلاء ومعاناة الشدة . وهذا ما يكون من الفضائل التي يتحلى بها الرجال . ومثل هذا الصبر في مجاهدة الحياة يعتبر درجة أدنى من الصبر في مجاهدة النفس ، فهو أيضا يحتاج إلى قوة وجلد ، هما من صفات الصوفي العارف .

(3154) هناك فرق بين رايات ترفع للجهاد ، ورايات يرفعها المتسولون ملتمسين كسر الخبز . وليست العبرة بالارتفاع وانماهى بجوهر هذا الارتفاع .

(3159) يشير البيت إلى مثل الثعلب والطبل ، وهو من أمثال كليلة ودمنة ، ونصه كما يلي :
" زعموا أن ثعلبا أتى أجمة فيها طبل معلق على شجرة ، وكلما هبت الريح على قضبان تلك الشجرة ، حركتها فضربت الطبل فسُمع له صوت عظيم باهر . فتوجه الثعلب نحوه لأجل ما سمع من عظيم صوته . فلما أتاه وجده ضخما ، فأيقن في نفسه بكثرة الشحم واللحم ، فعالجه حتى شقه .
فلما رآه أجوف لا شئ فيه قال : لا أدرى لعل أفشل الأشياء أجهرها صوتا وأعظمها جثة " . (كليلة ودمنة ، 132) .
أما قول الشاعر : " فيا من تشبه بضخامتك قوم عاد " ، فيشير إلى ما اشتهر به هؤلاء من ضخامة الأجساد . وقد أخبر القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى : " واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في

الخلق بسطة “ . (7 : 69) .
(3163 - 3175) نقل فروزانفر أصلا لهذه القصة عن “ مقالات شمس “ . انظر : مآخذ قصص وتمثيلات ، 78 - 79 .

(3176 - 3183) لهذه القصة أصل عربى جاء في عيون الأخبار لا بن قتيبة . قال : “ مر رجل من العباد وعلى عنقه عصا في طرفيها زنبيلان قد كادا يحطمانه ، في أحدهما برّ وفي الآخر تراب . فقيل له : ما هذا ؟ قال :
عدلت البرّ بهذا التراب لأنه كان قد أمالنى في أحد جانبي . فأخذ الرجل زنبيل التراب فقلبه ، وجعل البرّ نصفين في الزنبيلين ، وقال له : احمل الآن ، فحمله ، فلما رآه خفيفا قال : ما أعقلك من شيخ “ . (فروزانفر : مآخذ قصص وتمثيلات ، 79) .

(3201) الصوفية لا يؤمنون بالفلسفة العقلية ، ويرون أنها لا توصل إلى علم يقيني ، وأن حاصلها الشقاء والحيرة .

(3207) “ الفكر الحق هو الذي يفتح طريقا للهداية الروحية “ . أما “ الملك “ هنا فهو رمز للمرشد الكامل .

(3208) العارف يكون ملكا بذاته ، لا بخزائنه وجيشه .

(3210) بدأ الشاعر هنا قصة صغيرة عن إبراهيم بن أدهم . . وقد وردت هذه القصة في تذكرة الأولياء للعطار (ج 1 ، ص 155) . وترجمة القصة كما يلي .
“ يروى أنه كان ذات يوم جالسا على شاطىء دجلة ، وكان يرقع خرقته الممزقة ، فوقعت ابرته في النهر . فسأله أحد الرجال : لقد تخليت عن مثل هذا الملك ، فماذا وجدت (عوضا عنه) . فأشار إلى البحر ليرجع اليه ابرته . فخرجت من النهر ألف سمكة ، وقد أمسكت كل منها بإبرة ذهبية في فمها . فقال إبراهيم : أريد ابرتى ! فخرجت سمكة صغيرة ضعيفة ، وقد أمسكت بفمها ابرته . فقال إبراهيم : هذا أهون شئ وجدته

لقاء تركى ملك بلخ ، أما ما سوى ذلك فإنك لن تدركه “ . انظر (فروزانفر : مآخذ قصص وتمثيلات ، 80) ، (تعليقات نيكولسون) .
وقد روى السلمى أن إبراهيم بن أدهم كان ابن أحد ملوك خراسان ، وأنه خرج ذات يوم إلى الصيد ، وبينما هو يطارد صيده هتف به هاتف دعاه إلى ترك ما كان فيه ، فاستجاب له ، وتخلى عن جواده ومتاعه لأحد رعاة أبيه ، وأخذ جبته الصوف فلبسها وتوجه إلى مكة . (طبقات الصوفية ، 30) .

(3221) “ العميان “ هنا رمز لمن حرموا نور البصيرة الروحية .

(3222) “ المبصرون “ هنا رمز للعارفين الذين أشرقت قلوبهم بنور العرفان .

(3230) ربما أتيح للمتعلق بعالم الظاهر أن يتلقى نفحة من الغيب .
لكنه لا يكون مثل أهل العرفان الذين يطلعون على عالم الروح الخفي .

(3231) “ الحديقة “ رمز لعالم الروح .

(3232) “ ان لم تكن من السالكين إلى حديقة الروح ، فالتمس شيئا من المقدرة على تنسم شذاها ، وادفع عنك تلك الروابط المادية ، التي تحول بينك وبينها “ .

(3234) قميص يوسف الذي ألقى على وجه يعقوب فارتد بصيرا رمز لنفحات الروح التي تنير ظلام الحس ، وتكشف سبيل الابصار الحق .

(3235) قول الرسول : “ جعلت قرة عيني في الصلاة “ يشير إلى ما كان يتلقاه في صلاته من نفحات روحية .

(3236) يقول الغزالي ان المدركات الحسية تلتقى جميعا لتقدم الصورة الحس المشترك فهو القوة التي تكوّن الصورة العامة مما تتلقاه الحواس المختلفة . “ تلك القوة مجمع المتاثلات والمختلفات فسميناها الحس ، المشترك ، إذ لا تكون النفس مدركة الا بهذه القوة ، وسميناها اللوح إذ لا تجتمع المحسوسات الا في هذه القوة ، وليس لها الا الادراك

فقط “ . (الغزالي : معارج القدس ، 47 - 48) .
وجلال الدين يرى ارتباط الحواس بعضها بالبعض الآخر لأنها جميعا تنبع من أصل واحد . وسياق الأبيات يبين ان جلال الدين يرى أنه لو تخطت احدى الحواس نطاق حسيتها إلى ماوراء الحس ، فان ذلك يقود الحواس الأخرى إلى تخطى نطاق الحس .
(3240) “ ان انطلاق احدى الحواس من قيد المادة ، واستنارتها بالاحساس الروحي ، يعين بقية الحواس على تحقيق استنارة مماثلة “ .
(3242) الشاعر يشبه الحواس بقطيع من الخراف ، فلو أن واحدا من القطيع قفز من فوق القناة إلى الجانب الآخر تبعته بقية الخراف .
والقناة هنا رمز للحد الفاصل بين عالم الادراك الحسى ، وعالم الادراك الروحي .
(3243) ان حواسك - التي تشبه الخراف في حسيتها - غافلة عن ذلك المرعى ، وهو عالم الروح الكامن وراء عالم الحس . فسق هذه الخراف إلى ذلك المرعى حتى تنعم هناك بغذاء يختلف عما عهدته في عالم الحس .
(3245) لو اطلع كل حس من حواسك على عالم الروح ، أصبح بمثابة النبي الذي يقود الحواس الآخرين إلى ذلك العالم ، كما يقود النبي أتباعه إلى الجنة .
(3246) عندما تصبح الحواس كلها مطلعة على الأسرار ، تزداد الحاجة إلى التعبير عنها ، والإشارة إليها بالألفاظ والعبارات .
(3247) الحقيقة - حينما لا تكون مشهودة - تتقبل الكثير من التأويلات ، وتنشأ حولها الخيالات والأوهام .
(3248) حقيقة الشهود لا تتقبل أي تأويل ، ما دامت مبنية على العيان ، والمشاهدة .
(3249) من تجلى له الغيب ، وأصبح مرشدا لسواه إلى ذلك

الشهود ، فقد تحقق له سلطان على الأفلاك .
(3250) الأفلاك وغيرها من مظاهر العالم المادي ليست سوى مظهر يخفى وراءه جوهر الحقيقة ، فمن ملك هذا الجوهر ، فهو - نتيجة لذلك - مالك لما يحيط به من قشور .
(3253) الروح المشار اليه في هذا البيت هو الروح (الحيواني) .
وقد عرفه الغزالي بقوله : " أما الروح فيطلق ويراد به البخار اللطيف الذي يصعد من منبع القلب ، ويتصاعد إلى الدماغ بواسطة العروق ، ومن الدماغ يسرى بواسطة العروق أيضا إلى جميع البدن ، فيعمل في كل موضع بحسب مزاجه واستعداده عملا ، وهو مركب الحياة ، فهذا البخار كالسراج ، والحياة التي قامت به كالضوء ، وكيفية تأثيره في البدن ككيفية تنوير السراج أجزاء البيت " . (معارج القدس ، 14) .
(3254) قول الشاعر : " فالحس أكثر سرعة في سلوكه سبيل الروح " ، يعنى أن الحس أكثر استجابة لدواعي الحياة المتحركة ، وأوضح من العقل تعبيرا عنها .
(3256) الحركة لا قيمة لها في ذاتها ، فهي تظهر من الحيوان ومن الانسان ، ولكن العقل حين يخلع على الحركة اتزانا يجعل لها قيمة ذاتية . فهذا التغيير في قيمة الحركة شبيه بفعل الإكسير الذي يجعل المعدن الخسيس ذهبا .

(3258) " الروح الملهم " هو الروح الانساني الكامل ، وهذا عند الصوفية أسمى بكثير من العقل . وهو ينتمى إلى عالم أسمى من هذا العالم . وادراك أسرار العقل أيسر من ادراك أسرار هذا الروح الملهم يقول الغزالي : " هو الروح الانساني المتحمل لأمانة الله ، المتحلى بالمعرفة ، المركوز فيه العلم بالفطرة بالتوحيد بقوله (بلى) ، فهو أصل الآدمي ، ونهاية الكائنات في عالم المعاد " . (معارج القدس ، 13 - 14) (3259) كان من الميسور لكل انسان أن يدرك مقدار عقل

الرسول ، أما ادراك أسرار روحه الملهم فهذا قد امتنع على كثير من الناس .
(3260) للروح الملهم أفعال متناسبة متزنة ولكن العقل يعجز عن ادراكها . ومن هنا كان عجز علماء الدنيا عن فهم الصوفية العارفين .
(3261) لا سبيل للعقل إلى فهم الروح الملهم ، الا إذا أصبح العقل ذاته روحا . ويبدأ ذلك بايمان العقل بسموّ هذا الروح ، وصدق الهامه . وبدون هذا الايمان تبدو تجليات الروح جنونا ، في نظر العقل .
(3262 - 3263) من أمثلة الصعوبة التي يلاقيها العقل في فهم الروح ما أبداه موسى من انكار لأعمال الخضر ، وذلك حين خرق السفينة وقتل الغلام . (انظر : سورة الكهف ، 18 : 71 - 75) .
(3265) العلم التقليدىّ يكون ذا رونق وراء حينما يجد المشترى ، أنه يقوم على التظاهر ، وطلب المنفعة .
(3266) العلم الروحي لا يخبور رونقه ، ولا يتأثر بالمنافع الموقوتة ، كالعلم التقليدى ، بل هو دائم الرونق ، لأنه من الهام الله ، ولا يراد به سوى وجه الله .
(3268) الملائكة كانوا هم المشترين لدرس العلم الإلهي الذي تلقاه آدم عن خالقه . أما إبليس فلم يتقبل هذا العلم ، لأنه لم يكن أهلا لتلقيه .
(3269) إشارة إلى قوله تعالى : " وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين .
قالوا سبحانك لاعلم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم " . (2 : 31 - 33) .
(3271) سبق للشاعر أن صور قصير النظر بأن له عقلا كعقل الفأر (البيت 3264) . وهو هنا يشير إلى هذا البيت بقوله : " قد دعوته فأرا " . أما قول الشاعر : " لأن مقرة التراب " فيعنى أن نفسه

غارقة ماديتها ، لا تستطيع الخلاص منها .
(3276) انظر الآيات (16 : 15) ، (78 : 7) .
(3291) قدرة الله هي التي ألقت في العين الحسية نور البصر ، وجعلت عظام الأذن قادرة على السمع .

(3294) قول الشاعر : “ فان كنت لا ترى الماء بين الطين . . . “ يعنى : “ فان كنت لا تدرك وجود الروح في جسدك ، فما هذه الآثار الدالة عليها ، كما تدل الأعشاب السابحة فوق الماء على وجود الماء “ .

(3295 - 3296) ان الصور المنعكسة على صفحة الفكر تدل على وجود عالم معنوي ، خارج العالم الحسى ، ينعكس على الفكر بصورة جميلة أو قبيحة ، على مقتضى ما تكون عليه نفس الانسان من جمال أو قبح .
(3297) الالهام الذي يقبل إلى النفوس من عالم الغيب يقوم دليلا على وجود هذا العالم . والأرواح تحمل آثارا منه ، كما يحمل ماء النهر قشورا من ثمار بستان بعيد .

(3298) هذه اللمحات التي تقبل من عالم الغيب ليست الا ظلالا للحقيقة وعلى الانسان أن يبحث عن الحقيقة ذاتها . فقشور الثمار التي تسبح فوق صفحة النهر ليست هي الثمار ، وانما هي دليل على وجود تلك الثمار .
(3299) تحرك الأفكار والخواطر دليل على حياة الروح ، فهذه تحملها إلى الفكر من عالم الغيب ، كما يحمل النهر قشور الثمار من بستان بعيد . وحركة القشور توضح حركة الماء .

[شرح من بيت 3300 إلى بيت 3450]
(3302) إذا ازدادات قوة الروح لم يبق للجسد وجود إلى جانبه .
(3309) في رأى الشافعي أن الماء إذا بلغ قلتين لا تقدر القطرة من النجاسة على أن تخرجه عن طهارته . (انظر : المنهج القوى ، 2 ، 621 ، وكذلك تعليقات نيكولسون) . وفي هذا تعبير رمزى عما يبلغه العارف من طهارة روحية لا ينتقص منها ما قد يبدو عليه من ظاهر على خلاف ذلك .

(3310) انظر : المثنوى ، 1 ، البيت 547 وشرحه .

(3311) الأدلة العقلية والبراهين الجدلية من مطالب النفس ، أما الروح فمستقرها عين الحقيقة .
(3312 - 3313) السالك في البيداء هو الذي يكون بحاجة إلى الدليل ، لأنه يكون في كل لحظة عرضة للضلال ، أما الواصل فلا حاجة به إلى عناء البحث ، وحسبة نعمة الشهود .
(3314 - 3315) لو أن أحد العارفين لجأ إلى بسط الأدلة الجدلية ، فهو يفعل ذلك ليفهم من لم تُتح له نعمة الشهود ، فكأنما هو أب يصطنع أصوات الطفولة لوليده الجديد .

(3320 - 3321) الذنوب والنقائص الانسانية كلها فانية ، ، فهي تنتهى بانتهاء صاحبها ، أما نور العارف فهو نور خالد ، لأنه مستمد من نور الله .
(3322 - 3323) ايمان العارف مستمد من عرفانه بجوهر الحقيقة ، وليس حاله كحال العوام في ايمانهم أو كفرهم ، فهم يتعلقون بأمور نسبية لا تقاس بجوهر الحقيقة ، بل انها هي التي تحجب الحقيقة .

(3324) رأس الجسد - بما ينطوى عليه من غرور ، وانكار لعالم الروح - كافر منكر .
(3325) الكافر المنكر هو الغافل عن حقيقة ايمان العارف .
فما دامت هذه الحقيقة منبثقة من محبة الخالق والفناء فيه ، فهي أسمى درجات التوحيد .

(3326) بقاء الروح - بعد تحققها بالفناء - ليس سوى خبر يروى ، بالنسبة لغير العارف . فإذا ما عانى المرء هذه التجربة قويت روحه ، وتأصل عرفانه .
(3330 - 3331) انظر : المثنوى ، 1 : 1234 ، 2659 - 2663 ، والشرح .

(3340) الشاعر في هذا البيت يسفه الذين يسيئون إلى الشيوخ العارفين ، ويضمرون لهم الحسد والبغضاء ، في حين أن هؤلاء المسيئين لا يحسنون غسل وجوههم .
(3341) قول الشاعر : “ انك تشن غارة على الملائكة “ ، يعنى أن المسىء إلى العارف الكامل يسئ إلى الملائكة الذين عرفوا لهذا العارف قدره ، وسجدوا له ، حينما شهدوا صفاته في شخص آدم .

(3344) إذا تأبى المتعلق بالحس على المرشد العارف ، فلم ينتفع بارشاره ، فذلك لا يسئ إلى عرفان العارف .
(3345 - 3349) يوازن الشاعر في هذه الأبيات بين المرشد العارف وبين عدوّه الحسى العنيد ، ثم يقدم للحاسد صورا تبين استحالة النيل من العارف أو انتقاص فضله كماله .

(3350) من عاب الصوفي العارف ، ولم يطق مواجهته ، شبيه بخفاش يعيب الشمس ويطلب احتجابها .
(3351) قول الشاعر : “ والغيوب قد أضحت - بغيرتهم عليها - غيوبا “ يعنى أن هؤلاء الصوفية يحرصون على اخفاء الأسرار الغيبية عمن لا يكونون أهلا لتلقيها .
(3355) الروح التي هبطت من عالمها إلى هذا العالم الحسى ، ينبغي لها ألا تصبح غريقة عالم الحس . فالحمار - وهو من الحيوانات التي اشتهرت بالغباء - لو انزلق في الوحل فإنه يتحرك على الدوام لكي ينهض من كبوته .

(3358) “ ها أنت ذا تتأول رخصة لتعلقك بالمادة وحرصك عليها ، لأنك لا تريد أن تخلص قلبك من سلطانها “ .

(3359) “ انك تبرر تعلقك بالمادة ، فتدعى أنك مُجبر على ذلك ، وأن الله لا يعاقب المجبر على عمل لا حيلة له فيه “ .
(3360) من اقترف الاثم وحسب أن الله لن يأخذه باثمه فهو في

الحقيقة مغرور أعماه الغرور . وهذا العجز عن ابصار الخطأ هو في ذاته عقوبة الهية . يقول ابن الجوزي في هذا المعنى : " وإياكم والاغترار بحمله وكرمه فكم استدرج " . (صيد الخاطر ، ص 133) .

(3361 - 3363) اشتهر الضبع عند العرب بالحمق ، حتى ضربوا به المثل ، فقالوا : " أحمقُ من الضبع " .
يقول الدميري : " الضبع أحمق الحيوان . . . ومن حمقه أنه يغفلى عما يجب التيقظ له . ولذلك قال علي بن أبي طالب : لا أكون كالضبع تسمع اللدم فتخرج حتى تصاد ، واللدم الضرب الخفيف . . . . والصياد إذ أراد أن يصيدها رمى في جحرها بحجر ، فتحسبه شيئا تصيده ، فتخرج لتأخذه فتصاد عند ذلك " .
وذكر الدميري كلاما يقال على باب جحرها ، " فلا يزال يقال لها حتى يدخل عليها الصائد فيربط يديها ورجليها ، ثم يجرها " . (حياة الحيوان ، ج 1 ، ص 365 ، ج 2 ، ص 82) . وذكر النويري كلاما شبيها بهذا عن الضبع . (انظر : نهاية الأرب ، ج 9 ، 274 - 276 ، " ذكر ما قيل في الضبع ") . والنويري يستبعد ما يقال عن استسلام الضبع لصائديه فيقول : " وهذا القول - فيما أظن - من خرافات العرب " .

(3364 - 3369) أوردت المصادر العربية قصة شبيهة بما رواه الشاعر في هذه الأبيات .
انظر : (حلية الأولياء ، 10 : 168) ، (محاضرات الأدباء ، 2 : 277) . وقد نقلها عنهما فروزانفر . (مآخذ قصص ، 80) . ونص هذه القصة كما يلي : " قيل : وكان في بني إسرائيل حبر قال في دعائه : يا رب . كم أعصيك وأنت لا تعاقبنى ! فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان ، قل لعبدي : كم أعاقبك ولا تدرى ، أسلبك حلاوة مناجاتى " .

(3370) " ان الآثام الكثيرة التي ارتكبتها قد جعلت باطنك أسود ،

فلم تعد لديك قدرة على معرفة الخير من الشر “ .
(3371) قلب الانسان كالمرآة والآثام التي يرتكبها شبيهة بالصدأ .
فكلما ازداد ارتكاب الآثام . زادت ظلمة القلب ، فيصبح كالمرآة التي تراكمت فوقها طبقات من الصدأ .

(3372) من كان نقى القلب ، أحس بوقوعه في أدنى خطأ . فالقدر الجديدة يظهر أثر الدخان فوقها ، مهما قل هذا الدخان .

(3373) الاثم يكون غريبا على القلب النقى ، فسرعان ما يتكشف لهذا القلب قبحه ، كما تتميز الأشياء ، بضدها ، أو كما يتضح السواد فوق البياض .

(3374) إذا أصبح القلب أسود لفرط ما ران عليه من الاثم ، فكيف يتضح فيه ما يغشاه من اثم جديد ؟ أنه يكون كالقدر السوداء ، لا يظهر فوقها أثر الدخان .

(3375) “ الحداد الزنجي “ رمز للقلب الأسود . فهذا الحداد الأسود الوجه لا يبين في وجهه أثر الدخان . وهكذا القلب المظلم بأخطائه وآثامه .

(3376) “ الحداد الرومي “ رمز للقلب النقى . فمثل هذا يتبين له أثر الدخان في وجهه .
(3394) انظر شرح الأبيات 3364 - 3367 .

(3316) قال تعالى : “ انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم “ . (2 : 173) .
وانظر أيضا : (6 : 145) ، (16 : 115) .

(3430) العارف لو تذوق متاع الدنيا فإنه يتقوى به على التأمل الروحي ، على حين أن الرجل الحسى يتذوق الشهد فينقلب في كيانه سما ، لأنه يزيد من حرصه على الشهوات ، ومتع الحس .

(3432 - 3433) في البيتين إشارة إلى قصة أصحاب الفيل الذين

أرادوا هدم الكعبة فأهلكهم الله . قال تعالى : " وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول " .
(105 : 3 - 5) .

(3436) يبدأ الشاعر هنا حكاية ترمز إلى أن المريد لا يليق به أن يجترىء على العارف . وهذه الحكاية مرتبطة بالبيت السابق (رقم 3435) .

[شرح من بيت 3450 إلى بيت 3600]

(3453) " ما دمت لست من العارفين فلا بد لك من السير في طريقهم ، وبذل الجهد ، لعلك تصبح واحدا منهم ، فتخلص من بئر الشهوات إلى حيث يتحقق لك الجاه والمجد " .

(3454) " ما دمت لم تصل بعد إلى مقام العارفين فلا بد لك من مرشد " .

(3456) السالك بحاجة إلى الانصات لكي يتعلم . وقد أمر الله بالانصات في قوله تعالى : " وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون " . (7 : 204) .

(3464) من كانت روحه مفعمة بالكمال ، لم يكن للجاه الدنيوي قيمة عنده ، ولا أثر عليه . أما المتعلق بالحس فالرياسة تدفعه إلى الغرور والتعالى وتزيد نفسه قبحا .
وفي هذا البيت هدم لمبدأ اعتزال الحياة ، والانصراف عن الدنيا ، وهو ما قال به بعض الصوفية الذين يصرون على مواجهة هذا العالم بموقف سلبيّ .

(3465) في اعتقادي أن " الجبل المليء بالثعابين " يرمز هنا للحياة الدنيوية الحافلة بالمغريات . فالشاعر يدعو الانسان إلى مواجهة هذه الحياة بقوة ، وعليه ألا يخافها ما دام في الامكان أن تنطوى هذه الحياة على مضمون روحي ، يحول بين الانسان وبين المهلكات الحسية ، من لذات وشهوات .

(3466) قول الشاعر : " فإذا ما أصبحت الرئاسة نديما لدماغك . . . "

يعنى : “ فإذا لا تولاك الغرور من جراء جاهك وسلطانك . . . “ .

(3467 - 3469) يصور الشاعر هنا موقف العناد الذي يقفه بعض الأفراد من آراء المخالفين ، وكيف أنهم يتصورون أن كل مخالفة لآرائهم انما هي محاولة للقضاء على كيانهم الذاتي . وهذا - في نظر الشاعر - ينشأ من رسوخ الأخلاق السيئة في نفس صاحبها .

(3471) ينشأ الانسان وعنده قدر محدود من الشهوة . لكن بعض الناس يترك لشهواته مجال النمّو حيت تتحكم فيه : “ ان الشهوة تكون - في بداية أمرها - نملة ، لكنها سرعان ما تعظم ، وتصير مثل الثعبان “ .

(3473 - 3474) أسير الشهوات لا يفطن إلى ما يعانيه من اسار المشهوة ولا بد له من مرشد يعينه على ادارك حقيقة حاله . وحين يتحقق لمثل هذا خلاص من سيطرة اللذات الحسية ، فإنه يتسنى له إذا ذاك أن يدرك ما كانت عليه نفسه من سوء الحال .

(3475) لكي تتحول النفس الخسيسة المعدن ، إلى نفس كريمة المعدن ، لا بد لها من الصبر على مشقة هذا التحول . فالنحاس لا بد له من الصبر على الإكسير .
والقلب لا بد له من الصبر على ما يفرضه عليه من تَملكه .

(3476) قول الشاعر : “ وان هؤلاء ليهربون من الدنيا كالنهار والليل “ يعنى : “ أن الصوفية العارفين يهربون من سلطان الدنيا كالنهار والليل ، اللذين يمران بها ، ويعملان عملهما ، ومع ذلك لا يستقران فيها ، ولا يخضعان لسلطانها “ .

(3478 - 3495) يروى الشاعر في هذه الأبيات حكاية عن كرامات فقير اتهم بالسرقة . وكرامات الأولياء كانت موضوعا لحكايات كثيرة تملا كتب التصوف ، وبخاصة تلك التي تهتم بتراجم الصوفية .
والقصة المذكورة هنا وردت ، في مصادر متعددة ، وأشار إليها فروانفر ، كما نقل نصا فارسيا لها من “ كشف المحجوب “ للهجويرى .

(انظر : مآخذ قصص وتمثيلات ، 81 - 82) . وفيما يلي ترجمة لنص كشف المحجوب :
" وبلغت منزلته (مالك بن دينار) أنه كان ذات يوم راكبا في سفينة ، وكان أن فقدت جوهرة في هذه السفينة ، فاتهموه بأنه أخذها لأنه بدا أقل القوم حظا من ظهور الحال ، فرفع رأسه إلى السماء ، وفي الحال صعد إلى سطح الماء كل ما كان في البحر من الأسماك ، وقد أمسكت كل سمكة بجوهرة في فمها . فأخذ جوهرة من جملة هذه الجواهر ، وأعطاها للرجل ، ثم وضع قدمه فوق الماء ، وسار فوقه برفق حتى خرج إلى الساحل " .

(3478) قول الشاعر : " وقد اتخذ لنفسه من بضاعة الرجولة ظهيرا " ، يعنى أن ذلك الصوفي لم يكن يمتلك بضاعة كغيره من الناس ، إذ لم تكن له بضاعة سوى الرجولة والشرف .

(3500) قول الشاعر : " ان النفس سوفسطائية . . . " يعنى أنها تميل إلى المغالطة ، والمجادلة بالباطل .

(3503) الشهود الروحي لا يتسنى الا لعين طهرت من أهواء الحس .

(3504) الشهود الروحي يتسامى فوق ملكات الحس . فهو كالطاووس ، لا يستقر في حفرة ضيقة . واستخدام " الطاووس " هنا رمزا للشهود الروحي يشير إلى ما ينطوى عليه هذا الشهود من الجمال والبهجة .

(3512 - 3513) الأخلاط في جسد الانسان أربعة ، هي المرة السوداء ، وهي مسكن اليبوسة ، والمرة الصفراء وفيها الحرارة ، والدم وفيه الرطوبة ، والبلغم وفيه البرودة . " فأيما جسد اعتدالت فيه هذه الأربعة الأخلاط . . . وكانت كل واحدة منهن ربعا لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدلت بنيته . وان زادت واحدة منهن على أخواتها وقهرتهن ومالت بهن ، دخل السقم على الجسد من ناحيتها ، بقدر ما زادت . وإذا كانت ناقصة ضعفت طاقتها عن مقاومتهن فغلبنها ، ودخل السقم على

الجسد من نواحيهن بقدر قلتها عنهن ، وضعف طاقتها عن مقاومتهن " .
(رسائل اخوان الصفا ، 1 : 300) .
وكان يعتقد أن هذه الأخلاط ذات تأثير على أخلاق الانسان ، " فان مالت به اليبوسة وأفرطت ، كانت عزمته قساوة وفظاظة ، وان مالت به الرطوبة ، كان لينه توانيا ومهانة ، وان مالت به الحرارة ، كانت حدته طيشا وسفاهة ، وان مالت به البرودة ، كانت أناته ريثا وبلادة ، وان اعتدلت وكن سواء ، اعتدلت أخلاقه واستقام أمره ، وكان عازما في يغلبه خلق من أخلاقه ، ولا تميل به طبيعة من أخلاطه عن المقدار المعتدل " . (المصدر السابق ، 1 : 301) .

(3515 - 3516) في البيتين إشارة إلى قصة موسى والعبد الصالح الذي ذكر المفسرون أنه الخضر . وقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم (18 : 65 - 82) .
وكان افراط موسى في سؤال الخضر سببا في أن الخضر تخلى عن صحبة موسى .
انظر أيضا : المثنوى ، ج 1 ، 2969 ، 2971 وشرحهما) .

(3517 - 3518) " موسى " هنا رمز للمريد . والمرشد يدعوه إلى الصمت ، حتى لا يضطر إلى الابتعاد عنه ، كما اضطر الخضر إلى مفارقة موسى .

(3522) أهل الغفلة يكونون بحاجة إلى من يحميهم . ويكون حاميهم أحد الذين تحققت لهم يقظة روحية . أما الصوفية العارفون فهؤلاء قد تحقق لهم الأمان ، بعد وصولهم إلى عالمهم الروحي ، ولم تعد بهم حاجة إلى حارس .

(3523) " ان الذين يتطلعون إلى حياة الحس هم بحاجة إلى من يصونهم عن الضلال . فالجسد كالثوب ، يكون بحاجة إلى من ينظفه .
أما الروح الذي تحرر من سلطان الجسد ، فيكون ذا رونق حين يتعرى

من رداء البدن .
(3524) من أراد صحبة العارفين فليكن مثلهم متحررا من رداء البدن . ومعنى " التحرر من رداء البدن " أن يكون الروح هو المسيطر على الانسان ، المتحكم في أفعاله .

(3525) " ان لم تستطع أن تسيطر على البدن سيطرة كاملة فعليك أن تبذل جهدك حتى لا يطغى على روحك ، وليكن لك موقف وسط بين الروح والبدن " .

(3527 - 3528) انظر : سورة الكهف ، 18 : 65 - 82 .

(3530) كان هذا الدرويش من أهل الكمال ، وهؤلاء - في رأى الصوفية - يظهرون في كل زمان . والقائلون بوحدة الوجود يرون أن أهل الكمال مرتبطون بالحقيقة المحمدية . (انظر : الجيلى : الانسان الكامل ، ج 2 ، 50) .

(3545) في البيت إشارة إلى قوله تعالى " ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم " . (31 : 27) .

(3547) يرد الدرويش هنا على ما اتهمه به أصحابه من شدة استغراقه في النوم . (البيت 3510) .

(3550) بدأ الدرويش - في هذا البيت - يسفه رأى من اتهمه بطول استغراقه في النوم . ويوالى الدرويش الدفاع عن نفسه في الأبيات التالية .

(3551) " حس القلب " هو الحس الكوني الذي يشهد به العارف ما لا تشهده الحواس .

(3552) " لقد خدعك ظاهري فلم تفطن إلى حقيقة حالي . لقد نظرت إلى من خلال ضعفك ، فظننتنى على شاكلتك ، في حين أن ما يخفى عليك من الأمور ، يبدو أمامى واضحا كالضحى " .

(3554) " انك مقيد بقيود الحس وأغلاله ، وأما أنا فقد أصبح الحس عندي مُشرقا بنور الروح . وأنت من حياتك المادية في هم مقيم ، على حين أنني في فرحة وهناء " .

(3555) ان العارف يقيم مع أهل الغفلة في مكان واحد ، لكنه كثيرا ما تنطلق روحه من اسار الحس فتبلغ السماء السابعة .

(3556) مهما تجاوز العارف والغافل فان تجاور هما لا يعنى أنهما في منزلة واحدة . فالعارف يجاور الغافل بجسده على حين أن روحه تحلق في سمائها التي لا يرقى إليها فكر الغافل .

(3558) الأفكار تكون رهن إرادة العارف يتحكم فيها كما يتحكم الباني في النباء . أما الغافل فالأفكار تسيطر عليه وتحكمه .

(3562) ربما ينزل الرجل العارف إلى مستوى ضعاف الناس ، ذوى الطاقة الروحية الواهية ، وذلك ليمكنهم من أن يأخذوا عنه الهداية ، ويقتبسوا منه العرفان .

(3563) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : " أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شئ بصير " .
(67 : 19) .
فالعارف يذكر هنا مقدرته على الانطلاق إلى الآفاق العالية .

(3564) " ان قدرتى على الانطلاق نابعة من الذات التي صفت ، والروح الملهم ، وليس أساسها علما زائفا ولا وهما باطلا " .

(3565) يطلق لقب جعفر الطيار على جعفر بن أبي طالب ، وهو ابن عم الرسول الذي استشهد في غزوة مؤتة ، وقد قام بها المسلمون عام 8 ه 629 م . وكانت موجهة إلى الروم . قال ابن هشام : " وحدثني من أثق به من أهل العلم : أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحضتنه بعضديه حتى قتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وستين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير

بهما حيث شاء “ . (سيرة ابن هشام ، ج 4 ، 20) أما جعفر العيار فهو من يتسمى بجعفر ، برغم أنه يكون نقيض جعفر بن أبي طالب في ايمانه وصدقه .

(3566) من لم يجرب ذوق الروح يجد أن هذا الكلام مجرد دعوى أما من ذاق لذة الشهود فهو وحده يدرك معناه .

(3567) يُعرف الغراب عند العرب بأنه من أخس الطيور . قال الجاحظ : “ قال صاحب منطق الطير : الغراب من لئام الطير وليس من كرامها ولا من أحرارها ، ومن شأنه أكل الجيف والمقامات “ . (الدميري :
حياة الحيوان ، ج 2 ، 173) .
وقد اتخذ الشاعر الغراب رمزا للجاهل الخبيث النفس ، المتعلق بالحس .
أما الذباب فهو رمز لقصير النظر الذي يعجز عن ادراك معنى الابصار الروحي ، كما تعجز الذبابة عن ادراك حقيقة المرئيات . (انظر : المثنوى ، 1 ، 1082 - 1090) .

(3568) إذا كان الغذاء الحسيّ يزيد من قوتك وطاقتك الروحية فلا ضير منه .
فالعارف الحق يأكل ليعيش ويحيى حياة روحية ، متحررة من سلطان الحس . والأكل في هذه الحال لا يُطلب لذاته ، وانما لأثره في تقوية الانسان . يقول الغزالي : “ اعلم أن طيب المطعم له خاصية عظيمة في تصفية القلب وتنويره ، وتأكيد استعداده لقبول أنوار المعرفة “ .
(الأربعون ، في أصول الدين ، 63) .

(3569 - 3570) يروى الشاعر هنا معجزة لأحد الصوفية ، هي أنه تقيأ جوهر أمام بعض من أساؤوا به الظن ، فكانت هذه كرامة ، إذ تحول الجوهر المعقول ، وهو جوهر العرفان ، إلى جوهر محسوس أمام هؤلاء المنكرين . واعتقاد الصوفية بوقوع الكرامات يسمع بأمثال هذه القصة .

(3588) قول الشاعر : “ أصغ اليه ، واجعله قرطا في أذنك “ ، يعنى : “ أصغ اليه ، وأحسن الاصغاء حتى يستقر الكلام في أذنك ، كأنه

قرط معلق بها " .

(3589) قول الشاعر : " يكون هذا الكلام - بالنسبة إليك - معجزة جديدة ، وذهبا قديما " ، يعنى أن هذا الكلام الذي سبق لك أن سمعته في نومك تسمعه في يقظتك ، فيبدو لك معجزة جديدة ، وذهبا قديما ، لا يذهب القدم بقيمته بل يبقى كما هو معدنا نفيسا . فما تلقيته في منامك من حديث روحي لا يذهب بقيمته التكرار ، كما هو شأن الحديث المعاد .

[شرح من بيت 3600 إلى بيت 3810]

(3601) الروح الغريبة في عالم الحس تسمع صوت النبي الذي يكون في هذا العالم مغتربا عن عالمه الروحي ، فيكون ما تسمعه الروح من النبي مقربا لها من خالقها .
وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى : " وإذا سألك عبادي عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان " . (2 : 186) (3602 - 3606) يروى الشاعر هنا حكاية لها أصولها العربية عن يحيى والمسيح . وقد أورد الثعلبي هذه الحكاية على الوجه التالي .
" يحيى أول من آمن بعيسى وصدقه ، وذلك أن أمه كانت حاملة به ، فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى ، فقالت لها أم يحيى : يا مريم ! أحامل أنت ؟ فقالت : لماذا تقوليت هذا ؟ قالت : انى أرى مافيبطنى يسجد لما في بطنك ، فذلك تصديقه له ، وايمانه به " . (قصص الأنبياء ، 423) .
انظر أيضا : (فروزانفر ، مآخذ قصص ، 82) ، (تعليقات نيكولسون) .

(3617) يبدأ الشاعر هنا إشارات إلى بعض قصص كليلة ودمنة .
ويشير الشاعر في هذا البيت والأبيات الثلاثة التي تليه إلى قصة " الأسد والثور " .
(3620) قول الشاعر : " وكيف صار الفيل وجلا من خيال القمر " بشير إلى قصة " الأرنب وملك الفيلة " . (كليلة ودمنة ، الباب الثامن ، ص 272 . طبعة دار الحياة ، بيروت) .

(3624) شعراء الغزل من الفرس كثيرا ما يتغنون بحب البلبل

للوردة ، ويديرون بينهما الحوار في غزلياتهم . ومن أشهر من فعل ذلك حافظ الشيرازي .

(3671) جوهر المعرفة الروحية واحد مهما اختلفت تجلياته وآثاره .

(3677) الأسماء المتعددة تشتت الفكر وتصرفه عن ادراك جوهر الصفات .

(3687) " الرجل المتعدد اللغات " هو العارف القادر على ادراك الجوهر الواحد ، الكامن وراء اختلاف الألفاظ والأسماء .

(3695 - 3696) نقل ابن البيطار عن الرازي أنه قال : " الخل بارد مطفيء ، ويطفئ حرق النار أسرع من كل شئ " . (مفردات ، ج 1 ، 66) . و " الخل " هنا رمز إلى العلم التقليدى ، وهذا يكون بدون حرارة مهما اتخذ طابع الاخلاص .
(3697) " الدبس " رمز للعرفان الروحي ، فهو الذي ينطوى على حرارة حقيقية ، مهما ظهر على خلاف ذلك .

(3705) من سعى وراء المادة أهلكه مسعاه ، وأما من سلك سبيل الروح ظفر بالروح والمادة معا .

(3707 - 3708) " في زماننا هذا - وفي كل زمان - عارف روحي يقر الوئام بين النفوس المتصارعة ، لو أنها استمعت اليه ، وآمنت بجوهر عرفانه " .

(3716) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : " انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم " . (49 : 10) .

(3718) " العنب الناضج " رمز للمؤمن ، وأما " العنب الفجّ " فهو رمز للكافر .

(3725) النضج الروحي يؤدى إلى التحرر من الأنانية الذاتية ، ويمهد سبيل الوحدة بين الناس .

(3727) المحبة الإلهية هي وحدها السبيل التي تجمع بين البشر في

وجود حقيقي واحد .

(3729) الوحدة التي يصنعها الله من الأرواح ليست شبيهة بخلق الأجساد من الماء والطين . فوحدة الجسد قابلة للتفكك ، كما يحدث عند الموت ، لكن اتحاد الأرواح لا يكون عرضة لذلك .

(3731) في اعتقادي أن " سليمان " هنا رمز للمحبة الإلهية التي توحد القلوب والأرواح . فالشاعر يقول إن هذه قريبة من الروح ، ومع ذلك نجد طلاب العلم التقليدى يتركون الحل القريب ، وينظرون إلى أمور بعيدة معقدة ، تعميهم عن حقيقة أرواحهم ، وتصرفهم إلى ألوان من البحث العقيم .

(3732) نظر الانسان إلى ما بعد عنه يعميه عما هو قريب منه .
يسعى الانسان إلى معرفة إلى بالعقل والأدلة العقلية ، مع أن القلب هو خير وسيلة لمعرفة الله ، وأقرب طريق اليه . فمن الناس من يترك السبيل القريب (سبيل القلب) ، ويلجأ إلى السبيل البعيد (سبيل العقل والأدلة العقلية) .
وهذه الغفلة عن القلب وجلاله وجماله شبيهة بغفلة انسان ينام في قصر ، فلا يشعر بما حوله من رونق وبهاء .

(3733) أوضح الشاعر هنا ما كان يقصده بالنظر إلى البعيد .
ويتجلى ذلك عنده في الولع بدقيق الكلام ، والتعشق لحل المشكلات الكلامية ، عن طريق الجدل والبحث النظري .

(3734 - 3735) هذا النظر العقلي ، المجرد من الشعور والاحساس الروحي ، يزيد الأمور تعقيدا ، ويزيد الانسان سعيا إلى الايضاح ، فلا يكاد يدركه ، ويأخذه في وضع القواعد التي يظنها موصلة إلى الحل المنشود ، فكأنما هو طائر يشغل نفسه بشباك تأسره ، يحل عقدها ، ثم يعود إلى ربطها ، ظانا أنه بذلك يصبح مكتمل البراعة .

(3736 - 3737) من شغل نفسه بالجدل العقلي العقيم ، وحرم نفسه من جمال الروح ، وتأمل مباهجها ، شبيه بذلك الطائر الذي شغل

نفسه بحل عقد الشباك ، وإعادة ربطها ، فحُرم بذلك من الغياض والمروج ، وضاع عمره في معالجة العقد . فمثل هذا الطائر العنيد يتكسر جناحاه من معاناة العقد ، وهو في حقيقة الأمر لا يصل إلى شئ من مراده ، لأن الشباك تبقى موجودة برغم جهوده . وهكذا حال من أضاع حياته في الجدل والنظر الخاوي من الشعور ، فهو يعيش أسير الجدل ، ولا يتحقق له حل المعضلات .

(3738 - 3739) أقلل من هذا الصراع الذي لا جدوى منه ، وإضاعة الجهد في أمور لا يتحقق من روائها شئ سوى العناء . فهذا الصراع المرير ، المبنى على الحيلة والذكاء ، لم يق الانسان مما يخشاه من العوارض والمخدورات . ولقد أقعده انشغاله بمثل هذا الصراع عن التحليق في آفاق الروح الفساح .

(3740) ان الدهاء والحذر والعمل على مغالبة القضاء ، كلها لا تمكن المرء من الخلاص مما قدر له . ويستهشد الشاعر على ذلك بقوله تعالى :
“ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص “ .
(50 : 36) .
ومما هو جدير بالانتباه هنا أن الشاعر لا يدعو إلى الاستسلام وترك الجهد ، وانما هو يدعو إلى احساس الروح بسلطان الخالق ، وابتعاد الانسان عن الظن بأن في وسعه أن يصنع لفنسه شيئا لا يريده له الله . وهذا هو التوكل بمعناه الروحي ، الذي عبر عنه ابن عربى بقوله :
“ انه اعتقاد القلب على الله ، مع عدم الاضطراب عند فقد الأسباب الموضوعة في العالم . (الفتوحات المكية ، ج 2 ، 264) .

(3743) “ أيها المتنازعون المتصارعون كالطيور التي تصطرح على القوت . ليتكم استمعتم إلى نداء الله بأرواحكم ، كما يستع الباز إلى دعاء المليك حين يقرع له الطبل ، اذن لا ستجبتم جميعا لهذا النداء ، وزوال كل ما بينكم من أسباب الفرقة والصراع “ .

(3746) غفلة الروح عن المحبة الإلهية تجعلها عمياء بعيدة عن النضح ، حالها كحال الطير التي غفلت عن معرفة سليمان .

(3747) الغفلة عن المحبة الإلهية تجعل أصحابها على خلاف مع العارفين . يعيش هؤلاء بأرواحهمفيعالم الروح ، على حين أن الغافلين من أسارى الحس يتعلقون بعالم مآله إلى الخراب . وهؤلاء الحسيون في عداوتهم للعارفين شبيهون بالبوم التي تتعلق بالخراب ، وتظهر العداء للبيزان المحلقة في آفاق السماء .

(3748) في هذا البيت ايضاح للرمز في الأبيات السابقة عليه .

(3749) جماعة العارفين الذين استناروا بالمحبة الإلهية ، كيف يقترفون إساءة إلى مخلوق ؟

(3751) قصة سليمان وبليقس والهدهد مذكورة في القرآن الكريم . (سورة النمل ، 27 : 20 - 23) . والهدهد هو الذي جاء إلى سليمان بنبأ بلقيس .
وقد أصبح الهدهد رمزا للعارف في الشعر الصوفي ويتجلى ذلك في الدور الذي أسنده اليه الشاعر فريد الدين العطار في منظومته الصوفية “ منطق الطير “ ، حيث جعله قائد الطير في بحثها عن العنقاء .

(3752) ان أدنى أهل العرفان منزلة - وهو من يكون بينهم كالغراب بين الطير - يكون بريئا من الزيغ والضلال .

(3755) من هؤلاء العارفين من هو سعيد كالبلبل في الحديقة ، لكن سعادته تكون مستمدةمن حديقة باطنه التي تفتحت فيها الورد فحديثه المبتهج افصاح عن الباطن ، وليس انفعالا بالظاهر .

(3756) “ البيغاء “ في الشعر الصوفي كثيرا ما تستخدم رمزا لمعنى رفيع ، هو الروح الذي أفنى ذاته في الخالق ، فأصبح صدى للإرادة الإلهية ، يفصح عنها افصاحا أمينا ، كما تفعل البيغاء بما تسمعه من الأصوات . والعارف الذي وصل إلى تلك المكانة ينطلق في التعبير عن

احساسه الباطني ، بدون حاجة إلى ما يغريه بذلك ، كما يكون من اغراء الببغاء بالسكر . فمثل ذلك الروح يكون مفعما باللذة والبهجة الخالدة .

(3757) سيقان الطواويس تعد مثالا للقبح . ومع ذلك فسيقان هذه الطواويس التي تنتمى إلى العرفان ، أبهى من أجنحة طواويس الدنيا .
ومعنى ذلك أن أدنى ما عند العارفين يفوق في بهائه أسمى ما عند أهل الحس .

(3758) منطق الطيور الدنيوية ليس الا صدى ومحاكاة ، أما منطق طيور سليمان فمن نوع فريد ، لأنه من الهام الله . و “ الطيور الملكية “ فرمز للعارفين .

(3759) أنى لك أن تعرف نداء الروح ، إذا كنت لم تنعم بلحظة واحدة من الأنس بالخالق .
(3760) ان العارف تتجاوز دعوته حدود المكان ، ولا تبقى أسيرة لمشرق ولا لمغرب . وأسمى لون من العرفان رسالات الأنبياء .

(3761) مثل هذا العارف لا تحجبه آدميته عن الوصول إلى الخالق . فهو بين الخلق ، وروحه مع الخالق ، في الوقت ذاته .

(3762) “ سبيل سليمان “ رمز سبيل الله . وما دام سبيل الله هو الطريق إلى النور واليقين ، فمن تخلى عن هذا الطريق فهو عاشق للكفر والجهل والضلال ، وهو في عشق الظلمة شبيه بالخفاش .

(3764) “ لو خطوت نحن الله خطوة واحدة لغدا سلوكك هو السلوك المثالي الذي يقاس عليه “ .

(3766 - 3787) في هذه الأبيات تمثيل رمزى للأصل الروحي للانسان ، والكيان المادي الذي يحجب عنه ادراك حقيقة هذا الأصل .
وقد رمز الشاعر للعالم الروحي بالبحر ، ولعالم الدنيا بالبر . والانسان طائر بحرى ، تربى في البر فنسى أصله . والشاعر يدعو الانسان إلى

التسامى إلى أصله ، بعد التعرف على حقيقة ذاته .
(3767) “ انك من أصل روحي ، لكن واقعك المادي يربطك بالمادة ويجعلك متعلقا بها “ .
(3768 - 3769) النزعة الروحية في الانسان مصدرها أصله الروحي . أما النزعة المادية فمصدرها ذلك العالم الحسيّ الذي غذاه وربى جسده .

(3771) يريد “ بالأم “ هنا المربية ، وهي الأم الحسية ، التي تصرف الانسان عن التطلع إلى أصله الروحي .
(3772) الانسان في حقيقته قادر على الوصول إلى عالم الروح ، برغم ارتباطه الجسدي بعالم الحس .

(3773 - 3774) فسر الشاعر قوله تعالى : “ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر “ (الاسراء ، 17 : 70) ، على أنه رمز إلى أن الله كرّم الانسان بأن جعله منتميا إلى عالمي الروح والحس في وقت واحد .

(3775) الجمع بين الروح والحس هو السرّ في تفضيل الانسان على كل من الملائكة ، وهي كائنات روحية ، والحيوانات ، وهي كائنات حسية .

(3777 - 3778) الأنبياء والرسل هم المثل العليا للكمال الانساني .
وهؤلاء يعيشون في الأرض بهيكل ترابيّ ، وتدور أرواحهم في فلك روحي .

(3779) قال جلال الدين في ديوان شمس تبريز :خلق جو مرغابيان زاده ز درياى جان * كي كند اينجا مقام مرغ كزين بحر خاست(الخلق طيور مائية ، ولدت من بحر الروح ، فيكف يقيم هنا طائر انطلق من ذلك البحر) .

(3782) ان الله حاضر أمام الجيمع ، لكن غيرته تحجب بصيرة من يتعلقون بسواه . فالله لا يتجلى الا لمن وهب القلب كله للخالق .
(3783 - 3786) الجهل والغفلة والفضول ، كلها صفات تصرف

الانسان عن الله ، وتجعله يغفل عن نبع الوجود كله ، ويتعلق ببعض الأسباب ، غافلا عن مسبب الأسباب .
(3784) العقل الذي لا يستطيع أن يتخطى الظاهر المحسوس يبقى متعلقا بهذا الظاهر ، غافلا عما استتر وراءه من المعنى .

(3785) المتعلق بالحس لا يستطيع تصور لذة خارج العالم الحسى .
ولهذا فان نفسه تبقى متعلقة بما يحيط به ، عاجزة عن التحرر منه .

(3788) بدأ الشاعر هنا رواية قصة زاهد رآه الحجاج في الصحراء ، يصلى غير عابىء بالقيظ ، فلما عجبوا من أمره وجدوا الماء يقطر من يديه .
ولما سألوه عن سرّ ذلك دعا ربه فأمطرت السماء مطرا غزيرا ، وشرب الحجاج وملؤوا قربهم . ومثل هذا النوع من الكرامات يرد في تراجم أقطاب الصوفية . ومن أمثلة ذلك ما يُروى عن إبراهيم بن أدهم في وصف انصرافه عن الدنيا . قال :
“ توجهت إلى مكة ، فبينا أنا في البادية ، إذا برجل يسير ، وليس معه اناء ولا زاد ، فلما أمسى وصلى المغرب ، حرك شفتيه بكلام لم أفهمه ، فإذا أنا باناء فيه طعام ، واناء فيه شراب ، فأكلت وشربت ، وكنت معه على هذا أياما ، وعلمني (اسم الله الأعظم) ثم غاب عنى وبقيت وحدى “ 1 “ . . . “ أما قول الشاعر : “ وكان مستغرقا في العبادة كأهل عبادان “ فيشير إلى ما يروى عن عبادان (الجزيرة الواقعة في دلتا شط العرب) من أنها كانت موضعا “ فيه قوم مقيمون للعبادة والانقطاع ، وكانوا قديما في وجه الثغر ، ويسمى الموضع بذلك “ . (ياقوت : معجم البلدان ، مادة عبادان ، ج 4 ، ص 74) .

تمت شروح الكتاب الثاني من المثنوي

....
(1) السلمى : طبقات الصوفية ، ص 30 .

*

تم بحمد الله تعالى رب العالمين
عبدالله المسافر بالله

.